

واجتهاد السلف فيها

تأليف

أبو محمد صلاح الدين عبد الموجود

دار ابن رجب



العبادة

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٣٢٥١
الترقيم الدولى : 7 - 051 - 390 - 977

دار ابن رجب طبع. نشر. توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢
المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الحَمْدَ للهِ؛ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِالله من شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ الله فَلاَ مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ من نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا الله الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله ، وَخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَة.

وبَعْدُ:

فَإِنَّ المتغيراتِ التي حَدَثت للأمةِ من تَفْرِيطٍ وتقصيرٍ في حَقِّ الله -عزَّ وجَلَّ- لتدعو إلى الحُزْنِ والأسى ؛ بعد أنْ كان شبابها رُهبانًا بالليلِ فُرسانًا بالنَّهار ؛ تحولوا إلى شبابٍ لعبٍ ولهوٍ وبطَالةٍ، ولو قَارنَّا حالنا بحالِ من سبقنا ؛ لوجدنا بَوْنًا شاسعًا في كُلِّ

جزئيةٍ من الدِّين، حتى الصَّلاةِ التي هي آخر معاقلِ الإسلامِ ضُيِّعت - فإلى الله المشتكى - ولذلك فنحن في حاجةٍ إلى نظرةٍ شاملةٍ لحياتنا ؛ وأن نحصي كم منها لله ؛ وكم لغير الله، فَإِنَّ العبدَ لا ينتسب للعبوديةِ إلا بتحقيقها على الدَّوام ؛ في جميعِ الأماكنِ والأزمان، في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ.

ولقد تَنوَّعَت العباداتُ على القلبِ والجوارحِ ؛ حتى أصبحَ على كلِّ عُضوٍ من أعضاءِ العبد عبادةٌ، فإذا استقام ذلك كُله صَلُحت عبادته، وسَكَنَتْ سريرته، وخشعت جوارحُه لله - سبحانه وتعالى- وقد وَقَعَ القُصُورُ في العبادةِ بسببِ انقطاعِ الصِّلةِ بين أكثرِ العبادِ وكتابِ الله وسنةِ رسوله ﷺ ؛ وحالِ السَّلف - رضي الله عنهم-.

فالتلفظُ بالشَّهادتين عِبادة، والدَّلالةُ على الله عبادة، والصَّلاةُ عبادةٌ، والصيامُ عبادةٌ، والزّكاة عبادةٌ، والحجُّ عبادةٌ، والأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ عبادةٌ، واللُّقمةُ في فيِّ الزوجةِ عبادةٌ، ومُداعبتُها عِبادة، وأنت تقضي شهوتك عبادة، ومحبةُ المسلمين عبادة، وبُغضُ الكافرين عبادة، والشُّكرُ على النِّعمةِ عبادة، والصبرُ على المصيبةِ عبادة.

فلا بد أن تُظهرَ عُبوديتك في بيعِك وشرائِك، وطعامِك وشرابِك، وفي سماعِك ونظراتِك وحركاتِك وسكناتِك.

لقد عظم الخللُ في مفهومِ العبادة ؛ حتى ترى الرَّجلَ في الصفِّ الأولِ من الصَّلاة؛ ثم تنظر إلى بيعهِ وشرائهِ، وبيته وزوجتهِ وأبنائهِ وبناته، ترى الخللَ العظيمَ، والهوةَ السَّحيقةَ بين السَّلف والخلفِ.

إن في سِيرِ من سبقنا من الصحابة ومَنْ بعدهم من سلف الأمة وعُبَّادها ؛ لعبرةً وعِظةً لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمع وهو شهيد.

حتى نرى أثر العبادةِ في كُلِّ شيء في حياتهم، بل ربما تكون العبادةُ سببًا في فتح بلاد المسلمين ؛ كما وقع في فتح جُور - وهي مدينةٌ بفارس -أنها غُزيت عدة سنين، فلم يَقدر على فتحها أحدٌ، حتى فتحها عبدالله بن عامر، وكان سبب فتحها أن بعض

المسلمين قام ليلة يصلي ؛ وإلى جانبه جراب فيه خبز ولحم، فجاء كَلْبٌ وجرَّهُ، وعَدا به حتى دخل المدينةَ من مدخلٍ لها خَفي، فألَظَّ المسلمون بذلك المدخل ؛ حتى دخلوها منه، وفتحوها عنوة(١) .اهـ.

وهذا الكتاب مختصرٌ لطيف جمعت فيه العبادةَ ومعناها، ووسائلَ تحقيقها، وانتقيت قطوفه من بساتينِ العلماءِ، ورتبته وهذبته وجعلته مختصرًا نافعًا للأريبِ وتبصرةً وتذكرةً للبيب، وذَكَرْتُ فيه صُوَرًا من أحوالِ السَّلف وعباداتهم واجتهادِهم فيها، ولم أدقق بقواعد الرِّوايةِ في التَّراجم والسِّير، مع الأخذ في الاعتبار أني لم أنقل إلا ما اعتبره العلماء المحققون كالذهبي وغيره، وما ليس فيه نكارة – والله أعلم.

وأسميته «**العِبَادَةُ وَاجْتِهَادُ السَّلف فِيها**» وقد أكثرت من النَّقُولِ عن الأَوائلِ سالكًا طريقَ السَّلف في عِبَارَاتِهِم ، وأنسج الكلامَ على مِنْوَالِهِم ، مُتَطَفِّلًا عليهم ، لعلِّي أن أُنظمَ في سِلْكِهِم، وأدخلَ في عِدَادِهِم ، وأُحْشَرَ في زُمْرَتِهِم: ﴿مَعَ الَّذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقا﴾ [النساء:٦٩] ولما رَأَيْتُ النُّفوسَ مَائلةً إلى الاختصارِ، آثرته على التطويلِ والإِسْهَابِ ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨] وهو حَسْبُنا ونعمَ الوكيلُ.

واللهَ أسأل أن ينفعني به، وأن يرزقني الإخلاصَ في السِّرِّ والعلنِ، ولمن قرأه أو سمعه، أو أعان على نشرِهِ – اللهم آمين –.

اعتذار : وألتَمِسُ منك أَخِي عُذْرًا ؛ أَنْ وَجَدْتَ في رسالتي بعض المصطلحات المنقولة عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم كـ [المقامات، والعارف، والسالك، والحال...] وإن كانت في الأصل مصطلحات صوفية، قد استعملها أربابها

(١) معجم البلدان (٢ / ١٨١).

لمعانٍ غيرِ شرعية، ولكنها سيقت هنا بطريقةٍ شرعيةٍ، ووجهةٍ ربانيةٍ، ومعانٍ سُنّيَّةٍ، لِتُحَفِّزَ جميعَ العبادِ على سُرْعَةِ السَّيْرِ إلى رَبِّ العبادِ، إذ السَّلف لم يُنْكِروا من الألفاظ إلا ما وُضِعَ لمعنى ؛ لا يوافق ما كان عليه السَّلف ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ والله المستعان.

كتبه

صلاح الدين علي عبد الموجود

Salahmera @ salahmera.com

المقدمة

الحمدُ لله مدبِّر الليالي والأيام ، ومُصَرِّف الشُّهُورِ والأعوام ، الملكِ القدُّوس السَّلام ، المتفرِّدِ بالعظمةِ والبقاءِ والدَّوام ، المتَنزِّهِ عن النقائصِ ومشابهَةِ الأنام ، يَرَى ما في داخلِ العروقِ وبواطنِ العظام ، ويَسمَعُ خَفِيَّ الصَّوْتِ ولَطيفَ الكلام ، إلهٌ رحيمٌ كثيرُ الإنعَام ، وربٌّ قَدِيرٌ شَديدُ الانتقام ، قَدَّر الأُمُورَ فأجْراها على أحسنِ نِظَام ، وشَرَع الشَّرَائِعَ فأحْكمَها أيَّما إحْكام!!

بقدرته تهبُّ الرِّياحُ ويَسِيرُ الْغَمَام ، وبحكمتهِ ورحمتهِ تتعاقبُ الليالي والأيَّام ، أحمدُهُ على جليلِ الصِّفاتِ وجميلِ الإنعام ، وأَشْكُرُهُ شُكرَ منْ طلبَ المزيدَ وَرَام ، وأَشْهدُ أن لا إله إلاَّ الله الَّذِي لا تحيطُ به العقولُ والأوهام ، وأَشْهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أفضَلُ الأنام - صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا -.

أما بعد:

الغاية من خلق العباد

فَإِنَّ الغايةَ التي خلقَ الله الإنسَ والجنَّ لها، وبعثَ جميعَ الرسلِ يدعون إليها: هي عبادته ؛ كما قَالَ الله تَعَالَى:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦]، قَالَ ابن كثير رحمه الله: وَمَعْنى الآية أنَّه تَبَارَكَ وتعالى خَلَقَ العِبادَ ليعبدوه وحده لا شريك له، فَمَنْ أطاعَهُ جَازَاهُ أَتمَّ الجزاء، ومن عَصَاهُ عَذَّبَهُ أَشَدَّ العَذابِ، وأخبرَ أَنَّهُ غَيْرُ محتاجٍ إليهم بل هم الفُقراء.اهـ.

وهذه العِبادة هي المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عمّا سواه، وذلك متوقف على معرفة العبد لنفسه ؛ ومعرفته لربه، فمعرفة العبد لنفسه ؛ وأنه مهما بلغ به الجاه والسُّلطان والمال ؛ فهو عاجز ضعيف، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وكُلَّما عَلِم من نفسه ذلك تصاغرت نُفْسُهُ أَمَامَهُ، وذهبَ كِبْرياؤُهُ وعَظُمَ افتقاره، وكُلَّما عَلِم عن ربه وخالقه ـ الذي خَلَقَهُ فَسَوّاه ـ عَظُمَ ذلك الافتِقارُ وزادَ تذللًا بين يدي ربه ومولاه، وانقطعَ رَجاؤُهُ عمن سِواه، وكُلَّما عَلِم من أسمائهِ وصفاتِهِ انخلعَ إجلالًا لربِّهِ وتعظيمًا لمقامِهِ، وهيبةً لِسَطوتِهِ وجَبروتِهِ وسلطانِهِ، وعَلِمَ أَنَّهُ بغيرِ الله لا شيء، وأنَّ أَقلَّ ما يقولُ عَنْ نفسِهِ -متحسرًا-: وا لهفاه!! مضى العابدون والصّالحون، وقُطِعَ بي.

وَعَلِمَ أَنَّهُ لن يَنْفَكَّ عَنْ عبادتِهِ طَرْفَةَ عَينٍ، وَأَنَّهُ إِنْ حَدَثَ ذلك هَلَكَ وعَطَب، وكُلَّما تبين له من آياتِ الله تجرَّد قَلْبُهُ من كُلِّ حُظُوظِ النَّفسِ وأهوائِها ؛ وظَهَرَ أثر العِبادَةِ على كُلِّ ذَرَّةٍ فيه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

فإنَّ لله عَلَى عِبَادِهِ عُبُودِيَّةً في جميعِ الأَماكِنِ والأَزْمانِ، وعُبُودِيةً في السَّراءِ والضَّرّاءِ، وله عليهم عبودية فيما يُحِبُّ العبدُ ويَكْره.

وأَكْثرُ الخلقِ قد يُعْطُون العُبوديةَ في مكانٍ دُونَ مَكان، أو زَمانٍ دُونَ زمان، يُعطون في السَّرّاء ؛ فإذا ابتُلُوا بالضَّرّاءِ تعطَّلوا، ويُعْطُون فيما يُحبُّون ؛ فإذا ابْتُلوا بما يَكْرَهُون مَنَعُوا، وَمِنْ هُنَا تتفاوتُ مَراتبُ العِباد ؛ وبحسبهِ كانت مَنَازِلهم عند الله تَعَالَى.

ولذلك يجبُ أن يكون العبدُ ممن إذا أَنْعَمَ الله عَليهِ شَكر، وإذا ابتلاهُ صَبَرَ، وإذا أَذْنَبَ استغفرَ، إنْ كَانَ بأرضِ الطّاعَةِ حمدَ وشَكَرَ وَكَانَ مِعْوَانًا على الخير، وإن كان بأرضِ المعصيةِ أَمَرَ ونهى وغَضِبَ وزَجَر.

فإنَّ هذه الأمور هي عُنْوانُ سَعَادةِ العبدِ وعَلامةُ فلاحهِ في دُنْيَاه وأُخراه.

حَالاتُ العبدِ في الدنيا

فهناك حالات لا ينفك عبدٌ عنها أبدًا، فإنَّ العبدَ دائمُ التقلبِ بين نِعَمٍ ومحنٍ وذنوب.

فالأول: نِعَمٌ من الله تَعَالَى تترادف عليه فَقَيْدُها الشُّكر، وهذا لا بد فيها من الاعترافِ بها باطِنًا، والتحدثِ بها ظاهرًا، وتَصْرِيفِها في مرضاةِ وليها ومُسْدِيها ومُعْطِيها، فإذا فَعَلَ ذلك فقد شَكَرَهَا مع تقصيرِهِ في شُكرها.

الثاني: مِحَنٌ من الله تَعَالَى يَبْتَلِيهِ بها، فَفَرْضُهُ فيها الصَّبْرُ والتَّسَلِّي.

والصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَنِ التَّسَخُّطِ بالمقدورِ، وحَبْسُ اللِّسان عن الشَّكوى، وحَبْسُ الجوارحِ عن المعصيةِ كاللَّطْمِ وشق الثيابِ ونتفِ الشَّعْرِ ونحوه.

الثالث: ذُنُوبٌ تَتَرَادَفُ على العبدِ فَلا بُدَّ أَنْ يتوبَ مِنْهَا، ويستغفر الله عز وجل، ولا بُدَّ أن يُحْدِثَ له ذَلِكَ نَدَمًا وانكسارًا و ذِلَّةً، ويَرَى ذَنْبَهُ أَمَامَهُ لا يَغِيبُ عَنْهُ فَيُحْدِثُ له افتقارًا ومَسْكَنَةً.

فمدارُ الصبرِ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ الثلاثة: فإذا قامَ به العبدُ كما ينبغي انقلبت المحنةُ في حَقِّهِ مِنْحَة، واستحالت البلِيَّةُ عَطِيَّةً، وصارَ المكروهُ محبوبًا، فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليُهلكه ؛ وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته له سبحانه وتعالى.

ولذلك ابتلى الله العباد بتنوع العبادات من واجبات ومنهيات تخرج عن الإِلْفِ والعَاداتِ، ليرفع الله من سابق فيها واجتهد أعلى المنازلِ والدرجات.

ففيها تتفاوت مراتب العباد، وبحسب اجتهادهم كانت منازلهم عند الله تَعَالَى، فالوضوء بالماء الباردِ في شدةِ الحرِّ عبودية، والوضوءُ بالماء البارد في شدة البرد عبودية، ومباشرةُ الزَّوجةِ الحسناءِ التي يحبها عُبودية، والنفقةُ عليها وعلى عياله ونفسه عُبودية، وتركه المعصية التي اشتدت دواعي نفسه إليها من غير خوف من النَّاس عبودية، ونفقته في الضَّراء عُبودية ؛ ولكن فرق عظيم بين العبوديتين، فمن كان عبدًا لله في الحالتين قائمًا

بحقه في المكروه والمحبوب ـ فذلك الذي حقق العبودية كما يُحِبُّ الله ويرضى، فإنهم في حفظه وتحت كنفه ورعايته سبحانه.

فلن يسيرَ العبدُ إلى الله إلا بالعبادة، ولن يهنأ بسعادة الدّارين إلا بالعبادة:

ولذلك كان التوحيد الذي خاطب به الأنبياءُ جميعًا أقوامَهُم هو: توحيد العبادة – توحيد القصد والطلب – وهو اتجاه العَبْدِ بقلبِهِ، وأقوالِهِ، وأفعالِهِ لله سبحانه وتعالى، فالحركاتُ والسَّكَناتُ، والنَّفَسُ والآهاتُ، واللَّحظاتُ والخطراتُ، لا بد أن تكون لله، بل يجب عليك أن تجعل فيك كلَّ ذَرَّةٍ لله سبحانه وتعالى، فلن تُقيم العبادةَ كاملةً إلا إذا عبَّدت فيك كل جارحة وخشَّعت فيك كُلَّ خَلِيَّة.

وكان النَّبيّ ﷺ يقول في ركوعه: «**اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي**» [1].

فلله على العبد في كلِّ عُضوٍ من أعضائه أمرٌ، وله عليه فيه نهيٌ، وله فيه نِعمةٌ به، وله مَنفعةٌ ولَذَّةٌ، فإن قام لله في ذلك العُضو بأمره واجتنب فيه نهيه ـ فقد أدى شُكْرَ نِعْمَتِــهِ عليه فيه، وسَعَى في تَكْمِيلِ انتفاعه ولذته به، وإن عطَّل أمر الله ونهيه فيه؛ عطَّلـه الله من انْتِفَاعِهِ بذلك العضو، وجعله من أكبرِ أسبابِ أَلَمِهِ ومَضَرَّتِهِ.

وله عليه في كُلِّ وقتٍ من أَوْقَاتِهِ عُبُودِية تُقَدِّمُهُ إليه، وَتُقَرِّبُهُ منه، فإن شَغَلَ وَقْتَهُ بِعُبُودِيَّـةِ الوقتِ تَقَـدَّم إلى رَبِّهِ، وإن شغله بهوى رُوحهِ وبطالةٍ بلا عملٍ ؛ تأخر سَيْرُهُ إلى الله عز وجل، فالعبد لا يزال في تَقَدُّمٍ أَوْ تَأَخُّرٍ، و لا وقوف في الطَّرِيقِ أبدًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [سورة المدثر: ٣٧].

فَسِرُّ الخلقِ وَمَبْدَؤُهُ ومنتهاهُ يعود إلى العبادة؛ تأمل قول الله تَعَالَى:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

فالسَّبَبُ وَالعِلَّةُ من خَلْقِ الجن والإنسِ هي إِفْرَادُ الله بالعبادة.

---

(١) رواه مسلم (٧٧١) من حديث علي.

دعوة الأنبياء واحدة

ولذلك نرى أن جميعَ الأنبياءِ جاءوا بدعوةٍ واحدةٍ: توحيد العبادةِ لله سبحانه وتعالى، كما صحَّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**».(١)

أي: أنَّهم اشتركوا في الأصولِ، واختلفوا في الفروع.

فجميعُ الأنبياءِ دعوا قومهم بدعوةِ توحيد العبادة بلا استثناء:

كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥].

وكما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أن اعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [سورة النحل: ٣٦].

ونرى هذا واضحًا في خطابِ كُلِّ نبي لقومِهِ، فهذا نوح عليه السلام كما قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ من إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الأعراف: ٥٩].

وكما قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ هود: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ من إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٦٥].

وكما قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ صالح: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ من إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [سورة الأعراف: ٧٣].

وكما قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ شعيب: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ من إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [سورة الأعراف: ٨٥].

وكذلك إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا الله وَاتَّقُوهُ

---

(١) علّات: إخوة لأب. رواه البخاري (٣٤٤٣).

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ الله أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذين تَعْبُدُونَ من دُونِ الله لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ الله الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ١٦ - ١٧].

بل نرى صَاحِبَ يس يجهر بعبوديته لله عز وجل أمامَ طغاةِ قومه الَّذين خالفوا الرسل كما قَالَ عَنْهُ سبحانه: ﴿ وَمَا لِي لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يـــس: ٢٢].

ولذلك كان لزامًا على العبد أن يَقْصُدَ رَبَّهُ بكُلِّ حركاته وسكناته: ويوحِّده في كُلِّ أمرٍ ونهي، فلا تكون عبادة إلا بصفة القصد والطلب لله سبحانه وتعالى، ولذلك لا يدخل العبد الإسلام إلا بعد قوله: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

والشهادةُ هي الإخبار بما شاهدَ بخلاف الغيب، ولذلك قَالَ سُبحانه عن نفسه: ﴿عَالِم الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ المتَعَالِ﴾ [سورة الرعد: ٩] فالشهادة هي الرؤيا الواضحة التي لا لبس فيها ولا شبهة، ويُقصد بها رؤية القلب قبل رؤية الجوارح.

فتوحيد العبادة هو تَوْحِيدُ القَصْدِ والطَّلَبِ، وهو توحيد الألوهية، أي أنَّه سبحانه وحده الإله المعبود المحبوب ؛ الذي لا تصلح العبادة والذُّل والخضوع والحب إلا له.

وقد وصف سبحانه صفوة خلقه من أنبيائه وملائكته بالعبادة فقال تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٩-٢٠].

*** وإِنْ أَرَدت أن تُقرِّبَ إلى ذهنك قدر من يعبد الله من ملائكته ؛ فتخيل هذا العدد ممن يدخل كل يوم إلى البيتِ المعْمُور.**

عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ المعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ المعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ،**

إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ».(١)

إن شئت فتخيل! كم من ملكٍ في السَّماوات على عبادة لله لا يتحول عنها أبدًا.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لله».(٢)

وقال تَعَالَى: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ من الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ من الْغَافِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٥].

وقد ذمَّ سبحانه المستكبرين عنها بقوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [سورة غافر: ٦٠].

و قد بين سبحانه أن الشَّيطانَ ليس له على عباده سبيل، فقال تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ من الْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٤١-٤٢].

وقد وصف سبحانه عيسى ـ الذي ادعيت فيه الألوهيةُ والبنوةُ ـ بأنه عبدٌ، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [سورة الزخرف: ٥٩].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤).

(٢) حسن: رواه أحمد (٥/ ١٧٣) والترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠).

صِفاتُ عِبادِ الرَّحمن

فعباد الرحمن هم أولياؤه الَّذين خلَّصهم الله من كُلِّ ذرةِ شِرْكٍ وَشُبْهَةِ رياءٍ: وقرَّبهم إليه، ونوَّر قلوبهم بهدايته ومحبته، وقد وصفهم سبحانه وتعالى بصفات:

فقال تَعَالَى واصفًا إياهم: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذين يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى الله مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا من أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [سورة الفرقان: ٦٣-٧٦].

فقد وصفهم سبحانه وتعالى بصفاتٍ منها:

١- يمشُون على الأرضِ ساكنين متواضعين لله وللخلق.

٢- إذا خاطبهم الجاهلون بالأذى ؛ يَسْلَمون في رَدِّهم من الإثم والجهلِ.

٣- يُكثرون من صلاةِ اللَّيلِ مخلصين فيها لربهم متذللين له.

٤- يستغيثون بربهم من عذابِ جهنم.

٥- ينفقون الواجب والمستحب بلا تبذير ولا بخلٍ وشُحٍّ.

٦- يوحدون الله عز وجل مخلصين له الدِّين معرضين عمن سواه.

٧- ولا يقتلون نفسًا مسلمةً ولا كافرًا معاهدًا.

٨- يحفظون فروجهم إلا على ما أحلَّ الله لهم.

٩- ولا يشهدون الزور، ولا يحضرون مجالس الزُّور: كالغيبة والنميمة، والسَّبِّ والخوضِ في آيات الله، والغناء والموسيقى، وشرب الخمر وغير ذلك.

١٠- وإذا مرُّوا مُصادفةً بالكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة منه ؛ نزَّهوا أسماعهم، وأكرموا أنفسهم عن هذه المجالس.

١١- دعاؤهم لذرياتهم بالصَّلاح، وأن تقرَّ بهم الأعين ؛ لأن النَّفْعَ يعود عليهم.

١٢- الدُّعاءُ بالوصول لأعلى الدرجات، وهي الإمامة في الدِّين والقدوة للمتقين.

ولقد تمثلت هذه الصِّفات في الجيل الأول فكانوا بحق هم عباد الرحمن، وإليك هذه القصة عن أبي سعيد المقبري قَالَ: لما طُعن أبو عبيدة[١] قَالَ: يا معاذ صَلِّ بالنَّاسِ، فصلَّى معاذٌ بالنَّاسِ، ثم مات أبو عبيدة بن الجراح فقام معاذ في النَّاس فقال: يا أيها النَّاس توبوا إلى الله من ذنوبكم توبةً نصوحًا، فإن عبد الله لا يلقى الله تائبًا من ذنبه إلا كان حقًا على الله أن يغفرَ له، ثم قَالَ: إنكم أيها النَّاس قد فُجعتم برجلٍ والله ما أزعم أني رأيت من عباد الله عبدًا قط ؛ أَقَلَّ غَمْزًا، ولا أَبَرَّ صدرًا، ولا أبعد غائلةً، ولا أَشَدَّ حبًا للعاقبةِ، ولا أنصح للعامةِ منه، فترحموا عليه -رحمه الله- ثم أصْحِروا[٢] للصلاة عليه، فوالله لا يلي عليكم مثله أبدًا.

فاجتمع النَّاس وأُخرج أبو عبيدة، وتقدَّمَ معاذٌ فصلَّى عليه ؛ حتى إذا أُتِي به قبره ؛ دخل قبره معاذ بن جبل وعمرو بن العاص والضَّحاك بن قيس، فلمّا وضعوه في لحده وخرجوا فشنوا عليه التراب، فقال معاذُ بن جبل: يا أبا عبيدة لأُثْنِيَنَّ عليك ولا أقولُ

(١) أي أصابه مرض الطاعون.

(٢) أخرجوا للصحراء.

باطلًا أخافُ أن يلحقني بها من الله مَقْتٌ [١]، كُنْتَ والله ما عَلِمتُ من الذَّاكرين الله كثيرًا، ومن الَّذين يمشون على الأرض هونًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، ومن الَّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما، وكنت والله من المخْبِتِين المتواضعين ؛ الذين يرحمون اليتيم والمسكين، ويبغضون الخائنين المتكبرين.[٢]

ولهذا كانت أشرف أحوالِ العبدِ ومقاماته؛ في العبودية. فلا منزل له أشرف منها، وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه، وأحبهم إليه وهو رسوله محمد ـ بالعبودية في أشرف مقاماته ؛ وهو مقام الدعوةِ إليه، ومقام التَّحدي بالنبوة ومقام الإسراء، فقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُ لما قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [سورة الجن:١٩].

وقال تَعَالَى:﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ من مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ من دُونِ الله إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٣].

وقال تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا من المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ من آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [سورة الإسراء: ١].

---

(١) بُغْض.

(٢) رواه الحاكم "المستدرك" (٣/ ٢٦٤).

سَفَاهَةُ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ

وقد سفَّه القرآنُ من عَبَدَ غير الله، إذ يستحيل على عاقلٍ يزعم أن الله خالقٌ ورازقٌ ومالكٌ ومدبرٌ لهذا الكون، ثم يتوجه لغيره بالعبادةِ قَصْدًا وطلبًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِين تَدْعُونَ من دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٤].

فبيَّن سبحانه وتعالى حال هؤلاء الَّذين يعبدون من دون الله، وأنهم عبدوا مخلوقًا مثلهم لا يملك إجابة الدعاء، بل بين سبحانه أنهم لا يملكون كشف الضُّرِّ ولا تغيير الحال، بل إنَّ من الَّذين عُبدوا من دون الله ؛ يتقربون إلى الله، ويَسْتَذِلُّون بين يديه، ويخافون عذابه، ويرجون رحمته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذين زَعَمْتُمْ من دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا (٥٦) أُوْلَئِكَ الَّذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٥٦-٥٧].

فَمَن أَحَقُّ بِالعِبَادَةِ وَالقُرْبَةِ وَالطَّاعَةِ؟!..

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ من الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ من هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ من الله من وَاقٍ﴾ [سورة الرعد: ٣٣-٣٤].

وقال تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ الله تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ من نِعْمَةٍ فَمِن الله ثُمَّ إِذَا مَسَّكُم الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: ٥٢-٥٥].

وقال تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ من دُونِ الله مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا من السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [سورة النحل: ٧٣].

وقال تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ من دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٣].

وقال تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ من دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ الله عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتَوَكِّلُونَ﴾ [سورة الزمر: ٣٨].

وقال تَعَالَى: ﴿وَالله خَلَقَكُمْ من تُرَابٍ ثُمَّ من نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ من أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ من عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا من فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُم الله رَبُّكُمْ لَهُ الملْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ من قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) يَا أَيُّهَا النَّاس أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى الله وَالله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ﴾ [سورة فاطر: ١١-١٧].

تعريف العبادة

والتعبد: هو الطّاعةُ مع الخضوع، ومنه طريقٌ مُعَبَّدٌ إذا كان مُذلَّلا بكثرةِ الوطءِ.

أمّا شَرْعًا:

فقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: العبادةُ هي طاعة الله بامتثـالِ ما أمر الله به على ألسنةِ الرُّسل.

وقال أيضًا: العبادة هي اسم جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه ؛ من الأقوالِ والأعمالِ الباطنةِ والظاهرةِ، فالصَّلاةُ والزّكاة والصيامُ والحجُّ، وصِدْقُ الحديثِ وأداءُ الأمانة، وبرُّ الوالدين وصلةُ الأرحام، والوفاءُ بالعهودِ، والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر، والجهادُ للكفارِ والمنافقين، والإحسانُ إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاءُ والذِّكرُ والقِراءةُ، وأمثالُ ذلك ـ من العبادة، وكذلك حُبُّ الله ورسوله، وخشيةُ الله والإنابة إليه، وإخلاصُ الدِّين له والصبرُ لحكمه، والشُّكرُ لنعمه والرضا بقضائه، والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه، وأمثال ذلك ـ هي من العبادة لله.

والعبادةُ أصل معناها: الذُّل أيضًا، يُقال: طريقٌ مُعبدٌ إذا كان مذللًا قد وطئته الأقدام.

لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذُّل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له.اهـ.

وقال أيضًا[2]: وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور.

وذلك هو حقيقة دين الإسلام. لأن معنى الإسلام: الاستسلام لله تَعَالَى، المتضمن غاية الانقيادِ والذُّل والخضوع.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٣).

والدِّين يتضمن معنى الخضوع والذل، يقال: دنتُه فَدَانَ، أي ذلّلته فذلّ.

ويقال: دين الله، ويدين لله: أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له.

فدين الله: عبادته وطاعته والخضوع له.

ومن خضع لإنسان مع بُغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما قد يُحِبُّ ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عِبادة الله تَعَالَى، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كُلِّ شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله. اهـ.

وعلى هذا فالدِّين كله داخل في العبادة، فقد ثبت في الصحيح: أن جبريل لما جاء إلى النَّبِيِّ ﷺ في صُورةِ أعرابي وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، ثم قَالَ في آخر الحديث: «**هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَكُمْ يُعَلِّمَكُمْ دِينكُم**»(١). فَجَعَلَ هذا كُلَّهُ من الدِّين.

وَفِي حَدِيثِ مُعَاذٍ: عَنْ مُعَاذٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ الله عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله؟**» قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى الله أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاس؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**».(٢)

ولذلك تَعَجَّب أهل الكتاب من شمولية هذا الدِّين، وتنظيمه لكلِّ حياةِ العبد؛ حتى لا تكون حركةٌ أو سكنةٌ أو لحظةٌ؛ إلا وهي لله سبحانه وتعالى.

قِيلَ لِسَلْمَانَ ـ رضي الله عنه ـ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ، فَقَالَ: أَجَلْ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ من ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ.(٣)

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) رواه البخاري (٢٨٥٦) ومسلم (٣٠).

(٣) رواه مسلم (٢٦٢).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ـ رضي الله عنه ـ، أَنَّ رَجُلًا من الْيَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا ؛ لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]، قَالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَالمكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ.(١)

قَالَ ابن القيم رحمه الله(٢): والعبوديةُ مدارها على قاعدتين هما أصلها: حُبٌّ كَامِلٌ، وَذُل تَام.

ومنشأ هذين الأصلين عن أصلين عظيمين هما:

١ – مشاهدة المنة التي تورث المحبة.

٢ – ومطالعة عَيْب النَّفسِ والعملِ ؛ التي تورث الذُّلَّ التام.

وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تَعَالَى على هذين الأصلين ـ لم يظفر عدوه به إلا على غِرَّةٍ وغِيلَةٍ، وما أسرع ما ينعشه الله عز وجل ويجبره ويتداركه برحمته. اهـ.

فلا بد من الحبِّ مع الخضوع ؛ لأنَّ الحبَّ التام مع الذُّلِّ التام يتضمن طاعة المحبوب والانقياد له، فالعبد هو الذي ذَلَّه الحبُّ والخضوع لمحبوبه، فبحسب محبة العبد لربه، وذُلّه له تكون طاعته.

والعبادة لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى: فهو سبحانه ربُّ العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم، ومُقلِّبُ قلوبهم ومُصرِّفُ أمورهم ؛ لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق إلا هو ؛ سواء أعترفوا بذلك أم أنكروه، وسواء علموا ذلك أم جهلوه، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به، فَسَرَتْ عبوديةُ الله إلى كلِّ ذرةٍ من ذرَّات البَدَنِ، فتوجه إلى ربه وخالقه سبحانه قصدًا وطلبًا، وخوفًا ورجاءً، وذُلًّا وإنابةً، فإن كبا كبوةً سرعان ما يقوم منها، وإن غفلَ لحظةً ؛ سرعان ما يستيقظ، بخلاف من كان جاهلًا بذلك أو جاحدًا له مستكبرًا على ربه، لا يقر ولا يخضع له مع علمه بأن

(١) رواه البخاري (٤٥) ومسلم (٣٠١٧).

(٢) الوابل الصيب (١٥).

الله ربه وخالقه، فهذه المعرفة لا تكفي في تحقيق العبودية ولا هذا الإقرار ؛ إلا أن تكون العبودية واقعًا في حياةِ العبد، حتى لو اعترف العبد أن الله ربه وخالقه، وأنه مفتقر إليه محتاج إليه ؛ فإنها عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله فقط، وهذا العبد قد يسأل ربه فيتضرع إليه ويتوكل عليه ؛ لكنه قد يطيع أمره وقد يعصيه، وقد يعبده! ومع ذلك قد يعبد الشيطان والهوى!! فهذا لا تنطبق عليه صفات العبودية.

فمثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة والنار، ولا يصير بها الرجلُ مؤمنًا كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٦] فإنَّ المشركين كانوا يُقِرُّون أَنَّ الله خالقهم ورازقهم ؛ وهم يعبدون غيره قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة لقمان: ٢٥] وقال تَعَالَى: ﴿ قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لله قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٨٤-٨٩].

بل ربما يدَّعي أصحابها أنهم من أهل الله، ويحاربون أولياء الله ؛ كما حَكَى الله تَعَالَى في قصة صالح عَلَيْهِ السَّلام عن التسعةِ رهطِ الَّذين تقاسموا بالله كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة النمل: ٤٨-٥١].

فهَؤُلاءِ المفسدون المشْركُونَ تحالفوا بالله عَلَى قتل نبيهم وأهله ، وهذا يُبينُ أنهم كانوا مؤمنين بالله إيمان المشْرِكِينَ ؛ لأنهم كما ترى حلفوا به سبحانه وتعالى.

شُرُوطُ العِبَادَةِ

ولا بد للعبادة من شروط لا تقوم العبادة بغيرها، وهي:

أولا: الإخلاصُ.

ثانيا: المتابعة.

فكلُّ عبادةٍ خلت من ذلك فهي غير صحيحة.

والعبادةُ هي أعم من كونها توحيدًا عمومًا مطلقًا فكل موحدٍ عابدٌ لله، وليس كل من عَبَدَ الله يكون موحِّدًا، ولهذا المشرك يعبدُ الله مع كونه يعبدُ معه غيره.

انظر إلى قول إبراهيم عليه السلام كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء: ٧٥-٧٧].

وقال تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٦-٢٧].

فعند ذهاب الإخلاص يكون الرِّياءُ أو الشِّركُ، وعند فقد المتابعة تكون البدعة.

وقال الفضيل[١] في قوله تَعَالَى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الملك:٢] قَالَ: أخلصه وأصوبه ؛ وقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ؛ حتى يكون خالصًا وصوابًا، قَالَ: والخالص إذا كان لله عز وجل، والصواب: إذا كان على السنة.

وهذا الذي قاله الفضيل رحمه الله ؛ كما في قوله تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف: ١١٠].

---

(١) حلية الأولياء (٩٥).

وكذلك ما رُوي في الإخلاصِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ـ رضي الله عنه ـ عَلَى المِنْبَرِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**».(١)

وكذلك ما رُوي في المتابعةِ: عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**».(٢)

وفي روايةٍ لمسلم(٣): «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**».

فبالإخلاص والمتابعة يتضح المنهج، ويستبين الطريق من لدن آدم إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها، تأمل قول الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٢].

ولذلك نرى أن منهج الرُّسل جميعًا في دعوة قومهم هو توحيد العبادة ؛ وصرفها لله تَعَالَى، وهذا هو الصراط المستقيم الذي سار فيه الأنبياء جميعًا ومن تبعهم من المحسنين إلى يوم الدين ؛ الذي لا بد أن يجمعه الإخلاص والمتابعة، فمن تبعهم كان من الناجين ومن حاد عن طريقهم ؛ وسلك غير سبيلهم كان من الهالكين، تأمل قول الله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [سورة النساء: ٦٩].

فقد أثبت سبحانه أنَّ طريقَ نبيه ﷺ هو الموصل إلى الله، وذلك بأنه سبحانه قرن بين طاعة نبيه وطاعته، فمن وُفِّق لهذه الطّاعة فقد سار على الطريق خلف من سَبَقَ من الأنبياءِ جميعًا ومن تبعهم بإحسان ؛ بخلاف من حاد عن الطريق، وخالف سبيل المؤمنين فهو مع الهالكين، تأمل قَوْلَ الله تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ من بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ

(١)رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).
(٢)رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).
(٣)رواه مسلم (١٧١٨).

لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [سورة النساء: ١١٥].

فإن رأيت خلافًا على الطريق إلى الله بين فرقتين أو جماعتين ؛ فاعلم أنهما: إما من الهالكين، أو أَنَّ إحداهما صوابٌ والأخرى من الضَّالين ؛ فعند ذلك لُذْ بجنابِ ربك واستغث به، واطلب منه الهداية للصراطِ المستقيم، ثم لا يغمض لك جفن حتى تبحث وتسأله بنية صادقة ؛ عن طريقِ المتقين وسبيل المؤمنين، وجرد الهوى واعلم أن الخلق جميعًا لن يغنوا عنك من الله شيئا.

ولابد من تحقق هذين الشرطين حتى تكون العبادة صحيحة، وهما: الإخلاص، والمتابعة.

أولا : الإخلاص

والإخلاص: مِنْ خَلُصَ الشيءُ إذا سَلِمَ ونجا، أو صفا بعد كدر، ويراد به إخلاص الشيء وتنقيته، وفي العبادة إخلاص العمل لله، وهو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطَّاعة، أي تقصده وحده لا شريك له.

فالإخلاص لا يكون إلا بتجريد العمل لله سبحانه وتعالى بحيث لا تشوبه ذرةُ شركٍ، ولا تُحيطُ به شبهةُ رياء، وعلى هذا فإن الإخلاص هو ميزان الأعمال كلها، وعلى قدر توفره يكون الأجر، ويكون بتخليصِ العملِ تمَامًا لله سبحانه وتعالى.

والإخلاص من أجلِّ عبادات القلب وأعظمها، إذ هو مصفاة الأعمال كُلِّها، فأي عمل لا يقبله الإخلاص فهو هباء منثور، وليس لصاحبه منه إلا النَّصَبُ والتَّعَبُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاة وَيُؤْتُوا الزَّكاة وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [سورة البينة: ٥].

وقال تَعَالَى: ﴿فَاعْبُد الله مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلا لله الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [سورة

الزمر: ٢-٣].

وقال تَعَالَى: ﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [سورة الزمر: ١٤].

وقال تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاشَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

موقف القلب من العمل:

وللقلب مع العمل وقفات، فأي عملٍ لا يُقِرُّه القلب، ولا يعتمده، فهو على الجوارح عارية، ليس للعبد منه إلا التَّعب والنَّصب، فقد حصر النَّبِيُّ ﷺ قبول العمل على فعل القلب، كما قَالَ ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**» (١).

فالأصل في العمل توجه القلب ؛ لأنه الملك، وما ظهر على الجوارح آثاره، لأنها هي جنوده والمؤتمرةُ بأمره.

ولذلك نرى هذه العبادة تصاحب أي عمل من مبدئه إلى منتهاه، وذلك بتصحيح الأعمال على الدَّوام، وجعلها خالصةً لله سبحانه وتعالى، وذلك في كل عمل دق أم عظم، والإخلاص فيه ثلاثة أمور:

أحدها: صِدْقُ القلبِ في طَلَبِ الثواب.

والثاني: إرادةُ إخراج العمل من كُلِّ شُبهة.

والثالث: لا يحب حمد المخلوقين ولا ذمهم.

قَالَ سهل بن عبد الله: لا يعرف الرِّياء إلا مخلص، ولا يعرف النِّفاق إلا مؤمن، ولا يعرف الجهل إلا عالم، ولا يعرف المعصية إلا مطيع.(٢)

قَالَ ابن القيم رحمه الله(٣): والتفتيش عمّا يشوب الأعمال من حظوظ النفس ؛

(١) رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

(٢) البيهقي "شعب الإيمان"(٥/ ٣٤٩).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٣٩).

وتمييز حقِّ الربِّ منها من حظِّ النَّفس، ولعل أكثرها أو كلها أن تكون حظًا لنفسك وأنت لا تشعر! فلا إله إلا الله كم في النفوس من عِلَلٍ وأغراضٍ وحظوظٍ، تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة وأن تصل إليه، وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشرٌ ألبتة، وهو غيرُ خالصٍ لله، ويعملُ العملَ والعيونُ قد استدارت عليه نطاقًا، وهو خالصٌ لوجه الله، ولا يميز هذا إلا أهل البصائر، وأطباءُ القلوب العالمون بأدوائها وعِلَلِها، فبين العمل وبين القلب مسافة، وفى تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجلُ كثيرَ العملِ ؛ وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء ؛ ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة ؛ ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره فلو وصل أثر الأعمالِ إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحقَّ والباطل، وميَّز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال، ثم بين القلب وبين الرَّب مسافة وعليها قطاعٌ تمنع وصولَ العمل إليه، من كبرٍ وإعجابٍ وإدلال، ورؤية العمل ونسيان المنة، وعِلَلٌ خفية لو استقصى العبد في طلبها لرأى من نفسه العجب. اهـ.

أخي الحبيب: من عَوَّدَ نفسه العمل لله ؛ لم يكن أشق عليه من العمل لغيره، ومن عود نفسه العمل لهواه وحظِّه ؛ لم يكن أشق عليه من الإخلاص والعمل لله، وهذا في جميع أبواب الأعمال، فليس شيء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره، وكذا بالعكس.

قَالَ عمر بن عبد العزيز: يا معشر المسترين! اعلموا أَنَّ عِنْدَ الله مَسْأَلَةً فَاضِحَةً، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩٢-٩٣][(١)].

قَالَ الرَّبيعُ بن خُثَيْم لولده المنذر: يا منذر! لا يَغُرَّنَّك كثرة ثناءِ النَّاس من نفسك ؛ فإنَّه خالصٌ إليك عملك.[(٢)]

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٢٨٨).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ١١٢).

والإخلاص أن يخلص لله في أفعاله، وأقواله، وإرادته، ونيته، وهذه هي الحنيفيةُ مِلَّةُ إبراهيم، التي أمر الله بها عبادَهُ كُلَّهم، ولا يقبل من أحدٍ غيرها ؛ وهى حقيقة الإسلام كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ من الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٨٥].

فمن رغب عنها فهو من أسفه السُّفهاء.

فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ـ رضي الله عنه ـ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ الْتَقَى هُوَ وَالمشْرِكُونَ ؛ فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلٌ لَا يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلَا فَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ من أَهْلِ النَّارِ**»، فَقَالَ رَجُلٌ من الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا؛ فَاسْتَعْجَلَ الموْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ؛ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله، قَالَ: «**وَمَا ذَاكَ**»، قَالَ الرَّجُلُ: الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ من أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاس ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الموْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الأَرْضِ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ - عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ من أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ من أَهْلِ الْجَنَّةِ**».(١)

ولقد بلغ الإخلاص بالسَّلَف رحمهم الله حتى كان يُرى أثر ذلك عليهم رحمهم الله، حتى إن أحدهم كان يحاول إخفاء العمل عن أقرب النَّاس إليه.

فعن عبدة بن سليمان – يعنى المروزي– قَالَ: كنا في سَرِيَّةٍ مع عبد الله بن

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٨) ومسلم (١١٢).

المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فطارده ساعةً فطعنه فقتله، فازدحم إليه النَّاس ؛ فكنت فيمن ازدحم إليه ؛ فإذا هو يلثم وجهه بكمه، فأخذت بطرف كُمِّه فمددته ؛ فإذا هو عبد الله بن المبارك، فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يُشَنِّعُ علينا (١).

وعن محمد بن واسع قَالَ: لقد أدركت رجالًا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادةٍ واحدةٍ ؛ قد بل ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالًا يقوم أحدهم في الصَّف ؛ فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جانبه (٢).

وعن حماد بن زيد قَالَ: غَلَبَ أَيُّوبَ البُكَاءُ يومًا فقال: الشيخُ إذا كبر مج(٣)وغلبه فُوهُ، فوضع يده على فِيهِ ؛ وقال: الزَّكْمَةُ ربما عَرَضَتْ.(٤)

وعن سلام ابن أبي حمزة قَالَ: كان أيوب السَّخْتِياني يقومُ اللَّيلَ كله ؛ فيخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته ؛ كأنه قام تلك السّاعة.(٥)

وعن امرأةِ حسان بن أبي سنان قالت: كان يجيء فيدخل معي في فراشي ثم يخادعني كما تخادع المرأةُ صبيها، فإذا علم أني نمت سَلَّ نفسه فخرج ثم يقوم فيصلي، قالت: فقلت له: يا أبا عبد الله كم تعذِّب نفسك؟! ارفق بنفسك! فقال: اسكتي! ويحك! فيوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها زمانًا.(٦)

وعن يحيى بن عبد الرحمن بن مهدي: أن عبد الرحمن بن مهدي قام ليلة وكان

---

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ١٦٧).
(٢) حلية الأولياء٢/ ٣٤٧.
(٣) لا يستطيع حبس ريقه من كثرته.
(٤) حلية الأولياء (٣/ ٦).
(٥) حلية الأولياء (٣/ ٨).
(٦) حلية الأولياء (٣/ ١١٧).

يحيي الليل، فلما طلع الفجر رمى بنفسه على الفراش حتى طلعت الشمس، ولم يصل الصبح، فجعل على نفسه إلا أن يجعل بينه وبين الأرضِ شيئًا شهرين، فقرح فخذاه جميعًا.(١)

وقال مالك بن دينار: الخوف على العمل أن لا يتقبل أشد من العمل.(٢)

وقال الفضيل: خير العمل أخفاه، وأمنعه من الشيطان، وأبعده من الرِّياء. وقال أبو حازم: إني لأعظ وما أرى موضعًا، وما أريد إلا نفسي.

وقال: اكتم حسناتك أشد مما تكتم سيئاتك.(٣)

وهذا أبو عمران الجوني يقول: إنَّه ليس بين الجنةِ والنَّار طرقٌ ولا فيافي ولا منزل هنالك لأحد، من أخطأته الجنة ؛ صار إلى النار.(٤)

ولذلك نرى أن الإخلاص عزيز، ولما حاول المخلصون إخفاء العمل أحيا الله ذكرهم، وشهر أمرهم، وصاروا أئمة هدى يقتدى بهم، ولما حاول المراءون إظهار العمل أخمد الله ذكرهم، وهتك أستارهم وما نالوا من حظٍّ إلا الفضيحة بين العباد.

قَالَ ابن الأعرابي: أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله ؛ وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد.(٥)

ويقول سعيد بن المسيب: يد الله فوق عباده، فمن رفع نفسه وضعه الله، ومن وضعها رفعه الله، النَّاس تحت كنفه يعملون أعمالهم ؛ فإذا أراد الله فضيحة عبدٍ أخرجه من تحت كنفه، فبدت للناس عورته.(٦)

---

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٩٦).
(٢) حلية الأولياء (٢/ ٣٨٣).
(٣) البيهقي "شعب الإيمان" (٥/ ٣٥١).
(٤) حلية الأولياء (٢/ ٣١٠).
(٥) البيهقي "شعب الإيمان" (٥/ ٣٦٨).
(٦) حلية الأولياء (٢/ ١٦٦).

قال بلال بن سعد: عباد الرحمن! إن العبد ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله عز وجل وقد أضاع ما سواها، فما زال يمنيه الشيطان فيها ويزين له حتى ما يرى شيئًا دون الجنة، فقبل أن تعملوا فانظروا ماذا تريدون بها!! فإن كانت خالصة لله فأمضوها، وإن كانت لغير الله فلا تَشُقُّوا على أنفسكم فلا شيء لكم، فإن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا ؛ فإنه قَالَ سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ [سورة فاطر: ١٠].(١)

قَالَ النووي رحمه الله(٢): وروينا عن الأستاذ أبي القاسم القشيري رحمه الله قَالَ: الصَّمت بسلامة وهو الأصل، والسُّكوت في وقته صفة الرِّجال، كما أن النُّطق في موضعه من أشرف الخصال، قَالَ: وسمعت أبا علي الدَّقاق يقول: من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس، قَالَ: فأمّا إيثار أصحاب المجاهدة السكوت ؛ فلما علموا ما في الكلام من الآفات ثم ما فيه من حَظِّ النفس، وإظهار صفات المدح، والميل إلى أن يتميز من بين أشكاله بحسن النطق وغير هذا من الآفات، وذلك نعت أرباب الرياضة وهو أحد أركانهم في حكم المنازلة وتهذيب الخلق، وروينا عن الفضيل بن عياض رحمه الله قَالَ: مَنْ عَدَّ كَلَامَهُ من عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ.اهـ.

سُئِل سهل بن عبد الله التستري: أَيُّ شَيءٍ أَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ؟ قَالَ: الإِخْلَاصُ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا فِيهِ نَصِيبٌ، فَمَعَ الإِخْلَاصِ تُنْسَى حُظُوظُ النَّفْسِ.

ولذلك اجتهد الأُوَل في إصلاح العمل، بمطالعةِ عَيبِ النفس، وما يدخل عليه من آفات.

قَالَ عبد الرحمن بن مهدي: كنت أجلس يوم الجمعة في مسجد الجامع، فيجلس إِلَيَّ النَّاسُ، فإذا كانوا كثيرًا فَرِحْتُ ؛ وإذا قَلُّوا حَزِنْتُ ؛ فسألت بشر بن منصور

(١) البيهقي "شعب الإيمان" (٥/ ٣٤٤).
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٢٠).

فقال: هذا مجلسُ سُوءٍ لا تعد إليه، قَالَ: فما عُدْتُ إليه.

وقام عبد الرحمن من المجلس يومًا وتبعه النَّاس، فقال: يا قوم لا تطئوا عقبي، ولا تمشوا خلفي، ووقف.(١)

وكان لهم في مجاهدة النفس وتنقية العمل، وإفراغ النفس لله ؛ ما يدعو إلى العجب العجاب، فهذا محمد بن المنكدر يقول: كَابَدْتُ نَفْسِي أَرْبَعِينَ سَنَةً حَتَّى اسْتَقَامَتْ.(٢)

وقال سهل بن عبد الله: اجتهد أهلُ العِلْمِ والمعرفةِ في تركِ الإثم في سِرِّهم وعلانيتهم، فأدخل الله عليهم الضَّرَّاءَ والنَّفْعَ والنَّصَبَ، فأسلموا الأمر إلى الله تَعَالَى فاستغنوا بالله عمن سواه.(٣)

وقال ابن يحيى بن أبي كثير: تعلَّموا النية فإنها أبلغ من العمل.

وقال الزبيد اليامي: إني أُحب أن تكون لي نية في كُلِّ شيء ؛ حتى في الطَّعام والشَّراب.

وعن داود الطَّائي قَالَ: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية، وكفاك به خيرًا وإن لم تنصب - أي حتى وإن لم تتعب - فإن ما حصَّلته من اجتماع نفسك لله، وإخراج حظوظ النفس من قلبك ، هذا أمر عظيم.(٤)

قَالَ الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل النَّاس رياء، والعمل من أجل النَّاس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.(٥)

وقال أيضًا: ما يؤمنك أن تكون بارزت الله بعملٍ مقتك عليه، فأغلَقَ دونك أبوابَ المغفرةِ، وأنت تضحك كيف ترى أن يكون حالك.(٦)

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ١٢).
(٢) حلية الأولياء٣/ ١٤٦.
(٣) البيهقي "شعب الإيمان"(٥/ ٣٤٩).
(٤) جامع العلوم والحكم (١٣).
(٥) البيهقي "شعب الإيمان" (٥/ ٣٤٧).
(٦) أبو نعيم "الحلية" (٨/ ١٠٠).

ثانيا: المتابعة

والمقصود بها متابعة الشرع في الأقوال والأفعال، وأن تكون موافقة لما أمر الله به ورسوله ﷺ من غير زيادةٍ ولا نقص.

وهذه المتابعة تستلزم متابعةَ القلب أولا ثم الجوارحَ، ويقتضي في هذا التسليم التـام لله ولرسوله ﷺ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٥].

فقد نفى سبحانه الإيمانَ جملةً عن هؤلاء الَّذين لم يحكموا الرسول في كل أمر صغر أم كبر؛ حتى فيما وقع فيه الخلاف، فلا بد أن يكون مَرَدُّه إلى شرع الله جملةً وتفصيلًا، ولذلك قَالَ سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَن اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا من دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لآتَيْنَاهُمْ من لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٦-٦٨].

ولذلك أجمل سبحانه مطلق الطاعة لله والرسول، وبَيَّن أنها سبيل من أنعم الله عليهم، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّن النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾[سورة النساء: ٦٩].

ولابد عند تحقق هذه الطَّاعةِ من شرطين.

الشرط الأول: محبة الله:

إذ الطَّاعَةُ لا تكون تامةً إلا بقدر ما عند العبد من محبة الله سبحانه وتعالى، فكُلَّما عَظُمَت المحبةُ وتمت؛ كُلَّما انطلقت كُلُّ ذَرَّةٍ في العبد طاعةً وذُلًا وإخباتًا لله سبحانه وتعالى.

قَالَ الإمام ابن القيم رحمه الله تَعَالَى:

(... فالله تَعَالَى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له والانقياد لأمره.

وأصل العبادة محبة الله ؛ بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه ، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبةً معه كمحبةِ من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه ، وإذا كانت المحبةُ له هي حقيقة عبوديته وسرها فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه ، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة ، ولهذا جعل تَعَالَى اتباع رسوله عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها ، فقال تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُم الله﴾ [سورة آل عمران: ٣١].

فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم ، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، وتحققه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاءُ محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعةِ لرسوله، وانتفاءُ المتابعةِ ملزوم لانتفاءِ محبة الله لهم. فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة)[1]اهـ.

والثاني: محبة رسول الله ﷺ:

وهي تابعةٌ لمحبةِ الله عَزَّ وَجَلَّ وَلازمةٌ لها ، فَمَنْ أَحَبَّ اللهَ أَحَبَّ رَسُولَهُ، وَأَحَبَّ جَمِيعَ مَا يُحِبُّه، بل لَا يُؤْمِنُ العَبْدُ حَتَّى يكُونَ رَسُولُ الله أَحَبَّ إِلَيْهِ من وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

ومن علامات محبة رسول الله حب ما جاء به من الوحي كتابًا وسنة، والإيمان بكل ما ورد فيها من أخبار، واتباع ما ورد فيها من أوامر، واجتناب ما فيها من نَوَاهٍ وزواجر،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٩٩).

والدعوة إلى الإيمان بكل ذلك، وتقديم طاعة الرسول على طاعة كل أحد من الخلق ، فمن توفرت فيه هذه الأمور فهو مُحِب لله حقًا، وإلا تكون دعواه لمحبة الله دعوى ليس لها برهان ولا سند.

ولذلك وجبت المتابعة التَّامة لله ولرسوله، وعدم تقديم قولٍ أو فعلٍ مهما كان قائله، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي الله وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا الله إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات:١-٢].

قَالَ الحافظ ابن كثير عند الآية: هذه آداب أدب الله تَعَالَى بها عباده المؤمنين ؛ فيما يعاملون به الرَّسول ﷺ ؛ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال تَعَالَى: [يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ الله وَرَسُولِهِ]أي لا تُسْرِعُوا في الأشياءِ بين يديه – أي قبله – بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي.

ونُقِلَ عن ابن عباس قوله: لا تقولوا خلافَ الكِتَابِ والسُّنة. اهـ..

والاتباع هو العلامةُ والدَّلالة عل صحةِ العبادة، وسلامة صاحبها من الابتداع، فكُلُّ من التزم بمتابعة الله ورسوله متابعة تامة ؛ وفق ما كان عليه الصحابة ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ، ومن نحى نحوهم فهو محقق للعبادة.

صور من اتباع الصحابة رضي الله عنهم

* **ولقد ضرب الصَّحابة أعظم المثل في الاتباع:**

فمثلًا: الخمر كانت للعرب من أصول الشَّراب الذي لا يستغني عنه أحد، بل ربما جعلت عندهم بديل الماء، فجاء الإسلام وهم على هذه الحال. فبمنادٍ واحدٍ حُرِّمت الخمر.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: كُنْتُ أَسْقِي أَبَا عُبَيْدَةَ وَأَبَا طَلْحَةَ وَأُبَيَّ ابْنَ كَعْبٍ ؛ من فَضِيخِ زَهْوٍ وَتَمْرٍ (١) فَجَاءَهُمْ آتٍ، فَقَالَ: إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: قُمْ يَا أَنَسُ فَأَهْرِقْهَا فَأَهْرَقْتُهَا. (٢)

وكذلك لما رأى الصحابة في يد النَّبيِّ ﷺ خاتم ذهب، لبسوا خواتيم من ذهب، فلمّا خلعه وحرَّمه ؛ خلعوا خواتيمهم.

عَن ابْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ اصْطَنَعَ خَاتمًا من ذَهَبٍ، وَكَانَ يَلْبَسُهُ، فَيَجْعَلُ فَصَّهُ فِي بَاطِنِ كَفِّهِ، فَصَنَعَ النَّاس خَوَاتِيمَ، ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ عَلَى المنْبَرِ فَنَزَعَهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي كُنْتُ أَلْبَسُ هَذَا الخَاتِمَ وَأَجْعَلُ فَصَّهُ من دَاخِلٍ فَرَمَى بِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَالله لَا أَلْبَسُهُ أَبَدًا**» فَنَبَذَ النَّاس خَوَاتِيمَهُمْ. (٣)

ولما رأى النَّبيّ ﷺ في يدِ رَجُلٍ خَاتَمَ ذَهَبٍ، نزعه منه وطرحه أرضًا، فمن حِرْصِ الرَّجُلِ عَلَى المتابعةِ رَفَضَ أَنْ يَأْخُذَ خاتمه من الأرض.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَأَى خَاتمًا من ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ، فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ من نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ!**» فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ الله ﷺ: خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَالله لَا آخُذُهُ أَبَدًا، وَقَدْ طَرَحَهُ

(١) خمر تصنع من ذلك.

(٢) رواه البخاري (٥٥٨٢).

(٣) رواه البخاري (٦٦٥١) ومسلم (٢٠٩١).

رَسُولُ الله ﷺ.(١)

وحينما خَلَعَ النَّبيُّ ﷺ نعليه في الصَّلاة؛ خَلَعَ الصَّحابة نِعَالهم تأسيًا، ومتابعة لِلنَّبِيِّ ﷺ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ إِذْ خَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَنْ يَسَارِهِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْقَوْمُ أَلْقَوْا نِعَالَهُمْ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ صَلَاتَهُ، قَالَ: «**مَا حَمَلَكُمْ عَلَى إِلْقَاءِ نِعَالِكُمْ**؟!» قَالُوا: رَأَيْنَاكَ أَلْقَيْتَ نَعْلَيْكَ فَأَلْقَيْنَا نِعَالَنَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ ﷺ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ فِيهِمَا قَذَرًا**»، أَوْ قَالَ: «**أَذًى**»، وَقَالَ: «**إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلْيَنْظُرْ فَإِنْ رَأَى فِي نَعْلَيْهِ قَذَرًا أَوْ أَذًى؛ فَلْيَمْسَحْهُ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا**».(٢)

وهذا صَحَابِيٌّ يُذَكِّرُ آخر بأمر نهى عنه النَّبيُّ ﷺ، فلمّا رآه يأتي الأمر مرة أخرى قاطعه على الفور.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مُغَفَّلٍ، أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَخْذِفُ، فَقَالَ لَهُ: لَا تَخْذِفْ! فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى عَنِ الْخَذْفِ، أَوْ كَانَ يَكْرَهُ الْخَذْفَ، وَقَالَ: إِنَّهُ لَا يُصَادُ بِهِ صَيْدٌ، وَلَا يُنْكَى بِهِ عَدُوٌّ، وَلَكِنَّهَا قَدْ تَكْسِرُ السِّنَّ، وَتَفْقَأُ الْعَيْنَ. ثُمَّ رَآهُ بَعْدَ ذَلِكَ يَخْذِفُ، فَقَالَ لَهُ: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ نَهَى عَنِ الْخَذْفِ، أَوْ كَرِهَ الْخَذْفَ، وَأَنْتَ تَخْذِفُ! لَا أُكَلِّمُكَ كَذَا وَكَذَا.(٣)

وهذا وَلَدٌ لابن عمر يسمع من أبيه حديثًا في عَدَمِ مَنْعِ النِّساء المساجد فيعارض الأمر، فغضب عليه غضبًا شديدًا.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله أَنْ يُصَلِّينَ فِي الْمَسْجِدِ**»، فَقَالَ ابْنٌ لَهُ: إِنَّا لَنَمْنَعُهُنَّ، فَغَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا، وَقَالَ: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ؛

---

(١) رواه مسلم (٢٠٩٠).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٦٥٠) وأحمد (٣/ ٢٠) والدارمي (١٣٧٨).

(٣) رواه البخاري (٥٤٧٩) ومسلم (١٩٥٤).

وَتَقُولُ: إِنَّا لَنَمْنَعُهُنَّ.(١)

بل صحابي آخر يرفع سوطه على عبده ليأدبه، فيسمع صوت النَّبِيِّ ﷺ فَيُلقي السَّوط من يده.

قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا من خَلْفِي: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ»، فَلَمْ أَفْهَمُ الصَّوْتَ من الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ الله ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ! اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ!**» قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ من يَدِي، فَقَالَ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ الله أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ**»، قَالَ: فَقُلْتُ لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا.(٢)

وهذه عائشة وأم سلمة ـ رَضِيَ الله عَنْهُنَّ ـ يصفن حال نساء الصحابة ـ رَضِيَ الله عَنْهُنَّ ـ عند نزول آية الحجاب.

عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ أَنَّهَا قَالَتْ: يَرْحَمُ الله نِسَاءَ المُهَاجِرَاتِ الْأُوَلَ، لَمَّا أَنْزَلَ الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْنَ أَكْثَفَ مُرُوطِهِنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا.(٣)

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ من جَلَابِيبِهِنَّ﴾، خَرَجَ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِنَّ الْغِرْبَانَ من الْأَكْسِيَةِ.(٤)

وهذا أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ لما قَالَ له النَّبِيُّ ﷺ: «لا تبرح حتى آتيك»، ما تحرك من مكانه ـ رضي الله عنه ـ.

قَالَ أَبُو ذَرٍّ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ المَدِينَةِ، فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ، فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ؟!» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هَذَا ذَهَبًا ؛ تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ، وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إِلَّا شَيْئًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ، إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ الله، هَكَذَا**

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة (١٦) وهو بغير قصة ولد ابن عمر في: البخاري (٩٠٠) ومسلم (٤٤٢).

(٢) رواه مسلم (١٦٥٩).

(٣) صحيح: أبو داود (٤١٠٢) والبخاري تعليقا (٤٧٥٨).

(٤) حسن: أبو داود (٤١٠١).

وَهَكَذَا وَهَكَذَا»، عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ثُمَّ مَشَى، فَقَالَ: «**إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمُ الْأَقَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ، هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ**»، ثُمَّ قَالَ لِي: «**مَكَانَكَ لَا تَبْرَحْ حَتَّى آتِيَكَ**» ثُمَّ انْطَلَقَ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ حَتَّى تَوَارَى، فَسَمِعْتُ صَوْتًا قَدْ ارْتَفَعَ فَتَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَرَدْتُ أَنْ آتِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَهُ لِي: «**لَا تَبْرَحْ حَتَّى آتِيَكَ**» فَلَمْ أَبْرَحْ حَتَّى أَتَانِي، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتًا تَخَوَّفْتُ، فَذَكَرْتُ لَهُ فَقَالَ: «**وَهَلْ سَمِعْتَهُ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**ذَاكَ جِبْرِيلُ أَتَانِي، فَقَالَ: مَنْ مَاتَ من أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ! قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**»[١].

وهذا أنس ـ رضي الله عنه ـ يحب الدُّباء لمحبةِ النَّبِيِّ ﷺ له.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: إِنَّ خَيَّاطًا دَعَا رَسُولَ الله ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَهُ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَذَهَبْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى ذَلِكَ الطَّعَامِ، فَقَرَّبَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ خُبْزًا وَمَرَقًا فِيهِ دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ من حَوَالَيْ الْقَصْعَةِ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ من يَوْمِئِذٍ.[٢]

قصة جُلَيْبِيب:

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: كَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ أَيِّمٌ لَمْ يُزَوِّجْهَا حَتَّى يَعْلَمَ هَلْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهَا حَاجَةٌ أَمْ لَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِرَجُلٍ من الْأَنْصَارِ: «**زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ؟**» فَقَالَ: نِعِمَّ وَكَرَامَةٌ يَا رَسُولَ الله وَنُعْمَ عَيْنِي فَقَالَ: «**إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي**»، قَالَ: فَلِمَنْ يَا رَسُولَ الله؟! قَالَ: «**لِجُلَيْبِيبٍ**»، قَالَ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أُشَاوِرُ أُمَّهَا، فَأَتَى أُمَّهَا فَقَالَ: رَسُولُ الله ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتَكِ، فَقَالَتْ: نِعِمَّ وَنُعْمَةُ عَيْنِي، فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ يَخْطُبُهَا لِنَفْسِهِ إِنَّمَا يَخْطُبُهَا لِجُلَيْبِيبٍ! فَقَالَتْ: أَجُلَيْبِيبٌ ابْنُهْ! أَجُلَيْبِيبٌ ابْنُهْ! أَجُلَيْبِيبٌ ابْنُهْ!

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤٤).

(٢) رواه البخاري (٢٠٩٢) ومسلم (٢٠٤١).

لَا لَعَمْرُ الله لَا تُزَوِّجْهُ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ لِيَأْتِيَ رَسُولَ الله ﷺ لِيُخْبِرَهُ بِهَا قَالَتْ أُمُّهَا، قَالَت الجَارِيَةُ: مَنْ خَطَبَنِي إِلَيْكُمْ؟ فَأَخْبَرَتْهَا أُمُّهَا، فَقَالَتْ: أَتَرُدُّونَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ أَمْرَهُ! ادْفَعُونِي؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُضَيِّعْنِي، فَانْطَلَقَ أَبُوهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ، قَالَ: شَأْنَكَ بِهَا، فَزَوَّجَهَا جُلَيْبِيبًا، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ لَهُ، قَالَ فَلَمَّا أَفَاءَ الله عَلَيْهِ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ: **«هَلْ تَفْقِدُونَ من أَحَدٍ؟»** قَالُوا: نَفْقِدُ فُلَانًا، وَنَفْقِدُ فُلَانًا، قَالَ: انْظُرُوا هَلْ تَفْقِدُونَ من أَحَدٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: **«لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيبًا!»** قَالَ: **«فَاطْلُبُوهُ فِي الْقَتْلَى»**، قَالَ: فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ الله؟ هَا هُوَ ذَا إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ، قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيّ ﷺ، فَقَامَ عَلَيْهِ فَقَالَ: **«قَتَلَ سَبْعَةً وَقَتَلُوهُ! هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ»** _مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - ثُمَّ وَضَعَهُ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى سَاعِدَيْهِ، وَحُفِرَ لَهُ مَا لَهُ سَرِيرٌ إِلَّا سَاعِدَا رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ وَضَعَهُ فِي قَبْرِهِ، وَدَعَا لَهَا رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: **«اللَّهُمَّ صُبَّ عَلَيْهَا الخَيْرَ صَبًّا، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا كَدًّا، فَمَا كَانَ فِي الْأَنْصَارِ أَيِّمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا»**.(١)

---

(١) حسن: رواه أحمد (٤/ ٤٢٢).

الأصل في العبادة المسارعة

فالأصل في العبادة المسارعة، وأن يعلم العبدُ أَنَّ أنفاسه معدودة، وأنَّ لحظاته موقوفة إمّا على طاعةٍ ؛ وإمّا على تفريط وإضاعة.

ولذلك نرى أن المسارعة من صفات المؤمنين كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٠-٦١].

فهؤلاء مُقَرَّبُون، وفي البرِّ منغمسون، وبطاعة ربهم منشغلون، ورغم ذلك فهم خائفون وجلون، فلمّا لم يمنعهم مانع عن فعلهم، ويشغلهم شاغل عن ذِكْرِهم، وجَدُّوا في السير؛ أثنى الله عليهم، وأثبت فعلهم، ومدح عملهم.

وكما ذكر سبحانه عن أنبيائه ورسله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠].

وكما أثنى سبحانه على عباده الصّالحين ؛ وأوليائه المتقين، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ من الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١١٤].

ولقد أمر الله سبحانه بالمسابقة، والمنافسة في الطّاعات، وبالمسارعة والجد إلى الجنّات.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ من رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣].

وقال تَعَالَىٰ: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ من رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة الحديد: ٢١].

وقال تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [سورة البقرة: ١٤٨].

وقد جعل الله أعلى المنازلِ في الجنّات؛ لأهل السَّبق في الخيرات، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ المقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ من الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ من الآخِرِينَ﴾ [سورة الواقعة: ١٠-١٤].

وقد حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ على المسارعة لفعل الخيرات، وتدارك المهمات قبل فوات اللحظات.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ: مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا، فَقَالَ: «مَا هَذَا» فَقُلْنَا: قَدْ وَهَى فَنَحْنُ نُصْلِحُهُ، قَالَ: «مَا أَرَى الْأَمْرَ إِلَّا أَعْجَلَ من ذَلِكَ»(١).

فالنجاة من الفتن لزوم الطّاعة والثبات عليها، فالمسارعة في وقت الأمان تنجي عند وقوع البلاء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ من الدُّنْيَا**».(٢)

فالبدار البدار والوحا الوحا قبل فوات الأوان، وقبل قدوم الفتن وتعذر الطّاعة والإيمان، وهوان المعاصي والآثام، حتى تعم الزمان والمكان، فإنَّه سيأتي الزمان الذي يتقلب فيه العبد لا بين معصية وطاعة، وإنما يتقلب بين كفر وإيمان.

فلابد للعبد أن يدفع نفسه للطاعات دفعًا، وأن يجعل رأس ماله من الأيام والليالي إيمانًا يدفع به الضلال، وعلمًا يزيل به الجهل، فلا شيء أغلى من وقتٍ ينفق في

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٣٥) وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود (٤٥٥٨) وابن ماجة (٤١٦٠) وأحمد (٢/ ١٦١).

(٢) رواه مسلم (١١٨).

طاعة الله، وصحةٍ يعمل فيها بأمر الله.

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ من النَّاس: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**».(١)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**المؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله من المؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».(٢)

فالواجب على العبد أن يتقدم ولا يتأخر، ويمضي ولا يلتفت، ويطرق أبواب الخير فما فتح له من بابٍ فليلزمه ؛ ويدعو الله بالثبات.

عن خالد بن معدان قَالَ: إذا فَتَحَ أَحَدُكُم بَابَ خيرٍ ؛ فليسرع إليه فإنه لا يدري متى يُغلق عنه.

و قَالَ أيضا: العَيْنُ مَالٌ والنَّفْسُ مَالٌ، وخيرُ مَالِ العبدِ ما انتفع به وابتذله، وشَرُّ أموالك ما لا تراه، ولا يراك، وحسابه عليك ونفعه لغيرك.(٣)

ومما يُؤْثَرُ أن عبد الله العُمَرِيّ العابد، كتب إلى مالكٍ يحضه على الانفراد والعمل، فكتب إليه مالك: إن الله قَسَمَ الأَعْمَالَ كما قَسَمَ الأرزاق، فَرُبَّ رَجُلٍ فُتِح له في الصَّلاة ولم يُفْتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فَنَشْرُ العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتِحَ لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كِلانا على خيرٍ وبر.(٤)

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٢).
(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٤٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٨/ ١١٤).

وإذا فُتح هذا الباب فليلزمه ؛ حتى في زمن الفترة والتعب والملل، حتى لا يُحْبَس عليه ولا يستطيع مواصلة السير.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ» (١)

فإن النَّفس إذا عُودت على التباطؤ كَلَّت وملَّت، وألزمت صاحبها بالرُّخص حتى تبتعد عن الطريق.

عن عبد الصمد بن سليمان بن أبي مطر قَالَ: بِتُّ عند أحمد بن حنبل رحمه الله ؛ فوضع لي صَاغِرة(٢) ماء، قَالَ: فلما أصبحت وجدني لم استعمله، فقال: صاحب حديث لا يكون له وردٌ بالليل؟! قَالَ قُلْتُ: مُسَافِر، قَالَ: وإن كنت مسافرًا، حجَّ مَسْروقٌ فما نام إلا ساجِدًا.(٣)

وليحذر العبد من التسويف والتباطؤ فمن خاف عدوًّا فر منه، ومن أراد خيرًا سعى إليه، ومن طلب العُلى سَهِر الليالي.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ الله غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ الله الجَنَّةُ».(٤)

عن هشام بن حسان قَالَ: قَالَ الحسن البصري: والله لقد أدركنا أقوامًا وصحبنا طوائف ؛ إن كان الرَّجل منهم ليمسي وعنده من الطَّعام ما يكفيه، ولو شاء لأكله فيقول: والله لا أجعل هذا كُلَّه في بطني حتى أجعل بعضه لله، فيتصدق ببعضه، والله لقد أدركنا أقوامًا وصحبنا طوائف ما كانوا يبالون أشرَّقت الدنيا أم غربت، والله الذي لا

---

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ١٨٨).

(٢) إناء يوضع فيه الماء.

(٣) البيهقي "شعب الإيمان" (٣/ ١٦٦).

(٤) حسن: رواه الترمذي (٢٤٥٠) ، والحاكم (٤/ ٣٠٨) وصححه ووافقه الذَّهبي انظر الصحيحة (٢٣٣٥).

إله غيره لهي أهون عليهم من التُّراب الذي يمشون عليه.[١]

وقال أيضًا: المؤمن يُصبح حزينًا ويمسي حزينًا ويتقلب في الحزن، ويكفيه ما يكفي العنيزة.[٢]

قَالَ فضيل الرَّقاشي: يا هذا! لا يشغلنك كثرة النَّاس عن نفسك، فإن الأمر يخلص إليك دونهم، ولا تقل أذهب ها هنا وها هنا ليذهب عليَّ النهار ؛ فإنه محفوظٌ عليك، ولم نر شيئًا قط أحسن طلبًا ولا أسرع إدراكًا من حسنةٍ حديثة لذنب قديم.[٣]

(١) حلية الأولياء (٦/ ٢٧٢).
(٢) حلية الأولياء (٦/ ٢٧١).
(٣) البيهقي "الزهد الكبير" (٧٨١).

هدي السَّلف في المسارعة

أخي الحبيب: مهما حاول العبد أن يصف أحوالهم وأن يتندر بسيرهم ؛ فالعقل يحار، واللِّسان يعجز، واليد تخفق في ذكر محاسنهم ومآثرهم ولا يتم البيان! فكيف يكون الوصف بعد وصف الله لهم! كما قَالَ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا من الله وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ من أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِم الْكُفَّارَ وَعَدَ الله الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح: ٢٩]

فتأمل هذا الوصف البديع لهذه الكوكبة من الصحابة من المهاجرين والأنصار، ومعهم رسول ﷺ وهم بأكمل الصفات، وأجلِّ الأحوال، وأنهم جادون مجدون في نُصرةِ دينهم، ساعون في ذلك بغاية جهدهم، فليس للكفار منهم إلا الغلظة والشِّدة، فلذلك ذَلَّ أعداؤهم، وانكسر مخالفوهم، ومع ذلك فهم رحماء متحابون بينهم، متعاطفون كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحبه لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق!! أمَّا معاملتهم مع الخالق فإنك تراهم ركعًا سجدًا بكثرة صلاتهم التي هي العلامة والدلالة على تمام العبودية لله سبحانه وتعالى، حتى أنك ترى أثر العبادة وحسنها على وجوههم، فترى النور يشع منها فلما استنار باطنهم بالعبادة استنار الظاهر بالجلال والهيبة والعظمة، حتى أنك ترى وصفهم في الكتب السابقة، فالوصف السابق في التوراة، وأما في الإنجيل فهم كزرع نما وثبت واستقام، يُعْجِبُ من حُسْنِه الزرّاع لشدة انتفاعهم به، كذلك الصحابة في انتفاع الخلق بهم، وهم مع قوتهم واجتماعهم يهابهم الأعداء، وقد جمع الله لهم الإيمان والعمل الصالح والمغفرة والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

يا عَاذِلَ المشتاقِ دَعهُ فَإِنَّه ... يَطْوِي عَلى الزَّفَراتِ غَيْرَ حَشَاكا
لَو كَانَ قَلبُكَ قَلبَهُ ما لمتَهُ ... حَاشَاكَ ممَّا عِندَهُ حَاشَاكا

لقد كان السَّلف ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ أسرع الخلق لفعل الطّاعات والمسابقة لرضا رب البريات سبحانه وتعالى وكيف لا يكون ذلك وقد رأوا من نبيهم من المسارعة ما سبق به من قبله وأعجز من بعده ﷺ.

هدي النَّبيّ ﷺ في المسارعة:

انظر إلى هديه ﷺ في المسارعة لفعل الخيرات.

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِالمدِينَةِ الْعَصْرَ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاس إِلَى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ النَّاس من سُرْعَتِهِ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَرَأَى أَنَّهُمْ عَجِبُوا من سُرْعَتِهِ فَقَالَ: «**ذَكَرْتُ شَيْئًا من تِبْرٍ عِنْدَنَا فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ**».(١)

فانظر إلى حاله ﷺ لَمّا تذكر شيئًا من الصَّدقة أسرع وبادر إلى إخراجه ﷺ، حتى فزع الصحابة لسرعته ﷺ، بل في جميع الطاعات وكل القربات كان ﷺ له السَّبق رغم أن الله غفر ذنبه ومحا خطاياه.

عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ كَانَ يَقُومُ من اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ الله وَقَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ: «**أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا، فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَقَرَأَ ثُمَّ رَكَعَ**».(٢)

أخي الحبيب: هذا نداء رب العالمين، ومنهج خير المرسلين في المسارعة لفعل الخيرات، والمسابقة بالطاعات، وكذلك كان الصحابة ومن بعدهم أحرص النَّاس على ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٨٥١).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٧) ومسلم (٢٨٢٠).

* **أبوبكر رضي الله عنه:**

وهذا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ضرب أعظم المثل في المسابقة والمسارعة لفعل الخيرات؛ حتى أعجز من بعده أن يلحق به.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُم الْيَوْمَ صَائِمًا**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ ـ رضي الله عنه ـ: أَنَا، قَالَ: «**فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟**» قَالَ أَبُو بَكْرٍ ـ رضي الله عنه ـ: أَنَا، قَالَ: «**فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟**» قَالَ أَبُو بَكْرٍ ـ رضي الله عنه ـ: أَنَا قَالَ: «**فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟**» قَالَ: أَبُو بَكْرٍ ـ رضي الله عنه ـ: أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**».(١)

* **بين أبي بكر وعمر:**

وهذا عمر يتمنى أن يسبق أبا بكر يومًا في طاعة؛ فما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

عَنْ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**» قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟**» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ الله وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: وَالله لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا.(٢)

ويحاول عمر أن يسبق أبا بكر ببشارة لعبد الله بن مسعود، فيجد أبا بكر قد سبقه إليها.

عَنْ عُمَرَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَا يَزَالُ يَسْمُرُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ ـ رضي الله عنه ـ اللَّيْلَةَ كَذَاكَ فِي الأَمْرِ من أَمْرِ المُسْلِمِينَ، وَإِنَّهُ سَمَرَ عِنْدَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَأَنَا مَعَهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَخَرَجْنَا مَعَهُ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المَسْجِدِ، فَقَامَ

---

(١) رواه مسلم (١٠٢٨).

(٢) حسن: رواه الترمذي (٣٦٧٥) والدارمي (١٦٠٦).

رَسُولُ الله ﷺ يَسْتَمِعُ قِرَاءَتَهُ، فَلَمَّا كِدْنَا أَنْ نَعْرِفَهُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»، قَالَ: ثُمَّ جَلَسَ الرَّجُلُ يَدْعُو، فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ لَهُ: «سَلْ تُعْطَهْ سَلْ تُعْطَهْ»، قَالَ عُمَرُ ـ رضي الله عنه ـ قُلْتُ: وَالله لَأَغْدُوَنَّ إِلَيْهِ فَلَأُبَشِّرَنَّهُ، قَالَ: فَغَدَوْتُ إِلَيْهِ لِأُبَشِّرَهُ فَوَجَدْتُ أَبَا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ فَبَشَّرَهُ، وَلَا وَالله مَا سَبَقْتُهُ إِلَى خَيْرٍ قَطُّ ؛ إِلَّا وَسَبَقَنِي إِلَيْهِ.(١)

فقد كانا ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ في منافسةٍ مستمرة، ومسارعة للخير حتى أصبح الأمر عندهما يقينًا فلا تتدافع إليهما الوساوس والظنون، والغائب حاضر، والأمر عندهما مصدق ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ»! فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ الله! بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ!! فَقَالَ: «فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَمَا هُمَا ثَمَّ، وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ هَذَا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي»، فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ الله ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ!! قَالَ: «فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَمَا هُمَا ثَمَّ». (٢)

أي لم يكونا حضورا! وذلك دليل على قوة اليقين عندهما الذي لا يخالجه شك مهما كان الخبر ؛ طالما من عند الله ورسوله.

*** عثمان رضي الله عنه:**

وهذا عثمان ـ رضي الله عنه ـ ؛ ما من سبيل فيه مسابقة إلا وكان في المقدمة.

عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: لَمَّا حُصِرَ عُثْمَانُ، أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ فَوْقَ دَارِهِ ثُمَّ

---

(١) حسن: رواه أحمد (١/ ٢٥).

(٢) رواه البخاري (٣٤٧١) ومسلم (٢٣٨٨).

قَالَ: أُذَكِّرُكُمْ بِالله، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ حِرَاءَ حِينَ انْتَفَضَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اثْبُتْ حِرَاءُ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ**؟!» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: أُذَكِّرُكُمْ بِالله، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ فِي جَيْشِ الْعُسْرَةِ: «**مَنْ يُنْفِقُ نَفَقَةً مُتَقَبَّلَةً وَالنَّاسُ مُجْهَدُونَ مُعْسِرُونَ**»، فَجَهَّزْتُ ذَلِكَ الْجَيْشَ؟! قَالُوا: نَعَمْ. ثُمَّ قَالَ: أُذَكِّرُكُمْ بِالله، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ بِئْرَ رُومَةَ لَمْ يَكُنْ يَشْرَبُ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا بِثَمَنٍ ؛ فَابْتَعْتُهَا فَجَعَلْتُهَا لِلْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَابْنِ السَّبِيلِ؟! قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، وَأَشْيَاءَ عَدَّدَهَا.(١)

* علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وهذا عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ ؛ يَشْهَدُ له النَّبيّ ﷺ بالقَبولِ والفتح.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيْهِ**»، فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى، فَقَالَ: «**أَيْنَ عَلِيٌّ**؟» فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَمَرَ فَدُعِيَ لَهُ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّه لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ، فَقَالَ: نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا، فَقَالَ: «**عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَالله لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ من حُمْرِ النَّعَمِ**».(٢)

* أبو دجانة ـ رضي الله عنه ـ:

وهذا أبو دُجَانَة ـ رضي الله عنه ـ ؛ يقفُ مع الصَّحَابةِ في موضعِ منافسةٍ فيكون له السَّبقُ في ذلك.

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَخَذَ سَيْفًا يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ: «**مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذَا**»، فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنَا أَنَا، قَالَ: «**فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ**»؛ قَالَ: فَأَحْجَمَ

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٦٩٩)و النسائي (٦/ ٢٦٣) وأحمد (١/ ١٨٧-١٨٨-١٨٩) ، انظر الصحيحة (٨٧٥).

(٢) رواه البخاري (٢٩٤٢) ومسلم (٢٤٠٦).

الْقَوْمُ، فَقَالَ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ أَبُو دُجَانَةَ: أَنَا آخُذُهُ بِحَقِّهِ، قَالَ: فَأَخَذَهُ فَفَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ.(١)

*** عكَّاشة بن محصن ـ رضي الله عنه ـ:**

وهذا عكَّاشة بن محصن ـ رضي الله عنه ـ حينما يسمع عن السَّبعين ألفًا الَّذين يدخلون الجنة بغير حساب؛ يسارع بطلب الدعاء أن يكون منهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**يَدْخُلُ الْجَنَّةَ من أُمَّتِي زُمْرَةٌ هِيَ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ**»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيُّ يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ قَالَ: ادْعُ الله لِي يَا رَسُولَ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ من الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله: «**سَبَقَكَ عُكَّاشَةُ**».(٢)

*** صحابيٌّ أنصاري:**

وهذا رجل من الأنصار يسابقُ إلى إكرامِ ضيف رسول الله ﷺ، دون أن يَعْلَمَ ما عنده من طعام.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا المَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟**» فَقَالَ رَجُلٌ من الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: «**ضَحِكَ الله اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ من فَعَالِكُمَا**»، فَأَنْزَلَ الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ

---

(١) رواه مسلم (٢٤٧٠).

(٢) رواه البخاري (٥٨١١) ومسلم (٢١٦).

عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾.[١]

*** سُهيل بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ:**

وهذا سُهيل بن عمرو - والد أبي جندل - وكان من سادات قُريش وخطبائهم، تدارك ما فات من عمره في الكفر، وسارع لرضا الله سبحانه وتعالى حتى نال مكرمة عظيمة عند المسلمين.

فمن حِلْمِهِ وصِحَّة إسلامه ؛ أنه قدم المدينة في شيوخ من قريش ؛ فيهم أبو سفيان، فاستأذنوا على عمر فأبطأ عليهم، واستأذن بعدهم فقراءٌ من المسلمين فأذن لهم، فقال أبو سفيان: عجبًا يؤذن للمساكين والموالي ؛ وكبار قريش واقفون، فقال سهيل: اغضبوا على أنفسكم! فإنَّ الله دعا هؤلاء فأسرعوا، ودعاكم فأبطأتم، والله إن الذي سبقوكم إليه من الخير خيرٌ من هذا الذي تنافسون فيه من هذا الباب، ولا أرى أحدًا منكم يلحق بهم إلا أن يخرج إلى الجهادِ لعلَّ الله يرزقه الشهادة، فخرج سريعًا إلى الشّام ـ رضي الله عنه ـ، وكان يتردد في مكة إلى بعض الموالي يُقرئه القرآن فعَيَّره بعضُ قُرَيشٍ، فقال سهيل: هذا والله الكِبر الذي حال بيننا وبين الخير.[٢]

وكان سهيلٌ بعد كثير الصَّلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشّام مجاهدًا. ويقال: إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن. وكان أميرًا على كردوس[٣] يوم اليرموك.

قَالَ المدائني وغيره: واستشهد يوم اليرموك، وقيل: مات في طاعون عمواس[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤).
(٢) ابن العماد "شذرات الذهب" (١/ ٣٠).
(٣) الطائفة العظيمة من الجيش.
(٤) سير أعلام النبلاء (١٩٥).

لا تَحْقِرَنَّ مِن المعروفِ شيئًا

أخي الحبيب: هل تعلم أن حسنةً واحدةً ؛ قد تكون سببًا في نجاتك من النار ودخولك الجنة.

وأنك أمام رَبٍّ يحاسب على مثاقيل الذَّر، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [سورة الزلزلة: ٧-٨].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ**».(١)

*** فأنت ترى أن الحسنات مضاعفة، والسيئات بمثلها وعفو الله أقرب، فعلام الوقوف بلا عمل.**

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِن المعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**».(٢)

*** فخصال الخيرِ كثيرة، وأبواب البر مفتوحة، فادخل عليها بلا طَرْق، فللإيمان فقط أكثر من ستين أو سبعين شُعبة، فادخل فيها ؛ ولا تحقرن من المعروف شيئًا.**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَن الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ**».(٣)

قَالَ عبد الله بن خبيق: كَتَبَ حَكِيمٌ إلى حَكِيمٍ: يا أخي! كيف أصبحت؟! فكتب

---

(١) رواه مسلم (١١٥١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٦).

(٣) رواه مسلم (٣٥).

إليه: أصبحتُ وبنا من نِعَمِ الله ما لا نُحْصِيه ؛ مع كثرةِ ما نَعْصيه، فما نَدْرِي أيها نشكر: جميلُ ما يَنْشُرُ ؛ أو قَبيحُ ما يستر.[1]

فاصنع المعروف ولا تلتفت عند من يقع واطلب الأجر من الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: «**لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ، تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ، تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ، وَعَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ الله**».[2]

عن محمد بن يوسف قَالَ: قَالَ رجلٌ من أهل البصرة: لو أن رجلًا سمع برجلٍ، أو عرف رجلًا أطوع لله منه فانصدع قلبه ؛ لم يكن ذلك بعجب.[3]

---

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ١٢٤).
(٢) رواه البخاري (١٤٢١) ومسلم (١٠٢٢).
(٣) ابو نعيم (٨/ ٢٣٣).

السَّداد والمقاربة

فيجب أن يعلم العبد أن الفضل بيد الله، وأن رحمة الله قريبٌ من المحسنين، وأن فعل العبد يجب أن يكون موافقًا للكتاب والسنة، وما كان عليه الصحابة ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ في كل عبادةٍ صغرت أم عظمت وهو السَّداد، فإن أعجز العبدُ أمرًا فالمقاربة؛ أي قريبٌ من السَّداد، وعلى هذا يتوقف فلاحه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟! قَالَ: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ، سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا، وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ من الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا**» (١).

ويجب القصد في العبادة، وأعني بالقصد هو متابعة النَّبِيِّ ﷺ بلا زيادة أو نقص، فمتابعته ﷺ هي علامة صحةِ الفعل!!

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضي الله عنه ـ، قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ من النَّبِيِّ ﷺ! قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: أَحَدُهُمْ، أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ: آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ: آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذين قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَالله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لله، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**». (٢)

وَقَدْ آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣).

(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ من آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الآنَ، فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ».(١)

---

(١) رواه البخاري (١٩٦٨).

التباطؤ من سمات المنافقين

أخي الحبيب: احذر التباطؤ فإنه يُثقل العبد ويمنعه من السير، ولا يزال العبد يتباطأ حتى يدخل في عداد المنافقين.

فتنقطع الصلات، وتبقى الأعمال، فلا يكفي مجرد الانتساب للدين بلا عمل، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ من دُونِ الله وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [سورة النساء: ١٢٣].

وكما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٤٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**».(١)

*** فليحذر العبد من التباطؤ فإنه من سمات المنافقين:**

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ الله عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ من الله لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء: ٧١-٧٣].

وقال تَعَالَى: ﴿ إِنَّ المنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاة قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاس وَلا يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلًا (١٤٢) ﴾ [سورة النساء: ١٤٢].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**لَيْسَ صَلاَةٌ أَثْقَلَ عَلَى المنَافِقِينَ من الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ المؤَذِّنَ فَيُقِيمَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا يَؤُمُّ النَّاس، ثُمَّ آخُذَ شُعَلًا من نَارٍ فَأُحَرِّقَ عَلَى مَنْ لَا يَخْرُجُ إِلَى الصَّلاة** ».(٢)

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) رواه البخاري (٦٥٧).

وهذا ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، يحذر من التهاون والتباطؤ عن أجلِّ العبادات ؛ وهي الصَّلاة فإن ضيعها العبد فهو لغيرها أضيع.

عَنْ عَبْدِ الله قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى الله غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ الله شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ من سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا من رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ من هَذِهِ الْمسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ الله لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ».(١)

والعجيب أن أكثر النَّاس عن الآخرة متباطئون، وإلى الدنيا مسرعون، فألقى أكثرهم الحمل عن ظهره لشِدَّة مؤونته وثقله ؛ فصحبوا الدنيا صحبة الأنعام لا ينظرون في معرفة ربهم وحقه عليهم، ولا في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدَّار التي هي طريق ومعبر إلى دار القرار، ولا يتفكرون في قلة مقامهم في الدنيا الفانية، وسرعة رحيلهم إلى الآخرة الباقية، شملتهم الغفلة وغرتهم الأماني الباطلة، والخدع الكاذبة، فخدعهم طولُ الأمل، وران على قلوبهم سوء العمل، فَهِمَمُهُمْ في لذات الدنيا وشهوات النفوس كيف حصلت حصلوها، ومن أي وجه لاحت أخذوها ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا من الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [سورةالروم:٧].

﴿ نَسُوا الله فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [سورة الحشر: ١٩].

---

(١) رواه مسلم (٦٥٤).

مدار العبادة

والعبادة على تنوعها وكثرتها تدور على ثلاثة أقسام من جنس العبد ؛ وعلى رابع خارج عنه.

الثلاثة الَّذين من جنسه:

١- عبادات قلبية.

٢- عبادات قولية.

٣-عبادات بدنية.

والعبادة الخارجة عنه:

عبادات مالية.

أولاً : العبادات القلبية

أولا : العبادات القلبية

وهي أصل العبادات ومنشؤها ؛ ومنها تتفرع كُلُّ عبادة.

فإن القلب هو الملك والجوارح جنوده وهي المؤتمرة بأمره، فإذا انصلحت عبادة القلب انصلح في العبد عبادة كل جارحة، وإذا وقع خللٌ في أي جزء من عبادة القلب أخلَّ بعبادة كل جارحة، ولذلك لا ينجو كُلُّ عضو من البدن إلا بعد صلاح كل ذَرَّةٍ من القلب، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: ٨٨-٨٩].

فَأَعْمَالُ القُلُوبِ هِي التي يظهر أَثَرها عَلَى الجوارح، إذ القلب هو الأَصْلُ والجوارح تابع.

والعَمَلُ عَمَلان: عَمَلُ القَلْبِ ، وَعَمَلُ الجوارِحِ.

عن خَالِدِ بن مَعْدَان، قَالَ: مَا من آدمي إلا وله أَرْبَعُ أَعْيُنٍ، عَيْنَان في رأسه يُبْصِرُ بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يُبْصِرُ بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتح عينيه اللَّتين في قَلْبِه فَأَبْصَرَ بهما ما وُعد بالغيب ؛ فَأَمَنَ الغَيْبُ بالغَيْبِ.(١)

والعجيب أنك لا ترى أحدًا من المسلمين يسير في طريقٍ فيُغمض عينيه عن الطريق الذي يسير فيه، فإنَّ رؤية القلب أعظم من رؤية البصر، بل الأعجب أنه لا يجهل أنه لا بد من عمل الجوارح كالصلاة والصيام والزّكاة وما أشبه ذلك ، والأوضح عند المسلمين عامة الإقرار باللسان أي: "قول اللِّسان"، لكن ما يتعلق بالقلب -وهو الأهم- قد يَخْفَى على كثيرٍ من المسلمين.

ولهذا نجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخاطبنا بذلك ويبين لنا أهمية القلب فمثلًا: لما

(١) أي آمنت العينان اللتان بقلبه؛ وهما غيب بأمر الآخرة الذي هو غيب. سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣٩).

جاءَت الأَعْرَابُ ، وقالوا -كما حَكَى الله عنهم-: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٤].

فالأعراب أسلموا بمعنى: أنه حصل منهم الانقياد الظاهر، أما أصل الإقرار و التصديق الذي يكون بالقلب فوقع فيه خلل ، ولذلك لم يدخل الإيمان في قلوبهم.

فالقلب لم يصل بعد إلى أن يكون قد آمن حَقًّا ، وهذه درجة لا يجوز لأحد أن يدَّعيها فهي مِنَّةٌ من الله وفضل ، فالإيمان في الحقيقة هو إيمان القلب ، ولهذا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [سورة الحجرات: ٧] وذلك في مخاطبة المؤمنين ، فهكذا يكون تزيينه في القلب ، ودخوله فيه ، أما المؤمنون السّابقون فقد زينه في قلوبهم ، وأما الأعراب فهو لما يدخل قلوبهم بعد ، مع أن الجميع مع رسول الله ﷺ، مثلما نكون نحن في الصَّلاة - مثلًا - في المسجد، فكلنا في مسجد واحد، لكن بين هذا وذاك من التفاوت مثل ما بين السماء والأرض ، بقدر الإيمان وبقدر أعمال القلوب من الإخلاص، والخشوع، والإنابة، والإخبات، وغير ذلك من أعمال القلب.

أما أعمال الجوارح فإنها لا تكفي إذا لم تنبعث من القلب، كما حصل في عهد الرَّسُول ﷺ ، في الرجل الذي كان يبلى بلاءً شديدًا ضد المشركين ، ومع ذلك يقول الرَّسُولُ ﷺ: ﴿ أَمَا إِنَّهُ من أَهْلِ النَّارِ ﴾(١)، وربما يكون في الجيش من لم يبل بلاء ذلك الرجل، ولم يَصُلْ، ولم يجل في المعركة ، ولم يقتل مُشْرِكًا واحدًا ؛ ويكون من أهل الإيمان والتقوى، ومن أهل الجنة، لأن مدار العمل على النية والاحتساب ؛ التي هي من أعمال القلوب.

إذًا الإيمان هو : إيمان القلب ، والتقوى - أيضًا - هي: تقوى القلب ، كما قَالَ الله سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا من تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [سورة الحج: ٣٢].

ويقول ﷺ: ﴿ التَّقْوَى هَاهُنَا ، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾(٢) ، فمحل التقوى هو القلب ، والتقوى تشمل كُلَّ أعمالِ الخيرِ والبرِ والصلاحِ ، ولاسيما إذا أفردت.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٨) ومسلم (١١٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

أقسام القلوب

وأقسام القلوب ثلاثة: وهي التي تسلم ، أو تقسو ، أو تمرض. والقسوة هي الموت، وهذه الثلاث حالات تنتاب القلوب.

أما القلوب السليمة: فقد جاءت في كتابِ الله تَعَالَى ، كما في قوله تَعَالَى:

﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [سورة الشعراء: ٨٨-٨٩].

أي: خَالِصٌ متجردٌ من الشِّرك ، لا تَشُوبُهُ شَائِبَةٌ من شِرْكٍ ، أَوْ نِفَاقٍ ، أو رِيَاءٍ.

ويقول الله تبارك وتعالى في موضع آخر عن سلامة القلب في حَقِّ إبراهيم الخليل: ﴿ إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [سورة الصافات: ٨٤].

فإبراهيم عليه السلام حقَّق ذلك ، ولذلك أمر رَسُولُ الله ﷺ بالتّأسي والاقتداء به ؛ لأن قلبه عليه السَّلام سَلِمَ من الشِّرك ، ومن الولاء لغير الله ، ومن المداهنة ، والرياء، والنفاق ، فخلص وتجرد ، وتطهر لله وحده لا شريك له.

أما القلوب المريضة: فكما قَالَ الله تَعَالَى:﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [سورة النور: ٥٠].

فالقلوب تمرض ، والآيات التي تذكر أمْرَاضَ القُلُوبِ كثيرة منها قوله تَعَالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضًا ﴾ [سورة البقرة: ١٠].

وهناك طائفة كبيرةٌ محسوبةٌ ومنسوبةٌ إلى هذا الدِّين، ويأتي الحديث عن أمراض القلوب غالبًا مقترنًا بها ، وهم المنافقون - نسأل الله العفو والعافية - وهل هناك مؤمنٌ يخاف من شيء أكثر من خوفه أن يكون منافقًا ، فهذا أخشى وأخطر ما يجب أن نخافه ، فلا ينفعنا عملٌ مهما كبر وعظم مع النِّفاق ، لأن المنافقين يُنْفِقُون ؛ ولكن يُنْفِقُون وهم كَارِهون ، ويُصَلُّون ؛ ولكن يُصَلُّون وهم كارهون ، ويخرجون للجهاد ولكن كما قَالَ

تَعَالَىٰ: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ [سورة التوبة: ٤٧].

فليست المسألة في أنَّ الأعمالَ تَقَعُ ، لكن أن تكون هذه الأعمال تقع مع قَلْبٍ سَلِيمٍ من المرض ، ولهذا خاطبهم الله ووصفهم بأنهم قالوا: آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، فلا ينفع من آمن بفيه ولم يؤمن قلبه ، إلا السَّلامة من سَيفِ المؤمنين في الدنيا ؛ لأنه قد دخل في دائرةِ من عصم دمه بقول هذه الكلمة ظاهرًا ، ولهذا لما ضرب الله تَعَالَىٰ المثل لهم في أوَّل سورة البقرة قَالَ فيهم: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ من السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ من الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الموْتِ وَالله مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٩] أي: أنهم ليسوا كالكفار الَّذين لم يروا نورًا مطلقًا ، فقد رَأَوا نورًا، ولكن هل ينفعهم هذا الصيب ، وهذا البَرْق؟!

لا يَنْفَعُهم مطلقًا ، بل هو مخيف لهم ، لأنهم لم يذعنوا بقلوبهم لله تبارك وتعالى، ولو أذعنوا وآمنت قلوبهم لاستنارت، وما كان ذلك إلا نورًا في قلوبهم وحياة يحيون بها ، ويزكون بها أعمالهم ، وتسلم قلوبهم من المرض فتطمئن ، كما قَالَ الله عز وجل: ﴿ الَّذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [سورة الرعد: ٢٨].

وأما القلوب الميتة: فإنه إذا اشتد المرض بالقلب ؛ حصل الموت ، والموت: هو القَسْوَةُ كما في قول الله تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم من بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ [سورة البقرة: ٧٤] وقوله تَعَالَىٰ أيضًا: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾ [سورة الزمر: ٢٢].

أي فويل من نتائج مرض القلوب وموتها.

نتائجُ مرض القلوب

فإذا أهمل العبد قلبه أدى به إلى موتٍ عاجلٍ، وقد يتدارك العبدُ قلبه حال مرضه، أمّا عند الموت فلا يُرْجى منه خير.

وقد ورد في كتاب الله صُورٌ لموت القلوب، وألفاظٌ قريبةٌ من القسوة أو شبيهةٌ بها تدل على موت القلب - والعياذ بالله - مثل:

١- **أن يُقفل عليها** ، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [سورة محمد: ٢٤] فيقفل على هذه القلوب.

٢- **الرّان** ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون ﴾ [سورة المطففين: ١٤].

٣- **أو التغليف** ، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [سورة البقرة: ٨٨].

٤- **عدم الفقه** ، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٧٩].

٥- **الطبع و الزيغ** ، كما قَالَ تَعَالَى:﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة المنافقون: ٣]، وقال تَعَالَى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف:٥].

٦- **العمى** ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور ﴾ [سورة الحج: ٤٦] ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى الكثير من نتائج موت القلب من مثل هذا ، ولو تدبرنا في القرآن حق التدبر لوجدنا الكثير من هذه المواضع ، فيما يتعلق بمرض القلب وموته ، وأكثر من ذلك أو مثله فيما يتعلق بأعمال القلوب.

تزكية القلب

وهي سبب فلاح العبد في الدنيا والآخرة، ففلاح العبد متعلق بصلاح قلبه ؛ إذ لا نجاة ألبتة يوم القيامة إلا بصلاح القلب، كما سبق في قوله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: ٨٨-٨٩].

فلا بد من تزكية هذا القلب وسلامته حتى ينجو العبد.

فَعَنِ النُّعْمَانِ بْنَ بَشِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**».(١)

إنَّ هذا الدين إنما نزل في حقيقته لتزكية القلوب وإصلاحها ، ولهذا يقول ﷺ: «**أنا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ**».(٢)

ودعوة أبينا إبراهيم هي ما في قوله تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [سورة البقرة: ١٢٩].

فإبراهيم عليه السلام دعا الله لما بنى هذا البيت العظيم " العتيق " أن يبعث في هذه الأمة هذا الرسول ﷺ بهذه الأهداف والأغراض ، وقد استجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دعوة إبراهيم عليه السلام كما في قوله تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [سورة الجمعة: ٢].

فنلاحظ هنا أن هذه الأمور الثلاثة المدعو بها اختلف ترتيبها ، فتقدمت التزكية على التعليم ، ولاشك أن الإنسان لا يمكن أن يتزكى إلا بأن يتعلم الكتاب والسنة ،

---

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

(٢) حسن: رواه أحمد (٥/ ٢٦٢) انظر الصحيحة (١٥٤٦).

فيتعلم الهدى الذي جاء به النَّبِيّ ﷺ ؛ لكن عندما تتقدم التزكية فهي من باب تقديم الغرض والغاية على الوسيلة التي تؤدي إلى هذه الغاية.

فالأصل هو: تزكية هذه القلوب التي هي موضع نظر الله من العبد، كما في الحديث: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(١)، وهذه القلوب هي محل الابتلاء والتمحيص، ومحل الأعمال التي لو استعرضها العبد ؛ لعجب وعلم أن لهذه القلوب شأنًا عظيمًا عند الله تبارك وتعالى ، كيف لا! وبحياة القلب يحيًا الجسد ، وبموت القلب يموت الجسد.

فحياة هذا القلب بعبوديته لله، واستقامة الجوارح باستمرار القلب على هذه العبادة، ولذلك كانت عبادة القلب أهم أنواع العبادات، وأساسًا لما وراءها من العبادات.

والقلب له جنود وأعوان يوصلون إليه مادة حياته، وأيضًا مادة موته أعـــاذنا الله من موت القلوب، ولذلك فإن استقامة القلب والجوارح علامةٌ على فلاح العبد ونجاته، ووقوع الخلل بين القلب والجوارح علامة على تلف العبد وفساده، ولذلك لا غنى للقلب عن الجوارح، ولا غنى للجوارح عن القلب.

والقلب صالح لقبول الخير والشر، وإنما يكون ذلك بغلبة الباعث والداعي، فالهوى والغضب والشهوة ؛ ورودها على القلب من أعظم أعوان الشيطان على بقائه، ومن تغلب على هواه وشهوته وغضبه فقد قهر شيطانه، وضيق عليه السبل وطرده من قلبه، وأحل محله من يأمره بالخير ويحثه عليه.

فهو المقبول عند الله إذا سَلِمَ من غيرِ الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار منشغلا بغير الله.

قَالَ أبو الدرداء: كنت تاجرًا قبل المبعث، فلما جاء الإسلام جمعت التجارة

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

والعبادة، فلم يجتمعا، فتركت التجارة، ولزمت العبادة.(١)

قَالَ أبو سليمان الدّاراني، وسأله رجل عن أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل؟ فبكى، وقال: مثلي يسأل عن هذا!! أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله: أن يطلع على قلبك، وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة غيره.(٢)

فالقلب هو المطَالَب، وهو المخَاطَب، وهو المعَاتَب، وهو الذي يَسْعَدُ بالقرب من الله إذا زكّاه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودَسَّاه، هو المطيع في الحقيقة لله، وإنما الذي ينتشر على الجوارح أنواره...وهو العاصي المبتَعِد عن الله، وإنما السّاري على الأعضاء من الفواحش آثاره؛ إذ كل إناءٍ ينضح بما فيه؛ هو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه...ومن جهل قلبه فهو لغيره أجهل، ولذلك يجب على العبد أن يعرف عبادات قلبه، ويجتهد في ورودها على القلب وينميها.

وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبعية.

والقلب خلق ليحب الحق ويريده ويطلبه؛ فلما عُرِضت له إرادةُ الشّرِّ طلب دفع ذلك ورده، فإن ضَعُفت العزيمة ولم يقدر على الدفع؛ فإن القلب يفسد، كما يَفْسَدُ الزرعُ بما ينبت فيه من الدغل، ولهذا قَالَ تَعَالَى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [سورة الشمس: ٩-١٠] وقال تَعَالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [سورة الأعلى: ١٤- ١٥].

وقال تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا من أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [سورة النــور: ٣٠].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٣٧).

(٢) أبو نعيم "الحلية" (٩/ ٢٥٧).

وقال تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ من أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ الله يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة النور: ٢١].

فجعل سبحانه غض البصر، وحفظ الفرج هو أزكى للنفس التي تعطي للقلب مادة حياته، وبين أن ترك الفواحش من زكاةِ النفوس؛ وزكاةُ النُّفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك، وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ذليل بين يديه، ولو كان في الظَّاهِرِ هو الأعلى والمطاعَ فيهم؛ فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفى الحقيقة عبد مُطيع لهم، والتحقيق أن كليهما فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله، فعبادة القلب هي أشرف العبادات وأجلها على الإطلاق، وجماعها في تقوى الله في السر والعلن.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى رجلٍ: أوصيك بتقوى الله، الذي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها؛ فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل.(١)

فإصلاح القلب مع تهذيب النفس ينشط عبادة القلب؛ ويرتقي بها إلى الكمال.

قَالَ مَالِكُ بن دينار: إن لله عقوبات في القلوب والأبدان: ضنك في المعيشة، ووهن في العبادة، وما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب.(٢)

فالإقبال على القلب وتعهده، ومتابعة حالاته من أعظم أسباب نجاته.

باع ابن عمر جملًا، فقيل له لو أمسكته، فقال: قد كان لنا موافقًا، ولكنه قد أذهب بشعبة من قلبي، فكرهت أن يشتغل قلبي بشيء.(٣)

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٢٦٧).
(٢) حلية الأولياء (٦/ ٢٨٧).
(٣) أبو نعيم "الحلية" (٨/ ١٤٨).

قَالَ يوسف بن أسباط: تعلَّموا صحة العمل من سقمه، فإني تعلمته في اثنتين وعشرين سنة[١].

وعن بكر بن عبد الله المزني، قَالَ: لَوْلَا ما أعرف من نفسي لمقت النَّاس.[٢]

وقال الفضيل بن عياض: لا يترك الشيطان الإنسان حتى يحتال له بكل وجه ؛ فيستخرج منه ما يخبر به من عمله، لعله يكون كثير الطَّواف، فيقول: ما كان أحلى الطَّواف الليلة، أو يكون صائمًا، فيقول: ما أثقل السحور، أو ما أشد العطش، فإن استطعت أن لا تكون محدثًا، ولا متكلمًا، ولا قارئًا ؛ إن كنت بليغا قالوا: ما أبلغه وأحسن حديثه، وأحسن صوته، فيعجبك ذلك! فتنتفخ، وإن لم تكن بليغًا ولا حسن الصوت، قالوا: ليس يُحْسِن يُحَدِّث، وليس صَوْتُه بحسن، أحزنك وشق عليك، فتكون مرائيًا، وإذا جلست فتكلمت، ولم تبال من ذمك، ومن مدحك ؛ فتكلم.[٣]

وقال الفضيل بن عياض أيضا: ما يؤمنك أن تكون بارزت الله بعمل مقتك عليه، فأغلق دونك أبواب المغفرة، وأنت تضحك! كيف ترى أن يكون حالك؟!.[٤]

قَال يحيى بن يحيى: كُنت عند سفيان بن عيينة إذ جاء رجل، فقال: يا أبا محمد أشكو إليك من فلانة، يعني امرأته أنا أذلُّ الأشياءِ عندها، وأحقرها، فأطرق سفيان مليًا ثم رفع رأسه، فقال: لعلك رغبت إليها لتزداد عزًا، فقال: نعم يا أبا محمد، قَالَ: من ذهب الى العزِّ ابتلي بالذُّل، ومن ذهب الى المال ابتلي بالفقر، ومن ذهب الى الدِّين يجمع الله له العزَّ والمال مع الدِّين، ثم أنشأ يحدثه، فقال: كنا إخوة أربعة: محمد وعمران وإبراهيم وأنا، فمحمد أكبرنا، وعمران أصغرنا، وكنت أوسطهم، فلما أراد محمد أن يتزوج رغب في الحسب، فتزوج من هي أكبر منه حسبًا، فابتلاه الله بالذُّل، وعمران

(١) أبو نعيم "الحلية" (٨/ ٢٤٤).
(٢) التاريخ الكبير (٨/ ٢١٦).
(٣) أبو نعيم "الحلية" (٨/ ٩١).
(٤) أبو نعيم "الحلية" (٨/ ١٠٠).

رغب في المال فتزوج من هي أكثر منه مالًا فابتلاه الله بالفقر ؛ أخذوا ما في يديه ولم يعطوه شيئًا، فبقيت في أمرهما حائر، فقدم علينا معمر بن راشد فشاورته، وقصصت عليه قصة إخوتي، فذكَّرني حديث يحيى بن جعدة، وحديث عائشة، فأما حديث يحيى بن جعدة، عَن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «تُنْكَحُ المرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ» (١).

وحديث عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَعْظَمَ النِّكَاحِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُ مُؤْنَةً».(٢)

فاخترت لنفسي الدِّين، وتخفيف الظهر ؛ اقتداءًا بسنة رسول الله ﷺ، فجمع الله لي العز، والمال مع الدِّين.(٣)

خرج ابن محيريز إلى بزاز يشتري منه ثوبًا، والبزاز لا يعرفه، وعنده رجل يعرفه، فقال: بكم هذا الثوب؟ قَالَ الرجل: بكذا وكذا، فقال الرجل الذي يعرفه: أحسن إلى ابن محيريز، فقال ابن محيريز: إنما جئت أشتري بمالي، ولم أجئ أشتري بديني، فقام ولم يشتر.(٤)

قَالَ الرَّبيع بن صبيح: قلت للحسن: إنَّ هاهنا قومًا يتبعون السَّقط من كلامك، ليجدوا إلى الوقيعة فيك سبيلا، فقال: لا يكبر ذلك عليك، فلقد أطمعت نفسي في خلود الجنان فطمعت، وأطمعتها في مجاورة الرحمن فطمعت، وأطمعتها في السَّلامة من النَّاس فلم أجد إلى ذلك سبيلا، لأني رأيت النَّاس لا يرضون عن خالقهم، فعلمت أنهم لا يرضون عن مخلوق مثلهم.(٥)

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩٠) ومسلم (١٤٦٦)
(٢) ضعيف: رواه أحمد (٦/ ٨٢-١٤٥) ابن أبي شيبة (١٦٣٨٤) البيهقي (٧/ ٢٣٥) ، ذكره الألباني في ضعيف الجامع (٩٦٢)
(٣) أبو نعيم "الحلية" (٧/ ٢٨٩)
(٤) أبو نعيم "الحلية" (٥/ ١٣٨)
(٥) أبو نعيم "الحلية" (٦/ ٣٠٥)

*** نصيحة من ابن الجوزي:**

قال رحمه الله (١): تفكرت في نفسي يومًا تفكر محقق، فحاسبتها قبل أن تحاسب، و وزنتها قبل أن توزن، فرأيت اللَّطف الرَّباني، فمنذ الطفولة وإلى الآن أرى لطفًا بعد لطف، وسترًا على قبيح، و عفوًا عما يوجب عقوبة، وما أرى لذلك شكرًا إلا باللِّسان.

ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعًا، و لو كشف للناس بعضها لاستحييت، ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب، حتى يظن في ما يُظنُّ في الفسَّاق، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي، ووقعت بتأويلات فاسدة.

فصرت إذ دعوت أقول: اللَّهم بحمدك وسترك علي اغفر لي.

ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي.

ثم أنا أتقاضى القدر مراداتي و لا أتقاضى نفسي بصبر على مكروه، و لا بشكر على نعمة، فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم، و كوني أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به.

و قد كنت أرجو مقامات الكبار، فذهب العمر وما حصل المقصود.

فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما نحت فأعجبتني نياحته، فكتبتها هاهنا.

قَالَ لنفسه: يا رعناء تقومين الألفاظ ليقال مناظر ؛ و ثمرة هذا أن يقال: يا مناظر كما يقال للمصارع الغاره.

ضيعت أعزَّ الأشياء وأنفسها عند العقلاء، وهي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غدًا اسم مناظر، ثم ينسى الذاكر والمذكور إذا درست القبور.

هذا إن تأخر الأمر إلى موتك، بل ربما نشأ شاب أفره منك، فموهوا له و صار الاسم له.

---

(١) صيد الخاطر (٤٦٢)

والعقلاء عن الله تشاغلوا بها ـ إذا انطووا ـ نشرهم ، و هو العمل بالعلم ، و النظر الخالص لنفوسهم.

أُفٍّ لنفسي و قد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم ، و ما علق بها فضيلة، إن نوظرت شمخت ، وإن نوصحت تعجرفت ، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم ، وسقطت عليها سقوط الغراب على الجيف.

فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة.

توفر في المخالطة عيوبًا تبلى، ولا تحتشم نظر الحق إليها.

وإن انكسر لها غرض تضجرت ، فإن امتدت بالنعم اشتغلت عن المنعم.

أف والله مني اليوم على وجه الأرض و غدًا تحتها.

والله إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب ؛ أقل من نتن خلائقي وأنا بين الأصحاب.

والله إنني قد بهرني حلم هذا الكريم عني ؛ كيف يسترني وأنا أتهتك ، ويجمعني وأنا أتشتت.

وغدًا يقال: مات الحبر العالم الصالح ، و لو عرفوني حق معرفتي بنفسي ما دفنون.

والله لأنادين على نفسي نداء المتكشفين معائب الأعداء.

ولأنوحن نوح الثَّاكلين للأبناء ؛ إذ لا نائح لي ينوح علي لهذه المصائب المكتومة ، والخلال المغطاة التي قد سترها من خبرها ، و غطّاها من علمها.

والله ما أجد لنفسي خلة أستحسن أن أقول متوسلًا بها: اللهم اغفر لي كذا بكذا.

والله ما التفت قط إلا وجدت منه سبحانه برًا يكفيني ، ووقاية تحميني ، مع تسلط الأعداء.

ولا عرضت حاجة فمددت يدي إلا قضاها. هذا فعله معي ، وهو رب غني عني، و هذا فعلي و أنا عبد فقير إليه. ولا عذر لي فأقول: ما دريت أو سهوت.

والله لقد خلقني خلقًا صحيحًا سليمًا ، و نوَّر قلبي بالفطنة ، حتى أن الغائبات و المكنونات تنكشف لفهمي.

فوا حسرتاه! على عُمْرٍ انقضى فيما لا يطابق الرِّضا.

وا حرماني! لمقامات الرجال الفطناء. يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله ، وا شماتة العدو بي.

وا خيبة من أحسن الظن بي إذا شهدت الجوارح علي.

وا خذلاني عند إقامة الحجة ، سخر والله مني الشيطان وأنا الفطن.

اللهم توبة خالصة من هذه الأقذار ، و نهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار.

وقد جئتك بعد الخمسين و أنا من خلق المتاع.

وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم ، و ليس لي وسيلة إلا التأسف و الندم.

فوالله ما عصيتك جاهلًا بمقدار نعمك ، و لا ناسيًا لما أسلفت من كرمك ، فاغفر لي سالف فعلي.

أنواع عبادة القلب

وهذه العبادات تتنوع على القلب وهي كثيرة منها:

* المحبة.
* والذل.
* والخوف.
* والخشية.
* والخشوع.
* والرَّجاء.
* والصِّدق.
* والصبر.
* والتوبة.
* والإنابة.
* والإخبات.
* والتسليم.
* والتوكل.
* ......إلخ.

١- المحبة

والمحبة اسم للحُبِّ، وهو فراغ القلب إلا بمن تعلق به، ويعظم ويقل بحسب التعلق، فإذا فرغ القلب من كلِّ شيء إلا من الله، وعلت محبة الله فوق كُلِّ محبة ؛ فقد قام القلب بهذه العبادة كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥].

والمحبة تأتي من مشهد المنة من الله سبحانه ؛ فكلما نظر العبد وتأمل يرى نعم الله قد أحاطت به وغمرته ظاهرا وباطنا، وما يرى من نعمة إلا وهي من الله سبحانه قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا بِكُمْ من نِعْمَةٍ فَمِن الله ﴾ [سورة النحل: ٥٣].

وقال تَعَالَى: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ الله لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤].

فالعبد مجبول على محبة من أنعم إليه، فكُلَّما شاهد هذه النعم وعاينها أورثت عنده حبًا لله سبحانه وتعالى.

وبقدر هذه المحبة بقدر سير العبد إلى ربه ومولاه، وكلَّما عظمت المحبة في قلب العبد كلَّما عظم العمل، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضي الله عنه ـ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»**(١).

فالله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له التي لا تكون إلا بأكملِ أنواعِ المحبة مع أكملِ أنواعِ الخضوعِ والذل، وهذا هو حقيقة الإسلام ومِلَّة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٠].

---

(١) رواه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣)

ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشِّرك، والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وأصل الشِّرك بالله الإشراك مع الله في المحبة كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ من دُونِ الله أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله وَلَوْ يَرَى الَّذين ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ الله شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [سورة البقرة:١٦٥].

قَالَ ابن القيم رحمه الله[1]: فأخبر سبحانه أن من النَّاس من يشرك به من دونه، فيتخذ الأنداد من دونه يحبهم كحب الله، وأخبر أن الَّذين آمنوا أشد حبًا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم، وقيل: بل المعني أنهم أشد حبًا لله من أصحاب الأنداد، فإنهم وإن أحبُّوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين أندادهم في المحبة ضعفت محبتهم لله، والموحدون لله لما خَلُصَت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك، والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة، ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له ؛ أنكر على من اتخذ من دونه وليًا أو شفيعًا غاية الإنكار، وجمع ذلك تارة، وأفرد أحدهما عن الآخر تارة، فقال تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا من شَفِيعٍ إِلاَّ من بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة يونس: ٣].

وقال تَعَالَى الله: ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ من وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة السجدة:٤].

وقال تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذين يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنعام:٥١].

وقال في الإفراد: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا من دُونِ الله شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا

(١) الداء والدواء(٢١٩)

وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لله الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٤٣-٤٤].

وقال تَعَالَى: ﴿ من وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا من دُونِ الله أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة الجاثية: ١٠].

فإذا والى العبد ربه وحده، وأقام له وليًا من شفعاء، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين، فصاروا أولياء في الله، بخلاف من اتخذ مخلوقًا وليًّا من دون الله فهذا لون وذاك لون، والشَّفاعة الشِّركية الباطلة لون، والشَّفاعة الحقة الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون، وهذا موضع فُرقانٍ بين أهل التوحيد وأهل الإشراك بالله، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.اهـ.

وقال أيضًا: فمحبة الله هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شَخَص [(١)] العاملون، وإلى علمها شمر [(٢)] السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح [(٣)] نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عُدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كلُّه هموم وآلام.

وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال ؛ التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه ؛ تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتُوصلهم إلى منازلَ لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوّئهم من مقاعدِ الصِّدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها. وهي مطايا القوم التي مسراهم على

---

(١) نظر.
(٢) استعد.
(٣) رائحة.

ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معية [١] محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدّر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أنَّ المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة.

تالله لقد سَبَقَ القَوْمُ السُّعَاةَ وَهُمْ على ظُهورِ الفُرُشِ نائمون وقد تقدموا الرَّكب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

وأوّل نقدة [٢] من أثمان المحبة بذل الرُّوح؛ فما للمفلس الجبان البخيل وسومها[٣]؟!

بِدَمِ المحِبِّ يُبَاعُ وَصْلُهُمُ فَمَنِ الَّذِي يَبْتَاعُ بِالثَّمَنِ؟

تالله ما هُزلت فيستامها [٤] المفلسون، ولا كَسَدَتْ فيبيعها بالنَّسِيئة [٥] المعسرون، لقد أُقيمت للعرض في سُوق من يزيد، فلم يرض لها بثمنٍ دون بذل النفوس؛ فتأخر البطّالون، وقام المحبون ينظرون، أيهم يصلح أن يكون ثمنًا؟ فدارت السِّلعة بينهم، ووقعت في يد ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

ولما كثر المدَّعون للمحبة؛ طُولبوا بإقامة البيِّنة على صِحَّةِ الدعوى، فلو يعطى النَّاس بدعواهم لادَّعى الخَلِيُّ حُرْقَةَ الشَّجِي [٦]، فتنوع المدَّعون في الشُّهود فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُم الله ﴾ [سورة آل عمران: ٣١] فتأخر الخلق كُلُّهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه،

---

(١) صحبة.
(٢) النقد الذي يشترى به.
(٣) وشرائها.
(٤) يشتريها.
(٥) الأجل.
(٦) الخلي من خلى قلبه ممن ينشغل به، والشجي عكسه، والحرقة شدة الألم.

فطولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [سورة المائدة: ٥٤] فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم ؛ فهلموا إلى بيعة ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [سورة التوبة: ١١١] فلمّا عَرِفوا عِظَمَة المشْتَرى، وفضل الثمن وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع: عرفوا قدر السِّلعة، وأنَّ لها شأنًا ؛ فرأوا من أعظم الغبن(١) أن يبيعوها لغيره بثمنٍ بخسٍ فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتَّراضي من غير ثبوت خيار، وقالوا: " وَالله لَا نَقِيلُكَ (٢) وَلَا نَسْتَقِيلُك (٣) ".

فلمّا تمَّ العقد وسلَّموا المبيع ؛ قيل لهم مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافها معًا ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩- ١٧٠] فإذا غُرست شجرة المحبة في القلب، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كلَّ حين بإذن ربها.(٤) اهـ.

أنواع المحبة

والمحبة النافعة التي تجلب للعبد الخير والفلاح ثلاثة أنواع:

١ -محبة الله.

٢- المحبة في الله.

٣- محبة ما يعين على طاعة الله.

---

(١)

(٢)

(٣) ولا نطلب منك فسخه

(٤) ابن القيم رحمه الله "مدارج السالكين" (٣/ ٨)

* أولا: محبة الله:

وهي رُوحُ العبدِ ونَبَضَاتُهُ وأَنْفَاسُهُ، فبغير هذه المحبة لا حياة ولا وجود للعبد ألبتة، فإذا تحققت في قلب العبد محبة الله ؛ تكون أفضل من محبة النفس فما دونها، فلا يرى العبد نعمة إلا من الله، ولا منة إلا من الله، ويرى الفضل كُلَّه منه وإليه سبحانه. فالعبد هو الفقير وهو الضعيف وهو الذليل ؛ فلا غنى ولا قوة ولا عز إلا من الله.

فهو سبحانه المتفرد بالكمال في أسمائه وصفاته وأفعاله، والكمال أن تجتمع المحبة والود والتعظيم والإجلال، وهذا لا يوجد إلا إذا كان في المحبوب صفات الكمال التي يستحق أن يعظم لأجلها ويحب لها ؛ ولما كان الله سبحانه وتعالى أحق بهذا من كل أحد ؛ كان هو المستحق لأن يعظم ويكبر ويهاب ويحب ويود بكُلِّ جزء من أجزاء القلب، ولا يجعل له شريك في ذلك، وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله سبحانه، وهو أن يسوى بينه وبين غيره في هذا الحب، قَالَ تَعَالَى: ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذين كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة الأنعام:١] أي: يجعلون له عدلا في العبادة والمحبة والتعظيم ؛ وهو الذي خلق المكان وما في كُلِّ مكان، وخلق الزَّمان وما في كل زمان.

ولذلك عذب سبحانه من أشرك معه غيره في المحبة ؛ كما قَالَ سبحانه عن أهل النار وهم يخاطبون معبودهم: ﴿ تَالله إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء: ٩٧- ٩٨]

ولم تكن تسويتهم بالله في كونهم خلقوا السَّماوات والأرض، أو خلقوهم أو خلقوا آباءهم، وإنما سووهم برب العالمين في الحب لهم كما يُحَبُّ الله! فإن حقيقة العبادة أصلها ومنشؤها الحب، فإن المحب يُقدم النفس فما دونها لله سبحانه وتعالى وكل ذلك في ذات الله هين، وإليك هذه القصة.

عَنْ أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ، قَالَ: لَمَّا طُعِنَ حَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ - وَكَانَ خَالَهُ - يَوْمَ بِئْرِ

مَعُونَةَ، قَالَ بِالدَّمِ هَكَذَا فَنَضَحَهُ عَلَى وَجْهِهِ وَرَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ.(١)

فهذه سرية القراء، يبعثهم النَّبِيّ ﷺ إلى أقوام من بني عامر يعلمونهم القرآن فغدروا بهم ؛ فلما طُعن حرام بن ملحان وتدفق الدَّم من صدره ؛ ملأ كفيه و نضحه على وجهه وهو يعبر عن شدة فرحه وحلاوة القرب، فأنساه لذة الحب ؛ ألم ما يجد في سبيل الله، فقال: فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ.

بل نرى المحب يريه الله العلامات والدلالات على قربه ودنوه من ربه، فيرى ما لا يراه النَّاس، ويشم ما لا يشمه النَّاس، ويسمع ما لا يسمعه النَّاس، فهذا أنس بن النضر شم رائحة الجنة قبل أن يصل إلى جبل أُحد ؛ فألقى بنفسه في حمم المعركة حتى دخلها.

عَنْ أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ، قَالَ: عَمِّيَ الَّذِي سُمِّيتُ بِهِ لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بَدْرًا، قَالَ: فَشَقَّ عَلَيْهِ، قَالَ: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ الله ﷺ غُيِّبْتُ عَنْهُ، وَإِنْ أَرَانِيَ الله مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيَرَانِي الله مَا أَصْنَعُ، قَالَ: فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، قَالَ: فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ: يَا أَبَا عَمْرٍو أَيْنَ؟ فَقَالَ: وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ، قَالَ: فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ، قَالَ: فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ من بَيْنِ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، قَالَ: فَقَالَتْ أُخْتُهُ عَمَّتِيَ الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]قَالَ: فَكَانُوا يُرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ.(٢)

وهذه سَرِيَّة يرسلها النَّبِيّ ﷺ فيحاط بهم ؛ ويظهر الله من الآيات ما يُثبت صِدْق محبتهم لله سبحانه وتعالى، إنها سرية عاصم بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٩٢)
(٢) رواه مسلم (١٩٠٣)

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ عَشَرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةً عَيْنًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فَانطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَأَةِ وَهُوَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ، ذُكِرُوا لِحَيٍّ من هُذَيْلٍ، يُقَالُ: لَهُمْ بَنُو لَحْيَانَ فَنَفَرُوا لَهُمْ قَرِيبًا من مِائَتَيْ رَجُلٍ كُلُّهُمْ رَامٍ فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمْ تَمْرًا تَزَوَّدُوهُ من المدِينَةِ، فَقَالُوا: هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ، فَلَمَّا رَآهُمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَئُوا إِلَى فَدْفَدٍ، وَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ، فَقَالُوا لَهُمْ: انزِلُوا وَأَعْطُونَا بِأَيْدِيكُمْ وَلَكُمُ الْعَهْدُ وَالميثَاقُ وَلَا نَقْتُلُ مِنْكُمْ أَحَدًا، قَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ أَمِيرُ السَّرِيَّةِ: أَمَّا أَنَا فَوَالله لَا أَنْزِلُ الْيَوْمَ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةٍ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ بِالْعَهْدِ وَالميثَاقِ، مِنْهُمْ خُبَيْبٌ الْأَنْصَارِيُّ وَابْنُ دَثِنَةَ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَأَوْثَقُوهُمْ، فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ: هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ، وَالله لَا أَصْحَبُكُمْ إِنَّ لِي فِي هَؤُلَاءِ لَأُسْوَةً يُرِيدُ الْقَتْلَى فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَأَبَى، فَقَتَلُوهُ، فَانطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَابْنِ دَثِنَةَ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَابْتَاعَ خُبَيْبًا بَنُو الحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الحَارِثَ ابْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا، فَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُالله بْنُ عِيَاضٍ أَنَّ بِنْتَ الحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا ؛ اسْتَعَارَ مِنْهَا مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ، فَأَخَذَ ابْنًا لِي وَأَنَا غَافِلَةٌ حِينَ أَتَاهُ، قَالَتْ: فَوَجَدْتُهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالموسَى بِيَدِهِ، فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ فِي وَجْهِي، فَقَالَ: تَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ، وَالله مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا من خُبَيْبٍ، وَالله لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ من قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الحَدِيدِ، وَمَا بِمَكَّةَ من ثَمَرٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ من الله رَزَقَهُ خُبَيْبًا، فَلَمَّا خَرَجُوا من الحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الحِلِّ، قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ: ذَرُونِي أَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ فَتَرَكُوهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَطَوَّلْتُهَا، اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا.

مَا أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ للهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فَقَتَلَهُ ابْنُ الْحَارِثِ، فَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ لِكُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا، فَاسْتَجَابَ الله لِعَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ يَوْمَ أُصِيبَ فَأَخْبَرَ النَّبِيّ ﷺ أَصْحَابَهُ خَبَرَهُمْ، وَمَا أُصِيبُوا وَبَعَثَ نَاسٌ من كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ لِيُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ رَجُلًا من عُظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَبُعِثَ عَلَى عَاصِمٍ مِثْلُ الظُّلَّةِ من الدَّبْرِ فَحَمَتْهُ من رَسُولِهِمْ ؛ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَقْطَعَ من لَحْمِهِ شَيْئًا. (١)

فَوْتُ المحبةِ أشدُّ من الموت:

فمحبة الله سبحانه وتعالى أُنْسٌ، والقرب منه عز، وعبوديته رفعة، فأعظم ما في هذه الحياة معرفة الله سبحانه وتعالى، فمن عرفه فقد عرف كُلَّ شيء، ومن لم يعرف الله سبحانه فقد خسر كُلَّ شيء.

ولهذا كان فوت المحبة عند العابدين أشدَّ عليهم من الموت ؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق ؛ والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين!!

فمن قرت عينه بالله فقد قرت به كُلُّ عين، ومن أحبه الله فقد وضع له القبول في الأرض.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَحَبَّ الله الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**». (٢)

وقال يحيى بن معاذ: مَنْ سُرَّ بِخِدْمَةِ الله، سُرَّت الأَشْيَاءُ كُلُّهَا بِخِدْمَتِه، وَمَنْ قَرَّتْ

(١)رواه البخاري (٣٠٤٥)
(٢)رواه البخاري (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧)

عَيْنُهُ بالله، قَرَّتْ عُيُونُ كُلِّ أَحَدٍ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ.(١)

قَالَ ابن القيم رحمه الله(٢): والحبُّ يسوقك إلى محبوبك سوقًا ؛ ولما علم الله سبحانه أن قلوب المشتاقين إليه لا تهدأ إلا بلقائه ؛ ضرب لهم أجلًا للقاء تسكينًا لقلوبهم، فقال الله تَعَالَى:﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ﴾ [سورة العنكبوت: ٥].

يا مَنْ شَكَى شَوْقَهُ من طُولِ فُرْقَتِهِ ... اصبِرْ لَعَلَّكَ تَلْقَى مَنْ تُحِبُّ غَدَا
وَسِرْ إِلَيْهِ بِنَارِ الشَّوْقِ مُجْتَهِدًا ... عَسَاكَ تَلْقَى عَلَى نَارِ الغَرَامِ هُدَى

المحبُ الصّادِقُ كُلَّما قَرُبَ من مَحْبُوبِهِ زَادَ شَوْقًا إليه.

وَأَعْظَمُ مَا يَكُونُ الشَّوقُ يَوْمًا ... إِذَا دَنَتِ الخِيامُ من الخِيامِ

كلما وَقَعَ بَصَرُ المحب على محبوبه أحدثت له رؤيته شوقًا على شوقه.

مَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْهُ حِينَ يُبْصِرُهُ ... حَتى يَعُودَ إِلَيهِ الطَّرْفُ مُشْتَاقَا

المحب الصادق إذا سافر طرفه في الكون لم يجد له طريقا إلا على محبوبه، فإذا انصرف بصره عنه رجع إليه خاسئا وهو حسير.

وَيَسْرَحُ طَرْفِي فِي الأَنَامِ وَيَنْثَنِي ... وَإِنْسَانُ عَيْنِي بِالدُّمُوعِ غَرِيقُ
فَيَرْجِعُ مَرْدُودًا إِلَيكِ وَمَالَهُ ... عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكِ طَرِيقُ

أَقَرُّ شيءٍ لعيون المحب خَلوته بسرِّه مع محبوبه ؛ حدثني من رأى شيخنا(٣) في عنفوان أمره خرج إلى البرية بُكرةً فلمّا أصحر تنفس الصعداء ثم تمثل بقول الشاعر:

وَأَخْرُجُ من بَيْنِ البُيُوتِ لَعَلَّنِي ... أُحَدِّثُ عَنْكِ القَلْبَ بِالسِّرِّ خَالِيا

---

(١) البيهقي "الزهد الكبير" (٧٢٦)
(٢) روضة المحبين (٣٩٣)
(٣) يقصد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

الشُّوق يحمل المحب على العجلة في رضا المحبوب، والمبادرة إليها على الفور ؛ ولو كان فيها تلفه، قَالَ تَعَالَى:﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ [سورة طه: ٨٣-٨٤]

قَالَ بعضهم: أراد شوقًا إليك ؛ فستره بلفظ الرِّضا.

وَلَو قُلْتِ طَأْ فِي النّارِ أَعْلَمُ أَنَّهُ ... رِضًا لَكَ أَوْ مُدْنٍ لَنَا من وِصَالِكِ
لَقَدَّمْتُ رِجْلِي نَحْوَهَا فَوَطِئتُها ... هُدًى مِنْكِ لِي أَو ضَلّةً من ضَلالِكِ
لِيَهْنَك إِمْسَاكِي بِكَفِّي عَلَى الحَشَا ... وَرَقْرَاق عَيْنِي خَشْيَة من زَيالِكِ
وَإِنْ سَاءَنِي أَنْ نِلْتَنِي بِمُسَاءَةٍ ... لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكِ

من علامات المحبة الصادقة: أن المحب لا يتم له سرور إلا بمحبوبه، وما دام غائبًا عنه فعيشه كُلُّه مُنَغَّص.

نَحْنُ فِي أَكْمَلِ السُّرُورِ وَلَكِن ... لَيْسَ إِلَّا بِكُمْ يَتِمُّ السُّرُورُ
عَيْبُ مَا نَحْنُ فِيهِ يَا أَهْلَ وُدِّي ... أَنَّكُمْ غُيَّبٌ وَنَحْنُ حُضُورُ

وقال آخر:

مَنْ سَرَّهُ العِيدُ الجَدِيدُ ... فَقَدْ عُدِمْتُ بِهِ السُّرُورَا
كَانَ السُّرُورُ يَتِمُّ لِي ... لَوْ كَانَ أَحْبَابِي حُضُورَا

لو قيل للمحب على الدَّوام ما تتمنى؟ لقال: لقاء المحبوب.

وَلما نَزَلْنَا مَنْزِلًا طَلَّهُ النَّدَى ... أَنِيقًا وَبُسْتَانًا من النُّورِ خَالِيا
أَجَدَّ لَنَا طِيبُ المكَانِ وَحُسْنُهُ ... مُنًى فَتَمَنَّيْنَا فَكُنْتِ الأَمَانِيَا

وقال الجنيد: سمعت السَّري يقول: الشَّوقُ أَجَلُّ مَقَامِ العَارِفِ إذا تحقق فيه، وإذا تحقق بالشوق لها عن كل ما يشغله عمن يشتاق إليه.

وقيل: أوحى الله تَعَالَى إلى داود عليه السلام: قُلْ لشُبَّانِ بني إسرائيل: لم تشغلون

نفوسكم بغيري وأنا مشتاق إليكم؟! ما هذا الجفاء؟! ولو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم ومحبتي لترك معاصيهم لماتوا شوقًا إلي، وانقطعت أوصالهم من محبتي، هذه إرادتي للمدبرين عني ؛ فكيف إرادتي للمقبلين علي؟!!

وسُئِلَ الجنيد: من أي شيءٍ بُكَاءُ المحِبُّ إذا لقي المحبوب؟

فقال: إنما يكون ذلك سرورًا به ووجدًا من شِدَّةِ الشَّوق إليه.

قَالَ: ولقد بلغني أن أخوين تعانقا، فقال أحدهما: واشوقاه وقال الآخر: واوجداه.

وكانت عجوز لها غائب؛ فقدم من السفر فأظهر أهلها الفرح والسرور به، فجعلت تبكي! فقيل لها: ما هذا البكاء؟ فقالت: ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله.

وقال بعض المحبين: قلوب المشتاقين منورة بنور الله ؛ فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور ما بين السَّماء والأرض ؛ فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة ؛ فيقول: هؤلاء المشتاقون إلي أُشهدكم أني إليهم أشوق. (١) اهـ.

* ثانيًا: المحبة في الله:

وهي من أوثق عُرَى الإيمان، وبها يتميز الخلان، وعليها مدار الصِّدق والإيمان، فكل محبة وتعظيم للبشر فإنما تجوز تبعًا لمحبة الله وتعظيمه، كمحبة رسوله ﷺ وتعظيمه، فإنها من تمام محبةِ مُرسله وتعظيمه، فإنَّ أمته يحبونه لحب الله له، ويعظمونه ويجلونه لإجلال الله له، فهي محبة لله من موجبات محبة الله سبحانه، وكذلك محبة الصحابة - رَضِيَ الله عَنْهُم - وإجلالهم، ومحبة أهل العلم والإيمان، كل ذلك تابعٌ لمحبة الله ورسوله لهم، وكذلك محبة الوالدين، والزوجة والأبناء والأهل، والأصحاب والخلان، ولذلك يجب التمييز في هذه المحبة بين ما هو لله وفي الله التي هي

---

(١) من روضة المحبين (٣٩٣)

من كمال التوحيد، وتمام الإخلاص، وبين محبة الأنداد التي هي شرك بالله، ولذلك إذا لاح حبٌّ مع الله عز وجل وعُرِض على القلب ؛ فيجب أن يصرف عنه فورا ويسد أمامه كل منفد حتى لا يصل إليه منه شيء إلا برضًا من الله.

تأمل محبة الصحابة ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ فيما بينهم، وكيف اجتمعت قلوبهم بعد شتاتٍ وفرقة ؛ على محبة الله وطاعته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال: ٦٣].

فإذا ما قرأ العبد مثل هذه الآية علم أن ما كان من هذا التأليف بين قلوب الصحابة رضوان الله عليهم ما كان له أن يكون إلا بالحب ، وهو النعمة التي شغفت بها قلوبهم ، واستضاءت بها صدورهم ، وارتحلت إليها إراداتهم ، فالتقت جميعها على أمر قد قُدِّر لها ؛ وهو اتحاد القلوب على محبة الله وطاعته، ومن ثم تبعهم من السَّلف على هذه الحالة بإحسان، وهم يقتفون أثرهم وينزلون منازلهم، بما يجيش في صدورهم من حب، وبما يحدوهم من حنين للقاء في جنة الخلد. فأرواح أهل الإيمان تهيم بحثًا عن أقرانها، وكذلك الأرواح الخبيثة تبحث عن نظرائها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**». (١)

*** فالطباع جمّاعة، والنفوس جوّالة ؛ تبحث عن أقرانها ونظرائها:**

عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحمَنِ: أَنَّ امْرَأَةً من أَهْلِ مَكَّةَ كَانَتْ تُضْحِك النِّسَاءَ، وَكَانَتْ تَدْخُلُ عَلَى عَائِشَةَ أُمِّ المؤمنين، وَكَانَتْ أُخْرَى بِالمدِينَةِ، وَإِنَّ المكِّيَّةَ قَدِمَتْ فَلَقِيَتِ المدَنِيَّةَ ؛ فَوَافَقَتْهَا فَدَخَلَتَا عَلَى عَائِشَةَ جَمِيعًا فَلَمَّا رَأَتْ من اتِّفَاقِهِمَا ؛ قَالَتْ لِلْمَكِّيَّةِ: أَكُنْتِ تَعْرِفِينَ

(١) رواه مسلم (٢٦٣٨).

هَذِهِ، قَالَتْ: لا ؛ وَلَكِنَّا التَقَيْنَا فَتَعَارَفْنَا. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: صَدَقْتِ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**».(١)

ولذلك نرى هذه المحبة قد جعلها الله سبحانه وتعالى من جملة نعمه على أوليائه وصالح عباده، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

ولذلك نرى أن المتعرِّض لهذه النعمة ؛ نعمة المحبة قد سار على درب من سبقه من الصحابة النجباء، والسَّلف الأخيار ؛ الَّذين عاشوا المحبة واقعًا ؛ فخفوا عن الدنيا وارتحلوا للآخرة، أمَّا المثقلون بأوزارهم، الدنسة قلوبهم فقد حرموا هذه النعمة وفقدوا هذه اللَّذَّة، فإن أحبوا فلمتعةٍ حاضرة، وإن أحسنوا فلشهوة عاجلة، ميزانهم! الدنيا حاضرة والآخرة نسيئة!! فسبيل الإيمان والطريق إلى محبة الله ؛ هو الحب في الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»(٢)

وكلما انقطعت هذه العُرى، ونزع الحب في الله، وغلبت المصلحة ؛ وأصبح الحب على ما يعرض من متعة عاجلة، وقعت الهلكة بين العباد ؛ من حسد وبغضاء، ومكر وخداع، فيصبح الدِّين في قلب العبد كالثوب الخلق.

عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ، الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَاكُمْ لَكُمْ،**

---

(١) البيهقي "شعب الإيمان" (٦/ ٤٩٧).
(٢) رواه مسلم (٥٤).

أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ». (١)

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لله وَأَبْغَضَ لله، وَأَعْطَى لله، وَمَنَعَ لله، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ». (٢)

فأمثل الحب وأحسنه ما كان لله وفي الله، يُلقي العبد بقلبه على باب الرضا فما كان لله فتح البابَ على مِصْرَاعَيْهِ، وملأ جوانب قلبه بمحبة من تَوَّجَهُ الحبُّ بطاعةِ ربه، فإذا همساته و هجساته وبسماته تتجه لمن أحب، وينظر بعينيه في كل جهة ، ويُصعِّد بصره في كل أفق ، ويدور بفكره في كُلِّ جزء ، فلا يدرك بكل ذلك إلا ما يدرك الصَّبُّ الموله من وجه من يحب بعد طُول غياب! فَرِحٌ عند اللقاء، قَلِقٌ عند الغياب؛ لأن من أحبَّ قابض على يده ؛ يعجل به إلى المسارعة لفعل الخيرات، وينادي عليه بأعلى صوته إياك والالتفات، فيده أبدا في يده ولو ابتعد عنه، وصوته أبدا في أذنه وإن نأى عنه، فقلوب المحبين تعانقت وإن نأت بهم الديار.

قَالَ ابن المبارك: أُحِبُّ الصّالحين ولست منهم، وأبغض الطالحين ؛ وأنا شَرٌّ منهم، ثم أنشأ يقول (٣):

الصَّمْتُ أَزْيَنُ بِالْفَتَى	من مَنْطِقٍ فِي غَيْرِ حِينِه
والصِّدْقُ أَجْمَلُ بِالْفَتَى	فِي القَوْلِ عِنْدِي من يَمِينِه
وَعِلْمُ الفَتَى بِوَقَارِهِ	سِمَةٌ تَلُوحُ عَلَى جَبِينِه
فَمَن الَّذِي يَخْفَى عَلَيْكَ	إِذَا نَظَرْتَ إِلَى قَرِينِه
رُبَّ امْرِئٍ مُتَيَقِّنٍ	غَلَبَ الشَّقَاءُ عَلَى يَقِينِه
فَأَزَالَهُ عَنْ رَأْيِهِ	فَابْتَاعَ دُنْيَاهُ بِدِينِه

(١)حسن: رواه الترمذي (٢٥١٠) وأحمد (١/ ١٦٥-١٦٧).

(٢)صحيح: رواه أبو داود (٤٠٦١) وأحمد (٣/ ٤٤٠) انظر: السلسلة الصحيحة (٣٨٠).

(٣)تاريخ الإسلام للذهبي (٥/ ٢٩٩).

قَالَ سُليمان التَيْمِي: إنما الأخ الذي يَعِظُكَ بِرُؤْيَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَعِظُكَ بِكَلامِهِ، لَقَدْ كُنْتُ أَنْظُر إلى الأخِ من إِخْوَانِي بِالعِراقِ فَأَعْمَلُ عَلَى رُؤْيَتِهِ شَهْرًا.(١)

وقال طاووس: سمعت ابن عباس يقول: إنَّ الرَّحِمَ يُقْطَعَ، وَإِنَّ النِّعَمَ تُكْفَر، ولم نَرَ مِثْلَ تَقَارُبِ القُلُوبِ ثم قرأ: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال: ٦٣].وذلك موجود في الشعر:

إِذَا أَتَتْ ذَوو القُرْبَى عَلَيْكَ لِرَحْمَةٍ فَغَشَّكَ واسْتَغْنَى فَلَيْسَ بِذِي رَحِمِ
وَلَكِنَّ ذَا القُرْبَى الَّذِي إِنْ دَعَوْتَهُ أَجَابَ وَمَنْ يَرْمِي العَدُوَ الَّذِي تَرْمِي

ومن ذلك أيضًا قول القائل:

وَلَقَدْ صَحِبْتُ النَّاس ثُمَّ سَبَرْتُهُم وَبَلَوْتُ مَا وَصَلُوا من الأَسْبَابِ
فَإِذَا القَرَابَةُ لا تُقَرِّبُ قَاطِعًا وَإِذَا المَوَدَّةُ أَقْرَبُ الأَنْسَابِ(٢)

كتب أبو رفاعة أحمد بن محمد بن النضر، إلى جعفر بن يحيى البرمكي، أما بعد: فَإِنَّ الكَرَمَ أَعْطَفُ من الرَّحِمِ، وهو أقربُ عِنْدَ الكَرِيمِ وَسِيلَةً من القَرَابَةِ القَرِيبَةِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الكَرِيمَ كَيْفَ يُجْدِي عَلَيكَ وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا، واللَّئِيمَ مَا يَنْفَعُكَ وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا، فَالكَرَمُ سَبَبٌ من الكرام موصول يرتعون إليه ويتعاطفون عليه، وهو أقوى الأسباب وأقرب الأنساب، وإنما عظمت القرابة لعطفها، فأقرب النَّاس إليك أعطفهم عليك(٣).

لقد ضرب الصَّحابة أعظم المثل في المحبة في الصدر الأول ؛ حتى نرى الأنصار ما تركوا موطنًا يحببهم إلى إخوانهم من المهاجرين إلا فعلوه، وقد أثنى ربهم عليهم وعظَّم قدرهم، وأنزل فيهم قرآنًا يُتلى.

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي

---

(١) البيهقي "شعب الإيمان"(٦/ ٥٠٥)
(٢) البيهقي "شعب الإيمان"(٦/ ٤٩٥)
(٣) البيهقي "شعب الإيمان" (٦/ ٤٩٥)

صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

*** فلم يستأثروا بخيرٍ دُون إخوانهم المهاجرين، فهؤلاء الأنصار عرضوا مقاسمة المهاجرين في أرضٍ أعطاهم إياها رسول الله ﷺ:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَت الْأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ، قَالَ: «لَا»، فَقَالُوا: تَكْفُونَا المَئُونَةَ، وَنَشْرَكْكُمْ فِي الثَّمَرَةِ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.(١)

وهذا أَنْصَارِيٌّ يَعْرِضُ على مُهَاجِرِي المشاركة في المالِ، والبيتِ، والتنازل عن إحدى زوجتيه.

فَعَنْ أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَآخَى رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ كَثِيرَ المالِ، فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلِمَتْ الْأَنْصَارُ أَنِّي من أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ، فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ الله لَكَ فِي أَهْلِكَ، فَلَمْ يَرْجِعْ يَوْمَئِذٍ حَتَّى أَفْضَلَ شَيْئًا من سَمْنٍ وَأَقْطٍ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَ رَسُولَ الله ﷺ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ من صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ «**مَهْيَمْ؟!**» قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً من الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «**مَا سُقْتَ إِلَيْهَا**»، قَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ من ذَهَبٍ: أَوْ نَوَاةً من ذَهَبٍ، فَقَالَ: «**أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**».(٢)

فانظر كيف كان استقبال الأنصار لهؤلاء المهاجرين الَّذين تركوا الأهل والمال ؛ فشاركوهم المدينة، وكيف وصل الأمر بأحدهم إلى أن يعرض ماله، ونساءه وبيته، لأخيه من المهاجرين.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٢٥).

(٢) رواه البخاري (٣٧٨١).

ونحن في زمان أضحى الحب فيه سلعةً تُباعُ وتشترى ، وليت الثمن الذي يدفعه الشّاري للبائع يزيد من قيمتها إذا قلّت في السوق كغيرها من السِّلع ، بل لقد أقدم على سَوْمِها الفقيرُ المعْدَمُ ، أما البائع فقد سَئمها لقلة من يسومها أو يطلبها ، وأما الشاري فقد اغتنى عنها بأحسن منها عنده ، لقد صار البغض هو الأحب والأقرب إليه! فالأحسنُ والأحبُّ إليه ما يُجْرِي إليـه نفعًا! أو يُصلِحُ له شأنًا! في غير تحرُّرٍ من شبهةٍ ولا تعفُّفٍ عن حَرَامٍ ولا اعتبار لقيم أو أخلاق.

قَالَ أبو الربيع الرشديني: رَأَيْتُ ابْنَ وَهْبٍ دَخَلَ مَسْجِدَ الفُسْطَاطَ فِي يَومِ مَطِيرٍ فَجَعَلَ يَطْلُبُ إِنْسَانًا يَجْلِسُ مَعَهُ، فَجَاءَ إِلَى مُؤَخِّرِ المسجدِ فَرَأى سَعِيدًا الأَخْرَم، فَقَامَ إِلَيه فَاعْتَنَقَا جَمِيعًا يَبْكِيان، فَسَمِعْتُ ابن وهب يقول: يا أبا عُثْمان ذَهَبَ مَنْ كَانَ إِذَا صَدَأت قُلُوبُنَا جَلَاهَا (١)

قَالَ الخطّابي (٢): إنه كان أعرابي بالكوفة، وكان له صديق، وكان يظهر له مودة ونصيحة، فاتخذه الأعرابي من عُدَدِهِ للشدائد إذ حزب بالأعرابي أمر، فألمت به نازلة فأتاه، فوجده بعيدًا مما كان يظهر له، فأنشأ يقول:

إِذَا كَانَ وُدُّ المـرْءِ لَيْسَ بِزَائِدٍ ... عَلَى مَرْحَبًا أَوْ كَيْفَ أَنْتَ وَحَالُكَا!
ولم يَـكُ إِلَّا كَاشِرًا أَوْ مُحْدِثًا ... فَأُفٍ لِوُدٍ لَيْـسَ إلا كَذَلِـكَا
لِسَانُكَ مَعْسُولٌ ونَفْسُكَ بَشَّةٌ ... وَعِنْدَ الثُّرَيَّا من صَدِيقِك مَالُكَا
فَـأَنْتَ إِذَا هَمَّتْ يَمِينُكَ مَرَّةً ... لِتَفْعَلَ خَيْرًا قَاتَلَتْهَـا شِمَالُكَا

قَالَ العِجْلي (٣): وكان عبد الله بن شبرمة عفيفًا صارمًا عاقلا فقيهًا، حسنَ الخلقِ جوادًا، وكان إذا اختلف إليه الرجل ثلاثًا، دعاه فقال له: أراك قد لزمتنا منذ ثلاثة أيام،

---

(١)أبو نعيم "الحلية" (٨/ ٣٢٤).
(٢)الخطابي "العزلة" (٧٤).
(٣)الثقات (٢٥٩).

عليك خراج فنكلم لك فيه؟ أو دَيْن أو حاجة فنسعى لك فيها؟ فلا يكلمه في شيء إلا قضاه، ثم يقول: إنهم لا يأتوننا إلا لننفعهم في أمر دنياهم، لا يأتوننا لنشفع لهم في آخرتهم ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [سورة عبس: ٣٧].

لقد كانت كلمةُ الحُبِّ يهتز لها الوجدان، وتتحرك لها الأركان، وتدمع لها العينان، أما الآن! فأصبحت كلمة سهلة على كُلِّ لسان ؛ بل هي بضاعة تنفق من كل مفلسٍ خسران، حتى أصبح وقعها لا يحرك ساكنًا، ولا يطرب الآذان.

فانظر لهذا الرجل الذي يخرج قاصدًا أخًا له في قرية أخرى، لم يخرج إلا لله، فأرسل الله إليه ملكًا يبشره بمحبة الله له على محبته لأخيه في الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ؛ فَأَرْصَدَ الله لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ من نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي الله عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكَ بِأَنَّ الله قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**».(١)

وهذا أبو إدريس الخولاني يتعلق قلبه بمحبة معاذ بن جبل من أول نظرة ؛ فلا يصبر عن إخباره بذلك، فلما عجز عن لقائه في نفس اليوم الذي رآه فيه ؛ أتاه من الغد مبكرًا حتى يراه.

عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ فَإِذَا فَتًى شَابٌّ بَرَّاقُ الثَّنَايَا، وَإِذَا النَّاس مَعَهُ، إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوا إِلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ قَوْلِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَّرْتُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالتَّهْجِيرِ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، قَالَ: فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ ثُمَّ جِئْتُهُ من قِبَلِ وَجْهِهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُلْتُ: وَالله إِنِّي لَأُحِبُّكَ لله، فَقَالَ: أَالله!! فَقُلْتُ: أَالله، فَقَالَ: أَالله!! فَقُلْتُ: أَالله،

---

(١)رواه مسلم (٢٥٦٧)

فَقَالَ: آلله!!فَقُلْتُ: آلله، قَالَ: فَأَخَذَ بِحُبْوَةِ رِدَائِي، فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَبْشِرْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالمتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالمتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالمتَبَاذِلِينَ فِيَّ». (١)

قالت جميلة مولاة أنس: كان ثابت إذا جاء قَالَ أنس: يا جميلة! ناوليني طِيبًا أَمَسُّ بِهِ يَدَيَّ فَإِنَّ ابْنَ أُمِّ ثَابِت لا يَرْضَى حَتَّى يُقَبِّلَ يَدَيَّ، ويقول: قَدْ مَسَّتْ يَدَ رَسُولِ الله ﷺ. (٢)

جاء سهلُ بن عبد الله التستري الى أبي داود السجستاني -رحمهما الله - فقيل: يا أبا داود هذا سهل بن عبد الله جَاءَكَ زَائِرًا، فَرَحَّبَ بِهِ وَأَجْلَسَهُ، فقال له سهل: يا أبا داود لي إليك حاجة؟ قَالَ: وما هي؟ قَالَ: حتى تقول قد قضيتها مع الإمكان، قَالَ: نعم، قَالَ: أَخْرِجْ إِلَيَّ لِسَانَكَ الَّذِي تُحَدِّثُ بِهِ أَحَادِيثَ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى أُقَبِّلَهُ، فَأَخْرَجَ إِلَيه لِسَانَهُ فَقَبَّلَهُ. (٣)

وهذا خالد بن معدان، ما كان يأوي إلى فراشه إلا وهو يذكر شَوْقَهُ إلى رسول الله ﷺ، وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار، ثم يُسمِّيهم ويقول: هم أَصْلي وفَصْلي، وإليهم يحنُّ قَلْبِي، طَالَ شَوْقِي إِلَيْهِم ؛ فَعَجِّلْ رَبِّ قَبْضِي إِلَيكَ، حَتَّى يَغْلِبَهُ النومُ وَهُو فِي بَعْضِ ذَلِكَ. (٤)

وهذا فضيل بن غزوان الضبي يقول: لَقِيَنِي أبو إسحاق السَّبيعي فقال لي: إِنِّي وَالله لَأُحِبُّكَ، وَلَولَا الحَيَاءُ لَقَبَّلْتُك. (٥)

فالحب علاقةٌ بين قلبين إذا أحس بها أحدهما لابد أن يُحس بها الآخر، فإذا كانت لله فإنها تزداد ولا تقل، وتقوى ولا توهن.

فعن ابن مسعود قَالَ: لا تَسْأل الرَّجل عما في قلبه لك، ولكن انظر ما في قلبك له؛

---

(١) صحيح: رواه مالك "الموطأ -كتاب الجامع" (١٦).
(٢) حلية الأولياء (٢/ ٣٢٧).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢١٣).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣٩).
(٥) البيهقي "شعب الإيمان" (٦/ ٤٩٥).

فإن لك في قلبه مثل ذلك.(١)

وقال رجلٌ ليحيى بن كثير: إِنِّي أُحِبُّكَ، قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ ذَلِكَ من نَفْسِي.(٢)

وعن أبي الدرداء قَالَ: إِنِّي لَأَدْعُو لِثَلَاثِينَ من إِخْوَانِي وَأَنَا سَاجِدٌ ؛ أُسَمِّيهم بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبائهم. وقال: لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا أَحْبَبْتُم خِيَارَكُم ؛ وَمَا قِيلَ فِيكُمْ بِالحَقِّ فَعَرَفْتُمُوه ؛ فَإِنَّ عَارِفَ الحَقِّ كَعَامِلِهِ.(٣)

وقال سفيان الثوري: وَجَدْتُ قَلْبِي يَصْلُحُ بِمَكَّةَ وَالمدِينَةِ مَعَ قَوْمٍ غُرَبَاءِ أَصْحَابِ بُيُوتٍ وَعَبَاءٍ.(٤)

وقد أحسن من قَالَ:

وَمَا بَقِيتْ من اللَّذَاتِ إِلَّا مُحَادَثَةُ الرِّجَالِ ذَوِي العُقُولِ
وَقَدْ كُنَّا نَعُدُّهُمُ قَلِيلًا فَقَدْ صَارُوا أَعَزَّ مِن القَلِيلِ

وكان الشَّافِعِي رحمه الله يقول: ليس سُرورٌ يَعْدِلُ صُحْبَةَ الإخوان، ولا غَمٌّ يَعْدِلُ فِرَاقَهَم.(٥)

قَالَ بلال بن سعد: أخٌ لك كُلَّما لقيك ذَكَّرَكَ بِحَظِّكَ من الله ؛ خير لك من أخٍ كُلَّما لقيك وضع في يدك دينارا.(٦)

قَالَ عباد بن كليب: اجتمعت أنا ومحمد بن النضر، وعبدالله بن المبارك، وفضيل ابن عياض، فصنعنا طعامًا، فلم يُخَالِفنا محمد بن النضر في شيء، فقال عبدالله: إنك لم تخالفنا؟ فقال محمد: وإذا صاحبت فاصحب صاحبًا ذا حياءٍ وعفافٍ وكرمٍ، قوله لك:

---

(١) البيهقي "شعب الإيمان" (٦/ ٤٩٨).
(٢) البيهقي "شعب الإيمان" (٦/ ٤٩٨).
(٣) البيهقي "شعب الإيمان" (٦/ ٥٠٢).
(٤) البيهقي "شعب الإيمان" (٦/ ٥٠٣).
(٥) البيهقي "شعب الإيمان" (٦/ ٥٠٤).
(٦) البيهقي "شعب الإيمان" (٦/ ٥٠٤).

لا ؛ إن قلت: لا، وإذا قلت: نعم، قَالَ: نعم (١)

قَالَ هشام بن عبد الملك: ما بَقِيَ عَلَيَّ بشيءٍ من لَذَّاتِ الدنيا إلا وقد نِلْتُهُ، إلا شيئًا واحدًا ؛ أخٌ أرفعُ مؤنةَ التَّحفُّظِ منه. (٢)

فالأخ يَعْذُر ولا يُحاسِبُ ؛لأن الحبَّ يَمْحُو الإساءة، ويُزِيلُ الجفوة، ويُنسي عند أولِ نظرة ما كان من سابقِ هجر.

فعن وكيع بن الجراح قَالَ: اعتلَّ سفيان الثوري فتأخرت عن عيادته ؛ ثم عُدته فاعتذرت إليه ، فقال لي: يا أخي لا تعتذر! فَقَلَّ من اعتذر إلا كَذَب ، واعلم أن الصَّديق لا يُحَاسِبُ على شيءٍ ، والعدو لا يُحْسَبُ له شيءٌ. (٣)

قيل لميمون بن مهران: إن فلانًا يَسْتَبْطِئُ نفسه في زيارتك. قَالَ: إذا ثبتت المودة فلا بأس ؛ وإن طال المكثُ. (٤)

قَالَ أبو سفيان بن حرب: ما خاصمت أحدًا إلا وتركت للصُّلح موضعًا. (٥)

عن محمد بن الحنفية قَالَ: ليس بحكيمٍ من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدًا ؛ حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا. (٦)

ولكن قد نرى أن هذا النَّوع يتعذر وجوده، ويصعب الوقوف عليه لفساد الزَّمان، وقلة الإيمان، فإن وُجِدَ هذا الصِّنفُ فعضَّ على صُحبته بالضُّرُوسِ والأَنْيَاب، لأن هذا رفيقك إن استقمتما إلى جنةِ الرَّحمن.

فالحب في الله يقتضي السُّكوت عن المكاره، والنُّطق بالمحاب، وكثرة الثناء عليه في غيبته، وتدعوه بأحب الأسماء إليه، وتثني بما تعرف من محاسنه عند من يحب هو

(١)أبو نعيم "الحلية" (٨/ ٢٢٢).

(٢)سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٢).

(٣)البيهقي "شعب الإيمان" (٦/ ٣٢٤).

(٤)تهذيب الكمال (٢٩/ ٢٢١).

(٥)تاريخ دمشق (٢٣/ ٤٧١).

(٦)حلية الأولياء (٨/ ١٦٢).

الثناء عنده، وعلى أولاده وأهله وصنعته وعقله وخلقته، وجميع ما يفرح به من غير كذب أو إفراط ؛ فإنَّ إخفاء ذلك جحود المحبة وبوادر الحسد.

عن أبي خالد الأحمر قَالَ: مررت أنا وسفيان الثوري بمنزل داود الطّائي فقال لي: سفيان أدخل بنا نُسَلِّمُ عليه ، فدخلنا عليه فما احْتَفَلَ لسفيان ؛ ولا انبسط إليه ، فلمّا خرجنا ، قلت: يا أبا عبد الله غَاظَنِي ما صنع بك! قَالَ: وإيش صنع بي؟! قلت: لم يَحْفَلْ ولم ينبسط إليك! قَالَ: إن أبا سليمان لا يُتَّهم في مودته ، أما رأيت عينيه! هذا في شيء غير الذي نحن فيه.(١)

وقال عمر بن الخطاب: ثلاثٌ يصفين عليك من ودِّ أخيك: أن تُسلِّم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحسن أسمائه إليه.(٢)

قَالَ عبد الله المبارك: قد جمعت علم العلماء فليس فيما جمعت أحب إلي من علم الفضيل بن عياض.

قَالَ أيضًا: وما أعياني شيءٌ كما أعياني أني لا أجد أخًا في الله.(٣)

ولذلك من أحب في الله لا يغفل عن أخيه حتى ولو غفل عن نفسه، وتفقد أحواله حتى بعد موته، وكان من السَّلف من يتفقد أحوال أخيه بعد موته أربعين سنة، يقوم بحاجاته ويتفقد عياله، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه.

* ثالثًا: محبة ما يعين على طاعة الله:

فكلُّ أمرٍ أَمرَ به الله، وكلُّ نهي نهى عنه الله، يجب أن يكون له مكانة عند العبد، فلا يدع لله أمرًا إلا وقد أتاه، ولا يدع لله نهيًا إلا وقد اجتنبه، وأن يكون سبّاقًا لكلِّ خيرٍ يعينه على طاعة الله، ولا يزال العبد في دخول من أبواب الطَّاعات حتى يقربه الله

---

(١) العِجلي "معرفة الثقات" (٣٤٣).
(٢) البيهقي "شعب الإيمان"(٥/ ٣٠٨).
(٣) أبو نعيم "الحلية" (٨/ ١٦٨).

ويدنيه، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المؤْمِنِ، يَكْرَهُ الموْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ». (١)

ولذلك يجب أن يكون من أحب أعمال العبد إليه ما يعينه على مرضاة ربه ومولاه، وأن يتحسر على ما فات في غير مرضاة الله.

عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ، لَمَّا أَنْ حَضَرَهُ الموْتُ قَالَ: انْظُرُوا أَصْبَحْنَا؟ فَأَتَى فَقِيلَ: لَمْ تُصْبِحْ. قَالَ: انظُرُوا أَصْبَحْنَا؟ فَأَتَى فَقِيلَ: لَمْ تُصْبِحْ. حَتَّى أَتَى فِي بَعْضِ ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُ: قَدْ أَصْبَحْتَ، قَالَ: أَعُوذُ بالله من لَيْلَةٍ صَبَاحُهَا إِلَى النَّارِ ؛ مَرْحَبًا بِالموْتِ، مرحبا زَائِرًا مُغَيَّبًا، حَبِيبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ، اللَّهم إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَخَافُكَ فَأَنَا الْيَومَ أَرْجُوكَ، اللهمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لم أَكُنْ أُحِبُّ الدُّنْيَا وَطُولَ البَقَاءِ فِيهَا ؛ لِكَرْيِ الأنهار، ولا لِغَرسِ الأَشْجَارِ، وَلكِن لِظَمَأ الهَوَاجِرِ وَمُكَابَدَة السَّاعَات، ومُزَاحمة العُلَماء بالرُّكَبِ عِنْدَ حِلَقِ الذِّكر. (٢)

بل ربما اشتاق بعضهم إلى العِبادة بعد الموت لِشِدَّةِ تَعَلُّقِهِ بِهَا ؛ كَثَابِت البُنَانِي رحمه الله.

فعن ابن شوذب قَالَ: سمعت ثابت البناني يقول: اللهم إِنْ كُنْتَ أَعْطَيْتَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ يُصَلِّي لَكَ فِي قَبْرِهِ فَأَعْطِنِيه. (٣)

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢)
(٢) الإمام أحمد "الزهد" (١/ ١٨٠)
(٣) البيهقي "شعب الإيمان" (٣/ ١٥٦)

بل ربما صبر أحدهم على ما يضره ويتعلق به ؛ لما فيه من مرضاة ربه سبحانه وتعالى.

عَن امْرَأَةِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ: أَنَّ رَافِعًا رَمَى مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَيَوْمَ خَيْبَرَ، فَأُصِيبَ بِسَهْمٍ فِي ثَنْدُوَتِهِ ؛ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله انْزِع السَّهْمَ، قَالَ: «**يَا رَافِعُ إِنْ شِئْتَ نَزَعْتُ السَّهْمَ وَالْقُطْبَةَ جَمِيعًا، وَإِنْ شِئْتَ نَزَعْتُ السَّهْمَ وَتَرَكْتُ الْقُطْبَةَ، وَشَهِدْتُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّكَ شَهِيدٌ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، بَلْ انْزِعِ السَّهْمَ وَاتْرُكْ الْقُطْبَةَ، وَاشْهَدْ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنِّي شَهِيدٌ، قَالَ: فَنَزَعَ رَسُولُ الله ﷺ السَّهْمَ وَتَرَكَ الْقُطْبَةَ.(١)

فكان لا هَمَّ لأحدهم إلا أن يتعلَّق بكلِّ أمر يقربه من الله تَعَالَى، وأن يبغض كل ما يبعده عن الله تَعَالَى.

فهذا أبو مسلم الخولاني كان لا يجالس أحدًا قط، ولا يرى أحدًا يتكلم في شيءٍ من أمر الدنيا إلا تحول عنه، فَدَخَلَ ذات يوم المسجد ؛ فنظر إلى نفرٍ قد اجتمعوا، فَرَجَا أَنْ يكونوا على ذكرٍ وخيرٍ، فجلس إليهم فإذا بعضهم يقول: قدم غلامي فأصاب كذا وكذا، وقال آخر: جهزت غلامي بكذا وكذا، فنظر إليهم فقال: سبحان الله!! أتدرون ما مَثَلِي ومَثَلُكُمْ؟ إنما كرجلٍ أصابه مطرٌ غَزِيرٌ وابل، فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين، فقال: لو دخلت هذا البيت حتى يذهب عني هذا المطر، فدخل فإذا البيت لا سقف له!! جلست إليكم، وأنا أرجو أن تكونوا على ذكرٍ وخيرٍ ؛ فإذا أنتم من أصحاب الدنيا!.(٢)

وكان عامر بن عبد قيس يقول: ما رأيت مثل الجنة ينام طَالِبُهَا ، وما رأيت مثل النار ينام هاربها، وكان إذا جاء الليل قَالَ: أذهب حَرُّ النَّارِ النَّوم، فما ينام حتى يُصبح ،

(١) حسن: رواه أحمد (٦/ ٣٧٨)
(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٢٠)

فإذا جاء النَّهار قَالَ: أذهب حَرُّ النَّارِ النَّوْمَ، فما ينام حتى يمسي ، فإذا جاء الليل قَالَ: من خاف أدلج، بعد صبح يحمد القوم السُّرَى.(١)

ولا يكون هذا مثمرا إلا بوجود أثره في حياة العبد، فإن لم يظهر أثر هذا على حياة العبد وبيعه وشرائه، ووقوفه عند الحلال والحرام، هلك.

قَالَ بُرد مولى ابن المسيب لسعيد بن المسيب: ما رأيت أحسن ما يصنع هؤلاء؟! قَالَ سَعِيد: وما يصنعون؟! قَالَ: يُصَلِّي أحدهم الظهر ثم لا يزال صَافًا رجليه حتى يصلي العصر، فقال: ويحك يا برد، أما والله ما هي بالعبادة، إنما العبادة التفكر في أمر الله، والكفُّ عن محارم الله.(٢)

*****

(١) ابن أبي الدنيا "التهجد" (١٨)

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٤١)

٢- الـذُّلُّ

الذُّلُّ نقيض العِزِّ، وهو شِدَّةُ الخضوعِ والانكسارِ، ولضعف العبد وحاجته إلى غيره ففيه ذِلَّة، وإذا اجتمع الذُّلُّ لله عز وجل في قَلْبِ العبد ؛ أورثه ذلك عِزَّةً ورِفعة.

والذُّلُّ من أَجَلِّ العبادات القلبية، حيث يقف العبد أمام مشهدِ ضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ وفقرِهِ وَحَاجَتِهِ ؛ أمام عِزَّةِ ربه وقوتِهِ وغناه ؛ فيرى نفسه عاجزًا، مذنبًا، مقصرًا، مفرطًا، لا يقدر على شيءٍ إلا برحمةِ ربه، فلا يرى لنفسه بابًا يدخل منه إلا من باب الذُّلِّ، ولا يرى لنفسه حالًا ولا مقامًا ولا سببًا يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها ؛ بل يدخل على الله تَعَالَى ؛ فينكسر قلبه، وترق جوارحه، ويرى أن لا حول ولا قوة له إلا بالله، فعند ذلك يُفتح له من الرحمات، ما يدفع بقلبه حتى يلحق بمن سبق من عباد الله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٥].

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠].

فالذُّلُّ يُصلح القَلْبَ ويُقومه، وينفي ما فيه من ذَرَّاتِ كِبرٍ وعلو، ويُقَوِّمُ جميعَ الأركانِ لتخشع لله سبحانه وتعالى، فيمنع التعدي في العبادات، في جميعِ الأحوالِ والمقامات.

ولذلك لا تجتمع المحبة مع الذُّلِّ إلا للمعبود، فالحُبُّ قد يقع بلا ذُلٍّ، والذُّلُّ قد يقع بلا محبة، ولكن لو اجتمعا فيكون عبادة، فإذا صرف العبد محبته وذُلَّه لله كانت هذه هي العبادة المطلوبة.

والذُّلُّ له رصيدٌ في قلب العبد لابد من ظهوره، فإن كان لله نال العبد العِزَّ كله، وإن كان لغير الله نال الذُّلَّ كُلَّه.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْحَارِثِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الْبَذَاذَةُ من الْإِيمَانِ. قَالَ: الْبَذَاذَةُ**

الْقَشَافَةُ» يَعْنِي التَّقَشُّفَ.(١)

عن سعيد بن سُويد أن عمر بن عبد العزيز صلى بهم الجمعة، ثم جلس وعليه قَمِيصٌ مَرْقُوعُ الْجَيْبِ ؛ من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لَبِست، فَنَكَّسَ مليًّا ثم رفع رأسه فقال: أفضل القصد عند الجِدَة(٢)، وأفضل العفو عند المقدرة.(٣)

قَالَ ابن القيم رحمه الله(٤): فإذا أراد الله بعبده خيرًا فتح له من أبواب التوبة، والندم، والانكسار، والذل، والافتقار، والاستعانة به، وصِدْقِ اللجْأ إليه، ودوام التَّضَرع والدعاء، والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات، فتكون تلك السيئة بها رحمته، حتى يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه، وهذا معنى قول بعض السَّلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار، قالوا: كيف؟! قَالَ: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقًا، وجلًا، باكيًا نادمًا، مستحيًا من ربه تَعَالَى، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعاتٍ كثيرةٍ بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة، ويفعل الحسنة ؛ فلا يزال يمن بها على ربه، ويتكبر بها ويرى نفسه، ويعجب بها ويستطيل بها، ويقول: فعلت وفعلت فيورثه من العُجْب، والكبر، والفخر، والاستطالة، ما يكون سبب هلاكه، فإذا أراد الله تَعَالَى بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمرٍ يَكْسِرُهُ بِهِ، ويُذِلُّ به عُنُقَهُ ويُصَغِّرُ به نفسَهُ عنده، وإن أراد به غيرَ ذلك خَلَّاه وعُجْبَهُ وكِبْرَهُ، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه، فإن العارفين كُلَّهم مجمعون على أن التوفيق أن لا يكلك الله تَعَالَى إلى نفسك، والخذلان أن يكلك الله تَعَالَى إلى نفسك، فمن أراد الله به خيرًا فتح له باب الذُّلِّ والانكسار، ودوام اللجأ إلى الله تَعَالَى، والافتقار إليه، ورؤية

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤١٦١) ورواه ابن ماجه (٤١١٨).
(٢) الجدة: الغنى الذي لا فقر بعده.
(٣) حلية الأولياء (٥/ ٢٦١).
(٤) الوابل الصيب (١٣).

عيوب نفسه وجهلها، وعدوانها ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته، وجوده وبره، وغناه وحمده، فالعارف سائر إلى الله تَعَالَى بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما ؛ فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.اهـ.

*** فإذا علم العبد حقيقة أمره ، وجاءته المِنَّةُ من ربه ، فأفاق من سكرته ، وانكسر بين يدي مولاه ، تم له الفلاح والرضا.**

فهذا بشر بن الحارث حُكي عنه أنه كان في زمن لهوه وعنده رفاقه يشربون ، فاجتاز بهم رجلٌ من الصالحين ؛ فَدَقَّ الباب فخرجت الجارية، فقال: صاحب هذا الدَّار حُرٌّ أم عبد؟ قالت: حر. فقال: صَدَقْتِ لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطَّرب ، فسمع بشر الحوار ، فأسرع إلي الباب حافيًا حاسرًا و قد ولىّ الرجل ، فقال للجارية: ويحك من كلمك؟ فأخبرته بما جرى. فقال: أي ناحية أخذ الرجل؟ فقالت كذا ، فتبعه بشر حتى لحقه فقال له: يا سيدي أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية؟ قَالَ: نعم ، قَالَ: أعد عليّ الكلام فأعاده عليه ، فمرّغ بشر خديه على الأرض، وقال: بل عبد ، عبد ، ثم هام علي وجهه حافيًا حاسرًا حتى عُرف بالحفاء فقيل له: لم لا تلبس نعلًا؟! قَالَ: لأني ما صالحني مولاي إلا وأنا حاف. (١)

عن عمر بن ذر قَالَ: قيل للربيع بن خُثَيْم: كيف أصبحت يا أبا يزيد؟! قَالَ: أصبحنا ضُعَفَاءَ مُذْنِبِين، نَأْكُلُ أَرْزَاقَنا، ونَنْتَظِرُ آجَالَنا.(٢)

*** فإذا حافظ العبد على هذه المكانة ؛ ولم ينفك عنها رزقه الله عزًا لا يعقبه ذل وغِنًا لا يعقبه فقر.**

قَالَ ابن القيم رحمه الله(٣): في الحديث الصحيح، من حديث شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ - رضي الله عنه - عَن النَّبِيِّ ﷺ: سَيِّدُ الاِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ،**

---

(١) التوابين (ص ١٣٧- ١٣٨).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٠٩).

(٣) الوابل الصيب (١٤).

خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»[١].

فجمع في قوله: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي» مشاهدةُ المنة، ومطالعةُ عَيبِ النَّفْسِ والعملِ، فمشاهدة المنة توجب له المحبة، والحمد، والشكر لولي النِّعم والإحسان، ومطالعةُ عَيبِ النَّفْسِ والعملِ توجب له الذُّلَّ، والانكسار، والافتقار، والتوبة في كُلِّ وقت، وأن لا يرى نفسه إلا مُفلسًا، وأقرب باب دخل منه العبد على الله تَعَالَى هو الإفلاس، فلا يرى لنفسه حالًا، ولا مقامًا، ولا سببًا يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها ؛ بل يدخل على الله تَعَالَى من باب الافتقارِ الصِّرفِ والإفلاسِ المحض، دُخُولُ من كَسَرَ الفَقْرُ والمسكنةُ قلبه ؛ حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع، وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل، وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذَرَّةٍ من ذراته الظَّاهرة والباطنة فاقة تامة، وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر ؛ إلا أن يعود إلى الله تَعَالَى عليه ويتداركه برحمته، ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى. اهـ.

قَالَ ابن القيم أيضا[٢]: ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء، وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أَنَا المكَدِّي وَابْنُ المكَدِّي وَهَكَذَا كَانَ أَبِي وَجَدِّي

وكان إذا أُثني عليه في وَجْهِهِ يقول: والله إني إلى الآن أُجَدِّد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٥٦٢).

وبعث إليَّ في آخرِ عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أَنَا الْفَقِيرُ إِلَى رَبِّ الْبَرِيَّاتِ ... أَنَا المِسْكِينُ فِي مَجْمُوعِ حَالَاتِي
أَنَا الظَّلُومُ لِنَفْسِي وَهِي ظَالمتي ... وَالخَيْرُ إِنْ يَأْتِنَا من عِنْدِهِ يَاتِي
لا أَسْتَطِيعُ لِنَفْسِي جَلْبَ مَنْفَعَةٍ ... وَلَا عَن النَّفْسِ لِي دَفْعُ المَضَرَّاتِ
وَلَيْسَ لِي دُونَهُ مَوْلَى يُدَبِّرُنِي ... وَلَا شَفِيعٌ إِذَا حَاطَتْ خَطِيئَاتِي
إِلَّا بِإِذْنٍ من الرَّحْمَنِ خَالِقِنَا ... إِلَى الشَّفِيعِ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الآيَاتِ
وَلَسْتُ أَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ أَبَدًا ... وَلَا شَرِيكٌ أَنَا فِي بَعْضِ ذَرَّاتِ
وَلَا ظَهِيرٌ لَهُ كَي يَسْتَعِينَ بِهِ ... كَمَا يَكُونُ لِأَرْبَابِ الوِلَايَاتِ
وَالْفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لَازِمٌ أَبَدًا ... كَمَا الغِنَى أَبَدًا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي
وَهذِهِ الحَالُ حَالُ الخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ ... وَكُلُّهُم عِنْدَهُ عَبْدٌ لَهُ آتِي
فَمَنْ بَغَى مَطْلَبًا من غَيْرِ خَالِقِهِ ... فَهُو الجَهُولُ الظَّلُومُ المشْرِكُ العَاتِي
وَالحَمْدُ لله مِلْءُ الْكَوْنِ أَجْمَعُهُ ... مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا من بَعْدُ قَدْ يَاتِي

*****

٣-الخَــوْفُ

والخوف: هو الفَزَعُ. والأمان ضد الخوف، والخوف هو شُعُور يعتلي القلب يدفع بالعبد إلى الحذر ممن يخافه. ويَعْظُمُ ويقلُّ بحسبِ المخوف، فإذا علم العبد من صفات ربه سبحانه وتعالى: أنه عزيزٌ، قويٌ، شديدُ العقاب، سريعُ البَطْشِ، عظيمُ الانتقام، وقع في قلبه من الخوف ما يحول بينه وبين غضب الرب سبحانه وتعالى.

فهو بهذا تاج الكرامة، ومفتاح السعادة، وباب كل بر، وأصل كُلِّ فلاح؛ لأن الخوف من الله من تمام الاعتراف بملكه وسلطانه، ونفاذ مشيئته في خلقه، وإغفال ذلك إغفالٌ للعبودية، إذ من حق كل عبد ومملوك أن يكون راهبًا لمولاه، وتكون العبادة صحيحة إذا كانت ناشئة عن معرفةٍ صحيحة بالله عز وجل، وما له من صفات الجلال والكمال، والقهرِ والسُّلطان التي تملأ جو النفس برهبة، وتحملها على الجد والمسارعة في مرضاته وتجنب سخطه، فعند ذلك تنطلق الجوارح في رضا الله سبحانه، وتنكسر النفس من غرورها، وتحجم عن شهواتها، وتساق سوقًا عنيفًا إلى الله عز وجل، فلا تركن إلى غفلة ولا تتلبس بفتور.

كان لعمر بن عبد العزيز أخ آخاه في الله - عبد مملوك - يقال له سالم، فلمّا استُخلف دَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَتَاهُ فقال له: يا سالم، إني أخاف أن لا أَنْجُو، قَالَ: إن كنت تخاف فنعِمّا، ولَكِنِّي أخاف أن لا تخاف، إن الله أَسْكَنَ عَبْدًا دارًا فَأَذْنَبَ فيها ذنبًا واحدًا؛ فَأَخْرَجَهُ من تِلْكَ الدَّارِ، وَنَحْنُ أَصْحَابُ ذَنَوبٍ كَثِيرَةٍ نُرِيدُ أَنْ نَسْكُنَ تِلْكَ الدَّارَ.[١]

وإذا اكتمل الخوف من الله اكتمل عز العبد وعدم خوفه من النَّاس، وإذا انكسر الخوف من الله ؛ خاف العبد من كل شيء.

ولذلك قَالَ الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ

---

(١) حلية الأولياء(٥/ ٣٢٩).

وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٥].

وقال تَعَالَى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [سورة البقرة: ٤٠].

وأثنى على ملائكته لخوفه منه فقال تَعَالَى: ﴿وَهُمْ من خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٨].

ومدح أنبياءه وأولياءه بالخوف والخشية فقال تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠].

وقال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [سورة الرعد: ٢١].

وتأمل هاتين الآيتين آية الدعاء وآية الذكر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ المعْتَدِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٥٥].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ من الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ من الْغَافِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٥].

فقال سبحانه في آية الدُّعَاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وفي آية الذِّكر ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، فذكر التَّضرع فيهما معًا، وهو التذلُّل والتَّمَسْكُنُ والانْكِسَارُ، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكر من اقتران محبة الله وإظهار الحاجة، فيستلزم ذلك إخفاءه حتى لا يحبط بالرياء، وخص الذكر بالخيفه لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولا بد، فمن أكثر من ذكر الله تَعَالَى أثمر له ذلك محبته.

*** وكان حال النَّبِيّ ﷺ أنه دائم الخوف، عظيم الوجل، ما ضحك إلا تبسمًا، تعظيمًا لله سبحانه وتعالى:**

عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ

ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ، قَالَتْ: وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ النَّاس إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ المطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةُ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ! مَا يُؤْمِنِّي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا»(١).

وكان ﷺ إذا سمع القرآن تأثر بالغ التأثر ﷺ:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ من غَيْرِي»، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا من كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قَالَ: «أَمْسِكْ» فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ.(٢)

خوف السَّلف رضي الله عنهم

والذي يتأمل حال السَّلف يَرَى حَالَهُمْ من الخوف الدَّائم والوجل الذي لا ينقطع، لِمَا وقر في قلوبهم من محبة الله وتعظيمه، وبيان عظيم آياته سبحانه وتعالى.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لله، وَالله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى الله».

فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: وَالله لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ.(٣)

ومَرَّ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ على طَيْرٍ قَدْ وَقَعَ عَلَى شَجَرَةٍ، فقال: طُوبَى لَكَ يَا

---

(١) رواه البخاري(٤٨٢٩) ومسلم (٨٩٩).

(٢) رواه البخاري (٤٥٨٢) ومسلم (٨٠٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٥/ ١٧٣) والترمذي (٢٣١٢) ابن ماجة (٤١٩٠).

طَيْرُ! تَطِيرُ فَتَقَعُ عَلَى الشَّجَرِ، ثُمَّ تَأْكُلُ من الثَّمَرِ، ثم تَطِيرُ لَيْسَ عَلَيكَ حِسَابٌ وَلَا عَذَابٌ، يَالَيْتَنِي كُنْتُ مِثْلَك! والله لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ، فَمَرَّ عَلَيَّ بَعِيرٌ فَأَخَذَنِي فَأَدْخَلَنِي فَاه ؛ فَلَاكَنِي ثُمَّ ازْدَرَدَنِي ثُمَّ أَخْرَجَنِي بَعْرًا ولم أكن بشرًا. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: يَالَيْتَنِي كُنْتُ كَبْشَ أَهْلِي، سَمَّنُونِي مَا بَدَا لَهُمْ حَتَّى إِذَا كُنْتُ كَأَسْمَنِ مَا يَكُون ؛ زَارَهُم بَعْضُ مَنْ يُحِبُّون فَذَبَحُونِي لَهُم، فَجَعَلُوا بَعْضِي شِوَاءً وَبَعْضَهُ قَدِيدًا ثُمَّ أَكَلُونِي، وَلَمْ أَكُنْ بَشَرًا، وقال أبو الدرداء: يَالَيْتَنِي كُنْتُ شَجَرَةً تعْضَد، وَتُؤْكَل ثَمَرَتِي، وَلَمْ أَكُنْ بَشَرًا.(١)

قَالَ أبو عبيدة بن الجراح: لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ كَبْشًا فَيَذْبَحُنِي أَهْلِي فَيَأْكُلُونَ لَحْمِي وَيَشْرَبُونَ مَرَقِي، وقال عِمْران بن حصين: وَدِدْتُ أَنِّي رَمَادٌ عَلَى أَكَمَةٍ تَنْسِفُنِي الرِّيَاحُ فِي يَوْمٍ عَاصِف.(٢)

قَالَ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: مَن اسْتَطَاعَ أَنْ يَبْكِي فَلْيَبْك، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَتَبَاكَ - يَعْنِي التَّضَرُّع.(٣)

عن عائشة ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ أنها قالت: وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا بَكَى لَا يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ القُرْآن.(٤)

وعن محمد بن كعب قَالَ: لَمَّا استُخْلِفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، بَعَثَ إلي وأنا بالمدينة، فقدمت عليه فلمّا دَخَلْتُ عَلَيه ؛ جَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيه نَظَرًا لَا أَصْرِفُ بَصَرِي عَنْه تَعَجُّبًا، فَقَالَ: يَا ابْنَ كَعْبٍ إِنَّك لَتَنْظُرُ إِلَيَّ نظرًا مَا كُنْتَ تَنْظُرُهُ، قَالَ: قُلْتُ: تعَجُبًا! قَالَ: مَا أَعْجَبَك؟ قُلْتُ: يَا أَمِيرِ المؤمنين! أَعْجَبَنِي مَا حَالَ من لَوْنِك، وَنَحَلَ من جِسْمِك، وَنَفَشَ من شَعرِك، قَالَ: فَكَيفَ لَوْ رَأَيْتَنِي بَعْدَ ثَلاثٍ! وَقَدْ دُلِّيت في حُفْرَتِي، وَسَالَتْ

---

(١) شعب الإيمان (١/ ٤٨٥).
(٢) شعب الإيمان (١/ ٤٨٦).
(٣) شعب الإيمان (١/ ٤٩٣).
(٤) شعب الإيمان (١/ ٤٩٣).

حَدَقَتَايَ عَلَى وَجْنَتَي، وسَالَ مِنْخَرِي صَدِيدًا ودمًا، كُنْتَ لِي أَشَدَّ نَكِرَة.(١)

عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قَالَ: قُلْتُ لِيَزِيدَ بْنَ مَرْثَدٍ: مَالِي أَرَى عَيْنَكَ لَا تَجِفُ؟! قَالَ: وَمَا مَسْأَلَتُكَ عَنْهُ؟ قُلْتُ: عَسَى الله أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ، قَالَ: يَا أَخِي إِنَّ الله قَدْ تَوَعَّدَنِي إِنْ أَنَا عَصَيْتَهُ أَنْ يَسْجِنَنِي فِي النَّار، والله لولم يَتَوَعَّدَنِي أَنْ يَسْجِنَنِي إِلَّا فِي الْحَمَّامِ ؛ لَكُنْتُ حَرِيًّا أَنْ لَا تَجِفَّ لِي عَيْن، قَالَ: فَقُلْتُ لَه: فَهَكَذَا أَنْتَ فِي خَلَوَاتِك، قَالَ: وَمَا مَسْأَلَتُكَ عَنْهُ؟ قُلْتُ: عَسَى الله أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ، فَقَالَ: والله إِنَّ ذَلِكَ لَيَعْرِض لِي حِين أَسْكُنُ إِلى أَهْلِي ؛ فَيَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَا أُرِيد، وَإِنَّه لَيُوضَع الطَّعام بَيْن يَدَي فَيَعْرِض لِي ؛ فَيَحُولُ بيني وبين أَكْلِهِ ؛ حَتَّى تَبْكِي امْرَأَتِي وَيَبْكِي صِبْيَانُنَا ؛ مَا يَدْرُون مَا أَبْكَانا! وَلَرُبَّمَا أَضْجَرَ ذَلِك امْرأَتِي فَتَقُولُ: يَا وَيْحَهَا!! مَا خُصِصْتُ بِهِ من طُولِ الْحُزْنِ مَعَكَ فِي الحياةِ الدُّنيا، مَا تَقَرُّ لِي مَعَكَ عَيْنٌ.(٢)

قَالَ الذَّهبي: قد كان لحق سفيان خوف مزعج إلى الغاية. قَالَ ابن مهدي: كنا نكون عنده، فكأنما وُقِّف للحساب.(٣)

وسمعه عثام بن علي يقول: لقد خفت الله خوفًا، عجبًا لي!كيف لا أموت؟ ولكن لي أجل وددت أنه خُفِّف عَنِّي من الخوف، أخاف أن يَذْهب عقلي.

وعن يحيى بن اليمان قَالَ: سَمِعْتُ سفيان الثوري يقول: لقد خفت الله خوفًا وددت أنه خُفِّف عني.

وقال حماد بن دُلَيْل: سمعت الثوري يقول: إني لأسأل الله أن يُذهب عني من خوفه.

وقال يوسف بن أسباط: كان سفيان الثوري إذا أخذ من ذكر الآخرة يبول الدم(٤).

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٣٣٢).

(٢) حلية الأولياء (٥/ ١٦٤).

(٣) الذَّهبي"سير أعلام النبلاء"(٧/ ٢٧٦).

(٤) الذَّهبي"سير أعلام النبلاء"(٧/ ٢٧٦).

قيل لعطاء السَّلِيمي: ما تَشْتَهِي قَالَ: أَشْتَهِي أَنْ أَبْكِي حَتَّى لا أقدر أن أَبْكِي، وكان يَبْكِي اللَّيل والنَّهار، وكانت دُمُوعُه الدَّهر سَائلةً على وجهه.[(١)]

حَجّ سُلَيْمَانُ بن عبد الملك أمير المؤمنين، ومعه عُمَر بن عبد العزيز، فخرج سُلَيْمَانُ إلى الطَّائفِ، فَأَصَابَهُ رعد وبرق، فَفَزِعَ سُلَيْمَانُ، فقال لعمر: ألا ترى! ما هذا يا أبا حفص؟! قَالَ: هذا عِنْد نُزُولِ رَحْمَتِه ؛ فَكَيْف لو كان عِنْدَ نُزُولِ نِقْمَتِه!!.[(٢)]

ورُوي عن زَبِيد اليامي أنه قام ليلةً للتَّهجد، فعمد إلى مطهرةٍ له قد كان يتوضَّأ فيها، فغسل يده ثم أدخلها في المطهرة ؛ فوجد الماء الذي فيها باردًا بردًا شديدًا قد كاد أن يجمد، فذكر الزَّمهرير ويده في المطهرة ؛ فلم يُخْرِجْ يده من المطهرة حتى أصبح، فجاءت الجارية وهو على تلك الحال، فقالت: ما شَأْنُكَ يا سيدي؟! لم تصل الليلة كما كنت تصلي!! قَالَ: ويحك!! إني أدخلت يدي في هذه المطهرة، فاشتد علي برد الماء ؛ فذكرت به الزمهرير، فوالله ما شعرت بشدة برده حتى وقفت علي، انظري لا تخبري بهذا أحدًا ما دُمْتُ حيًا، فما علم بذلك أَحَدٌ حتى مات رحمه الله.[(٣)]

والمحبة ما لم تُقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها، بل قد تَضُرُّه لأنها توجب الإدلال والانبساط، وربما آلت بكثيرٍ من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب، وإقباله على الله ومحبته له وتَأَلُّهُهُ له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة - أي العبادة - باطل.

(١) ابن الجوزي "المواعظ" (١١).
(٢) حلية الأولياء (٥/ ٢٨٨).
(٣) ابن رجب "التخويف من النار" (١/ ٧٢).

أنواع الخوف

قَالَ الحليمي رحمه الله(١): والخوف على وجوه:

أحدها: ما يحدث من معرفة العبد بذِلَّةِ نفسه، وهوانها وقصورها وعجزها عن الامتناع عن الله تَعَالَى جده ؛ إن أراده بسوء، وهذا نظير خوف الولد والديه، وخوف النَّاس سلطانهم ؛ وإن كان عادلا محسنًا، وخوف المماليك ملاكهم.

والثاني: ما يحدث من المحبة وهو أن يكون العبد في عامة الأوقات وجلا من أن يكله إلى نفسه، ويمنعه مواد التوفيق ويقطع دونه الأسباب، وهذا خلق كل مملوك أحسن إليه سيده فعرف قدر إحسانه فأحبه، فإنه لا يزال يشفق على منزلته عنده خائفا من السقوط عنها والفقد لها.

الثالث: ما يحدث من الوعيد. اهـ..

ولذلك كان لِزامًا على العبد ألا يفارق الخوفُ قلبه طرفة عين، وأن لا يستشعر العبد أمنًا، وأن يكون في الأوقات كُلِّها خائفًا وجلا أن يُنزل الله عليه عذابًا بأهونِ ذنوبه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا من الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [سورة الإسراء: ٦٧-٦٩].

فإذا فرَّغ العبد سمعه على نداء الله ؛ وهو يُنْذِر بالعذاب ؛ فإن ذلك يوجب خوفًا وخشيةً لا تنقطع أبدًا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى

---

(١) البيهقي "شعب الإيمان" (١/ ٤٦٤).

النَّاس سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ ﴾ [سورة الحج: ١-٢].

وقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاس وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سورة التحريم: ٦].

وكذلك حَذَّر النَّبِيُّ ﷺ من سخط الله وعقابه، وأنه يجب على العبد أن يقدم بين يديه ما ينجيه من عذاب الله غدًا.

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ ذَكَرَ النَّارَ، فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**». (١)

ولذلك نرى أن السَّبعة الَّذين يظلهم الله يوم القيامة؛ قد جمعهم خوف الله، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**». (٢)

وقد يجد النَّاس في أنفسهم الخوف من أشياء كثيرة، مثل خوف الوالد من موت ولده، أو ذهاب ماله، أو الغرق أو الحرق، أو الهدم، أو ذهاب السَّمْع والبصر، أو الوقوع بيد السلطان الجائر، أو الابتلاء بسبع أو عدو، وما يشبه ذلك من أصناف المكاره.

إلا أن هذا ينقسم إلى محمود ومذموم.

فالمحمود أن يكون الخوف من هذه الأمور لما يمكن أن يكون تحتها من سخط الله عز وجل ثناؤه، فإنها قد تكون عقوبات ومؤاخذات.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦٣) ومسلم (١٠١٦).

(٢) رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

فمن خافها فامتنع لأجلها من المعاصي ؛ ولم يأمن من أن يغير عليه غائر، كانت منزلته منزلة من امتنع من المعاصي خيفة النار، وكذلك إن خشي أن يكون أخذ الله منه ما أعطاه ابتلاء له واختبارًا حتى إن صبر واحتسب أثابه، وإن جزع واضطرب ولم يسلم لقضائه زاده سلبًا ؛ فخاف إن كان ذلك لم يثبت، وكان منه بعض ما لا يحبه الله تَعَالَى جده ؛ ومن هذا الوجه كان إشفاقه وكراهيته لهذه الأمور، فهذا أيضا محمود. وهذا خوف ينشأ عن التعظيم والمحبة جميعا.

وأما المذموم فهو أن يكون خوفه من بعض هذه الأمور ؛ لحرصه على ماله فيها من المنافع الدنيوية، وشدة ركونه إليها وميله إلى التكثر بها له منها، والتوصل بها إلى ما يريد ويهوى، كان في ذلك رضا الله أو سخطه، وإنما كان هذا مذمومًا للغرض الذي عنه ينشأ هذا الخوف، ولأن جميع نعم الله عند العبد من مال وولد وما يشبههما إنما هي عوارٍ، والركون إلى العواري ليس من فعل العقلاء والمخلصين. والله أعلم.

وإذا اجتمع الخوف مع التعظيم، يسمى خشية، وهو أعلى وأجل أنواع الخوف.

*****

٤- الخشية

والخشية: هي الخوف مع التعظيم، والخشية أمرها عظيم ، وقد مدح الله وأثنى على الَّذِين يخشونه ، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى الله من عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] ولا خير في عِلْمٍ لا يؤدي إلى خشية الله تبارك وتعالى.

*****

٥- الخشوع

هو الخضوع في القَلْبِ، وأثره على الجوارح يظهر في الصَّوْتِ والبَصَرِ ؛ سكون وتذلل، وهو بَعْد الخوف والخشية.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ من الْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦] وهذا الخشوع بمعنى الخشية أو قريب منه.

فأعمال القلب تتقارب ؛ لأنها أعمالٌ باطنة ، فنجد -مثلًا- الوجل ، والخوف، والخشية ، والخشوع ؛ متقاربة المعنى ، ولكل واحد منها معنى، لكنها متقاربة في ذلك، وكلها تدل في النهاية على كون هذا القلب خاضعًا ذليلًا منقادا للعزيز الجبار المتكبر ؛ الذي خلقه فسواه فعدله ، وافترض عليه ما افترض ، وشرع له ما شرع ، وتعبده بما تعبد.

فإذًا الوجل، والخوف والخشية والخشوع هي جملة من أعمال القلب، لها دلائل ، ويقابلها الرَّجاء والمحبة والرضا والفرح، فتتوازن النفس الإنسانية بين هذه العبادات بعضها ببعض، فيكون الإنسان حقًا قد جمع كُلَّ أعمال القلوب وأنواعًا من العبادات التي يحبها الله تبارك وتعالى، ويبلغ العبد بتحصيلها جميعا رضا الله سبحانه.

*****

٦- الرَّجــاء

والرَّجاء، بمعنى التَّوقع والأمل، واليأس نقيض الرَّجاء.

والرَّجاء من أجلِّ المنازل، وأعلاها شرفًا وعليه وعلى الحب مدار العبودية، والرجاء ظنّ يقتضي حصول ما فيه مسرّة، فالرَّجاء حادٍ يحدو النفس ويشوقها ويطيب لها السير إلى الله فربما لو عُبد الله بالخوف وحده لأدَّى إلى القنوط من رحمة الله، ولغفل العبد عن الرحمة التي وسعت المؤمن والكافر، ولذلك وجب على العبد أن يوازن في قلبه بين عبادةِ الخوفِ والرَّجاء، ولا يكون المؤمن مؤمنًا ؛ حتى يكون خائفًا راجيًا ، ولا يكون خائفًا راجيًا ؛ حتّى يكون عاملًا لما يخاف ويرجو ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [سورة الإسراء: ٥٧].

فذكر سبحانه مقامات العبودية بالمحبة والخوف والرَّجاء، فطلب الوسيلة هو القرب من المحبوب، ورجاء الرحمة، وخوف العذاب، وهذه أركان العبادة.

فهذه امرأةٌ كانت كافرة لما رأت رحمة الله بها أسلمت، وما زالت تلهج بعظيم فضله عليها.

عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ قَالَتْ: أَسْلَمَت امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ لِبَعْضِ الْعَرَبِ، وَكَانَ لَهَا حِفْشٌ [١] فِي الْمَسْجِدِ، قَالَتْ: فَكَانَتْ تَأْتِينَا فَتَحَدَّثُ عِنْدَنَا، فَإِذَا فَرَغَتْ من حَدِيثِهَا، قَالَتْ:

وَيَوْمُ الْوِشَاحِ من تَعَاجِيبِ رَبِّنَا   أَلَا إِنَّهُ من بَلْدَةِ الْكُفْرِ أَنْجَانِي

فَلَمَّا أَكْثَرَتْ! قَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ: وَمَا يَوْمُ الْوِشَاحِ؟! قَالَتْ: خَرَجَتْ جُوَيْرِيَةٌ لِبَعْضِ أَهْلِي، وَعَلَيْهَا وِشَاحٌ من أَدَمٍ، فَسَقَطَ مِنْهَا، فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِ الْحُدَيَّا وَهِيَ تَحْسِبُهُ لَحْمًا،

(١)البيت الضيق الصغير.

فَأَخَذَتْهُ، فَاتَّهَمُونِي بِهِ فَعَذَّبُونِي، حَتَّى بَلَغَ من أَمْرِي أَنَّهُمْ طَلَبُوا فِي قُبُلِي (١) فَبَيْنَا هُمْ حَوْلِي وَأَنَا فِي كَرْبِي ؛ إِذْ أَقْبَلَتْ الْحُدَيَّا حَتَّى وَازَتْ بِرُءُوسِنَا، ثُمَّ أَلْقَتْهُ فَأَخَذُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: هَذَا الَّذِي اتَّهَمْتُمُونِي بِهِ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيئَةٌ. (٢)

فالرَّجاء من مقامات العبودية، فكلما عظم الرَّجاء بالله سبحانه ؛ كان الله عند ظن عبده به، فهو أرحم الرّاحمين، وأجود الأجودين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**يَقُولُ الله تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**». (٣)

ولذلك وعد الله الرّاجين بقرب اللِّقاء، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة العنكبوت: ٥].

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذين آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٨].

وفي الحديث القدسي: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا ؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**». (٤)

ولذلك قالوا عن الرَّجاء: بأنه حَادٍ يحدو القلوب إلى بلدِ المحبوب – أي إلى الله

---

(١)أي أنهم طلبوه بحثا في قبلها.

(٢)رواه البخاري (٣٨٣٥).

(٣)رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

(٤)حسن: رواه الترمذي (٣٥٤٠).

والدار الآخرة - ويُطَيِّبُ لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرَّب سبحانه، والارتياح لمطالعة كَرَمه ومَنِّهِ.

ولذلك كان على العبد أن يعظم الرَّجاء، ويتمنى على الله سبحانه وتعالى، ولا يحقرن العمل، فهو سبحانه يجازي على القليل الكثير.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِالله وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاة، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ؛ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله!أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاس؟ قَالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ ؛ أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ الله فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ».(١)

فإن التَّائب الصَّادق في توبته إذا تاب إليه وجده غَفُورًا رَّحِيمًا، والمتوكل إذا صَدَقَ في التَّوكل عليه وجده حسيبًا كافيًا، والداعي إذا صدق في الرغبة إليه وجده قريبًا مجيبًا، والمحب إذا صدق في محبته وجده ودودًا حبيبًا، والملهوف إذا صدق في الاستغاثة به وجده كاشفًا للكرب مخلِّصًا منه، والمضطر إذا صدق في الاضطرار إليه وجده رحيمًا مغيثًا، والخائف إذا صدق اللجأ إليه وجده مؤمنًا من الخوف، والرّاجي إذا صدق في الرَّجاء وجده عند ظنه به، فمحبه وطالبه ومريده الذي لا يبغي به بدلا، ولا يرضى بسواه عوضًا، إذا صدق في محبته وإرادته وجده أيضًا وجودًا .أخص من تلك الموجودات، فلله عز وجل مع عباده وأوليائه معية خاصة ؛ لا ينالها إلا من سبق بتصفية قلبه، وإصلاح سريرته، وحقق العبادة، وهذه المعية هي التي وقعت لموسى عليه السلام.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [سورة طه: ٤٥-٤٦].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٩٠).

صور من عظيم رحمة الله بعباده

ثم تأمل إلى عظيم رحمته، كيف يجازي سبحانه على القليل؟! يجازي بما لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.(١)

فقد شكر سبحانه وتعالى لرَجُلٍ نحّى غُصْنَ شَوْكٍ عن الطريق.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَذَهُ؛ فَشَكَرَ الله لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**». (٢)

وغفر لبغيٍّ من بني إسرائيل سَقَتْ كلبًا أصابه العطش.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ**(٣) كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ من بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا(٤) فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ». (٥)

وتجاوز عن تاجرٍ مُسْرِفٍ كان يتجاوز عن النَّاس.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضي الله عنه ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاس، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ لَعَلَّ الله أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ الله عَنْهُ**»(٦).

وأدخل الجنةَ رجلا كان سهلا في تعامله مع النَّاس.

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَدْخَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ رَجُلًا كَانَ سَهْلًا، مُشْتَرِيًا وَبَائِعًا، وَقَاضِيًا وَمُقْتَضِيًا؛ الْجَنَّةَ**»(٧).

---

(١) انظر كتابي "مكدرات القلوب" (٢٤).
(٢) البخاري (٢٤٧٢) ومسلم (١٩١٤).
(٣) رَكِيَّة: بئر.
(٤) مُوقَهَا: الخف وهي كلمة فارسية معربة.
(٥) رواه البخاري (٣٤٦٧) ومسلم(٢٢٤٥).
(٦) رواه البخاري (٢٠٧٨) ومسلم(١٥٦٢).
(٧) حسن: النسائي (٧/٣١٩) وابن ماجة (٢٢٠٢) وأحمد (١/٥٨-٦٧-٧٠) وله شاهد من حديث جابر بن عبد الله.رواه الترمذي (١٣٢٠).

وعفا عن رجلٍ جاء يوم القيامة بتسعةٍ وتسعين سجلًا من الذنوب والمعاصي.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلًا من أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا** (١) كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ من هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟! فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ ؛ فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذْرٌ ؛ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ ؛ فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ ؛ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتْ (٢)السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ ؛ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ الله شَيْءٌ» (٣)

ولما حاول مطيع أن يُقَنِّط عاصيًا من رحمة الله ؛ غفر الله للعاصي وأحبط عمل المطيع.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي** (٤) وَرَبِّي ؛ أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا، فَقَالَ: وَالله لَا يَغْفِرُ الله لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ الله الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ: لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا، وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا

(١)السِّجِل: الكتاب الكبير.
(٢)طَاشَتْ: أي خَفَّت.
(٣) صحيح: الترمذي (٢٦٣٩) ابن ماجة (٤٣٠٠) وأحمد (٢/ ٢١٣).
(٤)اتركني.

بِهِ إِلَى النَّارِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ ؛ أَوْبَقَتْ (١) دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»(٢)

أفضل الرَّجاء

والرَّجاء هو بذل الجهد وحسن التوكل.

فعن أبي سليمان الدّاراني قَالَ: من حَسَّن ظنه بالله عز وجل ؛ ثم لا يخاف الله فهو مخدوع.(٣)

ولذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف أولياءه عند ملاقاة عدوهم فوق ما يطيقون، بل أمرهم بحد الاستطاعة، وقد تكفل الله لهم بالنصر.

قَالَ سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ من قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ من دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا من شَيْءٍ فِي سَبِيلِ الله يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال:٦٠].

وقال تَعَالَى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ الله فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ من بَعْدِهِ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلْ المُؤْمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران:١٦٠].

فيجب على العبد في الأسباب حَدَّ الاستطاعة ؛ ثم يعلق رجاءه على ربه سبحانه وتعالى.

ولذلك يجب مع الرَّجاء بذل أسباب الطّاعة، والحذر من المعصية والتفريط، ولذلك ينقسم الرَّجاء إلى محمودٍ ومذموم:

فالمحمود هو رجاء من عمل بطاعة الله، ولزم أمره ونهيه، فهو يرجو رحمة الله

(١) أهلكت.

(٢) حسن: رواه أبو داود (٤٩٠١) وأحمد (٢/ ٣٦٣).

(٣) حلية الأولياء (٩/ ٢٧٢).

بدخول الجنة، وهذا أعلى الرَّجاء، ورجل أَسْرَفَ على نفسه ثم تاب وأقلع ؛ فهو يرجو مغفرة الله له ونجاته من النار.

والمذموم هو رجلٌ تمادى في المعاصي والآثام، وهو مفرطٌ ويرجو رحمة الله بلا عمل.

وقوة الرَّجاء تكون بحسب معرفة العبد بربه سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته، فإذا اطَّلَع العبد على أسماء الله، وبان له من صفاته سبحانه وتعالى وغلبة رحمته على غضبه، وفرحه بتوبة عبده ورجوعه، وإمهاله للكفار رغم كفرهم وجحودهم وبسط الرِّزق لهم ودعوتهم للتوبة والإنابة، كُلُّ ذلك يدفع العبد أن يعلق رجاءه به.

لَوْلَا التَّعَلُّقُ بِالرَّجَاءِ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسُ المحِبِّ تَحَسُّرًا وَتَمَزُّقَا
وَكَذَاكَ لَوْلا بَرْدُهُ بِحَرَارَةِ الـ ... ـأَ كْبَادِ ذَابَتْ بِالحِجَابِ تَحَرُّقَا
أَيَكُونُ قَطُّ حَلِيفَ حُبٍّ لا يَرَى ... بِرَجَائِهِ لِحَبِيبِهِ مُتَعَلِّقَا؟!
أَمْ كُلَّمَا قَوِيَتْ مَحَبَّتُهُ لَهُ ... قَوِيَ الرَّجَاءُ فَزَادَ فِيهِ تَشَوُّقَا
لَوْلَا الرَّجَا يَحْدُو المطِيّ لَمَا سَرَتْ ... بِحَمُولِهَا لِدِيَارِهِمْ تَرْجُو اللُّقَا

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرَّجاء، وكُلُّ مُحِبٍ رَاجٍ خائف بالضَّرورة، فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه، وكذلك خوفه فإنه يخاف سقوطه من عينه وطرد محبوبه له، وإبعاده واحتجابه عنه، فخوفه أشد خوف، ورجاؤه ذاتي للمحبة، فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه ؛ فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرَّجاء له لما يحصل له به من حياة روحه ونعيم قلبه ؛ من ألطاف محبوبه وبره، وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضا، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لا حياة للمحب، ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رَجَاء، وأَجَلُّهُ وأتمه.

فالرَّجاء ضروري للعبد، ولو فارقه لحظة لفسد عليه قلبه أو كاد، فإنه دائر بين ذنبٍ يرجو غفرانه، وعيبٍ يرجو إصلاحه، وعملٍ صالحٍ يرجو قَبوله،

واستقامةٍ يرجو حصولها ودوامها، وقُربٍ من الله ومنزلةٍ عنده يرجو وصوله إليها، ولا ينفك أحدٌ من العباد عنْ هذه الأمور أو بعضها، فهو راغبٌ راهبٌ مؤملٌ لفضل ربه، محسن الظن به، متعلقُ الأملِ ببره وجوده، عابدٌ له بأسمائه وصفاته: المحسن، البر، المعطي، الحليم، الغفور، الجواد، الوهاب، الرَّزاق.

إِذَا ابْتُلِيتَ فثِقْ بِالله وارْضَ بِهِ ... إِنَّ الَّذِي يَكْشِفُ البَلْوَى هُو اللهُ
إِذَا قَضَى الله فَاسْتَسْلِمْ لِقُدْرَتِهِ ... مَا لامْرِئٍ حِيلَةٌ فِيمَا قَضَى اللهُ
اليَأْسُ يَقْطَعُ أَحْيَانًا بِصَاحِبِهِ ... لَا تَيْأَسَنَّ فَنِعْمَ القَادِرُ اللهُ

الرَّجاء يعلق العبد بخالقه

فإذا علم العبد من صفات الله سبحانه وتعالى ومحبته لعبده ؛ عند عودته واستقامته، وأنه سبحانه غفورٌ رحيمٌ ودودٌ، يفرح بتوبة عبده ورجوعه إليه ؛ أشد من فرح من فقد دابته عليها طعامه وشرابه، وهو في أرض فلاةٍ، وقد أوشك على الهلكة ثم وجدها.

عَنْ أَنَسِ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ من أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ**(١) ؛ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ؛ قَدْ أَيِسَ من رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ؛ ثُمَّ قَالَ من شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ من شِدَّةِ الْفَرَحِ»(٢).

فلو وُجد مثلٌ أعظم من هذا!! لضربه النَّبِيّ ﷺ.

فالرَّجاء اسم يصدق على انتظار محبوب ؛ قد بذل العبد أسبابه الدّاخلة تحت

(١) صحراء.

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٧).

اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس تحت اختياره، فالعبد يحب الله ويرجوه ويبذل الغايات في طاعة ربه ومولاه، فلا يدع لله سبيلا يجب أن يطاع فيه إلا كان مطيعًا، ولا سبيلًا يكره أن يُعْصَى فيه إلا كان أبعد عنه، ثم بعد ذلك ينتظر فضل الله وكرمه وجوده.

أما من ترك قلبه مَشْحونًا بالأهواءِ والشَّهوات، وانهمك في طلب الملذات، ثم انتظر المغفرة، واعتمد على الرَّجاء، فهذا حُمْقٌ وغفلةٌ عن صفات ربه ومولاه، تأمل هذه الآيات، يقول سبحانه وتعالى:﴿فَخَلَفَ من بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاة وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [سورة مريم: ٥٩].

وقال تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ من بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ الم يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى الله إلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٩].

فلا رجاء إلا بعد عمل، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذين آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة البقرة:٢١٨].

﴿إِنَّ الَّذين يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُوا الصَّلاة وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴾ [سورة فاطر: ٢٩].

فالعجيب أن العبد إذا أراد زرعًا بذر بذرًا، وإذا أراد طعامًا خرج إلى السوق، وإذا أراد الولد تزوج، وإذا أراد الجنة أهمل العمل! ثم قَالَ: أرجو رحمة ربي! فهذا رجاء كاذب.

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إن السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى اليَبَسِ

ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، فابذل الجهد، والله يتقبل مني ومنك.

عن أَبي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الله لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ المنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ، فَإِذَا لَقَّنَ الله عَبْدًا حُجَّتَهُ قَالَ: يَا**

رَبِّ رَجَوْتُكَ وَفَرِقْتُ [(١)] من النَّاس ».[(٢)]

وعن بعضِ الأعراب أنه تعلَّقَ بأستار الكعبة وهو يقول: اللَّهمّ إن استغفاري مع إِصْرَارِي لُؤْمٌ ، وَإِنَّ تَرْكِي الاسْتِغْفَارَ مَعَ عِلْمِي بِسَعَةِ عَفْوِكَ لَعَجْز ، فَكَمْ تَتَحَبَّبُ إِلَيَّ بِالنِّعَمِ مَعَ غِناكَ عَنِّي ، وأَتَبَغَّضُ إِلَيْكَ بِالمَعَاصِي مَعَ فَقْرِي إِلَيْك ، يَا مَنْ إِذَا وَعَدَ وَفَّى ، وَإِذَا تَوَعَّدَ تَجَاوَزَ وَعَفَا ، أَدْخِلْ عَظِيمَ جُرمِي فِي عَظِيمِ عَفْوِكَ يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ.[(٣)]

فَكُلَّمَا عَظُمَ الرَّجاء كُلَّمَا عَظُمَ التَّعَلُّق بالله سبحانه وتعالى.

*****

---

(١) خفت.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجة (٤٠٠٧) وأحمد (٣/ ٢٧) وصححه العراقي في الإحياء.

(٣) النووي "الأذكار" (٥٥٣).

٧- الصِّـــدق

وهو شِعَارُ الصّالحين، وسَبِيلُ المتقين، وبه ينال العبد أعلى المنازل والدَّرجات، ولا تؤثر فيه الفتن ولا تضره الآفات، ومن حُرِم الصِّدق فهو من المنقطعين الهالكين.

به تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه ؛ الذي ما وضع على شيء إلا قَطَعَه، ولا واجه باطلًا إلا أرداه وصرعه، من صال به لم تُرد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين ؛ كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين، وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصّادقين، وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا الله وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة التوبة:١١٩].

وقال تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِعْ الله وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [سورة النساء: ٦٩].

فهم الرفيقُ الأعلى وحسن أولئك رفيقًا، ولا يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحسانًا منه وتوفيقًا، ولهم مرتبة المعية مع الله فإنَّ الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين، وأخبر تَعَالَى أن من صدقه فهو خير له، فقال تَعَالَى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا الله لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [سورة محمد: ٢١].

وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم ؛ من الإيمان والإسلام، والصدقة والصبر، بأنهم أهل الصِّدق، فقال تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشْرِقِ وَالمغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالملائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المالَ عَلَى حُبِّهِ

ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالمسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاة وَآتَى الزّكاة وَالموفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذين صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

وهذا صريح في أن الصِّدق بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن الصِّدق هو مقام الإسلام والإيمان، وقسم الله سبحانه النَّاس إلى صادق ومنافق، فقال تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الله الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ المنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ الله كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٤].

والإيمان أساسه الصِّدق، والنِّفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر، وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، قَالَ تَعَالَى:﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ الله عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [سورة المائدة: ١١٩]، وقال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٣٣].

أنواع الصِّدق

والصِّدق يكون في الأقوال والأفعال والأحوال:

*** فالصدق في الأقوال:**

استواء اللِّسان على الأقوال، فلا يكون قول إلا وهو مطابق للحقيقة كأن السَّامع يراه رأي العين. وقيل: الصِّدق القول بالحق في مواطن الهلكة. وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترجوه.

هو العلامة والدلالة على باقي أنواع الصِّدق، وحُقَّ على كُلِّ عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصِّدق، وهذا هو أشهر أنواع الصِّدق وأظهرها، فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق، ولكن لهذا الصِّدق

كمالان:

أحدهما: الاحتراز عن المعاريض،فقد قيل في المعاريض مندوحة عن الكذب، وذلك لأنها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه، إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال، وفي تأديب الصِّبيان والنسوان، ومن يجري مجراهم، وفي الحذر من الظَّلمة، وفي قتال الأعداء، والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك، فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق، وإن كان كلامه مُفْهِما غير ما هو عليه! لأن الصِّدق ما أريد لذاته، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلا، كما ذكر عن النَّبيِّ ﷺ في غزواته.

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ فَغَزَاهَا رَسُولُ الله ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَاسْتَقْبَلَ غَزْوَ عَدُوٍّ كَثِيرٍ، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ عَدُوِّهِمْ، وَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ. (١)

وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد، وليس هذا من الكذب في شيء.

عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عُقْبَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**لَيْسَ بِالْكَاذِبِ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ فَقَالَ خَيْرًا، أَوْ نَمَى خَيْرًا**». (٢)

الثاني: أن يراعي معنى الصِّدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه:

كقوله: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**». فإن قلبه إن كان منصرفًا عن الله تَعَالَى مشغولًا بأماني الدنيا وشهواتها فهو كذب. وكقوله: «**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**». وقوله: «**أنا عبد الله**».

---

(١)البخاري (٢٩٤٨) ومسلم (٢٧٦٩).

(٢)صحيح: رواه الترمذي (١٩٣٨) أبو داود (٤٩٢٠) وأحمد (٦/ ٤٠٣).

فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية، وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقًا، ولو طُولب يوم القيامة بالصِّدق في قوله: أنا عبد الله ؛ لعجز عن تحقيقه، فإنه إن كان عبدًا لنفسه أو عبدًا لدنيا أو عبدًا لشهواته لم يكن صادقًا في قوله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**».[1]

فسمَّى كُلَّ من تقيد قَلْبُه بشيء عبدًا له، وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق نفسه من كل عبودية لغير الله تَعَالَى، فصار حرًا مطلقًا، فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغًا، فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله، وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته، فلا يكون له مراد إلا الله تَعَالَى.

*** الصِّدق في الأعمال:**

استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، فلا يكون لله أمر أو نهي إلا وأثره على جوارحه مطابق لما أمر به الله، وأخبر به الرسول ﷺ.

وأعظم أنواعه عمل القلب ؛ فكُلَّما تحقق الصِّدق في القلب ظهر على جميع الجوارح، ولذلك يجب على العبد أن يجر باطنه إلى تصديق ظاهره ؛ بحيث يدفع قلبه إلى الصِّدق ثم يجر جوارحه فتكون حقيقة لما عليه القلب وهو على أقسام.

أولا: الصِّدق في النية والإرادة: ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعثٌ في الحركاتِ والسَّكناتِ إلا الله تَعَالَى، فإن مازجه شَوْبٌ من حُظُوظِ النَّفس بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يُسمَّى كاذبًا.

وكذلك قول الله تَعَالَى ﴿وَالله يَشْهَدُ إِنَّ المَنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ وقد قالوا ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ الله﴾ كما في قوله تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ المَنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله وَالله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَالله يَشْهَدُ إِنَّ المَنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [سورة المنافقون: ١].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٥).

وهذا صدق، ولكن كذَّبهم لا من حيث نطق اللِّسان، بل من حيث ضمير القلب.

ثانيا: صدق العزم: فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل، فيقول في نفسه إن رزقني الله مالًا تصدقت بجميعه أو بشطره، أو إن لقيت عدوًا في سبيل الله تَعَالَى قاتلت ولم أبال وإن قتلت، وإن أعطاني الله تَعَالَى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تَعَالَى بظلم وميل إلى خلق، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه، وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف، يضاد الصِّدق في العزيمة، فكان الصِّدق هاهنا عبارة عن التمام والقوة.

والصِّدِّيق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة، ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد، بل تسخو نفسه أبدًا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات، وهو كما قَالَ عمر رضي الله عنه: وَالله أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي، لَا يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ من إِثْمٍ أَحَبَّ إِلَيَّ من أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تُسَوِّلَ إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ الموْتِ شَيْئًا لَا أَجِدُهُ الْآنَ (١).

فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة ؛ بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه، وأكد ذلك بما ذكره من القتل.

ثالثا: الوفاء بالعزم: فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم، والمؤونة فيه خفيفة فإذا حقت الحقائق، وحصل التمكن وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة وغلبت الشهوات، ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصِّدق ؛ بخلاف من صدق عَزْمُه وَوَفَّتْ نَفْسُهُ فهو لا يتردد لحظة في الوفاء بما عاهد عليه.

عَنْ أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ المشْرِكِينَ، لَئِن الله أَشْهَدَنِي قِتَالَ المشْرِكِينَ ؛ لَيَرَيَنَّ الله مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ المسْلِمُونَ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا**

(١) رواه البخاري (٦٨٣٠) ومسلم (١٦٩١).

صَنَعَ هَؤُلَاءِ»، يَعْنِي أَصْحَابَهُ «وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ» - يَعْنِي المشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا من دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ الله، مَا صَنَعَ؟ قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ، وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ المشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ ﴿من المؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ﴾، إِلَى - آخِرِ الْآيَةِ -.(١)

* الصِّدق في جميع الأحوال:

استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص والمتابعة، فتكون جميع أحوال العبد ؛ أقواله وأفعاله وما في قلبه في طاعة الله عز وجل، باذل الجهد في تحقق ذلك.

ويقصد به الصِّدق في جميع مقامات الدِّين، كالصِّدق في: الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب، وسائر هذه الأمور.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا المؤْمِنُونَ الَّذين آمَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [سورة الحجرات: ١٥].

فالصِّدق الذي يصل إليه العبد في جميع أحواله زمانًا ومكانًا، في كُلِّ حركة وكُلِّ سكنة، حتى يكون صِدِّيقًا.

قَالَ الغزالي(٢): ولنضرب للخوف مثلًا: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفًا ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق - أى غير بالغ درجة الحقيقة - أما تراه إذا خاف سلطانًا، أو قاطع طريق فى سفره كيف يصفر لونه، وترتعد فرائصه، ويتنغص عليه عيشه، ويتعذر عليه أكله ونومه، وينقسم عليه فكره

---

(١) رواه البخاري (٢٨٠٥) ومسلم (١٩٠٣).
(٢) الإحياء (٤/ ٤١٤).

حتى لا ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالرّاحة التَّعب والمشقة، والتعرض للأخطار كل ذلك خوفًا من درك المحذور، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان المعصية عليه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا»(١).

فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدًا ثم درجات الصِّدق لا نهاية لها، وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض، فإن كان صادقًا في الجميع فهو الصديق حقًّا.اهـ.

فَبِذَلِك يكون العبد من الَّذِين جاءوا بالصِّدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صِدِّيقيته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿من الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥].

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ـ رضي الله عنه ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الصِّدق يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا». (٢)

فأعلى مراتب الصِّدق مرتبة الصِّدِّيقية، وهي كمال الانقياد للرسول مع كمال الإخلاص للمُرْسِل، وقد أمر الله تَعَالَى رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصِّدق، فقال تَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ

---

(١) حسن: الترمذي (٢٦٠١).

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٦).

لِي من لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ [سورة الإسراء: ٨٠].

ويكفي في فضيلة الصِّدق أن الله تَعَالَى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء، فقال تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ من رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٥٠].

ومن علامات الصِّدق طمأنينة القلب إليه، ومن علامات الكذب حصول الرِّيبة، كما صَحَّ عَن الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: حَفِظْتُ من رَسُولِ الله ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدق طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ».(١)

*****

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٥١٨) وأحمد (١/ ٢٠٠).

٨- الصبر

والصبر: هو حبس النفس على ما تكره ؛ مما فيه مشقة أو ألم ؛ انتظارًا لموعود الله عز وجل.

وهو جناح العبادة ؛ الذي يحمل صاحبه إلى آخر الطريق ، فإن أوقفت العبد محنة، أو عطَّلته رزيَّة، أو أقعدته بلية ؛ فإن الصبر يحمله على جناحيه، ويتعدى ذلك كُلَّه.

وهو إما صبر على طاعة الله والقيام بأوامره ؛ وهو أعلى أنواع الصبر، وهو صبر الأنبياء والصالحين.

وإما صَبْرٌ عن المناهي والمخالفات ، وكفُّ النَّفس عنها، وهذا بالمجاهدة لما يعرض من النفس الأمارة وتحبيبها للفعل ، وما يعرض من هوى وتزيين للشيطان، فبالمجاهدة والصبر ؛ يصل العبد إلى كُرْهِ المعصية، وينعدم ورودها على القلب، وإن وردت فسرعان مايزيلها نور الإيمان.

وإما صبر على الأقدار وما يقضيه الله، والتسليم فيه وعدم التَّسخط، ويكون ذلك بالعلم واليقين ؛ أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فيُسلِّم القلب لتقدير الرَّب سبحانه وتعالى.

فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنةُ في حقه مِنْحَةً، واستحالت البلية عطيةً، وصار المكروهُ محبوبًا، فإنَّ الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته.

وعلى هذا فيكون الصبرُ لازمًا للعبد في كُلِّ أحواله، ولذلك كانت عبادة الصبر ملازمة لجميع العبادات، إذ لا قيام لعبادةٍ بدونه، ولهذا قيل إن الصبر من العبادات بمنزلة الرأس من الجسد، وأن الإيمان نصفه صبرٌ ونصفه شكر.

* تعظيم أجر الصبر:

ولقد عظَّم الله أجر الصابرين ورفع من درجاتهم، إذ أمر العبد يدور على ابتلاءٍ في

الأمر، وابتلاءٍ في النَّهي، ومحن تتقلب مع الأيام والليالي، ولا يتم فلاح العبد ونجاته في ذلك إلا بالصبر، فكُلَّما عظم الصبر ؛ كلما عظم الأجر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ من الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ من الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذين إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ من رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاة وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [سورة الرعد: ٢٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة الزمر: ١٠].

ولذلك يجب على العبد ملازمة الصبر في جميع الحالات، في الزَّمان والمكان، وفي السَّراء والضَّراء.

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ؛ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**».(١)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رضي الله عنه -: إِنَّ نَاسًا من الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «**مَا يَكُونُ عِنْدِي من خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ من الصَّبْرِ**».(٢)

فالصَّبر كله خير ولذلك قيل: إِنَّ الصَّبر مَعَ الله وَفَاءٌ، وَإِنَّ الصَّبر عن الله جَفَاء.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٢) رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣).

ولذلك أمر الله به وأوجبه قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾ [سورة النحل: ١٢٧].

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٣].

وأخبر سبحانه أنه لا ينتفع بآياته ويتعظ بها إلا الصَّبار الشَّكور، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ من الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة إبراهيم: ٥].

*** الصبر اختيار:**

والصَّبر عبادة قلبية، ويظهر أثره على جوارح العبد ملازمًا لها ، والأصل فيه الاختيار وهذا هو الصبر المحمود ، بخلاف صبر الاضطرار ؛ فهو يكون من البَرِّ والفاجر، والمحسن والمسيء ، ولذلك كان الصَّبر المحمود عند الصدمة الأولى.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: مَرَّ النَّبِيّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «**اتَّقِي الله وَاصْبِرِي**»، قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيّ ﷺ؛ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ! فَقَالَ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**».(١)

كان لعمر بن عبد العزيز صديق، فأُخبر أنه قد مات، فجاء إلى أهله يُعَزِّيهم فصرخوا في وجهه، فقال لهم عمر: إنَّ صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم، وإنَّ الذي يرزقكم حَيٌّ لا يموت، وإن صاحبكم هذا لم يسد شيئًا من حفركم، إنما سَدَّ حفرة نفسه، وإن لِكُلِّ امرئ منكم حُفْرَةً لا بدَّ - والله - أن يسدَّها، إن الله تَعَالَى لما خلق الدُّنيا حَكَمَ عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء، ولا امتلأت دار حِبَرة إلا امتلأت عِبرَة (٢)، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا ؛ حتى يكون الله هو الذي يَرِثُ الأرض ومن عليها، فمن كان

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٣) ومسلم (٩٢٦).

(٢) حبرة: فرح وسرور ، والعبرة: عادة من المصائب.

منكم باكيًا فليبك على نفسه، فإن الذي صار إليه صاحبكم اليوم كلكم يصير إليه غدًا.(١)

صور من الصبر

ولما علم الأُوَل فضل الصبر وماله من عظيمِ الأجر، ضربوا أعظم المثل في الصبر اختيارًا واحتسابًا لعظيم الأجر عند الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ أَذْهَبْتُ حَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ، لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الجَنَّةِ».(٢)

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ، قَالَ الله لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ الله: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ».(٣)

* وهذه بعض الصُّورِ التي يتعجب منها العبد ؛ حينما يرى أُمَّةً قد رضيت عن الله ؛ ورضي الله عنها.

فهذه أُمُّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ تُبْتَلَى بأعظم مصيبة! فقد الزوج، وكان بينها وبينه من المواقف والمواطن الإيمانية ما أثقل عليها البلاء، فلما صبرت ؛ عَوَّضَها الله بِرَسُولِ الله ﷺ.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: مَا من مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ - مَا أَمَرَهُ الله: إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٣٣٠).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٤٠١) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) حسن: رواه الترمذي (١٠٢١) وأحمد (٤/ ٤١٥).

خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ الله لَهُ خَيْرًا مِنْهَا، قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ من أَبِي سَلَمَةَ؟! أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ الله لِي رَسُولَ الله ﷺ، قَالَتْ: أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ لِي بِنْتًا، وَأَنَا غَيُورٌ، فَقَالَ: أَمَّا ابْنَتُهَا ؛ فَنَدْعُو الله أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا، وَأَدْعُو الله أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ.(١)

وهذه أُمُّ سُلَيم تفعل ما لوفعلته إحدى نسائنا ؛ لقالوا: أصابها جنون!

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: اشْتَكَى ابْنٌ لِأَبِي طَلْحَةَ ؛ فَمَاتَ وَأَبُو طَلْحَةَ خَارِجٌ، فَلَمَّا رَأَتِ امْرَأَتُهُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ؛ هَيَّأَتْ شَيْئًا وَنَحَّتْهُ فِي جَانِبِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُو طَلْحَةَ، قَالَ: كَيْفَ الْغُلَامُ؟ قَالَتْ: قَدْ هَدَأَتْ نَفْسُهُ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ اسْتَرَاحَ، وَظَنَّ أَبُو طَلْحَةَ أَنَّهَا صَادِقَةٌ، قَالَ: فَبَاتَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَعْلَمَتْهُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِمَا كَانَ مِنْهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَعَلَّ الله أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا**»، فَقَالَ رَجُلٌ من الْأَنْصَارِ: فَرَأَيْتُ لَهُمَا تِسْعَةَ أَوْلَادٍ، كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ.(٢)

بل تأمل حال هذه المرأة التي كانت تُصْرَعُ، فَطَلَبَتْ من النَّبِيِّ ﷺ أن يدعو لها، فخيرها بين الصبر على ألم الصرع فيكون جزاؤها الجنة ؛ أو الدعاء بزوال الصرع، فرضيت بالصبر على ألم الصرع مقابل الجنة ولكنها لم تصبر على التكشف.

عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً من أَهْلِ الْجَنَّةِ! قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ الله لِي، قَالَ: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ الله أَنْ يُعَافِيَكِ**»، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ الله لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا(٣).

---

(١) رواه مسلم (٩١٨).

(٢) رواه البخاري (١٣٠١).

(٣) رواه البخاري (٥٦٥٢) ومسلم (٢٥٧٦).

وانظر لحال هذه المرأة العابدة معاذة العدوية ؛ كيف كان صبرها على زوجها وولدها.

عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ قَالَ: إِنَّ صِلَةَ بْنَ أَشْيَمَ كَانَ فِي مَغْزًى لَهُ، وَمَعَهُ ابْنٌ لَهُ فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ تَقَدَّمْ فَقَاتِلْ حَتَّى أَحْتَسِبَكَ، فَحَمَلَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَاجْتَمَعَتِ النِّسَاءُ عِنْدَ امْرَأَتِهِ مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةِ، فَقَالَتْ: مَرْحَبًا إِنْ كُنْتُنَّ جِئْتُنَّ لِتُهَنِّئْنَنِي فَمَرْحَبًا بِكُنَّ ، وَإِنْ كُنْتُنَّ جِئْتُنَّ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَارْجِعْنَ. (١)

قَالَ الحسن رحمه الله: الصَّبْرُ كَنْزٌ من كُنُوزِ الْخَيْرِ ، لَا يُعْطِيه الله إِلَّا لِعَبْدٍ كَرِيمٍ عِنْدَهُ(٢).

وقال عمر بن عبد العزيز: مَا أَنْعَمَ الله عَلَى عَبْدٍ من نِعْمَةٍ فَانْتَزَعَهَا مِنْهُ فَعَاضَهُ(٣) مِمّا انْتُزِعَ مِنْهُ صَبْرًا ؛ إِلَّا كَانَ الَّذِي عَاضَه خَيْرًا مِمَّا انْتُزِعَ مِنْه. (٤)

قَالَ تَعَالَى عن يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَالله الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [سورة يوسف: ١٨].

فالصبر الجميل لا شكوى فيه ولا جزع.

وقد أمر الله نبيه بالهجرِ الجميل، والصَّفْحِ الجميل، والصَّبْرِ الجميل. فالهجر الجميل؛ هجرٌ بلا أذى ؛ والصفح الجميل ؛ صفحٌ بلا عتاب، والصبر الجميل ؛ صبرٌ بلا شكوى.

ولذلك كان عاقبته الجنة كما قَالَ تَعَالَى: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴾ [سورة الفرقان: ٧٥]. والغرفة هي الجنة ؛ كما قَالَ جماعة من

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٢٣٩).
(٢) المناوي "فيض القدير" (٥/ ٣٢٢).
(٣) عَوَّضَهُ.
(٤) ابن أبي شيبة "المصنف"(٧/ ٣٥٠٩٤).

المفسرين.

وقال تَعَالَى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [سورة الإنسان: ١٢].

فلمّا كان في الصبر الذي هو حبس النَّفس عن الهوى خشونة وتضييق ؛ جازاهم على ذلك نُعُومَةَ الحريرِ وَسَعةَ الجنةِ.

فمن لاح له كمال الآخرة، هان عليه فراق الدُّنيا، وصبر ساعة ؛ خير من شقوة الأبد.

*****

٩- التوبة

التوبة لغة: من تاب يتوب إذا رجع.

وشرعًا: الرجوع من معصية الله إلى طاعته، فليس بين الطاعة والمعصية منزل، كما أنه ليس بين الجنة والنار منزل.

وأعظمها وأوجبها: التوبة من الكفر إلى الإيمان، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الأنفال: ٣٨].

ثم يليها التوبة من البدعة إلى السُّنة، والتوبة من كبائر الذنوب وصغارها.

فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النِّهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعًا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة النــور: ٣١].

وهذه الآية في سورة مدنية خَاطَبَ الله بها أَهْلَ الإيمان وخيار خلقه ؛ أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثم عَلَّق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون - جعلنا الله منهم.

وقال الله تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾ [سورة الحجرات: ١١].

فقد قَسَّم سبحانه وتعالى العباد إلى تائبٍ وظالم، وما ثم قِسْمٌ ثالث ألبتة، وأوقع سبحانه وتعالى اسم الظَّالم على من لم يتب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه، وآفات أعماله.

وقد جعلها سبحانه وتعالى علامة على فلاح العبد وهدايته، وعنوانًا على صِدْقِ عبوديته، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [سورة هود: ٣].

وقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [سورة التحريم:٨].

وقد كان النَّبيُّ ﷺ يكثر من التوبة ويحث عليها:

عَنِ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ «**يَا أَيُّهَا النَّاس تُوبُوا إِلَى الله فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(١).

والله سبحانه وتعالى يحب التائبين ويفرح بتوبتهم:

﴿إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٢].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لله أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ من أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ من رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ من شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ؛ أَخْطَأَ من شِدَّةِ الْفَرَحِ**».(٢)

ومن عظيم كرمه ومَنِّهِ بعباده؛ أنه سبحانه وتعالى يمهل عبده إن أساء بالنهار، ويدعوه إلى التَّوبة، ويبسط يده بالليل؛ طالبًا عبده بالرجوع إليه، وكذلك مذنب الليل يمهله إلى النَّهار؛ بل يظلُّ الباب مفتوحًا إلى قبيل قيام الساعة.

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ من مَغْرِبِهَا**».(٣)

والأمر في حقِّ العبد إلى أن تصل الرُّوح إلى الحلقوم.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الله يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**».(٤)

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٧).

(٣) رواه مسلم (٢٧٥٩).

(٤) حسن: الترمذي (٣٥٣٧) وأحمد (٢/ ١٣٢) ابن ماجة (٤٢٥٣) ابن حبان (٢٤٥٠) والحاكم (٤/ ٢٥٧) وصححه.

ولما كانت التَّوبة هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضَّالين؛ وذلك لا يحصل إلا بهداية الله له إلى الصِّراط المستقيم، ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، فلا تستقيم العبودية إلا بالتوبة النَّصوح، فإن الهداية التامة إلى الصِّراط المستقيم؛ لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها، بل بشعور العبد الدَّائم بعظم تفريطه، وسوء حاله إن لم يرحمه ربه سبحانه وتعالى، فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولًا وآخرًا، ومتى اعتصم العبد بربه نصره على نفسه وعلى الشيطان، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الموْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

ووقوع العبد في الذَّنب هو حقيقة الخذلان، فما خلى الله بينك وبين الذَّنب إلا بعد أن خذلك وخلى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفَّقك لما وجد الذنب إليك سبيلًا، وإذا وقعت في الذَّنب فتداركك الله برحمة فأحسست بخطورة ما أنت فيه، وعلا قلبك النَّدم، وشملتك الحسرة، فهذه بادرة خير ؛ أن يجبر الله كَسْرَكَ، ويعينك على تدارك ما فاتك من غفلة.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيّ ﷺ يَقُولُ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**».(١)

فهذا النَّدم إن لم يعصر القلب، وينغص عيش العبد ؛ فهو جاهل بحقيقة فعله، إذ الفرح بالمعصية دليل على شدة الرَّغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها، ففرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضررًا عليه من مواقعتها، والمؤمن لا تتم له لذَّة بمعصية أبدًا، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشَّهوة يحجبه عن الشُّعور به، ومتى خلى قلبه من هذا الحزن، واشتدت غبطته وسروره بمعصيته وفعله ؛ فليتهم إيمانه، وليبك على موت قلبه؛ فإنه لو كان حيًا لأحزنه ارتكابه للذنب وغاظه، وصعب عليه، ولا يحس القلب بذلك،

(١) صحيح: أحمد (١/ ٣٧٦) ابن ماجة (٤٢٥٢).

فحيث لم يحس به فما لجرحٍ بميتٍ إيلام، وهذه النُّكتة في الذنب قَلَّ من يهتدي إليها أو ينتبه لها؛ وهي موضع مخوف جدًا مترام إلى هلاك العبد بالكلية؛ إن لم يتدارك نفسه بثلاثة أشياء:

أولاً: خوف القدوم على ربه قبل التوبة.

ثانيًا: ندم على ما فاته من الله بمخالفة أمره.

ثالثًا: وتشمير للجد في استدراك ما فات من تفريط وتقصير.

وقد نادى سبحانه على المسرفين من عباده بأحبِ نداء مرغبًا إياهم في الإقبال عليه، وعدم القنوط من رحمته قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا من رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر: ٥٣].

وقال تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الشورى: ٢٥].

*** وفَتَحَ باب التوبة أمام عبد علم منه الرجوع والإنابة:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ؛ اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ**»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ،**

---

(١) البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨).

وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» [سورة المطففين: ١٤] (١).

من صور التائبين

الذي يطالع سير الأول يجد سجلًّا حافلًا ممن تاب ورجع إلى ربه ومولاه ؛ بعد تفريطٍ وعِصيان وجهلٍ بحقيقة النَّفس، ويرى رحمة الله بعبده من توفيقه إلى التوبة، وإعانته عليها ؛ فضلًا منه وتكرمًا.

فهو سبحانه وتعالى الغفور الودود التواب الرحيم، فقد غفر سبحانه وتعالى لمن تاب بعد قتل مائة نفس.

فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ هَلْ من تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ. فَجَعَلَ يَسْأَلُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ عَالِمٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا فَأَدْرَكَهُ الموْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى الله إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى الله إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ». (٢)

*** وغفر لرجل شكّ في قدرة الله على جمعه يوم القيامة:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الموْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: "إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَالله لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا. فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ فَأَمَرَ الله

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٣٣٤) وقال حديث حسن صحيح ، ابن ماجة (٤٢٤٤) وأحمد (٢/٢٩٧).

(٢)رواه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦).

الْأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ فَفَعَلَتْ فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ! قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ فَغَفَرَ لَهُ »..(١)

*** توبة زان وزانية:**

وَقَبِلَ توبة زانٍ وزانية، وشهد النَّبِيّ ﷺ بصحةِ توبتهما.

عَنْ بُرَيْدَةَ: أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الْأَسْلَمِيَّ أَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَزَنَيْتُ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي فَرَدَّهُ، فَلَمَّا كَانَ من الْغَدِ أَتَاهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: «أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا، تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا»، فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا وَفِيَّ الْعَقْلِ من صَالِحِينَا فِيمَا نُرَى، فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا، فَسَأَلَ عَنْهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ وَلَا بِعَقْلِهِ، فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ، حفَرَ لَهُ حُفْرَةً ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، قَالَ: فَجَاءَتْ الْغَامِدِيَّةُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله! لِمَ تَرُدُّنِي! لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا! فَوَالله إِنِّي لَحُبْلَى، قَالَ: «إِمَّا لَا فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي»، فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ، قَالَ: «اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ»، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ الله قَدْ فَطَمْتُهُ وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ من الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاس فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ فَرَمَى رَأْسَهَا ؛ فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ الله ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: «مَهْلًا يَا خَالِدُ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ»(٢).

---

(١) البخاري(٣٤٨١) ومسلم(٢٧٥٦).
(٢) رواه مسلم (١٦٩٥).

*** توبة كعب بن مالك:**

وإليك أشهر توبة وقعت في عهد النَّبِيّ ﷺ.

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ - يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ - لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ ؛ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ الله بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا. كَانَ من خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ، وَالله مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ الله ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ الدِّيوَانَ - قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ ؛ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ الله. وَغَزَا رَسُولُ الله ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَت الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ من جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ الله ﷺ، فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا

عَلَيْهِ النِّفَاقُ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ الله من الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ: وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟ فَقَالَ رَجُلٌ من بَنِي سَلمَةَ: يَا رَسُولَ الله حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَالله يَا رَسُولَ الله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ الله ﷺ.

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ من سَخَطِهِ غَدًا، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ من أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا ؛ زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ من سَفَرٍ بَدَأَ بِالمسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ المخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى الله، فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المغْضَبِ ؛ ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: **«مَا خَلَّفَكَ؟! أَلم تَكُنْ قد ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ»** فَقُلْتُ: بَلَى، إِنِّي وَالله لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ من أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ من سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَالله لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ الله أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ الله، لَا وَالله مَا كَانَ لِي من عُذْرٍ، وَالله مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ الله فِيكَ»**، فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ من بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَالله مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ المتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ الله ﷺ لَكَ، فَوَالله مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ

نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِمَا أُسْوَةٌ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ الله ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ من بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاس، وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْض ؛ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاة مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ الله ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاة، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا، ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَض عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ من جَفْوَةِ النَّاس؛ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي، وَأَحَبُّ النَّاس إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَالله مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ! أَنْشُدُكَ بِالله، هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ من أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّام مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاس يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا من مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ. فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ الله بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا من الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً من الْخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ الله ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا،

وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ الله فِي هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَت امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ؛ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ، قَالَتْ: إِنَّهُ وَالله مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَالله مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ من أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا. فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ الله ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، فَقُلْتُ: وَالله لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ الله ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً ؛ من حِينَ نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ من بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ الله ؛ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْب بْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ الله ﷺ بِتَوْبَةِ الله عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاس يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ من أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ من الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَالله مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاس فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاس، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَالله مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ من المهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ

من السُّرُورِ: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ».

قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ الله أَمْ من عِنْدِ الله؟! قَالَ: «لَا بَلْ من عِنْدِ الله» وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ من تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ من مَالِي صَدَقَةً إِلَى الله، وَإِلَى رَسُولِ الله، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ الله إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ من تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَالله مَا أَعْلَمُ أَحَدًا من المسْلِمِينَ أَبْلَاهُ الله فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي الله فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ﴿لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالمهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فَوَالله مَا أَنْعَمَ الله عَلَيَّ من نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي من صِدْقِي لِرَسُولِ الله ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ ؛ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِين كَذَبُوا، فَإِنَّ الله قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِالله لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ الله لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِين قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ الله ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى الله فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ الله ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِين خُلِّفُوا﴾ وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ الله مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ.[١]

(١) رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩).

*** أبو محجن الثقفي:**

وهذا سَجِينُ سعد بن أبي وقاص كان متهمًا بشرب الخمر، قيل: كان يشربها وقيل: كان يذكرها في شعره، إنه أبو محجن الثقفي البطل الشُّجاع الكرّار أمسك به سعد ؛ وكان قد حبس في القصر وقيد، فهو في القصر فصعد حين أمسى إلى سعد يستعفيه ويستقيله، فزبره ورده، فنزل فأتى سلمى بنت خَصَفة -زوجة سعد - فقال: يا سلمى يا بنت آل خصفة هل لك إلى خير؟ قالت: وما ذاك؟ قَالَ: تخلين عني وتعيرينني البلقاء ؛ فلله علي إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي، فقالت: وما أنا وذاك! فرجع يرسف في قيوده، يقول :

كَفَى حَزَنًا أَنْ تَرْتَدِيَ الْخَيْلُ بِالْقَنَا ... وَأُتْرَكَ مَشْدُودًا عَلَيَّ وَثَاقِيا
إِذَا قُمْتُ عَنَّانِي الْحَدِيدُ وَأُغْلِقَتْ ... مَصَارِيعُ دُونِي قَدْ تَصُمُّ الْمنَادِيا
وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةٍ ... فَقَدْ تَرَكُونِي وَاحِدًا لَا أَخَا لِيَا
وَلله عَهْدٌ لَا أَخِيسُ بِعَهْدِهِ ... لَئِنْ فُرِّجَتْ أَلَّا أَزُورَ الْحَوَانِيا

فقالت سلمى: إني استخرت الله ورضيت بعهدك ؛ فأطلقته، وقالت: أمّا الفرس فلا أعيرها ورجعت إلى بيتها، فاقتادها فأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق، فركبها ثم دب عليها، حتى إذا كان بحيال الميمنة، كَبَّر ثم حمل على ميسرةِ القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصَّفين، ثم رجع من خلف المسلمين إلى المَيْسَرَةِ فَكَبَّرَ وحمل على ميمنة القوم يلعب بين الصَّفين برمحه وسلاحه، ثم رجع من خلف المسلمين إلى القلب فندر أمام النَّاس، فحمل على القوم يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه، وكان يقصف النَّاس ليلتئذ قصفًا منكرًا، وتعجب النَّاس منه وهم لا يعرفونه ولم يروه من النَّهار. وجعل سعد يقول - وهو مشرف على النَّاس مكب من فوق القصر: والله لولا محبس أبي محجن لقلت: هذا أبو محجن وهذه البلقاء. وقال بعض النَّاس: إن كان الخضر يشهد الحروب فنظن صاحب البلقاء الخضر. وقال بعضهم: لولا أن الملائكة لا تباشر القتال

لقلنا ملك يثبتنا، ولا يذكره النَّاس ولا يأبهون له ؛ لأنه بات في محبسه، فلمّا انتصف الليل؛ حاجز أهل فارس، وتراجع المسلمون، وأقبل أبو محجن حتى دخل من حيث خرج، ووضع عن نفسه وعن دابته، وأعاد رجليه في قيديه، وقال:

لَقَدْ عَلِمَتْ ثَقِيفٌ غَيْرَ فَخْرٍ ... بِأَنَّا نَحْنُ أَكْرَمُهُمْ سُيُوفَا
وَأَكْثَرُهُمْ دُرُوعًا سَابِغَاتٍ ... وَأَصْبَرُهُمْ إِذَا كَرِهُوا الْوُقُوفَا
وَأَنَّا وَفْدُهُم فِي كُلِّ يَوْمٍ ... فَإِنْ عَمِيُوا فَسَلْ بِهِمُ عَرِيفَا
وَلَيْلَةَ قَادِسٍ لَمْ يَشْعُرُوا بِي ... وَلَمْ أُشْعِرْ بِمَخْرَجِيَ الزُّحُوفَا
فَإِنْ أُحْبَسْ فَذَلِكُمُ بَلَائِي ... وَإِنْ أُتْرَكْ أُذِيقُهُمُ الْحُتُوفَا

فقالت له سلمى: يا أبا محجن! في أي شيء حبسك هذا الرجل؟ قَالَ: أما والله ماحبسني بحرامٍ أكلته ولا شربته، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني يبعثه على شفتي أحيانًا، فيُسَاءُ لذلك ثَنَائِي، ولذلك حبسني، قلت:

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَى أَصْلِ كَرْمَةٍ ... تُرَوِّي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا
وَلَا تَدْفِنَنِّي بِالْفَلَاةِ فَإِنَّنِي ... أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَلَّا أَذُوقُهَا
وَتَرْوِي بِخَمْرِ الْحُصِّ لَحْدِي فَإِنَّنِي ... أَسِيرُ لَهَا من بَعْدِ مَا قَدْ أَسُوقُهَا

ولم تزل سَلْمَى مُغَاضِبَةً لسعدٍ عشية أرماث، وليلة الهدأة، وليلة السَّواد(١)، حتى إذا أصبحت أتته وصالحته، وأخبرته خبرها وخبر أبي محجن، فدعا به فأطلقه، وقال: اذهب فما أنا مؤاخذك بشيءٍ تقوله ؛ حتى تفعله، قَالَ: لا جرم والله، لا أجيب لساني إلى صفةِ قبيحٍ أبدًا.(٢)

---

(١) أسماء مواقع من أيام القادسية.
(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٤١٦).

*** زاذان الكندي:**

وهذا أحد الشباب ممن كان منهمكًا في اللَّعب واللهو، ممن منَّ الله عليه بالتَّوبة حتى كان من أعلام زمانه.

زاذان الكِنْدِي: قَالَ الذَّهبي في السير: تاب على يد ابن مسعود.

قَالَ زاذان: كنت غُلامًا حسن الصَّوت جيد الضربِ بالطُّنبور، فكنت مع صاحبٍ لي و عندنا نبيذ وأنا أغنيهم، فمرَّ ابن مسعود فدخل فضرب الباطيه - إناء للنبيذ - وكسر الطنبور ثم قَالَ: لو كان ما يسمع من حسن صوتك يا غلام بالقرآن كنت أنت أنت!! ثم مضى ، فقلت لأصحابي: من هذا؟ قالوا: هذا ابن مسعود، فألقي في نفسي التوبة فسعيت أبكي، وأخذت بثوبه فأقبل عليّ فاعتنقني وبكى، وقال: مرحبًا بمن أحبه الله ، اجلس ، ثم دخل وأخرج لي تمرًا.

*** ابن المبارك:**

وهذا ابن المبارك سيِّد سادات المسلمين في زمانه، قيل: كان في أول شبابه منشغلًا باللهو.

قَالَ حسين بن الحسن: سُئل ابن المبارك وأنا حاضرٌ عن أوَّلِ زُهْدِهِ؟ فقال: إني كنت يومًا في بستان وأنا شاب مع جماعة من أترابي، وذلك في وقت الفواكه فأكلنا وشربنا، وكنت مُولعًا بضرب العود، فقمت في بعض الليل وإذا غصن يتحرك عند رأسي، فأخذت العُودَ لأضرب به ؛ فإذا بالعود ينطق وهو يقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [سورة الحديد: ١٦] قَالَ: فضربت بالعود الأرض فكسرته، وصرفت ما عندي من جميع الأمور التي كنت عليها مما شغل عن الله، وجاء التوفيق من الله تَعَالَى، فكان ما سهل لنا من الخير من فَضْلِ الله تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ.(١)

---

(١) تاريخ ابن عساكر (٣٢/ ٤٠٦).

*** القعنبي:**

وهذا عبد الله بن مَسْلَمَة القَعْنَبِي عالم زمانه، الذي قَالَ فيه أبو حاتم: ثقة حجة لم أر أخشع منه، ولما دخل على الإمام مالك قَالَ: قُوموا لخير أهل الأرض. قيل: كان في أول شبابه مُنشغلاً باللعب والبطالة ؛ حتى منَّ الله عليه بالتَّوبة.

ذكر موفق الدين بن قدامة في كتابه «التَّوابين» عن بعض ولد القعنبي بالبصرة قَالَ: كان أبي يشرب النبيذ ويصحب الأحداث فدعاهم يومًا وقد قعد على بابٍ ينتظرهم فمرّ شعبة على حماره و النَّاس خلفه يهرعون، فقال: من هذا؟ قيل: شعبة، قَالَ: وإيش شعبة؟ قالوا: محدث.

فقام إليه وعليه أزر أحمر فقال له: حدثني.

فقال له: ما أنت من أصحاب الحديث فأحدثك ، فأشهر سكينه وقال: تحدثني أو أجرحك؟

فَقَالَ: حَدَّثَنَا مَنْصُورٌ عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ حَدَّثَنَا أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاس من كَلَامِ النُّبُوَّةِ إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ**».(١)

فرمى سكينه ورجع إلى منزله ؛ فقام إلى ما كان عنده من شراب فهراقه ، وقال لأمه: السّاعة أصحابي يجيئون فأدخليهم وقدمي الطَّعام إليهم، فإذا أكلوا فأخبريهم بما صنعت بالشَّراب حتى ينصرفوا، ومضى من وقته إلى المدينة فلزم مالك بن أنس» (١).

*** توبة شاب:**

قَالَ مَنْصُور بن عمار: خرجت ليلةً وظننت أني قد أصبحت وإذ أنا على ليل، فقعدت عند بابٍ صغير، وإذا بصوت شاب يبكي ويقول: بعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك، وقد عَصَيْتُك حين عصيتك وما أنا بِنَكَالِك جاهل، ولا لعقوبتك مُتَعَرِّض ولا بنظرك مُسْتَخِف، ولكن سوَّلت لي نفسي وغلبت علي شقوتي، وغرني

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٣) من غير طريق القعنبي ، ورواه أبو داود (٤٧٩٧) من طريق القعنبي.

سترك المرْخَى عَلَيّ، والآن فمن عذابك من ينقذني؟! وبحبل من أتصل إن قطعت حبلك عني؟! وا سوأتاه من تصرم أيامي في معصية ربي، يا ويلي! كم أتوب! وكم أعود! قد حان لي أن أستحي من ربي.

قَالَ مَنْصُور: فلمّا سمعت كلامه قلت: أعوذ بالله من الشّيطَانِ الرّجِيم بِسْمِ الله الرّحْمَنِ الرّحِيمِ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[التحريم: ٦].

فسمعت صَوتًا واضطرابًا شديدًا، ومضيت لحاجتي، فلمّا أصبحت رجعت، فَإذا جنازةٌ موضوعة على ذلك الباب، وعجوزٌ تَذْهَبُ وتجيء فقلت لها: من هذا الميت؟ فقالت: إليك عنّي لا تجدد عليَّ أحزاني، قلت: إني رجل غريب، قالت: هذا ولدي، مَرَّ بنا البارحة رجلٌ لا جزاه الله خيرًا قرأ آيةً فيها ذِكرُ النّار، فلم يزل ابني يبكي ويضطرب حتى مات.

قَالَ منصور: هكذا والله صفة الخائفين.(١)

*** توبة لص:**

دَخَلَ لِص عَلَى مَالِكِ بْنِ دِينَار فلم يجد ما يأخذه. فناداه مالك: لم تجد شيئًا من الدُّنيا ، أفترغب في شيء من أمر الآخرة؟ قَالَ: نَعَم ، قَالَ: تَوَضَّأ وصلِّ ركعتين ، ففعل ثم جلس. وخرج إلى المسجد ، فَسُئِل: مَنْ ذا؟ قَالَ: لِص جَاءَ لِيَسْرِقَنَا فَسَرَقْنَاه!!(٢)

*** توبة عابد صنم:**

قَالَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ: عَصَفَتْ بِنَا الرِّيحُ عَلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ ، فَإِذَا بِرَجُلٍ يَعْبُدُ صَنَمًا .

فَقُلْنَا لَهُ: أَيُّهَا الرَّجُلُ مَنْ تَعْبُدُ ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الصَّنَمِ ، فَقُلْنَا لَهُ: إِنَّ مَعَنَا فِي الْمَرْكَبِ مَنْ يَعْمَلُ هَذَا ، قَالَ: فَأَنْتُمْ مَنْ تَعْبُدُونَ؟! قُلْنَا: نَعْبُدُ الله تَعَالَى ، قَالَ: وَمَنْ هُوَ؟ قُلْنَا:

---

(١) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٢٧).

(٢) الذهبي في "السير" (٥/ ٣٦٣).

الَّذِي فِي السَّمَاءِ عَرْشُهُ ، وَفِي الْأَرْضِ سُلْطَانُهُ ، وَفِي الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ قَضَاؤُهُ .

قَالَ: كَيْفَ عَلِمْتُمْ هَذَا؟ قُلْنَا: وَجَّهَ إِلَيْنَا رَسُولًا أَعْلَمَنَا بِهِ ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ الرَّسُولُ؟! قُلْنَا: قَبَضَهُ الله إِلَيْهِ ، قَالَ: فَهَلْ تَرَكَ عِنْدَكُمْ عَلَامَةً؟ قُلْنَا: تَرَكَ عِنْدَنَا كِتَابَ الملِكِ ، قَالَ: أَرُونِيهِ ، فَأَتَيْنَاهُ بِالمصْحَفِ فَقَالَ: مَا أَعْرِفُ هَذَا ؟! فَقَرَأْنَا عَلَيْهِ سُورَةً وَهُوَ يَبْكِي ، ثُمَّ قَالَ: يَنْبَغِي لِصَاحِبِ هَذَا الْكَلَامِ أَنْ لَا يُعْصَى ، فَأَسْلَمَ وَحَمَلْنَاهُ مَعَنَا، وَعَلَّمْنَاهُ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ وَسُوَرًا من الْقُرْآنِ ، فَلَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ صَلَّيْنَا وَأَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا ، فَقَالَ: يَا قَوْمُ: الْإِلَهُ الَّذِي دَلَلْتُمُونِي عَلَيْهِ أَيَنَامُ إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ؟ قُلْنَا: لَا يَا عَبْدَ الله هُوَ حَيٌّ قَيُّومٌ لَا يَنَامُ ، قَالَ: بِئْسَ الْعَبِيدُ أَنْتُمْ تَنَامُونَ وَمَوْلَاكُمْ لَا يَنَامُ ! فَعَجِبْنَا من كَلَامِهِ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَبَادَان جَمَعْنَا لَهُ دَرَاهِمَ وَأَعْطَيْنَاهَا لَهُ وَقُلْنَا لَهُ: أَنْفِقْهَا ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله دَلَلْتُمُونِي عَلَى طَرِيقٍ لَمْ تَسْلُكُوهُ ، أَنَا كُنْت فِي جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ أَعْبُدُ صَنَمًا من دُونِهِ فَلَمْ يُضَيِّعْنِي فَكَيْفَ الْآنَ وَقَدْ عَرَفْته ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ أَتَانِي آتٍ فَقَالَ لِي: إِنَّهُ يُعَالِجُ سَكَرَاتِ الموْتِ ، فَجِئْته وَقُلْت: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: قَدْ قَضَى حَوَائِجِي مَنْ عَرَّفْتنِي بِهِ . فَبَيْنَمَا أَنَا أُكَلِّمُهُ إذْ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْت، فَرَأَيْت فِي المنَامِ رَوْضَةً وَفِي الرَّوْضَةِ قُبَّةٌ وَفِيهَا سَرِيرٌ عَلَيْهِ جَارِيَةٌ أَجْمَلُ من الشَّمْسِ تَقُولُ: سَأَلْتُك بِالله عَجِّلْ عَلَيَّ بِهِ، فَانْتَبَهْت فَإِذَا بِهِ قَدْ مَاتَ رحمه الله تَعَالَى ، فَجَهَّزْته لِقَبْرِهِ ثُمَّ رَأَيْته فِي المنَامِ فِي الْقُبَّةِ وَالْجَارِيَةُ إلَى جَانِبِهِ وَهُوَ يَتْلُو ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ . وَالله أَعْلَمُ.(١)

* **توبة مجوسي:**

ورُوِي عَن الحَسَنِ البَصْرِي - رضي الله عنه - أنه قَالَ:" دَخَلْتُ عَلَى بَعْضِ المجوس وهو يَجُودُ بنفسه عند الموت ، وكان حَسَنَ الجوار ، حسن السِّيرة ، حَسَنَ الأخلاق ، فرجوت أن الله يوفقه عند الموت ، ويميته على الإسلام ، فقلت له: ما تجد؟! وكيف حالك!؟ فقال: لي قَلْبٌ عَلِيلٌ ولا صِحَّةَ لي ، وَبَدَنٌ سَقِيمٌ ، ولا قوة لي ، وَقَبْرٌ مُوحِشٌ

(١) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب (٢/ ٥٠٥).

ولا أنيس لي ، وسَفَرٌ بعيد ولا زاد لي، وصِرَاطٌ دقيق ولا جَوَازَ لي ، ونَارٌ حَامِيةٌ ولا بدن لي، وجنَّةٌ عالية ولا نصيب لي ، وَرَبٌّ عَادِلٌ وَلَا حُجَّة لِي.

قَالَ الحسن: فرجوت الله أن يوفقه ، فأقبلت عليه ، وقلت له: لم لا تُسْلِم حتى تَسْلَم؟ قَالَ: إنَّ المفْتَاحَ بِيَدِ الفَتّاح ، والقُفْلَ هُنا ، وأشَارَ إلى صَدْرِهِ وغُشِي عَلَيهِ.

قَالَ الحَسَنُ: فقلت: إلهِي وَسَيِّدِي ومَوْلَاي ، إنْ كَانَ سَبَقَ لِهَذَا المجُوسِي عِنْدَكَ حَسَنَةٌ فَعَجِّلْ بِهَا إلَيْهِ قَبْلَ فِرَاقِ رُوحِهِ من الدُّنْيا ، وانْقِطَاعِ الأَمَلِ.

فأفاق من غشيته ، وفتح عينيه ، ثم أقبل وقال: يا شيخ! إنَّ الفَتَّاحَ أَرْسَلَ المفْتِاحَ. أُمْدُد يُمْنَاكَ ، فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، ثم خَرَجَتْ رُوحُهُ وَصَارَ إلى رحمة الله. (١)

*** توبة امرأة جميلة:**

قَالَ العِجْلي: حدثني أبي عبد الله قَالَ: كانت امرأة جميلة بمكة وكان لها زوج، فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة، فقالت لزوجها: أترى يرى أحد هذا الوجه ولا يفتتن به؟! قَالَ: نعم. قالت: من؟! قَالَ: عُبَيْدُ بْنُ عُمَير (٢). قالت: فأذن لي فيه فلأفتننه، قَالَ: قَدْ أذنت لك، قَالَ: فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحيةٍ من المسجد الحرام، قَالَ: فأسفرت عن مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمةَ الله، فقالت: إني قد فتنت بك فانظر في أمري؟ قَالَ: إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقت، نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، قَالَ: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك يقبض روحك؛ أكان يَسُرُّك أني قضيت لك هذه الحاجة؟! قالت: اللهم لا، قَالَ: صدقت، قَالَ: فلو أدخلت في قبرك فأجلست للمساءلة ؛ أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟! قالت: اللهم لا، قَالَ: صدقت، قَالَ: فلو أن النَّاسَ أُعطوا كتبهم ولا تدرين تأخذين كتابك بيمينك

---

(١) بحر الدموع (٢٧).

(٢) كان من ثقات التابعين بمكة ، وكان يذكر النَّاس ، "السير" (٤/ ١٥٦).

أم بشمالك، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟! قالت: اللهم لا، قَالَ: صدقت، قَالَ: فلو أردت المرور على الصِّراط، ولا تدرين تنجين أم لا تنجين! كان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟! قالت: اللهم لا، قَالَ: صدقت، قَالَ: فلو جيء بالموازين وجيء بك لا تدرين تَخِفِّين أم تثقلين! كان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟! قالت: اللهم لا، قَالَ: صدقت، قَالَ: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة ؛ كان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟! قالت: اللهم لا، قَالَ: صدقت. قَالَ: اتقي الله يا أمة الله! فقد أنعم الله عليك! وأحسن إليك! قَالَ: فرجعت إلى زوجها، فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطّال، ونحن بطّالون، فأقبلت على الصَّلاة والصّوم والعبادة، قَالَ: وكان زوجها يقول: ما لي ولعبيد بن عمير! أفسد علي زوجتي، كانت كل ليلة عروسًا فصيَّرها راهبة (١).

أخي الحبيب: بادر بالتوبة من الذنوب ، واقتف آثار التوّابين ، واسلك مسالك الأوّابين ، الَّذِين نالوا التوبة والغفران ، وأتعبوا أنفسهم في رضا الرحمن ، فلو رأيتهم في ظُلم الليالي قائمين ، ولكتاب ربهم تالين ، بنفوسٍ خائفة ، وقلوبٍ واجفة ، قد وضعوا جباههم على الثَّرَى، ورفعوا حوائجهم لمن يَرى ولا يُرى.

دَعُونِي عَلَى نَفْسِي أَنُوحُ وَأَنْدُبُ ... بِدمْعٍ غَزِيرٍ وَاكِفٍ يَتَصَبَّبُ
دَعُونِي عَلَى نَفْسِي أَنُوحُ لِأَنَّنِي ... أَخَافُ عَلَى نَفْسِي الضَّعِيفَةِ تُعْطَبُ
فَمَنْ لِي إِذَا نَادَى المنَادِي بِمَنْ عَصَا ... إِلَى أَيْنَ أَلْجَأُ أَمْ إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ
فَيَا طُولَ حُزْنِي ثُمَّ يَا طُولَ حَسْرَتِي ... إِذَا كُنْتُ فِي نَارِ الْجَحِيمِ أُعَذَّبُ
وَقَدْ ظَهَرَتْ تِلْكَ القَبَائِحُ كُلُّهَا ... وَقَدْ قُرِّبَ الميزانُ وَالنَّارُ تَلْهَبُ
وَلَكِنَّنِي أَرْجُو الإِلَهَ لَعَلَّهُ ... بِحُسْنِ رَجَائِي فِيهِ لِي يَتَوهَّبُ
وَيُدْخِلَنِي دَارَ الْجِنَانِ بِفِضْلِهِ ... فَلَا عَمَلٌ أَرْجُو بِهِ أَتقَرَّبُ
سِوَى حُبِّ النَّبِي الهاشِمِيِّ مُحَمَّدٍ ... وَأَصْحَابِهِ وَالآلِ مَنْ قَدْ تَرَهَّبُوا.(٢)

---

(١) ثقات العجلي (٣٢٢).
(٢) بحر الدموع (٤١).

شروط التوبة

فإن التَّوبة عن الذنوب بالرُّجوع إلى ستار العيوب، وعلَّام الغيوب؛ مبدأ طريق العابدين، ورأس مال الفائزين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين، ولما وقع آدم عليه السلام في الذنب تاب وقرع سِنَّ الندم، فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة؛ فقد زلت به القدم.

والتَّوبةُ واجبةٌ على الفور، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من الإيمان، والعلم بضرر الذنب يكون باعثًا على تركه.

والذي يستغرق في المعاصي ويفرط في الطَّاعات، مُدَّعيًا أنه يقول لا إله إلا الله، إنما مثله كمثل إنسان قطعت أطرافه، وفُقِئت عينه، وفقد جميع أعضائه الظاهرة والباطنة، وما بقي فيه إلا أصل الرُّوح، فهذا أقرب للموت منه للحياة! فكيف نقول يكفي لا إله إلا الله؟.

قَالَ البخاري رحمه الله(١): بَاب مَا جَاءَ فِي الْجَنَائِزِ، وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَقِيلَ لِوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ: أَلَيْسَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ؟! قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لَيْسَ مِفْتَاحٌ إِلَّا لَهُ أَسْنَانٌ، فَإِنْ جِئْتَ بِمِفْتَاحٍ لَهُ أَسْنَانٌ فُتِحَ لَكَ، وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ لَكَ.

* وللتوبة شروط:

الشرط الأول: الإخلاص لله؛ أي يكون قصد العبد من توبته وجه الله، وأن ينال توبة الله عليه، وأن يتجاوز عنه ويمحو هذه المعصية.

الشرط الثاني: النَّدَمُ على فعل المعصية، لأن الشعور بالندم دلالة على صدق التوبة، فيتحسر العبد على ما سبق منه، وينكسر لأجله ولا يرى أنه حل منه حتى يتوب منه إلى الله.

---

(١) "البخاري مع الفتح" (٣/ ١٠٩).

قَالَ بعضُ السَّادة الأخيار لولده لما حضرته الوفاة: يا بنيّ ، اسمع وصيتي ، واعمل ما أوصيك به. قَالَ: نعم يا أبت. قَالَ: يا بنيّ ، اجعل في عنقي حبلًا ، وجرّني إلى محرابي ، ومرّغ خدي على التُّراب ، وقُلْ: هذا جَزَاءُ من عصى مولاه ، وآثر شهوته وهواه، ونام عن خدمة مولاه. قَالَ: فلما فعل ذلك به ، رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي ، قد آن الرَّحيل إليك ، وأزف القدوم عليك ، ولا عذر لي بين يديك ، غير أنك الغفور وأنا العاصي ، وأنت الرَّحيم وأنا الجاني ، وأنت السيِّدُ وأنا العبد ، ارحم خضوعي وذلتي بين يديك ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك.

فخرجت روحه في الحال ، فإذا بصوت ينادي من زاوية البيت سمعه كل من حضر وهو يقول: تذلَّل العبد لمولاه ، واعتذر إليه مما جناه ، فقرّبه وأدناه وجعل الجنة مأواه.(١)

الشرط الثالث: أن يُقْلِع عن الذَّنب الَّذي هو فيه، وهذا من أهم شروط التَّوبة، فَإِنْ كان الذنب ترك واجب ففعل الواجب والاستمرار عليه دلالة على التَّوبة، وإن كان بفعل محرم فترك المحرم وعدم الرجوع إليه دلالة على التوبة.

قَالَ مالك بن دينار: دخلت على جارٍ لي وهو في الغمرات يعاني عظيم السَّكرات ، يُغْمَى عليه مرة ، ويفيق أخرى ، وفي قلبه لهيب الزَّفرات ، وكان منهمكا في دنياه ، متخلفًا عن طاعة مولاه ، فقلت له: يا أخي! تب الى الله ، وارجع عن غيّك ، عسى المولى أن يشفيك من الملك ، ويعافيك من مرضك وسقمك ، ويتجاوز بكرمه عن ذنبك. فقال: هيهات هيهات! قد دنا ما هو آت ، وأنا ميّت لا محالة ، فيا أسفى على عمر أفنيته في البطالة. أردت أن أتوب مما جنيت ، فسمعت هاتفًا يهتف من زاوية البيت: عاهدناك مرارًا فوجدناك غدارًا. نعوذ بالله من سوء الخاتمة ، ونستغفره من الذنوب المتقادمة.(٢)

(١) بحر الدموع (١٩).
(٢) بحر الدموع (١٩).

الشرط الرابع: العزم على عدم الرجوع إلى الذنب.

فإن وجد المولى سبحانه وتعالى من عبده عزيمة صادقة على عدم الرجوع، أعانه على التوبة، وهيأ له أسبابها، وحيل بينه وبين مواقعة المعصية.

الخامس: أن تكون التَّوبة في زمن قبول التَّوبة أي:

١- قبل حلول الأجل كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٨].

وقال تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ الله الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة غافر: ٨٤-٨٥].

٢-قبل طلوع الشمس من مغربها كما قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الملائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ من قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٨].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ من مَغْرِبِهَا تَابَ الله عَلَيْهِ**».(١)

*****

(١)رواه مسلم (٢٧٠٣).

١٠- الإنابة

وأناب في اللغة معناه: عاد ورجع.

فالإنابة: أن يعود الإنسان ويرجع إلى الله رجوعًا كليًا، متجردًا، خالصًا لله تبارك وتعالى، فيرجع عن كُلِّ ما لديه من أهواءٍ، وشهواتٍ، ودوافعَ، ونوازعَ، ويجعل همه هو رضا الله تبارك وتعالى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر:٥٤].

فالإنابة: الرُّجوع إلى الله بالتوبة، وفي التنزيل العزيز: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاة وَلا تَكُونُوا من المشْرِكِينَ﴾ [سورة الروم: ٣١] أي راجعين إلى ما أمر به، غير خارجين عن شيءٍ من أمره، ملازمين لتقواه وطاعته.

وقيل: إخراج القلب من ظلمات الشبهات. وقيل: الإنابة الرجوع من الكُلِّ إلى من له الكُلُّ. وقيل الإنابة: الرجوع من الغفلةِ إلى الذكر، ومن الوحشةِ إلى الأُنس.

وقيل: هي عكوف القلب على الله عَزَّ وجلّ، كاعتكافِ البدن في المسجد لا يفارقه.

وَلِأَنَّ العبد دائم التردد على المعصية فيلزمه الإنابة، وقد أمر الله تَعَالَى عباده أن ينيبوا إليه ويرجعوا، فقال تَعَالَى:﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ من قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾[سورة الزمر: ٥٤].

وأثنى على خليله بها؛ فقال سبحانه:﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [سورة هود: ٧٥].

وأخبر أن آياته إنما يتبصر ويتذكر بها أهل الإنابة، فقال تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا من فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا من كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سورة ق: ٦-٨].

وقال تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ من السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ﴾[سورة غافر: ١٣].

وقال تَعَالَى عن نبيه داود: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [سورة ص: ٢٤].

* تحقق الإنابة:

الإنابة لا تستقيم إلا بثلاثة أشياء:

أولها: الخلاص من لَذَّةِ الذنب، فإن المعصية تترك ألمًا في القلب يحدث لذةً وتشوقًا للإكثار منها، فمتى بقيت هذه اللَّذة واستمرت هذه الرغبة؛ فالإنابة لم تحدث بعد.

ثانيها: ترك الاستهانة بأهل الغفلة تخوفًا عليهم، والبحث عن عيوبهم مع الرَّجاء للنفس والاستهانة بعيبها، ففتحك بابَ الرَّجاء لنفسك فترجو لنفسك الرَّحمة؛ وتخشى على أهل الغفلة النِّقمة؛ هذا هو الجهل بعينه، ولكن ارج لهم الرَّحمة، واخش على نفسك النِّقمة، فإن كنت لابد مستهينًا بهم ماقتًا لهم لانكشاف أحوالهم لك ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشدَّ مقتا منك لهم، وكن لهم أرجى لرحمة الله منك لنفسك.

عن أبي الدَّرْدَاء قَالَ: لا تفقه كُلَّ الفقه؛ حتى تمقت النَّاس في جنب الله؛ ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتًا.[1]

ثالثها: أن يعود مكان الذنب ألمًا وتوجعًا لذكره والفكرة فيه، وهذا يحتاج إلى دوام مجاهدة، واستحضار لعظمة الله، وجبر أثر الغفلة على القلب؛ بالاستكثارِ من الطَّاعاتِ واستمرارِ المجاهدة، حتى يَسْتَقِرَّ القلبُ على عبوديته لربه ومولاه، فإذا عاين ذلك واستقر بصره على آيات الله، صحَّت إنابته، وسلم رجوعه، قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سورة ق: ٨].

---

(1) ابن أبي شيبة "المصنف" (٧/ ٣٤٥٨٤).

وقال تَعَالَى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ﴾ [سورة غافر: ١٣].

ولما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته ؛ كان من تتمة ذلك رجوعه إليه بالاجتهادِ والنُّصحِ في طاعته كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [سورة الفرقان: ٧٠].

وقال تَعَالَى: ﴿إِلاَّ الَّذين تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٠].

فلا تنفع توبةٌ وبطالةٌ ؛ فلا بد من توبةٍ وعملٍ صالح: تركٍ لما يكره وفعلٍ لما يحب، تخلٍ عن معصيته وتحلٍ بطاعته. وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك، فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولا.

فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانيا.

والدِّين كُلُّه: عهدٌ ووفاء ؛ فَإِنَّ الله أخذ عهده على جميع المكلَّفين بطاعته، فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كَلَّم موسى، وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرُّسل وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء؛ فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم وعلى هؤلاء بالتعلم، ومدح الموفين بعهده وأخبرهم بما لهم عنده من الأجر فقال تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [سورة الفتح: ١٠].

وقال تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [سورة الإسراء: ٣٤].

وقال تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [سورة النحل: ٩١].

وقال تَعَالَى: ﴿وَالموفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطَّاعة وعهودهم مع الخلق، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: أن من علامات النفاق الغدر بعد العهد، فما أناب إلى الله

عز وجل من خان عهده وغدر به كما، أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده، فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به. فَإِنَّ الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها وكُلُّ قَوْلٍ فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال ؛ فارجع إليه إجابة بالحال.

ومن أظهر العلامات على صدق الإنابة

استدراك ما فاته من طَاعةٍ وقُربةٍ بأمثالها أو خير منها، ولا سيما في بقية عمره عند قرب رحيله إلى الله، فبقية عمر المؤمن لحظات لا قيمة لها، يستدرك بها، ما فات ويحيي بها ما أمات.

التَّخَلُّص من الفكرة في لذة الذنب، وأن يبقى مكانها ألمًا وتوجعًا لذكره والفكرة فيه، فما دامت لَذَّةُ الفكرة موجودة في قلبه فإنابته غير صافية، ولذلك لابد أن ينشأ عند العبد حالٌ من المجاهدة، فكلَّما عرض له من المعصية أُنْسٌ، وتراءت له لَذَّةٌ ؛ وجب على الفور قطعها، وتذكر عاقبتها حتى يتولد عنده ألم لما فاته من مرضاة ربه حتى يطمئن إلى زوال أثر الذنب، وأن الأُنس بالذنب قد اسْتُبدِل وحشة، وأن اللَّذةَ قد صارت ألمًا، فإن استقر قلبه على ذلك فقد صفت له الإنابة إلى ربه.

ولا بد للعبد أن يفتش في قلبه ويراعي مصالحه حتى يتهيأ للإنابة، وحقيقة ذلك عُكُوفُ القلبِ على محبته وذكره ؛ بالإجلالِ والتعظيمِ، وعبوديته عبودية تامة، لا ينفك عنها أبدًا، ولا تتعطل عنها جوارحه، فإن طرأ على قلبه خلل سرعان ما أصلحه وجبره.

فهذا ثابت بن قيس ـ رضي الله عنه ـ كان يرفع صوته بحضرة النَّبيّ ﷺ، فلما نزلت الآية:﴿يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [سورة الحجرات: ٢] كاد أن يهلك من شدة الحزن على ذلك.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله! أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ ؛ كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ من أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَى الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ من أَهْلِ النَّارِ وَلَكِنْ من أَهْلِ الجَنَّةِ.[1]

*****

(١) رواه البخاري (٣٦١٣).

١١- الإخبات

الخبت في اللغة: هو الأرض المنبَسِطة ، والإخبات: أخبت إذا طَأْطَأ حتى يُساوى بالأرض.

والإخبات في الشَّرع هو: الخضوع الكامل المطلق ، فكأنه التصق بالأرض ، فليس لديه أي اعتراض على ما يأتي من عند الله تبارك وتعالى ، فهو كما قَالَ الله عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] والتسليم هو: حالة الإحسان التي ذكرها النَّبيُّ ﷺ في حديث جبريل العظيم المشهور، وهو: «**أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» (١).

ففي هذا دليل على كمال الانقياد والإذعان ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٤].

فالإخبات: هو عدم الاعتراض على أمر الله سبحانه، فهو دائمُ التَّسليم والرِّضا.

فكلما ذاق العبد لذة السُّجود لله سبحانه ؛ كلَّما ذلت أركانه وجوارحه، ولذلك كانت أقرب أحوال العبد من ربه وهو ساجد ؛ إذ يضع أعلى وأشرف موضع وهي جبهته، بحذاء أدنى موضع وهما قدماه.

ولهذا يقولون في قلوب الكفار: إنها قلوب متكبرة جبارة، وكثيرًا ما يصفهم الله بوصف الاستكبار ؛ لأنهم يستكبرون عن عبادةِ الله وطاعته، والانقياد لأمره ، فالاستكبار ضد الإخبات.

فمن لم يحكم رسول الله على قلبه ونفسه، ويجعل هواه تبعًا لما جاء به في أصل التحكيم ؛ فإنه ليس بمؤمنٍ ولا بمسلمٍ، إذ التحكيم في مقامِ الإسلام هو كما قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩).

وانتفاء الحرج يكون في مقامِ الإيمان ، فالإيمان درجةٌ أعلى من درجة الإسلام ، فالدرجة هذه أنه حَكَّم وَنَفَى الحرَجَ من قلبه، فلا حرج فيما يحكم به رسول الله ﷺ.

والمقصود هو: ما جاء به عامة ، أي: ما جاءنا من حُكْمِهِ ﷺ ، وهديه وسنته الظاهر منها والباطن ، فنجعل أحوالنا ديمة كأنّ رسول الله ﷺ بنفسه قائم بين أظهرنا، يقول: اعملوا كذا، ولا تعملوا كذا.

فرسول الله ﷺ غاب بجسده، وأما دينه وسنته وهديه فهي بين أيدينا، وحجته قائمة علينا، فلا بد من انتفاء الحرج.

*****

١٢- التسليم

يقول الله تَعَالَى: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

وهذا التَّسليم: هو الذي لا يخطر معه على البال أدنى اعتراض، كما وقع للصحابة بعد نزول الآيات ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فشق عليهم الأمر، فلما سلَّموا لله ؛ رحمهم الله بنسخ الحكم، ولم يحاسبهم عليه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ «**لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى صَحَابَةِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ ثُمَّ جَثَوْا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله كُلِّفْنَا من الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلاة وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ من قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصِيرُ**»، فَقَالُوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصِيرُ﴾ فَلَمَّا أَقَرَّ بِهَا الْقَوْمُ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، أَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي إِثْرِهَا ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ من رَبِّهِ وَالمؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ من رُسُلِهِ﴾ وَقَالُوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصِيرُ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ ﴿لَا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فَصَارَ لَهُ مَا كَسَبَتْ من خَيْرٍ، وَعَلَيْهِ مَا اكْتَسَبَتْ من شَرٍّ.(١)

* بين الصديق وعمر ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ :

ففي صلح الحديبية كان الصديق ـ رضي الله عنه ـ هو الوحيد من بين الصحابة

---

(١) حسن: رواه أحمد (٢/ ٤١٢).

جميعًا الذي سلَّم في هذا ولم يعترض ، أمَّا ثاني رجل في هذه الأمة في الإيمان والدين ، وهو عمر ـ رضي الله عنه ـ فقد أبى واعترض ، وقال: يا رسول الله! ألسنا بالمؤمنين ، وأليسوا بالكافرين ، قَالَ: «بلى»، قَالَ: فعلام نُعْطِي الدَّنية في ديننا؟! فكأن الشُّروط مجحفة وما سلَّم تسليمًا ، لكن ليس في ذلك رد لأمر رسول الله ﷺ ، أو تقديم بين يدي الله ورسوله ، وإنَّمَا ذلك غَيْرةٌ منه على دين الله ، وحرصٌ منه على علو الدِّين وظهوره وتمكينه وانتصاره على أعدائه، فيرى أن هذه الشروط مجحفة للمسلمين -كما هو ظاهر الحال- فما سلَّم تسليمًا بحيث لا يكون لديه أي ممانعة أو مدافعة أو منازعة ، وإذا علمنا ذلك علمنا أهمية أعمال القلوب ، وأن التَّزكية تحتاج إلى صبر ومصابرة، ومثابرة ومجاهدة ومحاضن تربوية ، وعمل ذاتي من المربي أو المزَكِّي بنفسه، ومن المجتمع أو الأمة ، حتى تصلح هذه القلوب وتصل إلى مرتبة الإحسان.

ولهذا يقول عمر ـ رضي الله عنه ـ: فأعتقت وتصدقت لذلك أي: أعتق وتصدق من أجل موقفه في ذلك اليوم، لأنه أنزله عن دائرةِ التَّسليم المطلق الذي فعله الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ ، وكان الصحابة مع عمر ؛ لكن لم يستطيعوا أن يفصحوا فليس فيهم جرأة عمر ـ رضي الله عنه ـ ، فلمّا رأوا رسول الله ﷺ يَحْلِقُ وَيَتَحَلَّلُ ؛ عندها أذعنوا عمليًا لمشورة أم المؤمنين أُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ.

*** أنصاري والزبير:**

وأيضا ما وقع لرجلٍ من الأنصار تحاكم إلى النَّبِيِّ ﷺ، فغلبه الهوى ؛ فردَّ حكم رسول الله ﷺ.

وَفِيهِ أَنَّ رَجُلًا من الْأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي شِرَاجِ الحَرَّةِ الَّتِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: سَرِّحْ الماءَ يَمُرُّ، فَأَبَى عَلَيْهِ، فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِلزُّبَيْرِ: «**اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلْ الماءَ إِلَى جَارِكَ**»، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ: «**اسْقِ يَا زُبَيْرُ**

ثُمَّ احْبِسْ الماءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ»، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَالله إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.(١)

*****

(١) رواه البخاري (٢٣٦٠) ومسلم (٢٣٥٧).

١٣- التوكل

والتَّوَكُّل من أعظم أعمال القلب وأجلها، والتوكل هو إظهار العجز والضعف والاعتماد على الغير.

والاسم: التُّكلان، واتكلت على فلان في أمري إذا اعتمدته، والحركة في الظَّاهر وأخذ الأسباب لا ينافي التوكل بالقلب ؛ بعد تحقيق العبد أن التقدير من قبل الله عز وجل، والتَّوكل ترك تدبير النَّفس، والانخلاع من الحول والقوة. وقيل التوكل: الاسترسال مع الله تَعَالَى على ما يريد.

وقيل: التَّوكلُ قلبٌ عاش مع الله بلا علاقة.

وقيل: التَّوكلُ الثقة بما في يد الله، واليأسُ عما في أيدي النَّاس.

* ما وقع لجماعة من طلبة العلم:

جمعت الرِّحلة بين ابن جرير(١)، وابن خزيمة(٢)، ومحمد بن نصر المروزي(٣)، ومحمد بن هارون الرُّوياني(٤) بمصر، فأرملوا ولم يبق عندهم ما يَقُوتُهم، وأَضَرَّ بهم الجوعُ، فاجتمعوا ليلةً في منزلٍ كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم على أن يَسْتَهِمُوا، ويضربوا القُرْعَةَ، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطَّعام، فخرجت القرعة على ابن خزيمة، فقال لأصحابه: أمهلوني حتى أصلي صلاة الخيرة، فاندفع في الصَّلاة فإذا هم بالشُّموع، وخَصِيٍّ من قبل والي مصر يدقُّ الباب، ففتحوا! فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو ذا، فأخرج صرةً فيها خمسون دينارًا فدفعها إليه، ثم قَالَ: وأيكم محمد بن جرير؟ فأعطاه خمسين دينارًا، وكذلك للرُّوياني، وابن خزيمة، ثم قَالَ: إن الأمير كان

(١) محمد بن جعفر بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ.
(٢) محمد بن إسحاق بن خزيمة صاحب الصحيح.
(٣) صاحب قيام الليل وتعظيم قدر الصَّلاة.
(٤) صاحب المسند المشهور به.

قائلًا بالأمس، فرأى في المنام أن المحامد جياعٌ، قد طووا كشحَهُم، فأنفذ إليكم هذه الصُّرر، وأقسم عليكم إذا نفذت ؛ فابعثوا إليَّ أحدكم.(١)

ولأن التوكل يدخل في الاستعانة ، وجب على العبد أن يستعين بالله في الأمر كله، ففي سورة الفاتحة التي هي أم القرآن والسبع المثاني يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وكلُّ الدين داخل في هذه الآية وهذه ، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك:٢٩]، فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] هي ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ [الملك٢٩] و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] هي ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك٢٩].

ولذلك يجب أن يكون الله تبارك وتعالى وحده هو المعبود، والغاية، وهو المراد الذي نسعى إليه، وأن يكون هو المستعان به وحده على تحقيق هذه الغاية، والمتوكل عليه وحده في أمورنا وحدها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا من بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى بِالله شَهِيدًا، قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ، قَالَ: كَفَى بِالله كَفِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا ؛ يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ ؛ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا ؛ فَقُلْتُ: كَفَى بِالله كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِالله شَهِيدًا فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا ؛ أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٧٠).

يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا المالُ فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ المالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ فَقَالَ: وَالله مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ، قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ الله قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ ؛ فَانْصَرِفْ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا (١).

ومن العبادات القلبية أيضًا: الرِّضا، والرَّغبة، والرَّهبة، والإجلال، والتعظيم، والاستكانة، وغيرها من أعمال القلوب - نسأل الله أن يحفظ قلوبنا، ويثبتنا على طاعته.

وبعد أن تحدثنا عن العبادات القلبية التي هي أهم مدارات العبادة وأجلها وأعظمها، نتحدث عن النوع الثاني وهو العبادات القولية:

*****

(١) رواه البخاري (٢٠٦٣) وساقه كاملا في باب الكفالة في القرض معلقا (١٤٩٨).



ثانيا : العبادات القولية

ثانيا : العبادات القولية

وهي العبادات التي تتعلق باللِّسان، وهي من أجلِّ العبادات وأعظمها، فإن اللِّسان من أعظم نعم الله العظيمة، وفضائل صنعه العجيبة، التي من تأملها لم يسعه إلا أن يخر لله ساجدًا على عظيم نعمه الجزيلة، فَإِنَّ هذا اللِّسان عظيمٌ قدره، صغيرٌ حجمه، عظيمةٌ طاعته وجرمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللِّسان ؛ وهما غاية الطَّاعة والعصيان، فما من موجودٍ أو معدومٍ، خالقٍ أو مخلوقٍ متخيلٍ أو معلومٍ إلا ويتناوله اللِّسان ، وهذا لا يوجد في سائر الأعضاء، ولذلك كانت استقامته على العبادة في كلامه وسكوته ؛ علامة على سلامة القلب والجوارح.

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ من قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [سورة ق: ١٨].

الصمت وحفظ اللِّسان

ولما بين النَّبيُّ ﷺ لمعاذٍ الطريق الموصل إلى الجنةِ إجمالًا وتفصيلًا، أخبره بأَنَّ الذي يحكم العبادة ويضبطها اللِّسان.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ، فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاس فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**».(١)

فإن لم يضبط الإنسان لسانه ويتحكم فيه، كان سببًا في هلاكه - أعاذنا الله من ذلك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ من رِضْوَانِ الله لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا ؛ يَرْفَعُهُ الله بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ من سَخَطِ الله لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ** ».(٢)

مرَّ سفيان الثوري بالقاضي، وهو يتكلم ببعضِ ما يُضْحِكُ به النَّاس، فقال له: يا شَيْخُ! أما علمت أن لله يومًا يَخْسُرُ فيه المبطلون! فما زالت تُعرف في وجه القاضي ؛ حتى لقي الله عز وجل.(٣)

دُخل على أبي دجانة وهو مريض، وكان وجهه يتهلل، فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟! فقال: ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لايعنيني، والأخرى كان قلبي للمسلمين سليمًا.(٤)

ومرَّ حسان بن أبي سنان بغرفة فقال: مذ كم بنيت هذه، ثم رجع إلى نفسه

---

(١) صحيح بطرقه: رواه الترمذي (٢٦١٦) ابن ماجة (٣٩٧٣) وأحمد (٥/ ٢٣١).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٨).

(٣) أبو نعيم "الحلية" (٧/ ٥١).

(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٤٣).

فقال: وما عليكِ مذ كم بنيت! تسألين عما لا يعنيك، فعاقبها بصوم سنة.(١)

قَالَ مُوَرِّق العجلي: ما أدرك عندي مال زكاة قط، وقد طلبت إلى ربي تبارك وتعالى حاجة منذ عشرين سنة فما أعطانيها ولا يئست منها، قالوا: وما هي؟! قَالَ: طَلَبْتُ إِلَيهِ أَنْ لَا أَتَكَلَّمَ إِلَّا فِيمَا يَعْنِينِي.(٢)

وكان ابن عون لا يغضب، فإذا أغضبه رَجُلٌ قَالَ: بَارَكَ الله فِيك.(٣)

وعن مالك بن دينار قَالَ: كان الأبرار يتواصون بثلاث: بسجن اللِّسان، وكثرة الاستغفار، والعُزلة.(٤)

وما زال الأبرار والصَّالحون يتواصون بإصلاح اللِّسان ومتابعة عثراته، ولذلك كان حَرِيًّا بالعبد أن يهتم بعبادات لسانه ؛ إذ هو أيسر الأعضاء حركة، وأبينها عبادة، فلا شيء أيسرَ ولا أَسْهَلَ من حركة اللِّسان، ولذلك فُتح له باب العبادة بلا توقيت أو حد، فإذا تواطأ القلب مع اللِّسان، وذَلّت معهما الأركان، فلا تسل عن السَّعادة والإحساس الذي يشعر به العبد وهو في كنف الرحمن.

(١) أبو نعيم الحلية(٣/ ١١٥).
(٢) الزهد "الإمام أحمد" (٣٠٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٦٦).
(٤) أبو نعيم الحلية(٢/ ٣٧٧).

* وعبادات اللِّسان كثيرة منها:

١- الشَّهادتان

وهي مدخل الإسلام، وهي العاصمة للدَّم والمال، وهي أعظم وأعلى أركان الإسلام.

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا ـ رضي الله عنه ـ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: «ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ من أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ».(١)

وَعَنْ عُبَادَةَ ـ رضي الله عنه ـ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ ـ أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ من الْعَمَلِ »(٢).

فمن قالها ابتداء فقد دخل في الإسلام، وهو معصومُ الدَّمِ والمال، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ من الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله فَكَفَّ الْأَنْصَارِيُّ ؛ فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله»، قُلْتُ: كَانَ مُتَعَوِّذًا، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى تَمَنَّيْتُ

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٥) ومسلم (١٩).
(٢) رواه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨).

أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.(١)

شروط لا إله إلا الله:

وليس المراد من لا إله إلا الله مجرد النُّطق بها ؛ بل لا بد من معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، ولا بد من استكمال شروطها ، وشروطها سبعة(٢):

الأول: العلم المنافي للجهل.

الثاني: اليقين المنافي للشك.

الثالث: القبول المنافي للرد.

الرابع: الانقياد المنافي للترك.

الخامس: الإخلاص المنافي للشرك.

السادس: الصِّدق المنافي للكذب.

السابع: المحبة المنافية لضدها.

والمقصود بشهادة أن محمدًا رسول الله: معرفة معناها والعمل بمقتضاها. فليس المراد أيضًا مجرد التلفظ بها، فهي تعني تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، وعبادة الله بما شرع على لسان هذا الرسول الكريم لا بالهوى ولا بالابتداع.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [سورة محمد: ١٩].

*** أول وآخر واجب:**

فأول واجب وأعظم واجب وآخر واجب هو شهادة أن لاإله إلا الله.

عَن ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ**:

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٩) ومسلم (٩٦).

(٢) يراجع كتب العقيدة [فتح المجيد ، القول المفيد ، تيسير العزيز...].

شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلاة، وَإِيتَاءِ الزكَاة، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ». (١)

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لما أَتَوْا النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَن الْقَوْمُ أَوْ مَن الْوَفْدُ؟» قَالُوا: رَبِيعَةُ، قَالَ: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ، أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله! إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الحَيُّ من كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرِ فَصْلٍ ؛ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الجَنَّةَ. وَسَأَلُوهُ عَن الأَشْرِبَةِ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِالله وَحْدَهُ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بالله وَحْدَهُ؟!» قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامُ الصَّلاة، وَإِيتَاءُ الزكَاة، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا من المغْنَمِ الخُمُسَ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، عَن الحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالمزَفَّتِ» وَرُبَّمَا قَالَ المقَيَّرِ، وَقَالَ: «احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ». (٢)

فعلى كُلِّ مسلم معرفة معنى الشهادتين حق الفهم، والعمل الجاد بمقتضاهما ، وهو التصديق والإيمان والعمل بما جاء به رسول الله في الكتاب والسنة ، ما يتعلق بالعقائد، وما يتعلق بالعبادات، والتشريعات في كُلِّ مجالات الحياة، ويدعو إليها، ويثبت عليها لآخر رمق.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله دَخَلَ الجَنَّةَ»(٣).

قَالَ أبو جعفر محمد بن علي- ورَّاقُ أبي زُرْعة: حَضَرنا أبا زُرعة بماشهران، وهو في

---

(١) رواه البخاري (٨) ومسلم (١٦).

(٢) رواه البخاري (٥٣) ومسلم (١٧).

(٣) حسن: رواه أبو داود (٢٧٠٩) وأحمد (٥/ ٢٣٣) والحاكم (١/ ٣٥١) وقال صحيح الإسناد ، وحسنه الألباني في الإرواء (٦٨٧).

السَّوْقِ[١]، وعِنْدَه أبو حاتم، وابن وَارَة، والمنذر بن شَاذَان، وغيرهم، فذكروا حديث التلقين: "لقنوا موتاكم لا إله إلا الله" واستحيوا من أبي زرعة أن يلقنوه، فقالوا: تعالوا نذكر الحديث. فقال ابن وارة: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن صالح، وجعل يقول: ابن أبي.. ولم يُجَاوِزْه، وقال أبو حاتم: حدثنا بُنْدَار، حدثنا أبو عاصم، عن عبد الحميد بن جعفر، عن صالح.. ولم يجاوز، والباقون سكتوا، فقال أبو زرعة وهو في السَّوْقِ: حدثنا بندار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبد الحميد، عن صالح بن أبي عَرِيب، عن كثير بن مرة، عن معاذ بن جبل، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا اله إلا الله دخل الجنة، وتوفي رحمه الله**»[٢].

*****

(١) سكرات الموت.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٧٦).

٢- الـذِّكــر

وهو من أجل العبادات القولية وأعظمها؛ إن لم يكن أفضلها على الإطلاق بعد الشهادتين، وهو تعبيرٌ عن عَدَمِ غفلة القلب عن الله سبحانه وتعالى، وبيانٌ لإظهار المحبة والذُّل والتضرع لله عز وجل، ولذلك نرى أن الذكر هو الغاية من جميع العبادات.

كما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاة لِذِكْرِي ﴾ [سورة طـه: ١٤].

وقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب:٤١].

وقال تَعَالَى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ الله لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥].

وقال تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاة إِنَّ الصَّلاة تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالمنْكَرِ وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ وَالله يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥].

وقد شرع الله الذِّكر بعد أجلِّ وأفضل العبادات كالصلاة وغيرها:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم الصَّلاة فَاذْكُرُوا الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [سورة النساء: ١٠٣].

وقد أمر سبحانه بالذِّكر بعد الحج فقال تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُـرُوا الله كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [سورة البقرة: ٢٠٠].

ففيه الأمر بالذِّكر في جميع المواطن والأماكن بالكثرة والشِّدة، لشدة حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأي لحظةٍ غفل فيها العبد عن الذكر كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته.

فعن ميمون بن مهران قَالَ: كَانَ يقال: الذِّكْرُ ذِكْرَان: ذكر الله باللِّسان ، وأفضل

من ذلك ؛ أن تذكره عند المعصية إذا أشرفت عليها.(١)

قَالَ تَعَالَى: ﴿ الَّذين يَذْكُرُونَ الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٩١].

فالقلوب تصدأ كصدأ المعادن وغيرها ، والذِّكر هو جلاؤها، وكلَّما زاد الذكر زاد الجلاء، حتى يصبحَ كالمرآة البيضاء.

عَنْ أَبِي مُوسَى ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الحَيِّ وَالميِّتِ**» (٢).

قَالَ ابن القيم رحمه الله(٣): منزلة الذكر – وهي منزلة القوم الكبرى التي منها يتزودون، وفيها يتجرون، وإليها دائمًا يترددون، والذكر منشور الولاية ؛ الذي من أُعطيه اتصل، ومن منعه عُزِل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجسادُ لها قبورًا، وعمارة ديارهم التى إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطّاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطّريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُم فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيانًا فَنَنْتَكِسُ

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكُربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلَّمهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورءوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويوصل الذاكر إلى المذكور، بل يدع الذاكر مذكورًا، وفي كُلِّ جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة، والذِّكر عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة، بل هم

(١) حلية الأولياء (٤/ ٨٧).
(٢) رواه البخاري (٦٤٠٧).
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٢٣).

يُؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال ؛ قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ؛ فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها، فكذلك القلوب بور وخراب ؛ وهو عمارتها وأساسها.اهـ.

فذكر العبد لربه سبيل فلاحه ونجاحه، فإنه إنْ ذَكَرَ الله في مجلسٍ ذكره الله في خيرٍ منه، فلو استشعر العبد هذه الفضيلة ما فتر لسانه عن ذكر الله أبدا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**يَقُولُ الله تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[(١)].

* الذاكرُ سابقٌ لجميع الطاعات:

ولذلك مهما حاول العبد أن يعد فضائل الذكر لعجز!!

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ من إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ من أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذِكْرُ الله تَعَالَى**»[(٢)]

ودائمًا صاحب الذكر في مُقدمة العُبّاد، وقد شبهه النبي ﷺ بجبل على طريق مكة والمدينة ؛ مرتفعٌ عالٍ شَامِخ ، من رآه يُذَكِّره بذكر الرحمن.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ، فَقَالَ: «**سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**»، قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٣٧٧) ابن ماجة (٣٧٩٠) وأحمد (٥/ ١٩٥)، (٦/ ٤٤٧)

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٦).

ولقد كان من هدي النبي ﷺ المداومة على الذكر.

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ الله عَنْهَا - قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَذْكُرُ الله عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ (١).

وهذا رجل يسأل النَّبِيّ ﷺ عن عبادةٍ تجمع شتاته؛ فَدَلَّه على ذكر الله.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُسْرٍ - رضي الله عنه - أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ؛ فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا من ذِكْرِ الله**». (٢)

والغفلة عن هذه العبادة تُورِثُ شقوة وتعاسة الأبد قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [سورة طه: ١٢٤-١٢٦].

والذِّكْرُ يوقظ العبد من غفلته، ويزيل من قسوته، وينبهه إلى خسارةِ ما هو فيه، فيشمر العبد ويدرك ما فاته، ولذلك كانت مواطن الذكر كلها خير، حتى من جالسهم ناله من هذا الخير.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ لله مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ الله تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ -مَا يَقُولُ عِبَادِي؟! قَالُوا: يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ، قَالَ فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟! قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا وَالله مَا رَأَوْكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟! قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا،**

---

(١) رواه مسلم (٣٧٣).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٣٧٥) ابن ماجه (٣٧٩٣).

قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟! قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟! قَالَ يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟! قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟! قَالَ: يَقُولُونَ: من النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟! قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟! قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ: مَلَكٌ من الْمَلَائِكَةِ فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»(١).

وكان خالد بن معدان يُسَبِّحُ كُلَّ يوم أربعين ألف تسبيحة ؛ سوى ما يقرأ من القرآن، فلمّا مات وُضع على سَرِيرِهِ ليُغَسَّل ؛ فجعل يشيرُ بأُصبعهِ يحركها بالتَّسبيح (٢).

وقيل لعمير بن هانئ: ما نرى لسانك يفتر، فكم تُسبح كُلَّ يومٍ، قَالَ: مِائة ألف تسبيحة إلا أن تخطئ الأصابع - يعني أنه يعد ذلك بأصابعه (٣).

ولا بد من مواطأةِ القَلْبِ واللِّسانِ على الذكر، وهذا هو الأصل! لأنه يثمرُ المعرفة، ويهيجُ القلب إلى محبة الله سبحانه، ويثيرُ الحياء ويبعثُ على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويُزيلُ عن العبدِ التقصيرَ في العبادة.

*****

(١) رواه البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٤٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٢١).

٣- الدعــاء

وهو من أجلِّ العبادات القولية ، إذ فيه إظهار الافتقار، والذُّل، والمسكنة لله سبحانه وتعالى، وتعبير عما يجيش في قلب العبد من احتياج إلى الله سبحانه وتعالى، وأنه لا غنى له عن الله طرفة عين.

*** أنواع الدعاء، وهو:**

١- دعاء ثناء. ٢- ودعاء طلب.

أولاً - دعاء الثناء: وهو ذكر الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، التي أمرنا الله أن ندعوه بها ؛ من غير مسألة ولا طلب.

كما كان يفعل النَّبِيّ ﷺ عند قيام الليل، فَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: كَانَ النَّبِيّ ﷺ إِذَا قَامَ من اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَالجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المقَدِّمُ وَأَنْتَ المؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(١).

وَلَمَّا كان من شرف الدعاء، وتوجيه القلب به والجوارح إلى الله سبحانه وتعالى، جعله النَّبِيّ ﷺ هو العبادة ؛ لعظم مكانه وشرفه بين العبادات.

عَن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيّ ﷺ يَقُولُ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**» ثُمَّ قَرَأَ

---

(١) رواه البخاري (١١٢٠) ومسلم (٧٦٩).

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. (١)

وكان الربيع بن خُثَيْم يقول في دعائه: أَشْكُو إِلَيْكَ حَاجَةً لَا يحسن بثها إِلَّا إِلَيْك، وَأَسْتَغْفِرُ مِنْهَا وَأَتُوبُ إِلَيْك. (٢)

ثانيا- دعاء المسألة:وهو أن يسأل الله بأسمائه وصفاته حاجة من حوائج الدنيا والآخرة ، كأن يسأل العفو والمغفرة، والهداية والتوفيق والسَّداد في الأمور كُلِّها، دون أن يتعدى في الدعاء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٥٥].

وعلى هذا فالاعتداء بالدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله؛من الإعانة على المحرمات ، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله مثل أن يسأله أن يُطْلِعَهُ على غيبه، أو يسأله أن يجعله من المعصومين ، أو يسأله أن يَهَبَ له ولدًا من غير زوجة ، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء ، فكلُّ سؤالٍ يناقض حكمة الله، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما أخبر به ؛ فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله ، قَالَ ابْنُ جُرَيْج: إِنَّ من الدُّعَاءِ اعْتِدَاء، يُكْرَهُ رَفْعُ الصَّوتِ والنِّدَاء، والصياح بالدعاء. ويؤمر بالتضرع والاستكانة (٣) والآية أعم من ذلك كله، فكل دعاء لم يأذن الله به فهو تعد.

وينبغي مع الدُّعاء الذِّلة والمسكنة، وإظهار الفقر والعجز ؛ليكون أقرب في القبول، مع استشعار غنى الله سبحانه وتعالى، وقُدْرَتِهِ وجُودِهِ وكَرَمِهِ وفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ، قَالَ تَعَالَى عن زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٣].

عن سعد بن أبي وقاص: أن عبد الله بن جحش قَالَ يوم أحد: ألا تَأْتِي نَدْعُو الله،

---

(١) صحيح:رواه الترمذي (٣٢٤٧) وابن ماجة (٣٨٢٨).

(٢)حلية الأولياء (٢/ ١٠٩).

(٣)الطبري "التفسير" (٨/ ٢٠٧).

فَخَلَوا فِي نَاحِيَةٍ فَدَعَا سَعْدٌ، فقال: يا رب! إِذَا لَقِينا القَوْمَ غَدًا فَلَقِّنِي رجلًا شديدًا بأسه، شديدًا حرده ؛ فأقاتله فيك ويقاتلني ؛ ثم ارزقني عليه الظفر حتى أقتله وآخذ سلبه، فقام عبد الله بن جحش ثم قَالَ: اللهم ارزقني غدًا رجلًا شديدًا حرده شديدًا بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فَيَجْدَعُ أَنْفِي وَأُذُنِي، فإذا لقيتك غدًا قلت: يا عبد الله فيم جُدِع أنفك وأذنك، فأقول: فيك وفي رسولك، فيقول: صَدَقت، قَالَ سعد بن أبي وقاص: كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرًا من دعوتي لقد رأيته آخر النهار وإِنَّ أُذُنَهُ وَأَنْفَهُ لَمَعَلَّقَانِ فِي خَيْطٍ.(١)

وعن داود بن أبي هند قَالَ: لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قَالَ: ما أراني إلا مقتولًا، وسأخبركم أني كنت أنا وصاحبين لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدُّعاء، ثم سألنا الله الشهادة، فكلا صاحبي رزقها، وأنا أنتظرها، قَالَ: فَكَأَنَّه رَأَى أَنَّ الإِجَابَةَ عِنْدَ حَلَاوةِ الدُّعاء.(٢)

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن: دعاء الطلب، والثناء، والمحبة، والإقبال على الله، فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين، وهذه فائدةٌ شريفةٌ نافعةٌ، والدُّعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه، والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكرٌ وزيادة، كما أن الذِّكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، والثناء والحمد أعلى أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب لمحبوبه ؛ فهو أحق أن يسمى داعيًا من السَّائل الطالب من ربه حاجة ما، وإن لم يكن مُصَرِّحًا بالسُّؤال؛ فهو داعٍ بما تضمنه ثناؤه من التعرض، كما قَالَ أمية بن أبي الصَّلت:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي ... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ
وَعِلْمُكَ بِالأُمُورِ وَأَنْتَ قَرْمٌ ... لَكَ الحَسَبُ المهَذَّبُ والسَّنَاءُ

---

(١) رواه الحاكم "المستدرك" (٢/ ٧٧) وقال:هذا حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذَّهبي
(٢) حلية الأولياء (٤/ ٢٧٤)

كَرِيمٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ الخُلُقِ السَّنِي وَلَا مَسَاءُ
فَأَرْضُكَ كُلُّ مَكْرُمَةٍ بَنَاهَا بَنُو تَيْمٍ وَأَنْتَ لَهَا سَمَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ المَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ من تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

فنجد هذا الشاعر قد أثنى على بعض الأمراءِ ثناءَ مَدْحٍ ؛ مُعَرِّضًا بالطلب، وهذا أبلغ وأوقع في الأدب.

وعبادة الدعاء ينبغي للعبد ألا يهملها، فليُقبل على الأحاديثِ والآثارِ المأثورة في الدُّعاءِ، وفيها غُنْيَةٌ عن غيرها.

*****

٤- الاستغاثة

وهي طلب الغوث والنجدة، ولا يستغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فإن ذلك شرك.

والفرق بين الاستغاثة والدُّعاء ؛ أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، والدعاء أعم من الاستغاثة، لأنه يكون من المكروب وغيره.

ومعلوم أن الاستغاثة إنما تكون بعد الذُّعر، فالذُّعر شرط فيها، والمذْعُورُ والملهوف إذا صدق في الاستغاثة به وجده كاشفًا للكرب مخلصًا منها.

وإن كان أصل الاستغاثة بالقلب ؛ إلا أن اللِّسان يعبر عن توجه القلب بالاستغاثة إلى ربه وخالقه ومالك أمره سبحانه وتعالى. والاستغاثة لا تكون إلا بالله، وصرفها لغير الله شرك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ من الملائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٩].

وقال تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٨٨].

وقال تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي من الله أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ من دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [سورة الجن: ٢٢].

ولا يمنع من الاستغاثة بغير الله فيما يقدر عليه العبد ؛ وهذا شيء معلوم، فمثلا: شخصٌ ضعيفٌ تَعَدَّى عليه شخصٌ قوي، فاستغاث الضعيف بأقوى ليدفع عنه البغي، ومظلوم اعْتَدَى على ماله أو عرضه باغ أو ظالم، فاستغاث بالسُّلطان أو غيره ليرد مظلمته فلا حرج في هذا - والله أعلم.

كما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي من شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي من عَدُوِّهِ﴾ [سورةالقصص: ١٥].

وهذا بخلاف من استغاث بمن لا يملك له غوثًا، كغائب أو ميت أو غيره فهذا شرك، إذ كيف يستغيث بمن لا يملك له نفعًا ولا ضرّا، وترك النافع الضَّار الذي يجيب المضطر إذا دعاه - سبحانه وتعالى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ المضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ الله قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النمل: ٦٢].

* فمِن أسفه السَّفه أن يستغيث العبد بفقير ضعيف عاجز ؛ لا يملك لنفسه حولًا ولا قوة، ويذر من هو أقرب إليه من حبل الوريد:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ الله تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة النمل: ٦٣].

هذا فضلا عمن استغاث بميت قد انقطع عمله، وهو مرهون في حفرته لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرّا ؛ فاستغاث به في الشَّدائد والكرب، أو طلب منه الشفاعة بقولهم أن لهم كرامات، وأنهم أبدال ونقباء، وأوتاد ونجباء. فهذا هو أصل الشرك ومبدؤه ؛ منذ بدأ الشرك على ظهر الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُم الله رَبُّكُمْ لَهُ الملْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ من قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [سورة فاطر: ١٣-١٤].

فإنه جلَّ ذكره قد بين أنه الكاشف للضر لا غيره وأنه المتفرد بإجابة المضطرين وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير، فهو سبحانه المتفرد بذلك كله.

فهذا يونس عليه السلام تنقطع به الأسباب، ويعلق رجاءه على من بيده ملكوت كل شيء، فهو في ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر فاستغاث بالله فأغاثه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ

أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ من الظَّالمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ من الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي المؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٧-٨٨].

*** وهذا نبينا ﷺ في يوم بدر يستغيث بربه تبارك وتعالى، فيهئ الله له أسبابًا يعلي بها قدره، ويعز بها دينه، ويثبت أصحابه - رَضِيَ الله عَنْهُم -، فيرجعوا بنصرٍ وغنيمة:**

قَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ - رضي الله عنه -: لَّمَا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى المشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ ؛ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله ﷺ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ من أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ؛ ثُمَّ الْتَزَمَهُ من وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ الله! كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ من الملَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فَأَمَدَّهُ الله بِالملَائِكَةِ (١).

*****

(١) رواه مسلم (١٧٦٣)

٥- الاستغفار

وهو من أجل العبادات وأعظمها على النَّفسِ، فالعبد دائمُ التَّقلب بين ذنوب وآثام، وهي أوساخ على القلب، فكلَّما استغفر عاد للقلب جلاؤه وصفاؤه.

وقد أوجبه الله وأمر به، إذ هو عبادة مستقلة تُظْهِرُ عجز العبد وضعفه، وعلمه عن ربه أنه لا يغفر الذنوب إلا هو، ولا يمحو الخطايا إلا هو.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الله وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمؤْمِنَاتِ وَالله يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [سورة محمد: ١٩].

*** وقد ورد في فضل الاستغفار آيات كثيرة:**

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَغْفِرِ الله إِنَّ الله كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٠٦].

وقال تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر: ٣].

وقال تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ الله يَجِدْ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ١١٠].

وقال تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٣٣].

وقال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٥].

بل نرى أن النَّبِيّ ﷺ كان مُلازمًا له رغم أن الله غفر له جميع الذنوب كما قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: ٢].

*** ولكنه ﷺ كان يكثر من الاستغفار:**

فَعَن الأَغَرِّ المزَنِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي،**

وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ الله فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(١).

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا انْصَرَفَ من صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»(٢).

*** وبين النَّبيُّ ﷺ فضل الاستغفار، وإنه إظهار وبيان لفضل الله على عباده:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ ؛ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ الله ؛ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»(٣).

وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ـ رضي الله عنه ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا من النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ من يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ من أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا من اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؛ فَهُوَ من أَهْلِ الْجَنَّةِ»(٤).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ(٥) ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ(٦) خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(٧).

*****

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢)
(٢) رواه مسلم (٥٩١)
(٣) رواه مسلم (٢٧٤٩)
(٤) رواه البخاري (٦٣٠٦)
(٥) أي ما ظهر من السحاب.
(٦) ما يقارب ملأها.
(٧) حسن: رواه الترمذي (٣٥٤٠) حسن بشواهده.

٦- الاستعاذة

وهي طلب العوذ، واللجأ، والحماية من الله سبحانه وتعالى، قَالَ سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِالله من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [سورة النحل: ٩٨].

وقال تَعَالَى: ﴿وَقُل رَبِّ أَعُوذُ بِكَ من هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [سورة المؤمنون: ٩٧-٩٨].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاة بِاللَّيْلِ ؛ كَبَّرَ ثُمَّ يَقُولُ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ، ثُمَّ يَقُولُ: الله أَكْبَرُ كَبِيرًا، ثُمَّ يَقُولُ: أَعُوذُ بِالله السَّمِيعِ الْعَلِيمِ من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، من هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**»(١).

وقال تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ من الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ من الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [سورة الجن: ٦].

عن ابن عباس: كان رجالٌ من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أَعُوذُ بِعَزِيزِ هَذَا الوادِي فَزَادَهُم ذَلِكَ إِثْمًا.(٢)

*** وكذلك ما ورد من النهي عن الرقى غير المشروعة وغيرها من التمائم:**

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»(٣).

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ الله عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا أَتَى مَرِيضًا أَوْ أُتِيَ بِهِ، قَالَ: «**أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**».(٤)

---

(١) حسن بشواهده: الترمذي (٢٤٢) وأبو داود (٧٧٥) وابن ماجة (٨٠٧) وأحمد (٣/ ٥٠) وَهَمْزُهُ: الموتَةُ، وَنَفْثُهُ: الشِّعْرُ، وَنَفْخُهُ: الْكِبْرِيَاءُ.

(٢) ابن جرير "التفسير" (٢٩/ ١٠٨).

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٣٨٨٣) وابن ماجة (٣٥٣٠) وأحمد (١/ ٣٨١).

(٤) رواه البخاري (٥٦٧٥) ومسلم (٢١٩١)

* الاستعاذة من شر النفس:

وقد كان رسول الله ﷺ يقول في خطبة الحاجة «إِنَّ الْحَمْدَ لله نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله من شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، فَمَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»(١).

فتأمل قول النَّبِيِّ ﷺ: «وَنَعُوذُ بِالله من شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا» فقد استعاذ من شرها عموما، ومن شر ما يتولد منها من الأعمال، ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات، وجمع النَّبِيّ ﷺ بين الاستعاذة من شر النفس، ومن سيئات الأعمال.

وقد اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم، وتباين سلوكهم ؛ على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يدخل العبد عليه سبحانه ولا يصل إليه إلا بعد إماتتها، وتركها بمخالفتها والظفر بها فإن النَّاس على قسمين:

قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعًا لها تحت أوامرها.

٢- **وقسم ظَفِرُوا بنفوسهم فقهروها**، فصارت طوعًا لهم منقادة لأوامرهم.

فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [سورة النازعات: ٣٧-٤١].

فالنَّفس تدعو إلى الطُّغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرَّب يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الدَّاعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة، وإلى ذاك مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء.

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٣/ ١٠٥) والترمذي (١١٠٥) وابن ماجة (١٨٩٢) من طريق ابن مسعود - رضي الله عنه -.

وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاثِ صفات:

ـ المطمئنة (١).

ـ والأمَّارة بالسُّوء (٢).

ـ واللَّوّامة (٣).

*** الاستعاذة تنجي من كل مكروه:**

وكذلك نرى في دعاء «سيد الاستغفار» الاستعاذة بالله مما ترتب عليه أثر النفس غواية وإضلالا، مع إظهار الذل والمسكنة لله سبحانه وتعالى ليعيذ هذه الأنفس من شرها. «**أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ مَا صَنَعْتُ**» (٤)

والعبد إذا أراد الأمر من أمر الدنيا والآخرة ؛ فليقبل على الاستعاذة بالله ليحـُول الله بينه وبين وصول الشيطان إليه فينجيه من كيده.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ من الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِالله إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٠].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: كَانَ النَّبِيّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ من الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ**». (٥)

*** وكان النَّبِيّ ﷺ يستعيذ بالله من الفتن، ويستغيث بربه في أقرب المواضع قبولا للإجابة:**

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلاة وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ من الْمأْثَمِ وَالمغْرَمِ**»، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ يَا رَسُولَ الله من المغْرَمِ، قَالَ: «إِنَّ

(١) ما سكن فيها الإيمان

(٢) التي تأمر صاحبها بفعل المعاصي

(٣) التي اكتسبت بعض الفضيلة فتلوم صاحبها إذا ارتكب مكروها

(٤) رواه البخاري (٦٣٠٦) وقد سبق.

(٥) رواه البخاري (١٤٢) ومسلم (٣٧٥)

الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ».(١)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: كَانَ النَّبِيّ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ من الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ من فِتْنَةِ المحْيَا وَالمَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ من عَذَابِ الْقَبْرِ**»(٢)

ولما نزلت هذه الآيات ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا من فَوْقِكُمْ﴾[سورة الأنعام: ٦٥]، استعاذ النَّبِيّ ﷺ بالله.

عَنْ جَابِرٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا من فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**» قَالَ: ﴿أَوْ من تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَذَا أَهْوَنُ أَوْ هَذَا أَيْسَرُ**».(٣)

*** ولما استعاذت ابنة الجون منه ألحقها ﷺ بأهلها:**

عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ أَنَّ ابْنَةَ الْجَوْنِ لَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَدَنَا مِنْهَا، قَالَتْ: أَعُوذُ بِالله مِنْكَ، فَقَالَ لَهَا: «**لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ، الحَقِي بِأَهْلِكِ**».(٤)

*** وكان ﷺ يُعوذ الحسن والحسين ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ:**

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ قَالَ: كَانَ النَّبِيّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ: «**إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ من كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ**».(٥)

---

(١) رواه البخاري (٢٣٩٧).
(٢) رواه البخاري (٢٨٢٣) ومسلم (٢٧٠٦).
(٣) رواه البخاري (٤٦٢٨).
(٤) رواه البخاري (٥٢٥٤).
(٥) رواه البخاري (٣٣٧١)

* ورأى النَّبيّ ﷺ رجلًا قد انتفخ من الغضب فبين لأصحابه أن الاستعاذة تذهب ما به من غضب:

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَرَجُلَانِ يَسْتَبَّانِ فَأَحَدُهُمَا احْمَرَّ وَجْهُهُ وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِالله من الشَّيْطَانِ، ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ**»، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**تَعَوَّذْ بِالله من الشَّيْطَانِ**» فَقَالَ: وَهَلْ بِي جُنُونٌ.(١)

* وهذا عَمَّار لما علم أنه سَيُقْتَلُ على يد الفئة الباغية؛ استعاذ بالله من الفتن:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: كُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةً لَبِنَةً، وَعَمَّارٌ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ؛ فَيَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ وَيَقُولُ: «**وَيْحَ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ**». قَالَ: يَقُولُ عَمَّارٌ: أَعُوذُ بِالله من الْفِتَنِ.(٢)

ولما كان الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورَجله؛ حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يَحُول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه، كما قَالَ عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِالله من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [سورة النحل: ٩٨].

*****

(١) رواه البخاري (٣٢٨٢) ومسلم (٢٦١٠).
(٢) رواه البخاري (٤٤٧).

٧- قراءة القرآن

فأفضل ما تحركت به الشفاه، وأُطربت به الآذان هو كلام الله سبحانه وتعالى، فهو شفاء القلوب، ورحمة للمؤمنين، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ من الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٢].

يُذهب ما في القُلوب من أمراض، من شَكٍّ ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرَّغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء لما في الصدور، وأما الكافر الظالم لنفسه ؛ فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدًا وكفرًا، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ من مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة فصلت: ٤٤].

وقال تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذين آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذين فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٤-١٢٥].

* فضل قراءة القرآن وتدبره:

فقد امتدح ربنا تبارك وتعالى الَّذين يتلون كتاب الله حقَّ تلاوته ؛ من قراءةٍ وتدبر وعملٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذين آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٢١].

والآيات في ذلك كثيرة.

* وقد حث النَّبِيّ ﷺ على قراءة القرآن وأمر به وبتدبره:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ من بُيُوتِ الله

يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُم الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الملَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».(١)

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ».(٢)

وعَنْ عُثْمَانَ ـ رضي الله عنه ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».(٣)

*** فللقرآن فضل عظيم وثواب جزيل، فمهما حَصَّل أهل الدنيا ؛ فالحرف من القرآن بأضعافِ ما جمعوا:**

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ من كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ من نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ من ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ من أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ من الْإِبِلِ».(٤)

*** فما استقام قلب إلا بالقرآن، ولا لازم عبدٌ الهداية إلا بالقرآن، ولا نزلت السَّكينة إلا على قوم يقرءون القرآن:**

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ ؛ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ، فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي، فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ، عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).
(٢) رواه مسلم (٨٠٤).
(٣) رواه البخاري (٥٠٢٧).
(٤) رواه مسلم (٨٠٣).

أَرَاهَا، قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ من جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي إِذْ جَالَتْ فَرَسِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ**»، قَالَ: فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ**»، قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ**»، قَالَ: فَانْصَرَفْتُ، وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ ؛ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاس ؛ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ**».(١)

* هدي السَّلف مع القرآن:

والذي ينظر إلى أحوالِ السَّلف في هديهم مع القرآن ؛ يرى عَجبًا عُجابًا من تلذذهم، واستمتاعهم بالقرآن.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١١٣].

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ من أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ من لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [سورة طـه: ٩٩-١٠١].

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا**(٢) من الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا».(٣)

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَعْنِي فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ، فَأَصَابَ رَجُلٌ امْرَأَةَ رَجُلٍ من المشْرِكِينَ ؛ فَحَلَفَ أَنْ لَا أَنْتَهِيَ حَتَّى أُهَرِيقَ دَمًا فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ،

---

(١) رواه مسلم (٧٩٦).

(٢) ذهابا وابتعادا.

(٣) رواه البخاري (٥٠٣٣) ومسلم (٧٩١).

فَخَرَجَ يَتْبَعُ أَثَرَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ النَّبِيِّ ﷺ مَنْزِلًا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ **يَكْلَؤُنَا**» فَانْتَدَبَ رَجُلًا من المهَاجِرِينَ وَرَجُلًا من الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «**كُونَا بِفَمِ الشِّعْبِ**»، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلَانِ إِلَى فَمِ الشِّعْبِ ؛ اضْطَجَعَ المهَاجِرِيُّ وَقَامَ الْأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي، وَأَتَى الرَّجُلُ فَلَمَّا رَأَى شَخْصَهُ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةٌ لِلْقَوْمِ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ، حَتَّى رَمَاهُ بِثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ ثُمَّ انْتَبَهَ صَاحِبُهُ، فَلَمَّا عَرَفَ أَنَّهُمْ قَدْ نَذِرُوا بِهِ ؛ هَرَبَ وَلَمَّا رَأَى المهَاجِرِيُّ مَا بِالْأَنْصَارِيِّ من الدَّمِ قَالَ: «**سُبْحَانَ اللهِ! أَلَا أَنْبَهْتَنِي أَوَّلَ مَا رَمَى**»، قَالَ: كُنْتَ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا.(١)

وَعَنْ قَرَظَةَ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: بَعَثَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَهْطًا من الْأَنْصَارِ إِلَى الْكُوفَةِ، فَبَعَثَنِي مَعَهُمْ، فَجَعَلَ يَمْشِي مَعَنَا حَتَّى أَتَى صِرَارَ - وَصِرَارُ مَاءٌ فِي طَرِيقِ المدِينَةِ - فَجَعَلَ يَنْفُضُ الْغُبَارَ عَنْ رِجْلَيْهِ ؛ ثُمَّ قَالَ: إِنَّكُمْ تَأْتُونَ الْكُوفَةَ فَتَأْتُونَ قَوْمًا لَهُمْ أَزِيزٌ بِالْقُرْآنِ، فَيَأْتُونَكُمْ فَيَقُولُونَ: قَدِمَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ، قَدِمَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَكُمْ فَيَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْحَدِيثِ، فَاعْلَمُوا أَنَّ أَسْبَغَ الْوُضُوءِ ثَلَاثٌ وَثِنْتَانِ تُجْزِيَانِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّكُمْ تَأْتُونَ الْكُوفَةَ فَتَأْتُونَ قَوْمًا لَهُمْ أَزِيزٌ بِالْقُرْآنِ، فَيَقُولُونَ قَدِمَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ قَدِمَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَكُمْ فَيَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْحَدِيثِ، فَأَقِلُّوا الرِّوَايَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنَا شَرِيكُكُمْ فِيهِ، قَالَ قَرَظَةُ: وَإِنْ كُنْتُ لَأَجْلِسُ فِي الْقَوْمِ فَيَذْكُرُونَ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنِّي لَمِنْ أَحْفَظِهِمْ لَهُ، فَإِذَا ذَكَرْتُ وَصِيَّةَ عُمَرَ سَكَتُّ، قَالَ أَبُو مُحَمَّد: مَعْنَاهُ عِنْدِي الْحَدِيثُ عَنْ أَيَّامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْسَ السُّنَنَ وَالْفَرَائِضَ.(٢)

* خسارة من لم يحفظ القرآن أو نسيه:

وعُدَّ من أعظمِ الغبنِ عَدَمُ حِفْظِ القرآن، ومن أعظمِ المصائبِ نسيانه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم من مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [سورة الشورى: ٣٠].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٩٨).

(٢) رواه الدارمي (٢٨٢).

وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ من رُؤْيَا»، قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ الله أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ ؛ وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَهَدْهَدُ الحَجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ ؛ ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأُولَى، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ الله مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ»-فذكر الحديث.

ثُمَّ قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ قَالَ قَالَا لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاةِ المَكْتُوبَةِ». (١)

*****

(١)رواه البخاري (٧٠٤٧).

٨- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

* **وقد ورد في فضله من الأجر العظيم والثواب الجزيل ؛ ما جعل أصحابه هم العاملون وبالدِّين قائمون ولبيضة الإسلام يحمون:**

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤].

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً من أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ من الصَّالِحِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١١٣-١١٤].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالمؤْمِنُونَ وَالمؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاة وَيُؤْتُونَ الزّكاة وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٧١].

* **بل من أعظم أسباب اللَّعن والطرد، عدم الأمر بالمعروف:**

قَالَ تَعَالَى: ﴿لُعِنَ الَّذين كَفَرُوا من بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة المائدة: ٧٨-٧٩].

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذين يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذين ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٥].

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ الله ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالمكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي الله

لَوْمَةَ لَائِمٍ.(١)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الله لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ، فَإِذَا لَقَّنَ الله عَبْدًا حُجَّتَهُ قَالَ: يَا رَبِّ رَجَوْتُكَ، وَفَرِقْتُ من النَّاس**».(٢)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ**»، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا ؛ نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ ؛ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا**»، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ، قَالَ: «**غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالمعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ**».(٣)

عن أبي مُسْلِمٍ الخولاني أن كعب الأحبار، قَالَ لَه: كيف تجد لك قومك يا أبا مسلم؟! قَالَ: أَجِدُهُم يا أبا إسحاق يُجِلُّوني ويُكْرِمُوني، فقال له كعب: ما هكذا تقول التوراةُ يا أبا مسلم! فقال أبو مسلم: وكيف تقول التوراة يا أبا إسحاق؟! فقال كعب: يا أبا مسلم إن التوراة تقول: إنَّ أَعْدَى النَّاس بالرَّجل الصَّالح قومه، يُخَاصِمُهُ الأَقْرَبُ فَالأَقْرَبُ ؛ لأمرهِ بالمعروفِ ونهيهِ عَن المنكر، قَالَ أبو مسلم: وصدقت التوراة.(٤)

* من يأمر ومن ينهى؟!

الأمر بالمعروف له فقه لابد أن يَنْزِلَ منازله، فليس أمر العامة كأمر الحكام والأمراء، وليس أمر العالم كالجاهل.

فهذا فرعون على عُتُوه وطغيانه، أرسل الله إليه موسى وهارون، وأمرهما سبحانه وتعالى بلين القول، وخفض الجناح حتى يستمع لحجتها، بخلاف ما لو أمراه ونهياه

---

(١) رواه البخاري (٧١٩٩).

(٢) إسناده صحيح: ابن ماجة (٤٠١٧) وابن حبان (١٦/ ٧٣٦٨).

(٣) رواه البخاري (٢٤٦٥) ومسلم (٢١٢١).

(٤) أبو نعيم "حلية الأولياء" (٢/ ١٢٨).

وزجراه ؛ إذ لو تم ذلك لسُدَّ باب السماع والبيان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [سورة طـه: ٤٣-٤٤].

فالله عز وجل يعلم أن فرعون لن يؤمن، ورغم ذلك أمر موسى باللين معه ليكون أبلغ في قبول الحجة.

ولذلك قَالَ سبحانه مخاطبًا لهما: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ من رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [سورة طـه: ٤٧].

فتدرجا في البيان والطلب ؛ حتى استمع فرعون إلى الحجة كاملة.

عن الوليد بن مسلم قَالَ سُفيان الثوري: لا يأمر السُّلطانَ بالمعروفِ إلا رجلٌ عالم بما يأمر ؛ عالم بما ينهى ، رفيقٌ فيما يأمر ؛ رفيقٌ فيما ينهى ، عدلٌ فيما يأمر، عدلٌ فيما ينهى.[١]

*** وكذلك الجاهل يعامل بخلاف من عنده علم، كما في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد:**

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ: مَهْ مَهْ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ**، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ»، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ من هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**»، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ، فَأَمَرَ رَجُلًا من الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ من مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ.[٢]

---

(١)أبو نعيم "الحلية" (٦/ ٣٧٩).
(٢) (٢٨٥).

قَالَ ثابت: إن صلة بن أشيم وأصحابه مر بهم فتى يجر ثوبه، فهم أصحاب صلة أن يأخذوه بألسنتهم أخذًا شديدًا، فقال صلة: دَعُونِي أَكْفِكم أَمْرَه، فقال: يا ابن أخي إنَّ لِي إِلَيك حَاجَة، قَالَ: وَمَا حَاجَتُك قَالَ: أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعَ إِزَارَك، قَالَ: نَعَم ونِعْمَى عَيْن، فَرَفَعَ إِزَارَهُ فَقَالَ صِلَة لِأَصْحَابه: هَذَا كَانَ أَمْثَل مِمَّا أَرَدْتُم، لَو شَتَمْتُمُوه وآذَيْتُمُوه ؛ لَشَتَمَكُم.(١)

كلام نفيس لشيخ الإسلام:

قَالَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وكذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ لا يجب على كلِّ أحدٍ بعينه، بل هو على الكِفايةِ كما دَلّ عليه القرآن ، ولما كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد أيضًا كذلك، فإذا لم يقم به مَن يقوم بواجبه أثم كُلُّ قَادرٍ بحسب قدرته، إذ هو واجبٌ عَلَى كلِّ إنسانٍ بحسب قدرته، كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**».(٢)

وإذا كان كذلك فمعلوم أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد ؛ هو من أعظم المعروف الذي أُمِرْنَا به، ولهذا قيل: " ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر" ، وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات، فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة، إذ بهذا بُعثت الرسل ونَزلت الكتب ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾[البقرة: ٢٠٥]بل كلُّ ما أمر الله به فهو صلاحٌ. وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾[البقرة: ٨٢] وذَمَّ المفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته ؛ لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد ترك واجبًا وفعل محرمًا، إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده وليس عليه

(١)حلية الأولياء (٢/ ٢٣٨).

(٢)رواه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد.

هداهم.

وهذا معنى قوله تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات ؛ لم يضرَّه ضلال الضُلاَّل، وذلك يكون تارة بالقلب، وتارة باللسان، وتارة باليد، فأما القلب فيجب بكل حالٍ إذ لا ضرر في فعله، ومَن لم يفعله فليس هو بمؤمن كما قَالَ النَّبِيّ ﷺ «**وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**» وقال «**وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ من الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**» وقيل لابن مسعود: مَنْ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ؟ فَقَالَ: «**الَّذِي لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا**».(١)وهذا هو المفتون الموصوف في حديث حذيفة بن اليمان.

*** وهنا يغلط فريقان من النَّاس:**

فريقٌ يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلًا لهذه الآية ؛ كما قَالَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته «إنكم تقرأون هذه الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت النَّبِيّ ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاس إِذَا رَأَوا المنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوه أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله بِعِقَابٍ مِنْهُ».(٢)

والفريق الثاني: مَنْ يريد أن يأمر وينهى ؛ إمّا بلسانه وإما بيده مطلقًا ؛ من غيرِ فقهٍ وحلمٍ وصبرٍ ونظرٍ ؛ فيما يصلح من ذلك ومالا يصلح ، وما يَقدر عليه ومالا يَقدر كما في حديث أبي ثعلبة الخشني سألتُ عنها رسول الله ﷺ قَالَ: «**بَلْ ائْتَمِرُوا بِالمعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ المنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ الْعَوَامَّ فَإِنَّ من وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ**»(حديث ضعيف: رواه أبو داود

---

(١) تذكرة الحفاظ (١/ ٣٧٥).

(٢) صحيح: أحمد (١/ ٢) وأبو داود (٤٣٣٨) وابن ماجة (٤٠٠٥).

(٤٣٤١) والترمذي (٣٠٥٨) وابن ماجه (٤٠١٤) ، فيأتي بالأمر والنهي معتقدًا أنه مطيعٌ في ذلك لله ورسوله ؛ وهو معتدٍ في حدوده كما انتصب كثيرٌ من أهل البدع والأهواء كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم؛ ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي والجهاد على ذلك، وكان فسادُه أعظمَ من صلاحه، ولهذا أمر النَّبيّ ﷺ بالصبر على جور الأئمة، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصَّلاة وقال: «**أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ وَسَلُوا الله حَقَّكُمْ**»[١] وقد بسطنا القول في ذلك في غيرِ هذا الموضع.

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة، وترك قتال الأئمة وترك القتال في الفتنة ، وأما أهل الأهواء كالمعتزلة، فيروْن القتالَ للأئمةِ من أصولِ دينهم، ويجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة (**التوحيد**) الذي هو سلب الصفات، و (**العدل**) الذي هو التكذيب بالقدر، و (**المنزلة بين المنزلتين**)، و (**إنفاذ الوعيد**)، و (**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**) الذي منه قتال الأئمة.

وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسَّيئات، أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الرّاجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد فإن الأمر والنهي، وإن كان متضمنًا لتحصيل مصلحةٍ ودفع مفسدةٍ، فينظر في المعارض له ؛ فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر ؛ لم يكن مأمورًا به بل يكون محرَّمًا، إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته ؛ لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النّصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقَلَّ أن تعوز النصوص مَن يكون خبيرًا بها وبدلالتها على الأحكام.

وعلى هذا إذا كان الشَّخص أو الطائفة جامعين بين معروفٍ ومنكرٍ بحيث لا يفرقون بينهما، بل إمّا أن يفعلوهما جميعًا أو يتركوهما جميعًا، لم يجز أن يَأمروا

(١) رواه البخاري (٧٠٥٢) ومسلم (١٨٤٣) من حديث ابن مسعود.

بمعروفٍ ولا أن يَنهوا عن مُنْكرٍ، بل ينظر فإن كان المعروف أكثر أمر به، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم يَنه عن منكرٍ يستلزم تفويتَ مَعروفٍ أعظمَ منه، بل يكون النهي حينئذٍ من باب الصدِّ عن سبيل الله، والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله، وزوال فعل الحسنات. وإن كان المنكر أغلب ؛ نهى عنه وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمرًا بمنكرٍ وسعيًا في معصية الله ورسوله، وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان ؛ لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما.

فتارةً يصلح الأمر، وتارةً يصلح النهي، وتارةً لا يصلح لا أمرٌ ولا نهي ؛ حيث كان المعروف والمنكر متلازمين، وذلك في الأمور المعينة الواقعة.

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقًا، وينهى عن المنكر مطلقًا، وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة، يؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها، ويحمد محمودها، ويذم مذمومها، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات أكثر منه، أو حصول منكر فوقه، ولا يتضمن النَّهي عن المنكر حصول أنكر منه، أو فوات معروف أرجح منه.

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن ؛ حتى يتبين له الحق، فلا يُقدم على الطّاعة إلا بعلمٍ ونيةٍ، وإذا تركها كان عاصيًا ؛ فترك الأمر الواجب معصية، وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية، وهذا بابٌ واسعٌ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن هذا الباب إقرار النَّبيِّ ﷺ لعبد الله بن أبي وأمثاله من أئمة النفاق والفجور، لما لهم من أعوانٍ، فإزالةُ مُنْكَرِهِ بنوعٍ من عقابه مستلزمةٌ إزالة معروفٍ أكثر من ذلك، بغضب قومه، وحميتهم، وبنفور النَّاس إذا سمعوا أن محمدًا يقتل أصحابه، ولهذا لما خاطب النَّاس في قصة الإفك بما خاطبهم به واعتذر منه، وقال له سعد بن معاذ قوله الذي أحسن فيه، حمي له سعد بن عبادة مع حسن إيمانه.

وأصل هذا أن تكون محبة الإنسان للمعروف، وبغضه للمنكر وإرادته لهذا وكراهته لهذا موافقة لحب الله، وبغضه وإرادته وكراهته الشرعيين، وأن يكون فعله للمحبوب، ودفعه للمكروه بحسب قوته وقدرته، فإن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وقد قَالَ ﴿ فَاتَّقُوا الله

مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[سورة التغابن: ١٦] فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهيته ؛ فينبغي أن تكون كاملةً جازمةً، لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان.

وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته، ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة، وفعل العبد معها بحسب قدرته، فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل، كما قد بيناه في غير هذا الموضع.[١] اهـ.

*****

(١) "مجموع الفتاوى"(٢٨/ ١٢٦-١٣١).

٩- نصيحة الإخوان

وهذه عبادةٌ غفل عنها الكثير، وذلك لوقوع شرخٍ في جدارِ الحب في الله فإن من علامات الحب في الله أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فكيف يكون العبد مرآة لأخيه ولا يكون ناصحا له، فيجب أن يكون الأخُ مِعْوَانًا لأخيه على الخير، مُذَكِّرًا له على الدَّوام، وهذا من أوجب حقوق الإخوة، ومن أسباب استمرار المحبة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ»، قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فَشَمِّتْهُ**(١)، **وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ**».(٢)

*** فيجب على العبد أن يَبْلُغَ في النُّصح لإخوانه ولمن يحب، فإن من علامة الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك:**

عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**».(٣)

قَالَ الحافظ بن رجب(٤): في قوله تَعَالَى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ الله بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [سورة النساء: ٣٢].

فقد فُسِّر ذلك بالحسد، وهو تمني الرجلُ نفس ما أعطي أخوه من أهلٍ ومالٍ؛ وأن ينتقل ذلك إليه، وفسر بتمني ما هو ممتنع شرعًا أو قدرًا، كتمني النِّساء أن يكن رجالًا، أو يكون لهن مثل ما للرجال من الفضائل الدينية كالجهاد، والدنيوية كالميراث، والعقل،

---

(١) أي يقال له: يرحمك الله.
(٢) رواه مسلم (٢١٦٢).
(٣) رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).
(٤) جامع العلوم والحكم (٣٠٩).

والشهادة، ونحو ذلك، وقيل إن الآية تشمل ذلك كله، ومع هذا كله فينبغي للمؤمن أن يحزن لفوات الفضائل الدينية، ولهذا أُمِرَ أن ينظر في الدِّين إلى من هو فوقه، وأن ينافس في طلب ذلك جهده وطاقته كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَس المتَنَافِسُونَ ﴾ [سورة المطففين: ٢٦].

ولا يكره أن أحدًا يشاركه في ذلك، بل يحب للناس كُلِّهم المنافسة فيه ويحثهم على ذلك، وهو من تمام أداء النَّصيحة للإخوان، كما قَالَ الفضيل: إن كنت تحب أن يكون النَّاس مثلك ؛ فما أديت النَّصيحة لربك، كيف وأنت تحب أن يكونوا دُونك، يشير إلى أن أداء النَّصيحة لهم أن يحب أن يكونوا فوقه، وهذه منزلة عالية ودرجة رفيعة في النُّصح، وليس ذلك بواجب، وإنما المأمور به في الشرع أن يحب أن يكونوا مثله، ومع هذا فإذا فاقه أحدٌ في فضيلة دينية اجتهد على إلحاقة، وحزن على تقصير نفسه وتخلفه عن لحاق السابقين ؛ لا حسدًا لهم على ما آتاهم الله ؛ بل منافسةً لهم وغبطةً وحزنًا على النَّفس بتقصيرها، وتخلفها عن درجات السابقين، وينبغي للمؤمن أن لا يزال يرى نفسه مقصرًا عن الدرجات العالية، فيستفيد بذلك أمرين نفيسين: الاجتهاد في طلب الفضائل والازدياد منها، والنظر إلى نفسه بعين النقص، وينشأ من هذا أن يحب للمؤمنين أن يكونوا خيرًا منه لأنه لا يرضى لهم أن يكونوا على مثل حاله، كما أنه لا يرضى لنفسه بما هي عليه، بل يجتهد في صلاحها، وقد قَالَ مُحَمَّد بن واسع لابنه: أَمَّا أَبُوكَ فَلا كَثَّرَ الله فِي المسْلِمِين مِثْلَهُ.

فمن كان لا يرضى عن نفسه ؛ فكيف يحب للمسلمين أن يكونوا مثله مع نُصْحِهِ لهم، بل هو يحب للمسلمين أن يكونوا خيرًا منه، ويحب لنفسه أن يكون خيرًا مما هو عليه، وإن علم المرء أن الله قد خصه على غيره بفضل ؛ فأخبر به لمصلحة دينية، وكان إخباره على سبيل التحدث بالنِّعم، ويرى نفسه مقصرًا في الشكر ؛ كان جائزًا، فقد قَالَ ابْنُ مَسْعُود: مَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمُ بِكِتَابِ الله مِنِّي.

ولا يمنع هذا أن يحب للناس أن يشاركوه فيما خصَّه الله به، فقد قَالَ ابْنُ

عَبّاس - رَضِيَ الله عَنْهُمَا -: إني لأمر على الآية من كتاب الله فأود أن النَّاس كلهم يعلمون منها ما أعلم.

وقال الشّافِعي: وددت أن النَّاس تعلّموا هذا العلم ولم يُنْسَب إلي منه شيء، وكان عتبة الغلام إذا أراد أن يُفْطِر يقول لبعض إخوانه المطلعين على أعماله: أخرج إليَّ ماءً أو تمرات أفطر عليها، ليكون لك أجر مثل أجري.اهـ.

* نصيحة من أخ لأخيه:

من محمد بن يوسف الأصبهاني إلى أخيه عبد الرحمن بن يوسف: سلامٌ عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله الا هو، أما بعد:

فإني أُحَذِّرك متحولك من دار مهلتك إلى دارِ إقامتك، وجزاءِ أعمالك، فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها، فيأتيانك مُنْكَرٌ ونَكِيرٌ فيقعدانك، فإن يكن الله معك فلا بأس، ولا وحشة ولا فاقة، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوءِ مَصْرَعٍ، وضِيقِ مَضْجَعٍ، ثم يتبعك صيحة الحشر، ونفخ الصور، وحكم الجبار بعد فصل القضاء للخلائق، فخلت الأرض من أهلها، والسَّموات من سكانها، فبادرت الأسرار، وأسعرت النّار، ووضعت الموازين، ﴿وَأَشْرَقَتْ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر: ٦٩] فكم من مفتضح ومستور؟! وكم من هالك وناج؟! وكم من معذب ومرحوم؟! فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومئذ؟! ففي هذا ما هدم اللذات، وسلا عن الشهوات، وقصر الأمل، وأيقظ الباغين، وحذر الغافلين، أعاننا الله وإياك على هذا الخطر العظيم، وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعها بين قلوب المتقين ؛ فإنما نحن به وله.[1]

---

(١) أبو نعيم (٨/ ٢٣٦)

ثالثا : العبادات البدنية

ثالثا : العبادات البدنية

وهي العبادات التي تؤدى بالجوارح وهي كثيرة منها:

١- الصلاة

والصلاة لغة: الدُّعاء، وشاهده قوله تَعَالَى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ١٠٣].

وأما شرعًا: فهي التعبد لله تَعَالَى بأقوالٍ وأفعالٍ معلومة، مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

وهي أفضل العبادات البدنية وأعظمها على الإطلاق، فهي أول فريضة بعد الإخلاص، وهي عماد الدين، وعصام اليقين ورأس القربات، وغرة الطاعات، هي أصل العبادات العملية وأشرفها، جعلها الله حدا بين الكفر والإسلام.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا المشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاة وَآتَوُا الزَّكاة فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة التوبة: ٥].

وقال تَعَالَى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاة وَيُؤْتُوا الزَّكاة وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [سورة البينة: ٥].

وقال تَعَالَى: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ الله عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاة وَآتُوا الزَّكاة وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المجادلة: ١٣].

وقال تَعَالَى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاة وَآتُوا الزَّكاة وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة النـــور: ٥٦].

*** وقد جعلها الله موقوتة على عباده بين ساعات الليل والنهار ؛ ليتم للعبد دوام الاتصال بربه العزيز القهار:**

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاة إِنَّ الصَّلاة كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [سورة النساء: ١٠٣].

وقد فرضها الله على الأنبياء من قبل كما أخبر سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ من ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاة﴾ [سورة إبراهيم: ٣٧].

وكما أخبر سبحانه عن موسى عليه السلام، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّنِي أَنَا الله لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاة لِذِكْرِي﴾ [سورة طه: ١٤].

*** وقد جعلها النَّبيّ ﷺ حدًا بين الكفر والإسلام:**

عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاة**».(١)

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ، قَالُوا: أَفَلا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: لَا مَا صَلَّوْا**».(٢)

*** فهي كفّارة للذنوب، مجلية للقلوب، هي عمود الدِّين وفُسْطَاطه، يجب فيها حضور القلب وتفريغه ؛ مع ذُلّ الأركان وتواضعها لله:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا ؛ مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي من دَرَنِهِ؟**» قَالُوا: لَا يُبْقِي من دَرَنِهِ شَيْئًا،

(١) رواه مسلم (٨٢).

(٢) رواه مسلم (١٨٥٤).

قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، يَمْحُو الله بِهِ الخَطَايَا».(١)

وعَنْ عُثْمَانَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَا من امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ ؛ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا، وَخُشُوعَهَا، وَرُكُوعَهَا ؛ إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا من الذُّنُوبِ ؛ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ».(٢)

وعَنْ عُثْمَانَ ـ رضي الله عنه ـ تَوَضَّأَ ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوئِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ وُضُوئِي هَذَا ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ فِيهِمَا بِشَيْءٍ ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ».(٣)

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، قَالَ: وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْهُ، قَالَ: وَحَضَرَتْ الصَّلاة فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيّ ﷺ الصَّلاة، قَامَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ الله، قَالَ: «أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّ الله قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ، أَوْ قَالَ حَدَّكَ».(٤)

وهذا عُمَرُ بْنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ كتب إلى عماله: إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلاة، مَنْ حَفِظَهَا أَوْ حَافَظَ عَلَيْها حَفِظَ دِينَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَها فَهُو لِمَا سِواها أَضْيَع.(٥)

فكلُّ مُسْتَخِفٍّ بالصَّلاةِ مستهينٍ بها ؛ فهو مستخفٌّ بالإسلام مستهينٌ به، وإنَّما حظهم من الإسلام على قدر حظِّهم من الصَّلاة، ورغبتهم في الإسلام على القدر من رغبتهم في الصَّلاة، فأعرض على نفسك القدر ؛ فكم لها من حَظٍّ فيها، و احذر أن تلقى الله ولا قدر للإسلام عندك، فَإِنَّ قَدْرَ الإِسْلَامِ في قلبك كقدر الصَّلاة في قلبك.

---

(١) رواه البخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧).
(٢) رواه مسلم (٢٢٨).
(٣) رواه البخاري (١٩٣٤) ومسلم (٢٢٦).
(٤) رواه البخاري (٦٨٢٣) ومسلم (٢٧٦٤).
(٥) رواه البيهقي (١/ ٤٤٥).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ وُجِدَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ تَامَّةً، وَإِنْ كَانَ انْتُقِصَ مِنْهَا شَيْءٌ، قَالَ: انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لَهُ من تَطَوُّعٍ يُكَمِّلُ لَهُ مَا ضَيَّعَ من فَرِيضَةٍ من تَطَوُّعِهِ، ثُمَّ سَائِرُ الْأَعْمَالِ تَجْرِي عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ**». (١)

والصلاة أول فروض الإسلام، وهي آخر ما يفقد من الدِّين فهي أول الإسلام وآخره، فإذا ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**لَيُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاس بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلاة**». (٢)

ويجب أن يعلم العبد أن للصلاة أركانًا وواجباتٍ وسننًا، وروحها النِّية والإخلاص، والخشوع، وحضور القلب، ويجب قطع ما يشغل السَّمع والبصر، وما يلهي النفس، وأن يجتهد في تفريغ قلبه، وربما يصعب هذا مرة واحدة، ولكن بالمجاهدة قد يصل العبد - والله المعين، ولا بد للعبد حينما يتجه بوجهه إلى القبلة أن يتجه بقلبه إلى الله من باب أولى.

فالصّلاة هجرة بالقلب والرّوح والبدن، يلقي العبد بقلبه على أعتاب الذُّل أمام ربه ومولاه، فقد خشع قلبه، وسمت روحه، وذَلَّ بدنه.

فأقرب ما يكون العبد من ربه في الصَّلاة، وأقرب ما يكون وهو ساجد.

وَكُلُّهُم بَاتَ بِالقُرْآنِ مُنْدَمِجًا كَأَنَّهُ الدَّمُ يَسْرِي فِي خَلَايَاهُ
فَالأُذْنُ سَامِعَةٌ وَالعَيْنُ دَامِعَةٌ وَالنَّفْسُ خَاشِعَةٌ وَالقَلْبُ أَوَّاهُ

(١) صحيح: النسائي (١/ ٢٣٣) وأبو داود (٨٦٤) والترمذي (٤١٣) وابن ماجه (١٤٢٥).
(٢) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٢٥١) وابن حبان (١٥/ ٦٧١٥) والحاكم "المستدرك" (٤/ ٩٢)

ففي الصَّلاة يعلن عَنْ ذُلِّهِ، وتصاغره لربه وخالقه سبحانه وتعالى.

وفي الصَّلاة تَظْهَرُ للإنسانِ حقيقته، فيذهب عنه غروره وكبره، ويظهر له فقره، وضعفه، وعجزه، وتبدو حاجته إلى بارئه وخالقه.

وفي الصَّلاة تزول الحجب بين العبد وربّه ، فيفيض النُّور والحب على النفس، لتعيش أسعد لحظاتِ الاستمتاعِ والرّضا مع ربها، وخالقها، وباريها ، وهي أرقى ما تكون من صفاء النَّفس ، والاستعداد للتلقّي والقبول لأمر الله سبحانه.

وفي الصَّلاة سعي للعودة بطهارة القلب والنفس، وسلامتها الى الفطرة السليمة بنقائها وطهارتها ؛ لأن في الصَّلاة عزيمة جادّة لهجر الذنوب والمعاصي ، ومحاولة مخلصة للانفلات من قيود رغبات النفس والشهوة.

فهي سعي للهجرة إلى الله، وهي عودة الى الله بعد كل فترة زمنية يمارس فيها الانسان حياته، فربما انشغل قلبه ؛ فتأتي الصَّلاة فتصقله وتعيده كما كان.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبِي إِلَى صِهْرٍ لَنَا من الْأَنْصَارِ نَعُودُهُ، فَحَضَرَتْ الصَّلاة، فَقَالَ لِبَعْضِ أَهْلِهِ: يَا جَارِيَةُ ائْتُونِي بِوَضُوءٍ لَعَلِّي أُصَلِّي فَأَسْتَرِيحَ، قَالَ: فَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**قُمْ يَا بِلَالُ فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**».[(١)]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ من الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاة**».[(٢)]

*****

(١) حسن: رواه أبو داود (٤٩٨٦) وأحمد (٥/ ٣٧١).

(٢) صحيح: النسائي (٧/ ٦١) وأحمد (٣/ ١٢٨).

٢- الصيــام

والصيام لغة: مَصْدَرٌ من صَامَ، ومعناه: أَمْسَكَ، ومنه قوله تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا تَرَيْنَ من الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٦].

وأما شَرْعًا: فهو التعبد لله سبحانه وتعالى بالإمساك عن الأكل والشُّرب، وسائر المفطرات، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

والصيامُ عبادةٌ من أَجَلِّ العبادات وأعظمها، إذ فيها من تربية النَّفس والسُّمو بها إلى العلو ؛ ما يجعلها ترقى إلى أعلى الدَّرجات.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذين من قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٣].

ولَوْلاَ أَنَّ الصِّيام عبادةٌ عظيمةٌ لاَ غِنَى لِلْخلقِ عن التَّعَبُّد بها لله ؛ وعما يَتَرَتَّب عليها من ثوابٍ ؛ ما فَرَضَهُ الله عَلَى جَمِيعِ الأُمَمِ.

*** ومِنْ فضائل الصَّومِ في رَمضانَ أَنَّه سببٌ لمغفرة الذنوبِ، وتكفيرِ السيئاتِ:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ**».(١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ، وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ الله تَعَالَى من رِيحِ المِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ من أَجْلِي، الصِّيَامُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا**».(٢)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**قَالَ الله: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ**

(١) رواه البخاري (٣٨) ومسلم (٧٦٠).

(٢) رواه البخاري (١٨٩٤) ومسلم (١١٥١).

لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ ؛ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ».(١)

فتأمل قَوْلَه تَعَالَى في هذا الحديث القُدُسِي: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي**» وكَفَى بهذه الإضافة شرفًا ، كما شَرَّف سبحانه البيت بإضافته إليه كما في قوله تَعَالَى:﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود﴾ [سورة الحج: ٢٦].

فقد جعل سبحانه الصَّوم له، لأنه لا يطلع على حال الصَّائم إلا الله سبحانه وتعالى، فيكون العبد في الموضع الخالي من النَّاس بحيث يتمكن من تناولِ الطَّعام والشَّراب، ولكن يستحضر المراقبة ؛ فيعلم أن له ربًا يطَّلع عليه ويراقبه، فيمتنع عن الطعام والشَّراب لله سبحانه وتعالى وحده، ولذلك ادخر الله سبحانه وتعالى الأجر إلى يوم القيامة ووكله لنفسه سبحانه، وجعل سبحانه له بابًا في الجنة لا يدخله إلا الصّائمون.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ـ رضي الله عنه ـ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ، لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ**».(٢)

أَبْوَابُهَا حَقٌّ ثَمَانِيَـةٌ أَتَتْ ... فِي النَّصِ وهِي لِصَاحِبِ الإِحْسَانِ
بَابُ الجِـهَادِ وَذَاكَ أَعْلَاهَا ... وَبَابُ الصَّوْمُ يُدْعَى الْبَابُ بِالرَّيَّانِ
وَلِكُـلِّ سَعْيٍ صَالِحٍ بَابٌ ... وَرَبُ السَّعْيِ مِنْهُ دَاخِـلٌ بِأَمَانِ
وَلَسَوْفَ يُدْعى المرْءُ من أَبْوَابِهَا ... جَمْعَـًا إِذَا وَفَّى حُلَى الإِيمانِ

اعلم أن في الصوم خصيصة ليست في غيره ، وهي إضافته إلى الله عز وجل حيث يقول سبحانه في الحديث القدسي الذي مضى: "فَإِنَّهُ لِي".

*** وإنما فُضِّل الصوم لمعنيين :**

أحدهما : أنه سر وعمل باطن ، لا يراه الخلق ولا يدخله رياء.

الثاني: أنه قهرٌ لعدو الله ، لأن وسيلة العدو الشَّهوات ، وإنما تقوى الشَّهوات

(١) رواه البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١).
(٢) رواه البخاري (٣٢٥٧).

بالأكل والشُّرب ، وما دامت أرض الشهوات مخصبة ، فالشَّياطين يترددون إلى ذلك المرعى ، وبترك الشهوات ؛ تضيق عليهم المسالك.

فاعلم أن استحباب الصَّوم يتأكد في الأيام الفاضلة ، و فواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة ، كصيام ستة أيام من شوال بعد رمضان ، وكصيام يوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، وعشر ذي الحجة ، والمحرم.

وبعضها يتكرر في كل شهر ، كأوله ، وأوسطه ، وآخره ، فمن صام أول الشهر وأوسطه وآخره فقد أحسن ، غير أن الأفضل أن يصوم الثلاثة الأيام البيض.

وبعضها يتكرر في كل أسبوع وهو يوم الاثنين ، ويوم الخميس .

وأفضل صوم التطوع صوم داود عليه السلام ، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا.

وذلك يجمع المعاني الثلاثة :

أحدها: أن النفس تعطى يوم الفطر حظَّها ، وتستوفى في يوم الصوم تعبدها ، وفى ذلك جمع بين ما لها وما عليها ، وهو العدل.

والثاني : أن يوم الأكل يوم شكر ، ويوم الصوم يوم صبر ، والإيمان نصفان : شكر وصبر.

والثالث : أنه أشق على النفس من المجاهدة ، لأنها كلما آنست بحالة ؛ نقلت إلى حالة أخرى.

*****

٣- الحج والعمرة

والحج لغةً: هو القَصْدُ.

وشرعًا: هو التعبد لله عز وجل بأداءِ المناسك على ما جاء في سنة رسول الله ﷺ.

وسمّي الحجُّ بهذا الاسم لأن المسلم المؤدي لهذه العبادة يقصد مكة ، والبيت الحرام ، والأماكن المقدسة الأخرى كعرفات ومنى ، والمزدلفة ، ليؤدّي فيها مناسكه وشعائره ، وقد ربط الإسلام أداء هذه الفريضة بالزَّمان والمكان في صحة أداء الحج فالإحرام يبدأ من أماكن محددة ، والطَّواف يكون في مكان معلوم ، والسَّعي يكون بمكان محّدد ، والوقوف يكون بمكان محّدد.. وكذا رمي الجمار في مكان خاص.. والمبيت بعض الليالي يكون في مكان محّدد...الخ.

وكما كان للمكان أهميته وموقعه التعبدي في هذه العبادة ، فإن للبعد الزمني أيضًا أهميته وتأثيره يُسْهم في صحة هذه العبادة أوبطلانها.. لذا كانت أهم شعائر الحج ومناسكه مرتبطة بتوقيت زمني محدد... فيوم الوقوف في عرفات هو اليوم التاسع ، والمبيت في المزدلفة هو ليلة العيد ، ويوم النحر هو اليوم العاشر.. يوم العيد ، والمبيت في منى الليلة الحادية عشرة والثانية عشرة من ذي الحجة..الخ.

ولهذين العنصرين ـ عنصر الزمان والمكان ـ يعود السَّبب في تسمية هذه العبادة حجًا ؛ لأنها زيارة مقصودة لأماكن محدّدة ، وفي أوقات محدّدة ، ليؤدي القاصد فيها مناسكه ، ويقيم شعائره من حج أو عمرة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ من كُلِّ فَجٍّ

عَمِيقٍ ﴾ [سورة الحج: ٢٧].

والحجُّ عبادةٌ عظيمة، جمعت بين سائر العبادات القَلْبية، والقَوْلية، والبَدَنية، والمالية.

فالحجُّ رحلة القلب والروح والبدن ، وهجرة الإنسان إلى الله ، ووفادته عليه.

وهو هجرٌ للأهلِ، والمالِ، والملذّاتِ، واحتمالٌ للمتاعبِ والمشاقِّ ، والعَنَاء.. حبًا لله وشوقًا إليه ، واستجابة لندائه.

وهدف الحج هدف كُلِّ عبادة في الإسلام.. الإخلاص إلى الله سبحانه ، وقطع النظر عما سواه وتحقيق ما أمر به من العبادة.

*****

٤- الجهاد في سبيل الله

والجهاد لغةً: من جَهَدَ، وهو بلوغ الغاية في الطَّلَبِ والمشقة.

وشرعًا: بذل الجهد في قتال العدو، وهو ثلاثة أقسام: جهادُ النَّفْسِ، وجهاد المنافقين، وجهاد الكفار المبَارِزِين المعاندين.

والجهاد من أجل العبادات وأعظمها عند الله، فهو ذروة سنام الدين - أي أعلى شيء فيه - قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الله اشْتَرَى من المؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ من الله فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة: ١١١].

وقد أثابهم الله عز وجل ببذل أرواحهم ؛ أن جعلهم أحياءً يرزقون، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩].

وقد عَدَّهُ النَّبيّ ﷺ من أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله وبرسوله.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى الله؟ قَالَ: **«الصَّلاة عَلَى وَقْتِهَا»**، قَالَ: ثُمَّ أَيّ؟ قَالَ: **«ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»**، قَالَ: ثُمَّ أَيّ؟ قَالَ: **«الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله»**، قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَو اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي.(١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا أَنَّ رِجَالًا من المؤْمِنِينَ لَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ الله، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ الله**

(١) رواه البخاري (٥٢٧) ومسلم (٨٥)

؛ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ». (١)

ولقد أدرك الصحابة ومن بعدهم قيمة هذه العبادة؛ لما فيها من عِزةِ الإسلام والمسلمين، ودحر قوى الكفر والمشركين، وإعلاء راية الدِّين، ونشر الحق بين النَّاس أجمعين، فقاموا جميعًا لم يتخلف إلا من عذره الله، أو منافق مرق من الدِّين، ففتحوا البلاد ومكّنوا لِدِينِ الله في كُلِّ ما وصلت إليه أقدامهم، ولم يتأخروا طَرْفَةَ عَيْنٍ عن بذل الغالي والنَّفيس لرضا ربِّ العالمين.

عَنْ أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ المشْرِكِينَ، لَئِن الله أَشْهَدَنِي قِتَالَ المشْرِكِينَ؛ لَيَرَيَنَّ الله مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ المسْلِمُونَ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ**» ـ يَعْنِي أَصْحَابَهُ ـ «**وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ**» - يَعْنِي المشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ! الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا من دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ الله مَا صَنَعَ! قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ، وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ المشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ ﴿من المؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ﴾، إِلَى آخِرِ الآيَةِ (٢).

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بِغُلَامَيْنِ من الأَنْصَارِ حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا؛ تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا، فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا، فَقَالَ: يَا عَمِّ! هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا بْنَ أَخِي؟! قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ الله ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الأَعْجَلُ مِنَّا، فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ! فَغَمَزَنِي

(١) رواه البخاري (٢٧٩٧) ومسلم (١٨٧٦).
(٢) رواه البخاري (٢٨٠٥) ومسلم (١٩٠٣).

الْآخَرُ، فَقَالَ لِي مِثْلَهَا، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، قُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي، فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا ؛ فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ: «**أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟**» قَالَ: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنَا قَتَلْتُهُ، فَقَالَ: «**هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟**» قَالَا: لَا. فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ: «**كِلَاكُمَا قَتَلَهُ، سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو ابْنِ الْجَمُوحِ**»، وَكَانَا مُعَاذَ بْنَ عَفْرَاءَ وَمُعَاذَ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ.(١)

وهذه العبادة منضبطة بضوابط من الشَّرع، إذ لا تجوز إلا خلفَ إمَامٍ أو حَاكِمٍ مُمَكَّنٍ، إذ لو وُكِّل هذا الأمر لأعيان الأمة لضَلَّ النَّاس فيه ضلالًا بعيدًا، وسُفِكَت الدِّماء بغير حقٍّ فتنبه!!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ، يُقَاتَلُ من وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ وَعَدَلَ، فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا، وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ**».(٢)

*****

(١) رواه البخاري (٣١٤١) ومسلم (١٧٥٢).
(٢) رواه البخاري (٢٩٥٧) ومسلم (١٨٣٥).

٥- طلب العلم

فإن من أعظم سعادةِ الرُّوح، والقَلْبِ، والبدنِ، طلب العلم النّافع؛ الذي يَدُلُّ على الله ويقرب العبد منه، فَإِنَّ في مشقةِ هذا العلم لَذَّة لا تعدلها لذة، ولولا جهل الأكثرين بحلاوةِ هذه اللذة، وعِظَمِ قدرها لتجالدوا عليه بالسيوف، ولكن حُجبوا عنها بحجاب من جهل، ليخص الله بها من شاء من عباده، والله ذو فضلٍ عظيم، لقد دل الله عليهم، وأرشد إليهم فقال تَعَالَى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[سورة النحل: ٤٣].

وقال تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٢].

وما أمر سبحانه نبيه ﷺ بطلب الزِّيادة في شيء في الدُّنيا ، إلا من العلم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [سورة طـه: ١١٤].

وأشاد سبحانه – أيما إشادة! – بفضل أهل العلم ، ورفع من شأنهم ، وأعلى من قدرهم ، بما يعجز عن بيانه إلا البيان المبين ، من كَلام رَبِّ العالمين

فقد جعلهم سبحانه وتعالى شهودًا على أجلِّ مَشْهُودٍ، وقرنهم بخير شُهُودٍ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالملائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة آل عمران: ١٨].

وقد ذكر سبحانه فضله ومنته على أنبيائه ورسله وعباده بما آتاهم من العلم، فذكر سبحانه نعمته على خاتم أنبيائه ورسله فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ من شَيْءٍ وَأَنزَلَ الله عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ

عَظِيماً ﴾ [سورة النساء: ١١٣].

وقال في يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٢٢]

وقال في كَلِيمِهِ مُوسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنِينَ ﴾ [سورة القصص: ١٤].

وقال في حَقِّ المسِيح: ﴿إِذْ قَالَ الله يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاس فِي المهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [سورة المائدة: ١١٠] فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به.

وقال في حَقِّ داود: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ ﴾ [سورة ص: ٢٠].

وقال في حَقِّ الخضر صاحب موسى وفتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً من عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ من لَدُنَّا عِلْماً ﴾ [سورة الكهف: ٦٥].

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٨ - ٧٩] فذكر النبيين الكريمين وأثنى عليهما بالحكم والعلم، وخص بفهم القضية أحدهما.

وحصر سبحانه الخشية منه على العلماء، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ الله عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [سورة فاطر: ٢٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذين يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [سورة الزمر: ٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَرْفَعِ الله الَّذين آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة المجادلة: ١١].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا**؛

سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ».(١)

فالعلم دينٌ فانظر ممن تأخذ دينك، فإن وجدت من تأمنه على دينك ؛ فخُطَاك أشرفُ خُطى ؛ فقد سهل الله لها الطَّريق إلى الجنة.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ.(٢)

وقد وجدت كلامًا نفيسًا لأحدِ الإخوة طلبة العلم (٣) يقول فيه: فهل دبت على وجه الأرض خطى أشرف من خطى طالب علم؟!

وهل حَوَت الأسحار والأبكار أَجَدَّ مِنْهُ فِي طَلَبِهِ؟! وهل مَرَّ عَلَى الأَسْمَاعِ أَلذُّ من دندنة المتحفظين، وزَجَلِ القارئين؟! وهل امتلأت القُلُوبُ هَيْبَةً لمثلِ مُنْكَبٍّ على كِتَاب؟! وهل انشرحت الصدور إلا في مجالس الذِّكر؟! وهل انعقدت الآمال جميعها إلا على حِلَقِ العِلْم؟! وهل نزلت السَّكينة والرَّحمة على مثل الدّارسين لكتاب الله؟! وهل تضاءلت عروش الملوك إلا عند منابر العلماء؟! وهل عمرت المساجد في غير أوقات الصلوات ؛ بمثل مجالس العلم؟!

أخبروني بالله عليكم؟!

ثم أسألكم بالله! هل تعلمون خيرًا من شاب في هذا العصر ، هَجَرَ الدُّنيا وزهد ملذاتها، ونأى بعيدًا عن شهواتها ، وانعزل عن فتنها التي تستفز الحليم ، وانقطع عن إغواءاتها التي تستخف بالرَّزين ، وترك النَّاس على دنياهم يتكالبون ، وهجر من أهله وإخوانه تنافسهم على القصور والأموال والمناصب ، فإن مر على اللغو مرَّ مرور الكرام، وإن تعرض له الجاهلون أعرض وقال: سلام، وهو مع ذلك شاب في عنفوان الشباب ، أمامه مستقبل عريض ، وعليه مسئولية بناءٍ جديد ، وينظر إلى الأفق البعيد ؛ نظرةً ملؤها

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).
(٢) رواه مسلم (المقدمة).
(٣) الشريف حاتم بن عارف العوني في رسالة "نصائح منهجية".

الآمال والأحلام ، تفور فيه غرائز الشهوات ، ويجيش فؤاده بالعواطف والرغبات ، وتتفجر دماؤه حماسًا لطلب الملذَّات ؛ ثم هو هو ذلك الذي تجاوز هذا كله!! وجعله وراءه ظهريًا!! وأقبل على العلم.. على مرارته ، وانكب على الكتاب.. على ملالته ، وإذا حنَّ إلى عِنَاقِ كاعبٍ(١)..خالفته يدُ كاتبٍ ، وإذا اشتهت شفتاه أن يرتشف الرضاب(٢).. تمتم ملتذًا بقراءةِ كتاب ؛ قطع الأيام في التحصيل ، وسهر الليالي على الدرس والترتيل ؛ يقرأ حتى تزوغَ عينه ، ويكتب حتى تكلَّ يده ، ويدرس حتى يكد ذهنه!!

أخبروني.. من أفضل من هذا؟!!

مع ذلك فإنه يرى أن الذي هو فيه: هو الحياةُ حقًا، وجنةُ دارِ الفناءِ صدقًا ، يرحمُ أهلَ الدنيا ، ويحنو على أبناءِ الملذَّات ؛ لأنه يعرف أنه على برنامج العلماء ، ومنهج الأولياء ، وخطة الفقهاء ، وغاية الكبراء ، ومعارج الأتقياء.

فيترنم بقول القائل:

لَمَحْبَرَةٌ تُجَالِسُنِي نَهَارِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ من أُنْسِ الصَّدِيقِ
وَرُزْمَةُ كَاغِدٍ فِي الْبَيْتِ عِنْدِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ من عَذْلِ الدَقِيقِ
وَلَطْمَةُ عَالم فِي الخَدِّ مِنِّي ... أَلَذُّ لَدَيَّ من شُرْبِ الرَّحِيقِ.اهـ.

وما أحسن من قال:

ومَنْ تَكُ نُزْهَتُهُ قِينةٌ ... وَكَأْسٌ تُحَثُّ وَكَأْسٌ تُصَبْ
فَنُزْهَتُنَـــــا وَاسْتراحَتُنَـــــا ... تَلَاقِي العُيونُ ودَرْس الكُتبْ

*** العلم يُشَرِّف صاحبه:**

إن العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة، ما لا يرفعه الملْكُ ولا المال ولا غيرهما، فالعلم يزيد الشَّريف شَرَفًا ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك، فعَنْ نَافِعِ بْنِ

(١) يعبر به عن بروز النهد.
(٢) ريق محبوبته.

عَبْدِ الحَارِثِ أَنَّهُ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَن اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَن ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى من مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِم بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «**إِنَّ الله يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**».(١)

قَالَ أَبو العَالِية: كُنْتُ آتِي ابْنَ عَبَّاسٍ وَهُو عَلَى سَرِيرِهِ، وَحَوْلَهُ قُرَيْش، فَيَأْخُذُ بِيَدِي فَيُجْلِسَنِي مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ، فَتَغَامَزَ بِي قُرَيْشٌ فَفَطِنَ لَهُم ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: كَذَا هَذَا العِلْمُ يزيدُ الشَّريف شَرَفًا، وَيُجْلِسُ الممْلُوكَ عَلَى الأَسِرَّةِ.(٢)

وَدَخَلَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاح عَلَى عَبْدِ الملِكِ بْن مَرْوَان ؛ وَهُو جَالِسٌ عَلَى السَّرِيرِ وَحَوْلَهُ الأَشْرَافُ، وَذَلِكَ بِمَكَّةَ فِي وَقْتِ حَجِّهِ فِي خِلَافَتِهِ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ عَبْدُ الملِكِ قَامَ إِلَيْهِ ؛ وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ، وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: يَا أَبَا محمد حَاجَتُك؟ قَالَ: يا أَمِيرَ المؤْمِنِين، اتَّقِ الله فِي حَرَمِ الله، وَحَرَمِ رَسُولِهِ، فَتَعَاهَدْهُ بِالعِمَارَةِ، واتَّقِ الله فِي أَوْلَادِ المهَاجِرِين والأَنْصَارِ، فَإِنَّك بِهِمْ جَلَسْتَ هَذَا المجْلِس، واتق الله في أَهْلِ الثُّغُورِ، فَإِنَّهُم حِصْنُ المسلِمِين، وتَفَقَّد أُمُورَ المسلِمِين ؛ فَإِنَّك وَحْدَك المسْئُولُ عَنهم، واتق الله فِيمَنْ عَلَى بَابِك فَلا تَغْفَل عَنْهُم، ولا تُغْلِق دُونَهُم بَابَك، فقال له: أَفْعَلُ، ثم نهض وقام، فَقَبَضَ عَلَيْهِ عَبْدُ الملِكِ، وقَالَ: يا أَبا مُحَمَّد! إِنَّمَا سَأَلْتَنَا حَوَائِجَ غَيْرِك، وَقَدْ قَضَيْنَاها، فَمَا حَاجَتُك؟ قَالَ: مَا لِي إِلَى مَخْلُوقٍ حَاجَة، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ عَبْدُ الملِكِ: هَذَا وَأَبِيكَ الشَّرَف، هَذَا وَأَبِيكَ السُّؤدُد.(٣)

وعن يحيى بن أكثم قَالَ: قَالَ لِي الرَّشِيد: مَا أَنْبَلُ المرَاتِب؟ قلت: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين، قَالَ: فَتَعْرِفُ أَجَلَّ مِنِّي؟! قلت: لا، قَالَ: لكني أعرفه، رجل يقول في حلقة: حَدَّثَنَا فُلَانٌ عَنْ فُلَانٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ، قلت: وَوَلِيُّ عَهْدِ المسْلِمِين؟! قَالَ: نَعَم

---

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٠٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٤).

ويلك! هذا خَيْرٌ مِنِّي، لأن اسمه مقترنٌ باسم رسول الله ﷺ، لا يموت أبدًا، نحن نموت ونفنى، والعُلَمَاءُ باقون ما بقي الدَّهْرُ.(١)

قَالَ أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي: سمعت الأستاذ بن العميد يقول: ما كنت أظن أن في الدُّنيا حلاوةً ألذَّ من الرِّئاسةِ والوزارةِ التي أنا فيها ؛ حتى شهدت مُذاكرة سليمان بن أحمد الطَّبراني، وأبي بكر الجِعَابي بحضرتي، فكان الطَّبرانيُّ يغلبُ الجِعَابي بكثرةِ حفظه، وكان الجِعَابِي يغلب الطَّبراني بفطنته وذكاء أهل بغداد، حتى ارتفعت أصواتهما، ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجِعَابي: عندي حديثٌ ليس في الدُّنيا إلا عندي، فقال: هاته، فقال: حدثنا أبو خليفة الجمحي، ثنا سليمان بن أيوب، وحدَّث بحديثٍ، فقال الطَّبراني: أنا سليمان بن أيوب، ومني سمع أبو خليفة، فاسمع مني حتى يعلو إسنادك، فإنك تروي عن أبي خليفة عني، فخَجِلَ الجِعَابي، وغلبه الطَّبراني، قَالَ ابن العميد: فوددت في مكاني أَنَّ الوزارة والرِّئاسة ليتها لم تكن لي ؛ وكنت أنا الطَّبراني وفرحت مثل الفرح الذي فرحه لأجل الحديث، أو كما قَالَ.(٢)

قَالَ الجاحظ (٣): ولقد دَخَلْتُ على إسحاق بن سليمان في إمْرَته ، فرأيتُ السِّمَاطِين(٤) والرِّجَالَ مُثُولًا كأنّ على رءوسهم الطير ، ورأيتُ فِرشته وبِزَّته ، ثم دَخَلْتُ عليه وهو مَعْزُول ، وإذا هو في بيتِ كُتبِهِ، وحواليه الأسفاط(٥) والرُّقوق(٦) ، والقَمَاطِر(٧) والدَّفاتر والمساطِر والمحابر ، فما رأيته قط أفخمَ ولا أنبلَ ، ولا أهيبَ ولا أجزلَ منه في ذلك اليوم ، لأنه جَمَعَ مع المهابَةِ المحبَّةَ ، ومع الفَخَامةِ الحلاوةَ ، ومع

---

(١) أدب الإملاء (٢٠).
(٢) ترجمة الطبراني "للأصبهاني" (٣٤٤).
(٣) حياة الحيوان (١/ ٦١).
(٤) الصفوف من الجنود.
(٥) ما يخبأ فيه الطيب ونحوه.
(٦) ما يكتب فيه.
(٧) أماكن وضع الكتب.

السُّؤددِ الحِكمةَ. اهـ.

قَالَ المزني: سمعت الشّافِعي يقول: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل مِقداره، ومن تعلَّم اللغة رَقَّ طبعه، ومن تعلم الحساب تجزل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه عِلْمه.(١)

وانظر لحال الهدهد لما تعلم شيئًا من العلم ؛ لم يَعْلَمْهُ سُليمان عليه السّلام ؛ تعاظم وانتفش، وخاطب سليمان عليه السلام بقوله كما قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ من سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [سورة النمل: ٢٢].

*** ولقد شَرَّفَ الله الكَلْبَ المعَلَّمَ وأحلَّ ذبيحته على غَيْرِ المعَلَّمِ ؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار:**

قَالَ ابن المبارك: عَجِبْتُ لمن لم يطلب العلم، كيف تدعوه نفسه إلى مَكْرُمةٍ.(٢)

كان سفيان الثوري إذا لَقِي شَيْخًا سَأَلَهُ: هل سمعت من العِلْمِ شيئًا؟ فإن قَالَ: لا، قَالَ: لا جزاك الله عن الإسلام خيرًا.(٣)

قَالَ الشّافِعي رحمه الله: ما أفلح في العلم إلا من طلبه في القِلَّة، ولقد كنت أطلب القِرْطَاسَ فيعسر علي، ولا يطلب أحدٌ هذا العِلْم بالملك وعزِّ النَّفْسِ فيفلح، ولكن من طلبه بِذُلِّ النَّفْسِ، وضيق العيش، وخدمة العلماء أفلح.(٤)

وقال أيضا: لا يطلب هذا العلم من يطلبه بالتَّمَلُّكِ وغِنى النَّفس، ولكن مَنْ طَلَبَهُ بِذِلَّةِ النَّفْسِ، وَضِيقِ العيش، وخدمة العلم أفلح.(٥)

---

(١) تاريخ بغداد (٧/ ٢٦٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٩٨).
(٣) أبو نعيم "الحلية" (٦/ ٣٦٥).
(٤) تهذيب الأسماء للنووي (١/ ٧٤).
(٥) المحدث الفاصل (٢٠٢).

وعن ابْن المبَارَكِ قَالَ: مَن اسْتَخَفَّ بِالْعُلَمَاءِ ذَهَبَتْ آخِرَتُهُ، وَمَن اسْتَخَفَّ بالأُمَرَاءِ ذَهَبَتْ دُنْيَاهُ، وَمَن اسْتَخَفَّ بالإِخْوَانِ ذَهَبَتْ مُرُوءَتُهُ.(١)

عُوتِبَ ابْن المبَارَكِ فِيما يُفَرِّقُ المالَ فِي البُلْدَان ؛ ولا يَفْعَلُ فِي أَهْلِ بَلَدِهِ، قَالَ: إِنِّي أَعْرِفُ مَكَانَ قَوْمٍ لَهُمْ فَضْلٌ وَصِدْقٌ، طَلَبُوا الحَدِيثَ فَأَحْسَنوا الطَّلَبَ لِلْحَدِيثِ، بِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِم احْتَاجُوا، فَإِنْ تَرَكْنَاهُم ضَاعَ عَلَيْهِم، وَإِنْ أَعَنَّاهُم بَثُّوا العِلْمَ لِأُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا أَعْلَمُ بَعْدَ النُّبُوةِ أَفْضَلَ مِنْ بَثِّ العِلْم.(٢)

* اجتهادهم في طلب العلم:

ولقد بلغ من حرصهم على الطَّلب الشيء العجيب، حتى هجروا الأوطان وفارقوا الأهل والخلان في طَلِب العلم.

قَالَ ابن عباس: ذَلَلْتُ طَالبًا فعززت مَطْلُوبًا.(٣)

وقال أيضًا: مَا حَدَّثَنِي أَحَدٌ قَط حَدِيثًا فاستفهمته، فلقد كنت آتي باب أُبي بن كعب وهو نائم، فأقيل على بابه، ولو علم بمكاني لأحب أن يُوقَظَ لي ؛ لمكاني من رسول الله ﷺ، ولكني أكره أن أمله.(٤)

قَالَ يُونُسُ بْنُ يزيد: قَالَ لِي ابن شهاب: يا يونس! لا تكابر العِلْم، فَإِنَّ العلم أودية، فأيها أخذت فيه قَطَعَ بِكَ قَبْلَ أَنْ تبلغه، ولكن خُذْهُ مَعَ الأيام واللَّيالي، ولا تأخذ العِلْمَ جُمْلَة ؛ فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَة ذهب عنه جُمْلَة، ولَكِنَّ الشَّيءَ بَعْدَ الشَّيءِ مَعَ اللَّيالِي وَالأيام.(٥)

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٨).

(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ١٦٠).

(٣) جامع بيان العلم (١/ ٤٧٤).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٧١).

(٥) جامع بيان العلم (١/ ٤٣١).

وقام رجل إلى ابن المبارك فقال: يا أبا عبد الرحمن، في أيّ شيء أجعل فَضْلَ يومي؟ في تعلُّم القرآن، أو في طلب العلم؟ فقال: هل تقرأ من القرآن ما تُقِيمُ به صلاتك، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاجْعَلْهُ فِي طَلَبِ العِلْمِ الَّذي يُعْرَفُ بِهِ القُرْآن(١).

وعن فَرْقد إمام مسجد البَصْرة قَالَ: دَخَلُوا عَلَى سُفْيانَ الثَّوري في مَرَضِهِ الَّذِي مَات فِيه ؛ فَحدَّثه رَجُلٌ بِحَدِيثٍ فَأَعْجَبَهُ ؛ فَضَرَبَ يَدَهُ إلى تَحْتَ فِرَاشِهِ فَأَخْرَجَ أَلْوَاحًا لَهُ فَكَتَبَ ذَلِكَ الحدِيث. فقالوا له: على هذه الحال منك؟ فقال: إِنَّهُ حَسَنٌ، فَقَد سَمِعْتُ حَسنًا، وَإِنْ مِتُّ فَقَدْ كَتَبْتُ حَسنًا.(٢)

ذكر القرشي في (٣) ترجمة إبراهيم بن الجراح التميمي مولاهم -تلميذ أبي يوسف وآخر من روى عنه- قَالَ: أتيته أَعُوده ، فوجدته مغمّى عليه ، فلمّا أفاق قَالَ لي: يا إبراهيم! أيُّها أَفْضَلُ في رَمْي الجِمَارِ ، أَنْ يَرْميَها الرَّجُلُ رَاجِلًا أو رَاكبًا؟

فقلت: راكبًا. فقال: أخطأتَ!.

قلتُ: ماشيًا. قَالَ: أخطأتَ!.

قلت: قُلْ فِيها -يَرْضى الله عنك-.

قَالَ: أما ما يوقف عنده للدُّعاء ، فالأفضل أن يرميه راجلًا ، وأما ما كان لا يوقف عنده ، فالأفضل أن يرميه راكبًا(٤).

قَالَ أبو حاتم: قَالَ لي أبو زرعة: ما رأيتُ أَحْرَصَ على طَلَبِ الحديث منك يا أبا حاتم! فقلت: إن عبد الرحمن - يعني ولده - لحريص، فقال: مَنْ أشبه أباه فما ظَلَمَ،

---

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ١٦٥).
(٢) ابو نعيم "الحلية" (٧/ ٦٤).
(٣) الجواهر المضِيَّة (١/ ٧٦)ز
(٤) انظر "المجموع": (٨/ ١٦٨)، و "أضواء البيان": (٥/ ٣٠٨) وقال: وأظهر الأقوال في المسألة هو الاقتداء بالنبي ﷺ، وهو قد رمى جمرة العقبة راكبًا، ورمى أيام التشريق ماشيًا ذهابًا وإيابًا والله تَعَالَى أعلم اهـ.

قَالَ الرَّقام - أحمد بن علي - سألتُ عبد الرحمن عن اتفاق كثرة السَّماع له وسؤالاته من أبيه، فقال: ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه، قَالَ عَلِي بن إبراهيم: وبلغني أنه كان يَسْأَلُ أباه أبا حاتم في مرضه الذي توفي فيه عن أشياءَ مِنْ عِلْمِ الحديث وغيره ؛ إلى وقت ذهاب لسانه، فكان يشير إليه بطرفه: نَعَمٌ وَ لَا.(١)

وذكر القاضي عياضٌ (٢) في ترجمة مسرَّة بن مسلم الحَضْرمي (ت ٣٧٣) -وكان من أهل العلم والزهد التام- أنه لما احْتُضِرَ ابتدأ القرآن ، فانتهى في "سورة طه" إلى قوله تَعَالَى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤]، ففاضت نفسه.

قَالَ المعافى النَّهْرَواني (٣): وحكى لي بعض بني الفرات ، عن رجلٍ منهم: أنه كان بحضرة أبي جعفر الطَّبري -رحمه الله- قبل موته ، وتوفي بعد ساعة أو أقلّ منها ، فذُكِرَ له هذا الدعاء(٤) ، عن جعفر بن محمد -رحمهما الله- فاستدعى محبرة وصحيفةً فكتبها ، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ لَا يَدَعَ اقْتِبَاسَ العِلمِ حَتَّى يَمُوت.اهـ.

وهذا البُخَارِيُّ، مَاتَ أَبُوه وَهُو صَغِيرٌ فَنَشَأَ فِي حجر أمه، فألهمه الله حفظ الحديث وهو في المكتب، وقرأ الكتب المشهورة وهو ابن ست عشرة سنة ؛ حتى قيل إنه كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سردًا، وحَجَّ وعمره ثماني عشرة سنة، فأقام بمكة يطلب بها الحديث ؛ ثم رحل بعد ذلك إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان التي أمكنته الرِّحلة إليها، وكتب عن أكثر من ألف شيخ ، وروى عنه خلائق وأمم، وقد روى الخطيب البغدادي عن الفربري أنه قَالَ: سمع الصَّحِيح من البخاري معي نحو من سبعين ألفًا ؛ لم يبق منهم أحد غيري.(٥)

---

(١) تهذيب الكمال (٢٤/ ٣٨٧).
(٢) المدارك (٦/ ٢٧١).
(٣) الجليس الصالح (٣/ ٢٢٢).
(٤) وهو قوله: «يا سابق الفوت، ويا سامع الصوت، ويا كاسي العظام لحمًا بعد الموت...» ثم يدعو بمسألته.
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٢٥).

وعن عمر بن حفص الأشقر قَالَ: كنا مع البخاري بالبَصرة نكتب، ففقدناه أيامًا، ثم وجدناه في بيتٍ وهو عُرْيان وقد نفد ما عنده، فجمعنا له الدَّراهم حتى اشترينا له ثوبًا وكسوناه.(١)

*** بل ربما تبسط لهم الدنيا بسطا فيسخروها ويطوعوها في طاعة الله سبحانه وتعالى:**

فهذا يحيى بن معين، كان والده على خراج الرَّي فمات، فخلف ليحيى ابنه ألف ألف درهم ؛ فانفقه كله على الحديث، حتى لم يبق له نعل يلبسه.(٢)

*** وإذا عجزوا عن إيجاد المال لم يتعنوا في طلب العلم بل طوعوا أشياء مما لا يعبأ بها النَّاس في الطَّلب...**

فهذا الشّافِعي رحمه الله لم يكن له مَالٌ، قَالَ: فَكُنْتُ أَطْلُبُ العِلْمَ في الحَدَاثَةِ، أذهب إلى الدِّيوان أستوهب الظُّهور - أي ظهر الورق المكتوب فيه - أكتب فيها.(٣)

قَالَ الحاكم: وسألت محمد بن الفضل بن محمد عن جده - ابن خزيمة صَاحِبُ الصَّحِيح - فذكر: أنه لا يدخر شيئًا جهده ؛ بل ينفقه على أهل العلم، وكان لا يعرف سَنْجَةَ الوزن، ولا يميز بين العشرة والعشرين، ربما أخذنا منه العشرة ؛ فيتوهم أنها خمسة.(٤)

*** وكانوا يُكيفون أوضاعهم وأمورهم ؛ حتى ثيابهم لطلب العلم:**

قَالَ ابْنُ دَاسّه: كان لأبي داود كُمٌّ وَاسِعٌ وَكُمٌّ ضَيِّقٌ، فقيل له في ذلك فقال: الواسِعُ لِلْكُتُبِ، والآخَرُ لا يُحْتَاجُ إلَيه.(٥)

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٨).
(٢) سير أعلام النبلاء (١١/ ٧٧).
(٣) تهذيب الكمال (٢٤/ ٣٦١).
(٤) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٧٠).
(٥) تذكرة الحفاظ (٢/ ٥٩٢).

ولو نظر النَّاظر إلى حالهم في طلب العلم، وما بذلوه من غالٍ ونفيس، وما وقع لهم من صِعَابٍ لوجد العَجَبَ العُجَاب.

فهذا ابن خِراش: عبد الرحمن بن يوسف بن خِراش الحافظ يقول: شربت بولي في هذا الشأن – يعني الحديث – خَمْسَ مَرَّات، قلت – أي الخطيب: أَحْسَبُه فَعَلَ ذَلِكَ في السَّفَرِ اضْطِرارًا ؛ عند عدم الماء – والله أعلم.(١)

قَالَ الوخشي يوما: سمعت، ورحلت، وقاسيت المشاق، والذُّل، ورجعت إلى وخشٍ وما عرف أحد قدري، ولا فهم ما حصلته، فقلت: أموت ولا يَنْتَشِرُ ذِكْرِي، ولا يَتَرَحَّمُ أَحَدٌ عَلَيَّ، فسَهَّل الله ووفق نظام الملك ؛ حتى بنى هذه المدرسة فيها حتى أُحَدِّث، لقد كنت بعسقلان أسمع من ابن مصحِّح وغيره، فضاقت عَلَيَّ النَّفقة، وبقيت أيامًا بلا أكل، فأخذت لأكتب فعجزت، فذهبت إلى دُكَّان خباز وقعدت بقربه لأشم رائحة الخبز، وأتقوى بها ثم فتح الله تَعَالَى عليّ(٢).

وقد بلغوا من الحرص درجةً عجيبةً حَتَّى إنَّ أَحَدَهُم يَنْكَسِرُ قَلَمُهُ ؛ فيشتري قلمًا بدينار.

فقد انكسر قلم محمد بن سلام البيكندي في مجلس شيخٍ له، فأمر أن ينادى: قلم بدينار، فطارت إليه الأقلام.(٣)

قَالَ الليث بن سعد: وضع الطست بين يدي ابن شهاب، فتذكر حديثًا فلم تزل يده في الطست حتى طلع الفجر ؛ حتى صححه.(٤)

قَالَ الزُّهْرِي: خَدَمْتُ عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة، حتى إن كان خادمه ليخرج فيقول: مَنْ بالباب؟ فتقول الجارية: غُلامك الأعيمش – فتظن أني غلامه – وإن كنت

---

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ٢٨٠).
(٢) تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٧٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٢٩).
(٤) أبو نعيم الحلية (٣/ ٣٦١).

لأخدمه حتى لأستقي له وضوءه.(١)

وكان ابن طاهر أحد الحفاظ، حسن الاعتقاد، جميل الطَّريقة، صدوقًا عالما بالصَّحيح والسَّقيم، كثير التصانيف، لازمًا للأثر يقول: بُلْتُ الدَّم في طلب الحديث مرتين، مرة ببغداد، ومرة بمكة، كنت أمشي حافيًا في الحرِّ؛ فلحقني ذلك، وما ركبت دابة قط في طلب الحديث، وكنت أحمل كُتُبي على ظهري، وما سألت في حال الطَّلب أحدًا، كنت أعيش على ما يأتي. وقيل: كان يمشي دائمًا في اليوم والليلة عشرين فرسخًا، وكان قادرًا على ذلك.(٢)

قَالَ أبو طَاهِر السِّلفي: وقد كُتِبَ عَنِّي بأصبهان أول سنة اثنتين وتسعين وأربع مائة، وأنا ابن سبع عشرة سنة، أو أكثر أو أقل بقليل، وما في وجهي شعرة، كالبخاري رحمه الله – يعني لما كَتَبُوا عنه.

قَالَ الشَّيخ علم الدين السَّخاوي: سمعت يومًا أبا طاهر السِّلفي ينشد لنفسه ما قاله قديمًا:

أَنَا من أَهْلِ الحَدِيثِ ... وَهُـــمْ خَيـــرُ فِئـــة
جُــزْتُ تِسْعِينَ وَأَرْ ... جُو أَنْ أَجُوزَنَّ المائَة

فقيل له: قد حقَّق الله رجاءك، فعلمت أنه قد جاز المائة، وذلك في سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة.(٣)

وعن ابن نَاصِر قَالَ: كان السِّلفي ببغداد كأنه شعلةُ نارٍ في التَّحصيل.(٤)

ففي ترجمة أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي ت (٥١٣) (٥): -رحمه الله- أنه قَالَ: إني لأجدُ

(١) أبو نعيم الحلية (٣/ ٣٦٢).
(٢) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٢٤٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٧).
(٤) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٣٠١).
(٥) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ١٤٦).

من حِرْصِي على العلم ، وأنا في عَشْرِ الثمانين (١) أشدّ مما كنت أجده وأنا ابنُ عِشرين سنة.

قَالَ ابن عَسَاكِرِ في ترجمة الفقيه سُلَيْم بن أيوب الرّازي(٢): حُدِّثتُ عنه أنه كان يحاسِب نفسَه على الأنفاس ، لا يدع وقتًا يمضي عليه بغير فائدة ، إمّا ينسخ أو يُدَرِّس أو يقرأ... ولقد حدثني عنه شيخُنا أبو الفراج الإسفراييني أنه نَزَلَ يومًا إلى داره ورجع ، فقال: قد قرأتُ جُزْءًا في طَرِيقي.

وقال: إنه كان يُحرِّك شَفَتَيه إلى أن يَقُطَّ القَلَم.

وعن أبي هلالٍ العَسْكري(٣) **قَالَ**: وحُكيَ عن ثعلب(٤) أنه كان لا يُفارقه كتابٌ يَدْرُسه ، فإذا دعاه رجلٌ إلى دعوةٍ ، شَرَطَ عليه أن يوسعَ له مِقدارَ مِسْوَرَةٍ يضعُ فيها كتابًا ويقرأ.

*** ولقد وصل بهم الحال إلى أن يكونوا عَجَائِب الزَّمان، وتندر الخلان، حتى يُقرن أحدهم بعجائب الدنيا التي لا تبليها الدُّهُور، ولا تؤثر فيها السُّنُون.**

قَالَ يحيى بن معين: رأيت بمصر ثلاث عَجائب: النيل، والأهرام، وسعيد بن عُفير(٥)، قَالَ الذَّهبي قلت: حسبك أن يحيى إمام المحدثين انبهر لابن عفير.(٦)

قَالَ العباس التّرفقي: خرج علينا سفيان بن عيينة يومًا، فَنَظَرَ إلى أَصْحَابِ الحديث، فقال: أَفِيكُمْ أحدٌ مِنْ أَهْلِ مصر؟ فقالوا: نعم، فقال: ما فَعَلَ فيكم اللَّيث بن سعد؟ فقالوا: تُوفِّي، فقال: أَفِيكُمْ أحدٌ مِنْ أَهْلِ الرَّملة؟ فقالوا: نعم، فقال: ما فعل

---

(١) أي: العشر التي فيها الثمانين (من ٧١ إلى ٧٩).

(٢) تبيين كذب المفتري (٢٦٣).

(٣)كتاب "الحث على طلب العلم" (٧٧).

(٤) أبو العباس اللغوي المعروف بثَعْلَب ت (٢٩١).

(٥) قَالَ الذَّهبي: هو الإمام الحافظ ، العلامة الإخباري الثقة ، أبو عثمان المصري.

(٦) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٨٤).

ضَمْرة بن رَبِيعة الرَّملي؟ قالوا: تُوفِّي، قَالَ: أَفِيكُمْ أحدٌ مِنْ أَهْلِ حِمْص؟ قالوا: نعم، قَالَ: ما فعل بقية بن الوليد؟ قالوا: تُوفِّي، قَالَ: أَفِيكُمْ أحدٌ مِنْ أَهْلِ دِمَشْق؟ قالوا: نعم، قَالَ: ما فعل الوليد بن مُسْلِم؟ قالوا: تُوفِّي، فقال: أَفِيكُمْ أحدٌ مِنْ أَهْلِ قَيْسَارِية؟ قالوا: نعم، فقال: ما فعل محمد بن يوسف الفِرْيابي؟ قالوا: تُوفِّي، قَالَ: فبكى طويلا، ثم أنشد يقول:

خَلَتِ الدِّيَارُ فَسُدْتُ غَيْرَ مَسُوَّدِ وَمِن الشَّقَاءِ تَفَرُّدِي بِالسُّؤْدُدِ[1]

قَالَ الإمام ابن القيم [2]: وحدَّثني شيخنا -يعني ابنَ تيمية- قَالَ: ابتدأني مرضٌ ، فقال لي الطَّبيب: إن مُطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض ، فقلت له: لا أصبر على ذلك ، وأنا أحاكمك إلى علمك ، أليست النَّفس إذا فرحت وسُرَّت وقَوِيت الطبيعةُ فدفعت المرضَ؟ فقال: بلى ، فقلت له: فإن نَفْسِي تُسرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعةُ فأجدُ راحةً ، فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا.. اهـ.

وذكر السَّخاوي [3] عن القاضي شمس الدين بن الديري يقول: سمعتُ الشَّيخَ علاء الدين البِسْطامي -ببيت المقدس- يقول وقد سأله رجل: هل رأيت الشيخ تقيَّ الدين بن تيميَّة؟ فقال: نعم. قلتُ: كيف كانت صِفَتُه؟ فقال: هل رأيتَ قُبَّةَ الصَّخرة؟ قلت: نعم. قَالَ: كان كقُبَّةِ الصَّخرة مُلئت كتبًا لها لسانٌ ينطق!! اهـ.

بل الأعجب والأدهى الجد - أي جد شيخ الإسلام ابن تيمية.

قَالَ ابن القيم -رحمه الله- [4] -وهو يتكلم عن عِشْق العلم-: وحدثني أخو شيخنا - يعني أحمد بن تيمية - عبدُ الرحمن بن تيمية ، عن أبيه (**عبد الحليم**) قَالَ: كان الجَدُّ (**أبو البركات**) إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأْ في هذا الكتاب وارْفَعْ صَوْتَك حتى أسمع. اهـ.

---

(١) أبو نعيم "الحلية" (٧/ ٢٨٩).
(٢) روضة المحبِّين (٧٠).
(٣) (الجواهر والدرر(١/ ١١٧).
(٤) روضة المحبين (٧٠).

وقف بعضُ المتعلِّمين ببابِ عَالمٍ ثُمَّ نَادَى: تَصَدَّقُوا عَلَيْنا بما لا يُتْعِبُ ضِرْسًا ولا يُسْقِمُ نَفْسًا، فأخرج له طعامًا ونفقة. فقال: فَاقتي إلى كَلَامِكم أَشَدُّ مِنْ فَاقَتي إلى طَعَامِكم، إِنِّي طَالِبُ هُدًى لا سَائِلُ نَدًى. فأذن له العَالم وأفاده من كُلِّ ما سَأَلَ عَنْهُ فخرج جذلًا فرحًا، وهو يقول: عِلْمٌ أَوْضَحَ لَبْسًا، خَيْرٌ مِنْ مَالٍ أَغْنَى نَفْسًا.(١)

قَالَ أبو الوليد الباجي (٢):

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينًا ... بِأَنَّ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاعَةْ
فَلِمَ لَا أَكُونُ ضَنِينًا بِهَا ... وَأَجْعَلُهَا فِي صَلَاحٍ وَطَاعَةْ

*****

(١) أدب الدنيا والدين (٤٣).
(٢) ترتيب المدارك: (٨/ ١٢٥).

الأدب في الطَّلب

*** ولابد لطالب العلم من آداب في نفسه، تعينه على ثبات عِلْمِه ونشره:**

عن المهدي أبي عبد الله قَالَ: سمعت سفيان الثوري، يقول: كان يقال: أَوَّلُ العِلْمِ الصَّمت، والثاني: الاستماع له وحفظه، والثالث: العمل به، والرابع: نشره وتعليمه. (١)

عَن ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: كَادَ الخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ. لَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَفْدُ بَنِي تَمِيمٍ ؛ أَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ التَّمِيمِيِّ الحَنْظَلِيِّ -أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ - وَأَشَارَ الآخَرُ بِغَيْرِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: إِنَّمَا أَرَدْتَ خِلَافِي، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَتْ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَظِيمٌ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَكَانَ عُمَرُ بَعْدُ ؛ إِذَا حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ بِحَدِيثٍ حَدَّثَهُ كَأَخِي السِّرَارِ، لَمْ يُسْمِعْهُ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ. (٢)

وهذا عبد العزيز بن مروان - والد عمر بن عبد العزيز -بعث ابنه عمر إلى المدينة يتأدبُ بها، وكتب إلى صالح بن كيسان يتعاهده، وكان يلزمه الصَّلوات، فأبطأ يومًا عن الصَّلاة فقال: ما حبسك؟ قَالَ: كَانَتْ مُرَجِّلَتي تُسَكِّن شَعْرِي، فقال: بلغ من تَسْكِين شَعْرِكَ أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى الصَّلاة. وكتب بذلك إلى والده فبعث عبد العزيز رسولًا إليه ؛ فما كلَّمه حتى حلق شعره. (٣)

قَالَ مالك بن أنس: وحُق على من طَلَبَ العِلْمَ أن يكون له وقار وسكينة وخشية، والعِلْم حسن لمن رُزِق خيره، وهو قَسْمٌ من الله، فلا تمكن النَّاس من نفسك،

---

(١) أبو نعيم "الحلية" (٦/ ٣٦٢).

(٢) رواه البخاري (٧٣٠٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٦).

فإن من سعادة المرءِ أن يُوفق للخيرِ، وإن من شِقْوَةِ المرء أن لا يزال يخطئ، وذُلٌّ وإِهَانَةٌ للعِلْمِ أن يتكلم الرجلُ بالعلمِ عند من لا يطيعه.(١)

قَالَ القعنبي: سمعت مالك بن أنس يقول: كان الرَّجل يختلف إلى الرَّجُلِ ثلاثين سنة يتعلم منه.(٢)

قَالَ ابْنُ المبَارَكِ: لَو لَمْ يُؤْتَ مَخْلَد بن حُسين إلا ليعلم منه الأدب، كان يَنْبَغِي أَنْ يُؤتى.(٣)

قَالَ زكريا العنبري: عِلْمٌ بِلَا أَدَب كَنَارٍ بِلا حَطَب، وَأَدَبٌ بِلَا عِلْم كَرُوحٍ بِلَا جِسْم.(٤)

قَالَ الحسن: إن كان الرَّجُل ليخرج في أَدَبِ نَفْسِهِ السَّنَتَيْن ثُمَّ السَّنَتَيْن.(٥)

قَالَ عبد الله بن المبارك: طَلَبْنا الأدبَ حين فاتنا المؤدِّبون.(٦)

وعن عبد الرحمن بن مهدي قَالَ: رأيت رجلًا جاء إلى مالك بن أنس يسأله عن شيءٍ أيامًا ؛ ما يجيبه! فقال: يا أبا عبد الله إني أريد الخروج، قَالَ: فَأَطْرَقَ طَوِيلًا ثم رفع رأسه وقال: ما شاء الله يا هذا! إِنِّي إِنَّمَا أَتَكَلَّم فِيمَا أَحْتَسِب فِيه الخير، وليس أُحْسِنُ مَسْأَلَتَك هَذِه.(٧)

وعن ابن مهدي قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ مَالِكًا عَنْ مَسْأَلَةٍ، فقال: لا أُحْسِنها، فقال الرجل: إني ضَرَبتُ إِلَيك من كَذا وكذا لأسألك عنها، فقال له مالك: فَإِذَا رجعت إلى مَكَانك، وموضعك فأخبرهم أني قد قلت لك: إني لا أُحْسِنها.(٨)

---

(١) أبو نعيم "الحلية" (٦/ ٣٢٠).
(٢) أبو نعيم "الحلية" (٦/ ٣٢٠).
(٣) ابن شاهين في الثقات ص(٢٣٣).
(٤) الخطيب في الجامع (١٢).
(٥) ابن جماعة في التذكرة ص(٢).
(٦) أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٦٩).
(٧) أبو نعيم "الحلية" (٦/ ٣٢٣).
(٨) أبو نعيم "الحلية" (٦/ ٣٢٣).

فقد كان من هدي السَّلف ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ التَّرَوِّي في طلب العلم ولا ينشرونه إلا بقدر حاجةِ النَّاس إليه ليظلَّ عَزِيزًا عند أهله.

قَالَ سُفْيان الثَّوري: مَنْ حدّث قبل أن يحتاج إليه ذَلَّ. (١)

وَقَالَ أيضًا: إذا ترأس الرَّجُل سَرِيعًا أَضَرَّ بِكَثِيرٍ من العلم، وإذا طَلَب وطَلَب بلغ. (٢)

وعن عبد الرحمن بن مهدي قَالَ: كان يقال: إذا لقي الرَّجُلُ الرَّجُلَ فوقه في العلم، فهو يوم غنيمته، وإذا لقي من هو مثله دارسه وتعلم منه، وإذا لقي من هو دُونه تواضع له وعلَّمه. (٣)

وَقَالَ سُفْيان الثَّوري: لا نَزَالُ نَتَعَلَّم العِلْمَ مَا وَجَدْنَا مَنْ يُعَلِّمنا.

وعن زيد بن الحباب قَالَ: سمعت سفيان الثَّوري وسأله شيخ عن حديثٍ فَلَمْ يجبه، قَالَ: فَجَلَسَ الشَّيخُ يبكي، فقام إليه سفيان فقال: يا هذا! تريد ما أخذته في أربعين سنة أن تأخذه أنت في يومٍ واحد. (٤)

قَالَ أبو داود: كنت يومًا بباب شعبة، وكان المسجد مِلأً فخرج شعبة فاتّكأ علي، وقال: يا سُليمان! ترى هؤلاء كلهم يخرجون مُحَدِّثين؟ قلت: لا، قَالَ: صَدَقْت، ولا خمسة! يكتب أحدهم في صغره ثم إذا كبر تركه، أو يشتغل بالفساد. ثم نظرت بعد ذلك فما خرج منهم خمسة. (٥)

قَالَ الشّافِعي: فالواجب على العالمين أن لا يقولوا إلا من حيث علموا، وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه؛ لكان الإمساك أولى به، وأقرب

---

(١) أبو نعيم "الحلية" (٦/ ٣٦٣).

(٢) أبو نعيم "الحلية" (٧/ ٨١).

(٣) حلية الأولياء (٩/ ٤).

(٤) أبو نعيم "الحلية" (٦/ ٣٦٥).

(٥) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٥).

من السلامة له إن شاء الله.(١)

يقول ابن القيم رحمه الله في نونيته:

هَذَا وَإِنِّي بَعْدُ مُمْتَحَنٌ بِأَرْ ... بَعَةٍ وَكُلُّهُمُ ذَوُو أَضْغَانِ
فَظٌّ غَلِيظٌ جَاهِلٌ مُتَمَعْلِمٌ ... ضَخْمُ العِمَامَةِ وَاسِعُ الأَرْدَانِ
مُتَفَيْهِقٌ مُتَضَلِّعٌ بِالجَهْلِ ذُو ... صَلَعٍ وَذُو جَلَحٍ من العِرْفَانِ
مُزْجِي البِضَاعَةِ فِي العُلُومِ وَإِنَّهُ ... زَاجٍ من الإِيهَامِ وَالهَذَيَانِ
يَشْكُو إِلَى الله الحُقُوقَ تَظَلُّمًا ... من جَهْلِهِ كَشِكَايَةِ الأَبْدَانِ
من جَاهِلٍ مُتَطَبِّبٍ يُفْتِي الوَرَى ... وَيُحِيلُ ذَاكَ عَلَى قَضَا الرَّحْمَنِ
عَجَّتْ فُرُوجُ الخَلْقِ ثُمَّ دِمَاؤُهُمْ ... وَحُقُوقُهُمْ مِنْهُ إِلَى الدَّيَّانِ
مَا عِنْدَهُ عِلْمٌ سِوَى التَّكْفِيرِ ... والتـبْدِيعِ والتَّضْلِيلِ والبُهْتَانِ

وقال قتادة: مَنْ حَدَّثَ قَبْلَ حِينِهِ افْتَضَحَ في حِينِهِ.(٢)

*** ولقد كان من هدي السَّلف رحمهم الله، طُول الملازمة للمشايخ مع حسن الأدب:**

قَالَ مَعْمَر: سمعت الزُّهْرِي يقول: إن كنت لآتي باب عروة ؛ فأجلس ثم أنصرف ولا أدخل، ولو أشاء أن أدخل لدخلت إعظامًا له. وقال سمعت الزُّهْرِي يقول: مَست رُكْبَتِي ركبة سعيد بن المسيب ثماني سنين.(٣)

قَالَ الزُّهْرِي: كنا نأتي العالم ؛ فما نَتَعَلَّمُ مِنْ أَدَبِهِ أَحَبّ إلينا من عِلْمِهِ.(٤)

---

(١) الرسالة (٤١).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٣٢٢).
(٣) أبو نعيم الحلية(٣/ ٣٦٢).
(٤) أبو نعيم "الحلية" (٣/ ٣٦٢).

وقال معاذ بن سعد: كنت جالسًا عند عطاء، فحدَّث بحديثٍ فعرض رجل له في حديثه فغضب عطاء، وقال: ما هذه الأخلاق؟! وما هذه الطَّبائع؟! والله إني لأسمع الحديث من الرَّجُلِ وأنا أعلم به منه؛ فأريه أني لا أحسن شيئًا منه. (١)

وقال ابن وهب: ما نقلنا من أَدَبِ مَالِكٍ أكثر مما تعلمنا من عِلْمِهِ. (٢)

قَالَ أبو الدَّرداء: مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ مَمْشَاه، ومَدْخَلُه، ومَخْرَجُه، ومجلسه مع أَهْلِ العِلْم. (٣)

قَالَ أحمد بن سِنان: كان لا يُتَحَدَّثُ في مجلسِ عبد الرحمن، ولا يُبْرَى قَلَمٌ ولا يَتَبَسَّمُ أحدٌ ولا يقوم أحدٌ قائمًا، كأن على رُؤُوسهم الطَّير، أو كأنهم في صلاة، فإذا رأى أحدًا منهم تبسَّم أو تحدَّث؛ لبس نعله وخرج. (٤)

قَالَ سفيان الثوري لسفيان بن عيينة: مَا لَكَ لا تحدث؟ فقال: أَمَّا وَأَنْتَ حَيٌّ فَلَا.. (٥)

قَالَ أبو إسحاق الجوزجاني: سمعت يحيى بن معين يقول: الذي يحدث ببلد به من هو أولى بالتَّحْدِيثِ مِنْهُ أَحْمَق وإِذَا رَأَيتني أُحدِّث ببلدٍ فيها مثل أبي مِسْهَر فينبغي للحيتي أن تُحْلق (٦)، (٧)

وقيل إن أبا نُعيم الحافظ ذُكِرَ لَه ابن مَنْدَة، فقال: كان جبلًا من الجبال. فهذا يقوله أبو نُعيم مع الوحشةِ الشَّديدة التي بينه وبينه. (٨)

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٠٨).
(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ١١٣).
(٣) أبو نعيم "الحلية" (١/ ٢١١).
(٤) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٠١).
(٥) الرامهرمزي "المحدث الفاصل" (٣٥٢).
(٦) أي تعزيرا وأدبا. وانظر كيف يعتبرون حلق اللحية تعزيرا وأدبا !!.
(٧) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٣١).
(٨) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٢).

*** وهذا شعبة لما يسمع صوت الأقلام على الألواح أراد أن يلمح لطلابه مسألة في الأدب مُعَرِّضًا لها دون تصريح، فلما لم يدركوا مراد شيخهم ترك التحديث:**

قَالَ الأصمعي: كنا عند شعبة فجعل يسمع -إذا حدث - صوت الألواح، فقال: السَّماء تمطر؟ قالوا: لا، ثم عاد للحديث فسمع مثل ذلك، فقال: المطر؟ قالوا: لا، ثم عاد فسمع مثل ذلك، قَالَ: والله لا أحدِّث اليوم إلا أَعْمَى، فمكث ما شاء الله، فقام أَعْوَرٌ فقال: يا أَبَا بِسْطَام تخبرني أنا.(١)

ورحل يحيى بن يحيى إلى مالكٍ وهو صغير، وسمع منه وتفقه بالمدنيين والمصريين من كبار أصحاب مالك، وكان مالكٌ يعجبه سمته وعقله، وروي أنه كان يومًا عند مالك في جُمْلَةِ أَصْحابِهِ، إذا قَالَ قَائِلٌ: قد حضر الفِيل فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه، فقال له مالك: لم لا تخرج فترى الفيل؟ لأنه لا يكون بالأندلس! فقال له يحيى: إنما جِئْتُ من بلدي لأنظر إليك، وأتعلم من هَدْيِك وعِلْمِك، ولم أجئ لأنظر إلى الفيل، فَأُعْجِب به مالك، وسمّاه عاقل أهل الأندلس، وانتهت إليه الرياسة في العلم بالأندلس.(٢)

قال محمد بن رافع: كنت مع أحمد وإسحاق عند عبد الرَّزاق، فجاءنا يوم الفطر فخرجنا مع عبد الرَّزاق إلى المصلى ومعنا ناس كثير، فلما رجعنا دعانا عبد الرَّزاق إلى الغداء ثم قَالَ لأحمد وإسحاق رأيت اليوم منكما عجبًا لم تكبرا! فقال أحمد وإسحاق: يا أبا بكر كنا ننتظر هل تكبر فنكبر ؛ فلمّا رأيناك لم تكبر أمسكنا، قَالَ: وأنا كنت أنظر إليكما هل تكبران فأكبر.(٣)

قَالَ أبو حاتم الرازي: كان ابن المديني علمًا في النَّاس في معرفة الحديث والعلل،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٥).

(٢) طبقات الفقهاء (١/ ١٥٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٩/ ٥٦٦).

وكان أحمد بن حنبل لا يسميه ؛ إنما يكنيه تبجيلا له، ما سمعت أحمد سمّاه قط. (١)

*** ولا بد أن يكون طالبُ العلم عفيفًا، متغافلًا عمّا في أيدي النَّاس ليصون علمه ويحفظه:**

قَالَ الفضل بن عمر النَّسوي: كنت بجامع صور عند الخطيب -البغدادي، فدخل عليه عَلَويٌ وفي كُمِّه دنانير فقال: هذا الذَّهب تصرفه في مهماتك، فقطب الخطيب وقال: لا حاجة لي فيه، فقال: كأنك تستقله! ونفض كمه على سجادة الخطيب، وقال: هي ثلاث مائة دينار، فخجل الخطيب وقام، وأخذ سجادته وراح، فما أنسى عِزَّ خروجه، وذُلَّ العَلَوِيِّ وهو يجمع الدَّنَانير . (٢)

وهذا ابن أبي الطَّيب العلامة المفسر، حمل إلى السَّلطان محمود بن سبكتكين ليسمع وعظه، فلما دخل جلس بلا إذن، وأخذ في رواية حديثٍ بلا أمر، فتنمر له السُّلطان، وأمر غلامًا فلكمه لكمةً أطرشته، فعرَّفه بعضُ الحاضرين منزلته في الدِّين والعِلم، فاعتذر إليه وأمر له بمالٍ فامتنع، فقال: يا شيخ إن للمُلك صولة، وهو محتاج إلى السياسة، ورأيت أنك تعديت الواجب، فاجعلني في حِلٍّ، قَالَ: الله بيننا بالمرصاد، وإنما أحضرتني للوعظ وسماع أحاديث الرسول ﷺ وللخشوع، لا لإقامة قوانين الرئاسة، فخجل الملك، واعتنقه.(٣)

وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي: كان عطاء بن أبي رباح عَبدًا أسودَ لامرأةٍ من أهل مكة، وكان أنفه كأنه باقلاة، قَالَ: وَجَاءَ سُليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه، فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى انفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حول قفاه إليهم، ثم قَالَ سُليمان لابنيه: قوما، فقاما، فقال: يا ابني

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٣).

(٢) تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٣٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٧٤).

لاتنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذُلَّنا بين يدي هذا العبد الأسود .[١]

جاء ابن لسليمان بن عبدالملك، فجلس الى جنب طاووس، فلم يلتفت إليه فقيل له: جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت اليه! قَالَ: أردت أن يعلم أن لله عبادًا يزهدون فيما في يديه.[٢]

*****

(١) صفة الصفوة (٢/ ٢١٢).

(٢) أبو نعيم "الحلية" (٤/ ١٦).

آفات طلب العلم

والمعَوِّقَاتُ في طَلَبِ العِلْمِ كثيرة، ويندر أن ينجو منها إلا من اصطفاه الله وأنزله هذه المنزلة الرفيعة، وأعانه على بلوغ الغاية، فكما مَرَّ سابقًا ما رأينا عَالما إلَّا وذاق المرَّ وتجَرَّعَ الحَنْظَل حتى وصل إلى المكانة التى هو عليها.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: ٢٤] .

*** وربما امتنع الكثير عَنْ طَلِب العلم لتعذر المادة، وشغله باكتسابها عن التماس العلم:**

وهذا وإن كان أعذر من غيره مع أنه أقل ما يكون ذلك إلا عند ذي شره وعيب وشهوة مستعبدة، فينبغي أن يُصْرَف إلى العلم حظًا من الزمان.فليس كُلُّ الزَّمان زمان اكتساب. ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة. ومن صَرَفَ كُلَّ نفسه إلى الكسب حتى لا يترك لها فراغًا إلى غيره فهو من عبيدِ الدُّنيا وأُسَرَاءِ الحرص.

*** وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته، وبعد غايته، ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته:**

وهذا الظَّنُّ اعتذارُ ذَوي النَّقص وخيفة أهل العجز، لأن الاختبار قبل المذاكرة جهل، والخشية قبل الابتلاء عجز. وقد قيل:

لَا تَكُونَنَّ لِلْأُمُورِ هَيُوبًا فَإِلَى خَيْبَةٍ يَصِيرُ الْهَيُوبُ

عن الحسن قَالَ: جاء رجل إلى أبي الدرداء، فقال: إني أريد أن أطلب العلم وأخاف إذا علمت أن أضيعه، فما ترى؟ قَالَ: إن الله عز وجل يبعث النَّاس على عَمَلِهم فَلَأن تُبعث عَالما خير من أن تُبعث جَاهِلًا، قَالَ: ثم أَتَى أبا ذر، فقال: إني أريد أن أطلب

العلم، وأخاف إذا علمت أن أضيعه، قَالَ لأن تَفْتَرِش العلم خير من أن تفترش الجهل، ثم أتى أبا هريرة فقال: إني أريد أن أطلب العلم وأخاف إذا علمت أن أضيعه، فما ترى؟ قَالَ: كفى بترك العلم إضاعة.(١)

وليس وإن تفاضلت الأذهان وتفاوتت الفطن، ينبغي لمن قَلَّ حظُّه أن ييأس من نيل القليل وإدراك اليسير الذي يخرج به من حَدِّ الجهالة إلى أدنى مراتب التخصيص، فإن الماء مع لينه يؤثر في صُمِّ الصُّخُورِ ؛ فكيف لا يؤثر العلم الزَّكي في نفسٍ راغبٍ شَهِي، وطَالِبٍ خَلِي، لا سيما وطالبُ العلمِ مُعَانٌ.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا ؛ سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ**».(٢)

ومن أعظم الآفات مخالطة السُّفهاء ؛ ممن يُنَفِّر عَنْ طَلِب العلم، ويقنع بالدُّون من أمر الآخرة ويسابق في أمر الدنيا، فمجلسه وهيئته ومكانته تصور لضعاف العقول وقاصري النظر أنهم هم المقتدى بهم، فإن جلسوا فلهم في المجلس الصَّدارة، وإن تكلموا فبتشدقٍ ومهارة، وادّعاء للمعرفة وتفنن في العبارة، فإذا رأوا طالب علمٍ استثقلوه وسفَّهوه، وأغروا به وعَيَّرُوه، فهم جرآءُ على التَّكَلُّمِ بالباطل، فرؤية هؤلاء بلاء ومخالطتهم تُفْتِّتُ عَزِيمةَ الأقوياء وتقعد بالنشطاء ؛فكيف بمن هم ضعاف، تتردد في نفوسهم الأهواء، فالوقيعة بهم أعظم.

فهؤلاء لا يرجى لهم صلاح ولا يؤمَّل لهم فلاح لأن من اعتقد أَنَّ العلم شَيْن وأَنَّ تركه زَيْن كان ضلاله مستحكمًا ورشاده مستبعدًا.

فهذه الطائفة التي تنفر عن العلم هذا النفور، وتعاند أهله هذا العناد ؛ لا حَظَّ لها

---

(١) مجلس إملاء لمحمد بن عبد الواحد الأصبهاني (٣٥٤).

(٢) حسن بشواهده: رواه الترمذي (٢٦٨٢) وأبو داود (٣٦٤١) وابن ماجة (٢٢٣) وأحمد (٥/١٩٦).

في خير قط.

*** فليحذر العبد من مجالسة هؤلاء فهم داء لا دواء له وشوك لا ثمر فيه:**

عَنْ أَبِي مُوسَى ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ المِسْكِ وَكِيرِ الحَدَّادِ؛ لَا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ المِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً». (١)

*****

(١) رواه البخاري (٢١٠١) ومسلم (٢٦٢٨).



عبادات خارجة

عبادات خارجة

وهي:

رابعًا : «عبادات مالية»

أولاً : البيع والشراء

البيع والشراء حلال بالكتاب والسُّنة والإجماع قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥].

وقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ [سورة النساء: ٢٩].

وَعَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ـ رضي الله عنه ـ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا، مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**».[1]

وهما من أجلِّ العبادات وأعظمها، فقد فصلها الشَّرع وبينها أعظم بيان، إذ نظم الشَّرع معاملات العباد بعضهم مع بعض، ولو تُرك الأمر بلا شرع ؛ لأكل النَّاسُ بعضهم أموال بعضٍ، واعتدى النَّاسُ بعضهم على بعض، فكان من حكمة الله سبحانه وتعالى أن تنظم هذه المعاملات بين الخلق، لئلا ترجع إلى أهوائهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [سورة النساء: ٢٩].

(١) رواه البخاري (٢٠٨٢) ومسلم (١٥٣٢).

*** والتِّجارة من أعظم أسباب جلب الرِّزق، لمن انضبط فيها بشرع الله سبحانه وتعالى:**

عَنْ أَنَسٍ - رضي الله عنه - قَالَ: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ المدِينَةَ فَآخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ - وَكَانَ سَعْدٌ ذَا غِنًى - فَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: أُقَاسِمُكَ مَالِي نِصْفَيْنِ، وَأُزَوِّجُكَ، قَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ، فَمَا رَجَعَ حَتَّى اسْتَفْضَلَ أَقِطًا وَسَمْنًا، فَأَتَى بِهِ أَهْلَ مَنْزِلِهِ، فَمَكَثْنَا يَسِيرًا أَوْ مَا شَاءَ الله، فَجَاءَ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ من صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَهْيَمْ!» قَالَ: يَا رَسُولَ الله تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً من الْأَنْصَارِ، قَالَ: «مَا سُقْتَ إِلَيْهَا؟» قَالَ: نَوَاةً من ذَهَبٍ أَوْ وَزْنَ نَوَاةٍ من ذَهَبٍ، قَالَ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ».(١)

*** وقد حذَّر سبحانه وتعالى من الانشغال بالتِّجارة ؛ لأنها من محاب النَّفس ؛ فتُعَطِّلُ عن سير الآخرة:**

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ من الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة التوبة: ٢٤].

وقال تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ من اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَالله خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سورة الجمعة: ١١].

قَالَ أَبُو دَاوُد: كَانَ إِبْرَاهِيمُ الصَّائِغُ رَجُلًا صَالِحًا - قَتَلَهُ أَبُو مُسْلِمٍ بِعَرَنْدَسَ - وَكَانَ إِذَا رَفَعَ المطْرَقَةَ فَسَمِعَ النِّدَاءَ سَيَّبَهَا.(٢)

---

(١) البخاري (٢٠٤٩).

(٢) أبو داود عند الحديث (٣٢٥٤).

*** وقد وُضِعَ في البيع والشِّراء قواعد، وضوابط ينضبط بها العبد، والأصل في ذلك الورع:**

قَالَ عبد الرحمن الأحول: سمعت ابن المبارك يقول: بينا أنا في مرحلة بين الكوفة ومكة إذ جاءني رجلٌ معه حبل قَتٍّ، فجلس بين يدي، فقال: يا أبا عبد الرحمن! أنا في هذه القرية ليس فيها حانوت غير حانوتي، يمر بي المار، فلو أبيت بهذا الحبل إلا مائة درهم ؛ لم يجد بدًا من أن يشتريه منى، أفأبيعه؟ قَالَ: فالتفتُّ إلى رُفقائي، فقلت: شُدُّوا مَتَاعكم، قَالَ: فارتحلت ؛ ولم أُجِبْه بشيءٍ، قَالَ: فلما صرنا في المرحلة الأخرى، قلت لرفقائي: تدرون لم سكتُّ عن صَاحِبِ الحبل، قالوا: لا، قَالَ: كَرِهْتُ أن أقول له: لا تبعه، فَأُحَرِّمُ عليه شيئًا قد أحلَّه الله عز وجل له، وكَرِهْتُ أن أقول له: بعه ؛ فيقطع أيدي النَّاس وأرجلهم بكلامي، فارتحلت وسَكَتُّ.(١)

كتب غلام حسان بن أبي سنان إليه من الأهواز، أن قَصَبَ السُّكرِ أصابته آفة ؛ فاشتر السُّكَّر فيما قبلك ، فاشتراه من رجلٍ فلم يأت عليه إلا قليل ؛ فإذا فيما اشترى ربح ثلاثين ألفًا، فأتى صاحب السُّكر، فقال: يا هذا إن غلامي كتب إلي ولم أُعْلِمك، فأقلني فيما اشتريته منك، قَالَ الآخر: قد أعلمتني الآن وطيَّبته لك، فرجع ولم يحتمل قلبه، فأتاه، وقال: يا هذا إني لم آت هذا الأمر من قبلِ وجهه ؛ فأُحِبُّ أن تَسْتَرِدَّ هذا البيع، فما زال به حتى ردَّه عليه.(٢)

وأقبل نفر من أصحاب حسّان بن أبي سنان تجارا في سفينة في النَّهر، فتلقتهم سفينةٌ تحمل الأرز ؛ فاشتروا ذلك الأرز كُلَّه، فقال بعضهم: اجعلوا لحسان سهمًا كسهم رجلٍ منّا ففعلوا، فباعوا ذلك الأرز فربحوا آلاف الدَّراهم، فأصاب كُلُّ إنسان ألفين، فعمدوا إلى ألفي حسّان فجعلوها في كيس، ثم أتوه بها فأخبروه بخبرها، فقال لهم: أرأيتم لو

---

(١) ابن أبي حاتم "الجرح والتعديل" (١/ ٢٧٩).
(٢) أبو نعيم الحلية (٣/ ١١٨).

بعتم هذا الأرز بوضيعة[١] ؛ كانت تلزمني الوضيعة معكم، قالوا: لا، قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بها.[٢]

وعن سهل بن عبد الله قَالَ: سُئِلَ ابن المبارك عن الرَّجل يريد أن يكتسب وينوي باكتسابه أن يصل به الرَّحم، وأن يجاهد ويعمل الخيرات، ويدخل في آفات الكسب لهذا الشّأن، قَالَ: إن كان معه قَوَامٌ من العيش بمقدار ما يَكُفُّ نفسه عن النَّاس فترك هذا أفضل، لأنه إذا طلب حلالًا وأنفق في حلالٍ، سئل عنه، وعن كسبه، وعن إنفاقه، وترك ذلك زهد، فإن الزُّهد في ترك الحلال.[٣]

*****

(١) أي بنقص..
(٢) أبو نعيم الحلية(٣/ ١١٨).
(٣) القرطبي (٣/ ٣٢١).

ثانيا: الزّكاة والصدقة

والزّكاة لغة: النَّماء والزِّيادة، ويقال: زكا الزَّرع إذا نما وزاد.

وشرعًا: نصيبٌ مقدرٌ شرعًا في مالٍ معين، يُصرف لطائفةٍ مخصوصة.

*** والصَّدقةُ أعمُّ من الزّكاة، إذ هي في الواجب والمستحب، فكل بابٍ شُرع الإنفاق فيه فهو صدقة:**

وهي تتعلق بالزّكاة المفروضة وكلُّ سُبل الإنفاق في سبيل الله، وهي عبادةٌ تتعلق بأموال العبد، وهي من أجلِّ العبادات التي تزكي النفوس وتهذبها وتربيها، فهي من تمام إسلامِ العبدِ وإيمانه، فهي أحدُ أركان الإسلام، فإذا قام بها العبد فقد تمت عبادته وصلحت، وهي من تمامِ انشراحِ الصَّدرِ ؛ وخاصة كُلَّما قدَّمها العبد بطيب نفسٍ وسخاء، وتربط بين أفرادِ المسلمين فتجعلهم كأُسرةٍ واحدةٍ، وتُطفئ حرارة ثورة الفقراء وغضبهم على الأغنياء ؛ وقد ورد الوعيد الشديد في حقِّ تاركها قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [سورة التوبة: ٣٤ - ٣٥].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ آتَاهُ الله مَالًا ؛ فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذين يَبْخَلُونَ﴾** » [سورة آل عمران: ١٨٠] الْآيَةَ.(١)

ومنها صدقات التطوع، وهي من أحب العبادات إلى الله، وقد حث عليها

---

(١) رواه البخاري (١٤٠٣) ومسلم (٩٨٧).

الشرع وندب إليها، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ الله قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَالله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٥].

وقال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ من قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالمونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٤].

وبين سبحانه أن من صفات المسارعة كثرة الإنفاق، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ من رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِين يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَالله يُحِبُّ المحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

*** وجعل الله سبحانه وتعالى المنفق من السَّبعة الَّذين يُظلهم الله يوم القيامة:**

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ؛ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».(١)

وبين النَّبيُّ ﷺ أن ثمرة المتصدق تعود عليه خيرًا في الدُّنيا والآخرة، وأما البخيل فضيق في الدنيا والآخرة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالمتَصَدِّقِ ؛ مَثَلُ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ من حَدِيدٍ، قَدْ اضْطَرَّتْ أَيْدِيَهُمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَكُلَّمَا هَمَّ المتَصَدِّقُ بِصَدَقَتِهِ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ حَتَّى تُعَفِّيَ أَثَرَهُ، وَكُلَّمَا هَمَّ الْبَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ انْقَبَضَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ

(١) رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).

إِلَى صَاحِبَتِهَا وَتَقَلَّصَتْ عَلَيْهِ، وَانْضَمَّتْ يَدَاهُ إِلَى تَرَاقِيهِ، فَيَجْتَهِدُ أَنْ يُوَسِّعَهَا فَلَا تَتَّسِعُ». (١)

*** ولقد ضَرَبَ الصَّحابةُ أعظم المثل في الإنفاق والصَّدقة - رَضِيَ الله عَنْهُم:**

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه - قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالمدِينَةِ مَالًا من نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ من مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لله، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ الله، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ الله حَيْثُ أَرَاكَ الله، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ**»، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ. (٢)

وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الله الْبَجَلِي قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ، أَوْ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ من مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ من مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ من الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: «**﴿يَا أَيُّهَا النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ من نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، ﴿إِنَّ الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ ﴿اتَّقُوا الله وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا الله﴾، تَصَدَّقَ رَجُلٌ من دِينَارِهِ، من دِرْهَمِهِ، من ثَوْبِهِ، من صَاعِ بُرِّهِ، من صَاعِ تَمْرِهِ، حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»، قَالَ: فَجَاءَ

---

(١) رواه البخاري (٢٩١٧) ومسلم (١٠٢١).

(٢) رواه البخاري (١٤٦١) ومسلم (٩٩٨).

رَجُلٌ من الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاس، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ من طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ الله ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، من غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ من أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا من بَعْدِهِ، من غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ من أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**».(١)

جاء رجلٌ إلى عبد الله بن المبارك فسأله أن يقضى دينا عليه، فكتب إلى وكيل له، فلما ورد عليه الكتاب، قَالَ له الوكيل: كم الدَّين الذي سألت فيه عبد الله أن يقضيه عنك؟ قَالَ: سبعمائة درهم، فكتب إلى عبد الله أن هذا الرجل سألك أن تقضي عنه سبعمائة درهم، وكتبت له سبعة آلاف درهم، وقد فنيت الغلات، فكتب إليه عبد الله: إن كانت الغلات قد فنيت، فإن العمر أيضا قد فني، فأجز له ما سبق به قلمي.(٢)

أفضل الإنفاق

وأفضل الإنفاق، وأقرب الصَّدقات، وأعظم القُرُبات؛ ما تقرب به العبد في نشر العلم والإعانة عليه، وأن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدُّنيا المتجردين لتجارة الآخرة؛ الَّذِين يستعينون بهذه الصَّدقة على طاعة الله، فتكون شريكًا لهم في طاعته سبحانه وتعالى بإعانتك إياهم، فإن همم هؤلاء لله؛ فإن طرقتها فاقة تشتَّتَ هَمُّه، فلئن تَرُدَّ هَمَّ أحدهم إلى الله تَعَالَى؛ خيرٌ لك من أن تُعْطِي ألفًا ممن همته الدُّنيا، فالعلم أشرف العبادات، وأصحابه مشغولون به، فإن انقطعوا لغيره ضيَّعوه، فهم أولى أن تنفق لهم الأموال، ويبذل لهم الفضل، وتتجه إليهم القلوب؛ لأن الكُلَّ عنهم غافل، فهم مستترون مخفيون، لا يكثرون البث والشَّكوى، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ من

(١) رواه مسلم (١٠١٧).
(٢) تاريخ بغداد (١٠/١٥٨).

التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاس إِلْحَافًا﴾ [سورة البقرة: ٢٧٣].

*** ولقد بين النَّبيّ ﷺ أنه لا حسد في مال إلا لمنفق أنفق ماله وأهلكه في الحقِّ:**

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: **«لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»**. (١)

فانظر كيف قَرَن النَّبيُّ ﷺ بين العلم والنَّفَقة في من يستحق أن يغبطه النَّاس ويستوجب الحسد ؛ من رزق بركة العلم فهو أعلى الدَّرجات وفي من ينفق ماله في الحقِّ، وليس هناك حق أفضل من الإنفاق على طلبة العلم، وفي نشر العلم.

وقال إسماعيل بن عياش: قلت لعبد الله بن عثمان بن خُثَيْم: ما كان معاش عطاء بن أبي رباح قَالَ: صِلَةُ الإِخْوَان. (٢)

وقال إسماعيل بن عياش: قلت لعطاء الخراساني: مِنْ أَيْنَ مَعَاشُك؟ قَالَ: مِنْ صِلَةِ الإِخْوَان. (٣)

ولقد كان ابن المبارك يتجر ويقول: لَوْلَا خَمْسَةٌ مَا تَجِرْتُ ؛ السُّفيانان، وفضيل بن عياض، وابن السَّماك، وابن علية، فيصلهم، فقدم ابن المبارك سنة فقيل له: قد ولى ابن عُلَيَة القضاء فلم يأته ؛ ولم يصله، فركب إليه ابن علية فلم يرفع به رأسا، فانصرف. فلما كان من الغد، كتب إلى عبد الله رقعة يقول: قد كنت منتظرًا لبرك وجئتك فلم تكلمني، فما رأيت مني فقال ابن المبارك: يأبى هذا الرجل إلا أن نقشر له العصا ثم كتب إليه:

يَا جَاعِلَ الْعِلْمَ لَهُ بَازِيَا ... يَصْطَادُ أَمْوَالَ المسَاكِينِ
احْتَلْتَ لِلدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا ... بِحِيلَةٍ تُذْهِبُ بِالدِّينِ

---

(١) رواه البخاري (٧٣) ومسلم (٨١٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٤).
(٣) ميزان الاعتدال (٣/ ٧٤).

فَصِرْتَ مَجْنُونًا بِهَا بَعْدَمَا كُنْتَ دَوَاءً لِلْمَجَانِينِ
أَيْنَ رِوَايَاتُكَ فِيمَا مَضَى عَنِ ابْنِ عَوْنٍ وَابْنِ سِيرِينِ
وَدَرْسُكَ العِلْمَ بِآثَارِهِ فِي تَرْكِ أَبْوَابِ السَّلَاطِينِ
تَقُولُ أُكْرِهْتَ فَمَاذَا كَذَا زَلَّ حِمَارُ العِلْمِ فِي الطِّينِ
لَا تَبِعِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا كَمَا يَفْعَلُ ضُلَّالُ الرَّهَابِينِ

فلما قرأها، قام من مجلس القضاء فوطئ بساط هارون الرشيد وقال: الله الله ارحم شيبتي فإني لا أصبر على الخطأ، فقال: لعل هذا المجنون أغرى عليك، ثم أعفاه فوجه إليه ابن المبارك بالصرة.[1]

*****

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ١١٧).

ثالثًا: النذر

والنَّذر لغة: هو ما يُوجِبه العبد على نفسه، وهو الوعد على شرط.

والنذر شرعًا: هو ما أوجبه العبد على نفسه شرعًا من عبادةٍ أو صدقةٍ أو غير ذلك.

والنَّذر عبادة ؛ الإخلاص فيها عزيز، وصَرْفُهُ لغير الله شرك، وهو ليس بواجب على الابتداء ؛ ولكن من نذر شيئًا لله وجب أن يُوفي به كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [سورة الحـج: ٢٩].

ومدح مَنْ وفَّى به قَالَ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [سورة الإنسان: ٧].

*** والنَّذْرُ يجب أن يكون فيما يطيقه العبد، ولا نذر في معصية:**

عَنْ أَنَسٍ - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ قَالَ: «**مَا بَالُ هَذَا؟**» قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، قَالَ: «**إِنَّ الله عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ**». (١)

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - فَقَالَ: رَجُلٌ نَذَرَ أَنْ يَصُومَ يَوْمًا، قَالَ: أَظُنُّهُ قَالَ: الإِثْنَيْنِ، فَوَافَقَ ذَلِكَ يَوْمَ عِيدٍ، فَقَالَ: ابْنُ عُمَرَ أَمَرَ الله بِوَفَاءِ النَّذْرِ، وَنَهَى النَّبِيّ ﷺ عَنْ صَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ. (٢)

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ الله عَنْهَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ**». (٣)

---

(١) رواه البخاري (١٨٦٥) ومسلم (١٦٤٢).

(٢) رواه البخاري (١٩٩٤) ومسلم (١١٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦٦٩٦).

*** ولا نذر في معصية، ومن نَذَرَ نَذْرَ معصيةٍ فلا يُوَفِّي ولْيُكَفِّر:**

عَنْ كَرْدَمَةَ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ ثَلَاثَةً من إِبِلِي، فَقَالَ: «**إِنْ كَانَ عَلَى جَمْعٍ من جَمْعِ الجَاهِلِيَّةِ، أَوْ عَلَى عِيدٍ من أَعْيَادِ الجَاهِلِيَّةِ، أَوْ عَلَى وَثَنٍ؛ فَلَا، وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَاقْضِ نَذْرَكَ**». (١)

*** وقد نهى النَّبيّ ﷺ عن النَّذر المشروط، لأنه لا يرد من قدر الله شيء:**

عَن ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا - قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَن النَّذْرِ، وَقَالَ: «**إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِن الْبَخِيلِ**». (٢)

*****

---

(١) **حسن**: رواه أحمد (٤/ ٦٤) أبو داود (٣٣١٤) ابن ماجة (٢١٣١).

(٢) رواه البخاري (٦٦٠٨) ومسلم (١٦٣٩).

رابعا : الذَّبح

وهو عبادة مالية تتعلق بالأضاحي، والهدي، والعقيقة، والنَّذر، والكفّارات، ونحوها فقد أوجب الله سبحانه إخلاصها لله، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالمينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المسْلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ، قَالَ: «**الْعَجُّ**(١) **وَالثَّجُّ**»(٢)، (٣)

وقال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [سورة الكوثر: ١-٣].

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**لَعَنَ الله مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ وَلَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله وَلَعَنَ الله مَنْ آوَى مُحْدِثًا وَلَعَنَ الله مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ**». (٤)

*** وقد جعل النَّبيّ ﷺ الذَّبح من شعائر الإسلام وعلاماته:**

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ المسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ الله، وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا الله فِي ذِمَّتِهِ**». (٥)

فهذه العبادة هي التي تتعلق بتكليف العبد، والتي وجب عليه أداؤها، فمن أدّاها فقد استجمع العبادة، واكتملت له أصول الدِّيانة، ومن فاته منها نصيب، فقد نقص من العبادة قدر التفريط.

---

(١) رفع الصوت بالتلبية.
(٢) إسالة دم الهدي.
(٣) حسن: رواه الترمذي (٨٢٧) ابن ماجة (٢٨٩٦) الدارمي (١٧٩٧).
(٤) رواه مسلم (١٩٧٨).
(٥) رواه البخاري (٣٩١).

المنهج وأثره على العبادة

فوضوح المنهج وبيانه، له أعظم الأثر على صِحَّةِ العبادة، وعلى صحة سير العبد إلى ربه ومولاه، فكم من أقوامٍ قد اجتهدوا في العبادة، وأظهروا الطّاعة ؛ فلمّا أخطوا الطَّريق ؛ كانت عباداتهم هباءً منثورًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [سورة الزمر: ٤٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا من عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٢٣].

وإن نزلت هذه الآيات في الكفار إلا أنها عامة لكل من أخطأ الطريق ؛ إلا من تغمده الله برحمة منه وفضل.

والمنهاج: الطريق الواضح، والمنهاج كالمنهج، وأنهج الطَّريق: وضح واستبان وصار نهجًا واضحًا بينًا. (١)

قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: ٤٨]

قَالَ ابن الجوزي: قَالَ مجاهد: الشِّرعة السنة، والمنهاج الطَّريق الواضح. وقال قتيبة: الشِّرعة والشَّريعة واحد، والمنهاج: الطَّريق الواضح.

وقيل: إن الشِّرعة ابتداء الطَّريق، والمنهاج: الطريق المستمر.قاله المبرد

وقيل: إن الشِّرعة الطريق الذي ربما كان واضحًا، وربما كان غير واضح، والمنهاج الطريق الذي لا يكون إلا واضحًا. ذكره ابن الأنباري.فلما وقع الاختلاف بين الشِّرعة والمنهاج حسن نسق أحدهما على الآخر. (٢)اهـ.

أخي الحبيب: ربما يكون العبد عنده من العبادة، أو مُدَّعيًا للاستقامة، ولكن

(١)لسان العرب (٦/ ٤٥٥٤).

(٢)زاد المسير (٢/ ٢٨٤).

المنهج والطريق غير واضح، فوقع في شُعبة من شِعاب أهل البدع فهلك، ولذلك فالمنهاج يكون بالاستقامة على عقيدةِ أهل السُّنة وملازمة منهجهم ؛ مع الحذر من طُرق أهل الهلكة، ويكون ذلك مُلازمًا له إلى آخر الطَّريق.

*** فمهما حاول العبد أن يطرق بابًا من الأبواب، أو أن يسير في درب من الدُّروب، بلا منهج واضح فلن يصل إلى الحقِّ.**

فهؤلاء الخوارج رغم كثرة صلاتهم وصيامهم، لما جهلوا المنهج، وحادوا عن سبيل أهل السنة كانوا من أهل الضَّلالة.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ رَسُولِ الله ﷺ: «**يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ -وَهُوَ قِدْحُهُ -فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ؛ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ من النَّاس**، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ من رَسُولِ الله ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ ؛ فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ بِهِ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي نَعَتَهُ».(١)

فهؤلاء أهل عِبَادةٍ وجُهْدٍ واستقامة، كانوا يُسَمُّون بالقُرّاء لِشدة اجتهادهم وملازمتهم للقرآن، ورغم ذلك يقول النَّبِيّ ﷺ: «**يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ**» ورغم ما جدوا في الصَّلاة والصيام إلا أنهم «**يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ**».

---

(١) البخاري (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٤).

*** فالطُّرق كثيرة، والشِّعاب متفرقة، والأكثرون يُلْقُون بأنفسهم في طُرق الهلكة، فماذا يجب عليك بعد أن تحققت من خطورة الأمر؟! وقد بين النَّبيُّ ﷺ أَنَّ الأمة ستفترق إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة، ستسير في طُرُقٍ، لن ينجو منها إلا واحدة:**

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ: أَلَا إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَامَ فِينَا، فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ من أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ المِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ ؛ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ. زَادَ بَعْضُهُم - وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ من أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ».(١)

فهذا يبين بوضوح وجلاء وجوب معرفة الحق، وأن تقول لنفسِكَ لا أذوق غَمْضًا حتى أصل إليه.

*** وقد بين النَّبيُّ ﷺ أَنَّه لن ينجُ من هذه الطَّوائف إلا واحدة، ومن لم يهتم ببداية الطريق فلن يصل إلى النِّهاية:**

قَالَ بَشَّار: قَالَ لي يوسف بن أسباط: تعلَّمُوا صحةَ العملِ من سقمه، فَإِنِّي تعلمته في اثنين وعشرين سنة.(٢)

وَقَالَ الأوزاعي: اصبر نفسك على السُّنة، وقِفْ حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكُفَّ عمّا كَفُّوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصَّالح، فَإِنَّه يَسَعُكَ ما وسِعَهُم، ولا يستقيم الإيمان إلا بالقول ؛ ولا يستقيمُ القَوْلُ إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بالنِّية موافقة للسنة، وكان من مضى من سَلَفِنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل، وإنما

---

(١) صحيح: أبو داود (٤٥٩٧) وأحمد (٤/ ١٠٢).

(٢) حلية الأولياء (٦/ ١٤٤).

العمل من الإيمان، والإيمان من العمل، وإنما الإيمان اسم جامع كما يجمع هذه الأديان اسمها، ويصدقه العمل، فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصَدَّق ذلك بعمله، فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومَنْ قَالَ بلسانه ولم يعرف بقلبه ولم يصدقه بعمله لم يُقبل منه، وكان في الآخرة من الخاسرين.(١)

عن أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُقْطِعَ من الْبَحْرَيْنِ فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ: حَتَّى تُقْطِعَ لِإِخْوَانِنَا من المُهَاجِرِينَ مِثْلَ الَّذِي تُقْطِعُ لَنَا، قَالَ: سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي.(٢)

تأمل معي هذا الحديث لما رَأَى النَّبِيُّ ﷺ مَحَبَّة الأنصار لإخوانهم من المهاجرين، وتعلقهم بهم، حتى أنهم لا يأخذون شيئًا إلا وطلبوا مثله لإخوانهم من المهاجرين، فخاف عَلَيْهِم النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُحْرَمُوا بَعْضَ الحَقِّ ؛ فيصرفهم ذلك عن الطَّريق، فحدَّد لهم المنهج الذي يعاملون به النَّاس في أمر الإيثار ؛ حتى يلقوا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ القِيامَةِ وهُم على الطَّريق.

أخي الحبيب: لقد أصبح من الواجب تحديد المنهج، وبيان الطَّريق قبل أن يخطو العبد خُطْوة، ولا يكون ذلك إلا بالعلم.

وحينما كان عُلَمَاءُ الأُمَّةِ مُتَوَافِرِين، ورايةُ السُّنة عالية، ورايات البدع مُنَكَّسة، كان السَّواد الأعظم من الأمة هم أهل السُّنة وهم الجماعة، وهذا يُنْبئك عن خطورة فقد العلم وغياب العلماء.

قَالَ البخاري رحمه الله: بَاب الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، لِقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، مَنْ أَخَذَهُ

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ١٤٤).

(٢) رواه البخاري (٢٣٧٧).

أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى الله من عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وَقَالَ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالمونَ﴾ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وَقَالَ ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذين يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**مَنْ يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ**»، وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: لَوْ وَضَعْتُمُ الصَّمْصَامَةَ عَلَى هَذِهِ -وَأَشَارَ إِلَى قَفَاهُ- ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّي أُنْفِذُ كَلِمَةً سَمِعْتُهَا من النَّبِيّ ﷺ قَبْلَ أَنْ تُجِيزُوا عَلَيَّ لَأَنْفَذْتُهَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُونُوا رَبَّانِيِّينَ حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ، وَيُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاس بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ.

قَالَ هلال بن خباب: قلت لسعيد بن جبير: ما عَلَامة هلاك النَّاس؟ قَالَ: إِذَا ذَهَبَ عُلَمَاؤُهُم.(١)

وقال حماد بن زيد سمعت أيوب يَقُولُ: إِنِّي أُخْبَرُ بِمَوْتِ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ السُّنة وكَأَنِّي أَفْقِدُ بَعْضَ أَعْضَائِي.(٢)

قَالَ الشَّافِعي رحمه الله: من طَلَبَ الرِّياسة فرّت منه، وإذا تَصَدَّر الحدثُ فَاتَهُ عِلْمٌ كَثِير.(٣)

ولابد من بيان هذه المصطلحات ؛ حتى لا تتداخل الأمور، وتتفرع الطُّرق، ويحدث اللبس، ويزيد الغموض.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٦).
(٢) اعتقاد أهل السنة (١/ ٦٠).
(٣) صفة الصفوة (٢/ ٢٥٢).

أهل السُّنة والجماعة

*** من هم أهل السنة والجماعة؟**

لقد وقع في أتباع الإسلام كما وقع عند اليهود والنصارى اختلاف وفرقة ، وأن الله امتن على هذه الأمة الإسلامية بأن جعل منها طائفة على الحق إلى قيام الساعة ، فمن هذه الطائفة؟ وما صفاتها؟

والجواب: إن أهل السنة والجماعة ، والطائفة الحقة المنصورة الباقية على الدين الصَّحيح إلى قيام الساعة: هم الَّذين اعتصموا بأصول الإسلام المعصومة ، وهذه الأُصُول هي: الكِتَابُ ، والسُّنَّة ، وما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ، وهذه الأصول هي الأصول المعصومة ، التي لا يتطرق إليها خلل ، أو شك.

وأهل السُّنة يَرُدُّون كُلَّ قَوْلٍ ، وكُلَّ خلافٍ إلى هذه الأصول ، فما وافق الكتاب والسُّنة والإجماع ، قَبِلُوه ، وما خالفها رفضوه من قائله كائنًا من كان ، فإنه لا أحدَ معصومٌ ، ولا قولَ معصومٌ سوى ذلك ، أي: الكتاب ، والسنة ، والإجماع.

وقد سُمِّيت هذه الطائفة بأهل السنة لأنهم تمسكوا بسنة رسول الله ﷺ ، وهذا أصل واجب الاتباع ، وكذلك في المقابل أهل البدعة الَّذين اخترعوا أقوالًا ، وأعمالًا مبتدعة في الدِّين ؛ جعلوها أصلًا يجتمعون عليه ، ويتسمّون به ، ويفترقون به عن أهل الإسلام ، وأما أهل السنة والجماعة ، فإنهم تسمّوا بهذا الاسم **(الجماعة)** لالتزامهم بالجماعة ، وهي جماعة أهل الإسلام ، ونبذهم الفرقة والخلاف ، وحكمهم بالإسلام لِكُلِّ مَنْ قَالَ: لا إله إلا الله ، ولم يخرج عنها بمُكَفِّرٍ ظاهر، وولاؤهم لجميع المسلمين على حسب تمسكهم بهذه الأصول ؛ لا إلى ولاءٍ مكانيٍّ أو تبعيةٍ أو غيرها، مما يجتمع عليه النَّاس.

ومن أجل ذلك كان أهل هذه الطائفة الحقة هم الَّذين قام فيهم الإسلام واضحًا جليًا من حيث الاتباع ، والالتزام ، والحفظ ، والتعهد فهم أهل السنة الَّذين يعملون بها، ويدعون إليها ، وهم علماء الحديث ، والأثر المتقدمين ومن نحا نحوهم ، وجميع فقهاء أهل الإسلام المشهورين ، وأئمة الدين المتبوعين ، وسادة المسلمين من الصحابة والتابعين.

*** وشأن هذه الطائفة الاجتماع على كتابِ الله تَعَالَى ، وَسُنَّة رَسُولِهِ ﷺ ، ونبذ الفُرقة والخلاف:** ولذلك كانوا بحمد الله هم سواد أهل الإسلام وعامة المسلمين، وأمّا غيرهم فَفِرق ، وشَرَاذِم ، وأهل ضَلالات يظهر بعضها ، ويختفي بعضها على مدى العصور ، وتنتشر ضلالتهم حينًا ؛ ثم تختفي ، وتبور أحيانًا أخرى، فهم دخلاء سرعان ما يخرجون كما بدءوا يعودون.

وأهل السنة والجماعة هم الأمة الحقيقية للإسلام ، والسّواد الأعظم، والقرون الإسلامية المتصلة جيلًا بعد جيل ، والطّائفة الظاهرة المنصورة القائمة باقية قولًا وعملًا على مدار السنين ، والتي حافظت على أصول الإسلام المعصومة ، وعملت بمقتضاها في الجملة.

وهذه الأصول هي: الكتاب والسنة ، وإجماع الصحابة إذ هم الَّذين نزل عليهم القرآن وفهموه وعملوا به، ولأن الله سبحانه وتعالى شهد لهم بالإيمان والفضل ، وأثنى عليهم في كتابه ، كما قَالَ سُبْحَانه وتعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ من رَبِّهِ وَالمؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصِيرُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥] ، وشهد لهم بالفضل ، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِن الله وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ

يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ الله الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الفتح: ٢٩]وشهد سبحانه أنه رضي عنهم كما قَالَ جل وعلا: ﴿لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [سورة الفتح: ١٨] .

وأخبر أنه سبحانه قد تاب عليهم، كما قَالَ جل وعلا: ﴿ لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالمهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الَّذين اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة التوبة: ١١٧] .

ووعدهم الله عز وجل بالنصر، والتمكين، وَوَفَى لهم، كما قَالَ جل وعلا: ﴿وَعَدَ الله الَّذين آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذين من قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ من بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [سورة النــــور: ٥٥] وقد فعل سبحانه.

نعم قد كان فيهم منافقون، بيَّن الله أخبارهم وهتك أستارهم ، ولكنهم كانوا قلة معلومة محصورة.

وأما عامة الصحابة، وسوادهم فكانوا من المؤمنين المخلصين المتقين، ولذلك قَالَ لهم الله سبحانه وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِالله﴾ [سورة آل عمران: ١١٠] .

فإذا أطلق اسم الجماعة، كما جاء الحديث: [عليكم بالجماعة] ، كان أول من يدخل في مسمى الجماعة هم أصحاب رسول الله ﷺ ؛ كما جاء في الحديث عَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الله لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي أَوْ قَالَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ الله مَعَ الجَمَاعَةِ...**».

قَالَ أَبُو عِيسَى: وَتَفْسِيرُ الجَمَاعَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، هُمْ أَهْلُ الْفِقْهِ وَالْعِلْمِ وَالْحَدِيثِ،

قَالَ: وسَمِعْت الجَارُودَ بْنَ مُعَاذٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الحَسَنِ يَقُولُ: سَأَلْتُ عَبْدَ الله بْنَ المبَارَكِ مَن الجَمَاعَةُ؟ فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قِيلَ لَهُ: قَدْ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قَالَ: فُلَانٌ وَفُلَانٌ، قِيلَ لَهُ قَدْ مَاتَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَقَالَ: عَبْدُ الله بْنُ المبَارَكِ وَأَبُو حَمْزَةَ السُّكَّرِيُّ جَمَاعَةٌ، قَالَ أَبُو عِيسَى: وَأَبُو حَمْزَةَ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مَيْمُونٍ، وَكَانَ شَيْخًا صَالِحًا، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا فِي حَيَاتِهِ عِنْدَنَا. (١)

فكل عالم في زمانه هو الجماعة، وهو السواد الأعظم، لأن النَّاس جميعا تبع له، ولذلك قيل عن ابن المبارك ذلك.

فعن أسود بن سالم قَالَ: كان ابن المبارك إمامًا يقتدى به، وكان من أثبت النَّاس في السنة، فإذا رأيت رجلا يغمز ابن المبارك بشيء فاتهمه على الإسلام. (٢)

*** والفضل لكل جيل يرجع لمن قبله ؛ ممن كان على الطريق، وسار على ما سار عليه النَّبيّ ﷺ وأصحابه ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ.**

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِنَّ الله نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ؛ فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ فَمَا رَأَى المسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ الله حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ الله سَيِّئٌ. (٣)

ومن أجل ذلك فإن أهل السنة والجماعة ، يجعلون إجماع الصحابة على أمر ما حجة قاطعة في الدِّين ، ويقدمون فقههم واجتهادهم على كل فقه واجتهاد ، ويفسرون القرآن ويفهمون السنة على النحو الذي طبَّقوه ، فهم - أعني أصحاب النَّبيّ ﷺ - هم قدوة أهل السُّنة والجماعة في فهم الإسلام والعمل به. ومن أجل هذا كانت البدعة هي ما خالف القرآن ، والسُّنة ، وإجماع أَصْحَابِ النَّبيّ ﷺ.

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي رقم (٢١٦٧) والحاكم (١/ ١١٦) ، انظر صحيح الجامع (١٨٤٨).
(٢) تاريخ بغداد (١٦٨).
(٣) صحيح: موقوف ، رواه أحمد (١/ ٣٧٩).

السَّلف

قَالَ ابن فارس: "سلف" السِّين واللام والفاء أصلٌ يدلّ على تقدّم وسبق ، من ذلك السَّلَف: الَّذِين مضوا ، والقوم السلاف: المتقدمون.(١)

ومن هذا المعنى سُمي الصدر الأول من التابعين السَّلف الصّالح.(٢)

ومدلول كلمة «سلف»: يعني أنهم الصَّحابة والتابعون وأتباعهم وذلك استنادًا لما رُوِيَ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ـ رضي الله عنه ـ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ النَّاس قَرْنِي ثُمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ من بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ، وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ**»(٣)

فلو كان على الإجمال لدخل فيهم الخوارج والشِّيعة وغيرهما. ولو قلنا: إنهم الَّذين يعتمدون على الكتاب والسنة ؛ لدخل أيضًا كلّ الطوائف بهذا المفهوم ؛ لأن الكُلَّ يدّعي أنه على الكتاب والسنة.

ولعلّ الإجابة على هذه الإشكالات تتلخّص في هذا الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ أَيُّ النَّاس خَيْرٌ؟ فَقَالَ: «**أَنَا وَالَّذِينَ مَعِي، ثُمَّ الَّذين عَلَى الْأَثَرِ، ثُمَّ الَّذين عَلَى الْأَثَرِ، ثُمَّ كَأَنَّهُ رَفَضَ مَنْ بَقِيَ**»(٤)

فإن المقصود بالأثر هو اتباع الأثر ، لذا يقرن العلماء عند ذكرهم أصحاب الحديث فيقولون: أصحاب الحديث والأثر.

ومع ذلك فإننا نشهد لأهل القرون الثلاثة الأولى بالفضلِ والسَّبق في الخير، وذلك

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/ ٩٥).
(٢) النهاية لابن الأثير (٢/ ٣٩٠).
(٣) البخاري (٦٤٢٩).
(٤) حسن: رواه أحمد في المسند رقم (٢/ ٣٤٠).

بنصِّ الأحاديث المشّهورة المستفيضة ، وقد تقدَّم ذكر بعضها ، على أن أهل الحديث داخلون في ذلك الفضل.

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ كَذَلِكَ**».(١)

قَالَ يزيد بن هارون رحمه الله شارحًا الحديث: إن لم يكونوا أصحاب الحديث ، فلا أدري من هم؟ (٢) ، وقال بمثله الإمام أحمد أيضًا(٣) ، وعلي بن المديني ورواه البخاري(٤).

قَالَ الشّافِعي رحمه الله: إذا رأيت رجلًا من أصحاب الحديث، فكأني رأيت رجلًا من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ، جَزَاهم الله خيرًا، هم حفظوا لنا الأصل، فلهم علينا الفضل.(٥)

وقال: عليكم بأصحاب الحديث، فإنهم أكثر النَّاس صوابًا.(٦)

وعن يزيد بن هارون قَالَ: قُلْتُ لحمادِ بن زيد: هل ذكر الله أصحاب الحديث في القرآن؟! قَالَ: بلى، الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ المؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [سورة التوبة: ١٢٢](٧)

قَالَ الخليفة المأمون: ما بَقِي من لَذَّةِ الدُّنيا لذَّةٌ إلا نِلتُها ؛ إلا قول المستملي من ذكرت – يعني سماع الحديث – فاجتمع من في الدّار من الخدم والأولياء، واتخذوا دَفَاتِر

---

(١) رواه مسلم (١٩٢٠).
(٢) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ص٥٩.
(٣) المصدر السابق ص٦١.
(٤) شرف أصحاب الحديث ص٦٢ ، وسنن الترمذي (٢٢٢٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٠).
(٦) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٧٠).
(٧) الهروي "ذم الكلام" (٤/ ٩٩٦).

ومحابر، وحدَّثهم بتسعةِ أحاديث، فلمّا فَرَغَ قَالَ: ما ألذّه لو كان في أهله.(١)

فتبين من هذا أن الفرقة الناجية هم السّواد الأعظم من المسلمين ؛ الَّذين ساروا على منهج الصحابة ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ ومن تبعهم إلى يوم القيامة ؛ من العلماء والعباد والدعاة والمجاهدين، وعَوام النَّاس على مختلف طبقاتهم، فمن سار على هذا المنهج ولم يشذ ؛ فهو منهم إن شاء الله تبارك وتعالى(٢).

*****

(١) الهروي "ذم الكلام" (٤/ ٩٨٧).

(٢) وقد أفردت رسالة مستقلة بعنوان: المنهج وأثره في حياة أهل السنة والجماعة.

آفات في طريق العبودية

هناك آفات في طريق العبودية تهلك العبد، وتعطل سيره وتحول بينه وبين حظه من الآخرة، ومن هذه الآفات:

أولاً: آفات القلوب

لقد وقع في الأمة انحرافٌ عظيمٌ في أعمال القلوب، وهذا بسبب عدم التبيين والإيضاح لهذه العبادات العظيمة التي غفل عنها أكثر النَّاس، وعدم الفهم الصَّحيح لكتاب الله وسنة رسوله، وحال الصحابة ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ.

إن الصحابة رضوان الله تَعَالَى عليهم والسلف الصّالح ، فهموا كتاب الله تبارك وتعالى، وأقاموه عِلْمًا وعملًا ، وعلموا أهمية الإخلاص واليقين والصدق والمحبة وغير ذلك من أعمال القلوب، فتحققت فيهم العبودية الكاملة لله عز وجل ، وعلموا أن لا إله إلا الله ليست كلمة تقال باللسان ، وعلموا أن الإنسان إذا انقاد بقلبه وخضع وخشع ، فلابد أن يعمل وأن تنقاد جوارحه ؛ ولذلك كانت حياتهم واقعًا وترجمةً وتجسيدًا لهذه الحقائق الإيمانية التي تعيشها قلوبهم ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ وأرضاهم.

أما الَّذِي حَدَثَ في العصور المتأخرة لبعض أهل السُّنة والجماعة -ولا نتكلم عمن عداهم- أنهم اعتراهم ما اعترى غيرهم، ولكن بقدر ، فاعتراهم الضَّعف ، وانحسر وتضاءل المفهوم في أذهانهم ، فأصبح الدِّين كأنه الشعائر الأساسية، وأصبحت شهادة أن لا إله إلا الله مجرد قول فقط.

فلم يعد أهل السنة بتلك القوة التي كانت عليها الأجيال أو القرون الأولى ؛ وحينما نَسْمَعُ سِيَرَ الجيلِ الأولِ من اجتهاد وعبادة وصلاح ؛ نرى كَأَنَّه خيال لبعد المسافة بيننا وبينهم.

قَالَ الحسن: والله لقد أدركت أقوامًا إن كان أحدهم ليرث المال العظيم، وإنه والله لمجهودٌ شديدُ الجهد، فيقول لأخيه: يا أخي! إني قد علمت أن ذا ميراث وهو حلال، ولكني أخاف أن يُفسد عليَّ قلبي وعملي، فهو لك لا حاجة لي فيه، فلا يرزأ منه شيئًا

أبدًا، وهو والله مجهود شديد الجهد.(١)

*** وإليك بعض آفات القلوب:**

*** ومن آفات عبودية القلب:**

١- آفات المحبة

*** وهي المحبة السيئة التي تجلب للعبد شقوة الدنيا والآخرة وهي ثلاثة أنواع:**

أولاً: محبةٌ مع الله.

ثانيًا: محبةُ ما يبغضه الله.

ثالثًا: محبةُ ما يقطع عن الله.

*** أولاً: محبةٌ مع الله:**

فكلُّ محبةٍ مع الله عز وجل وبالٌ على صاحبها، فقد تَعرض النِّعمة من العبد فيتعلق القلب بصاحبها دون تذكر مُوجدها ومُسببها، فيقع فيه من الفَسَادِ والعَطَبِ مالا يعلمه إلا الله، دون تذكر أن هذه النِّعمة ما قَدَّرها إلا الله، وإن صاحب هذه العطية ما أعطاها إلا مُقابل عِوض من غيره؛ فالعباد تدور المنفعة بينهم على المصلحة المتبادلة، أمّا رَبُّ العزة سبحانه وتعالى؛ فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، مريد به الخير، وكاشف عنه الضُّر، جالبٌ له النَّفع، دافع عنه الضُّر؛ رحمةً وإحسانًا، وتفضلًا وتكرمًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ من الله

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ٢٦٩).

وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة التوبة: ٢٤].

فَكُلُّ منفعة تعطل عن الله فهي وبال على صاحبها، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٥٥].

قَالَ شيخ الإسلام ابن تيمية(١): فَكُلُّ من أحب شيئًا دون الله ولّاه الله يوم القيامة ما تولاه ؛ وأصلاه جهنم وساءت مصيرا، فمن أحبَّ شيئًا لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد أو فُقِد، فإن فُقِد عُذِّب بالفراق وتألم، وإن وُجِد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللَّذة، وهذا أمرٌ معلوم بالاعتبار والاستقراء، وكل من أحب شيئًا لغير الله فإن مضرته أكثر من منفعته، فصارت المخلوقات وبالًا عليه إلا ما كان لله وفى الله، فَإِنَّه كمالٌ وجمالٌ للعبد، وهذا معنى ما يُروى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ الله وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٍ أَوْ مُتَعَلِّمٌ**». رواه الترمذى وغيره.(٢)

ولذلك نرى أن من أحب شيئًا لغير الله فلا بد أن يقع ضرر من هذا المحبوب ؛ كمحبة الحرام فإنه يُفوت عليه الحلال ؛ ويُبتلى بعدم الرضا والقناعة إلا بالحرام، وكذلك من أفرط في الحلال، وزاد تعلقه به حتى شغله عن محبوبه وهو الله ؛ عُذِّب بما انشغل به، ولهذا كان الَّذين يكنزون الذَّهب والفضة ويتعلقون بها، ولا يُنفقونها في سبيل الله ؛ يمثل هذا المال يوم القيامة بشجاع أقرع كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ آتَاهُ الله مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ، ثُمَّ**

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٩).
(٢) حسن: رواه الترمذي (٢٣٢٢) ابن ماجة (٤١١٢).

يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ» ثُمَّ تَلَا﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِين يَبْخَلُونَ ﴾الآيَةَ.(١)هـ..

ولذلك كان لزامًا على العبد أن يُفرغ قلبه لله، فلا تتعلق به شبهة، ولا تعطِّله شهوة، فكم عَطَّل سير العباد من شهوات، وحادت بهم عن طريق رب البريات شُبهات، فلا يزال العبد في غمرات شبهته، وأسر شهوته حتى يُلقى في النّار.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة النــور: ٦٣].

وقال تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ من النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ من الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالله عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ من ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ من الله وَالله بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤-١٥].

وترك الشَّهوات لله ؛ وإن أنجى من عذاب الله، وأوجب الفوز برحمته، إلا أن لذَّة الأنس بالله والتفرد بمحبته وطاعته لا تعدلها لذة، فذخائر الله، وكنوز البرِّ، ولذَّة الأنس والشَّوق إليه، والفرح والابتهاج به ؛ لا يحصل لقلبٍ فيه غيره ؛ وإن كان من أهل العبادة والزُّهد والعلم، فإنه سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلبٍ فيه سِواه، وهمَّته متعلقة بغيره، وإنما يودع ذخائره في قلبٍ يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقرًا دون الله، والعز ذُلًا دونه، والذُّل عزًا معه، والنعيم عذابًا دونه، والعذاب نعيمًا معه، وبالجملة فلا يرى الحياة إلا به، ومع الموت والألم والهم والغم والحزن إذا لم يكن معه، فهذا له جنتان ؛ جنة في الدُّنيا معجلة، وجنة يوم القيامة.

فهذه المحبة -أي مع الله - غاية الجهل والظُّلم، فكيف يُسَوَّى من خُلِق من التُّراب بربِّ الأرباب، وكيف يُسَوَّى العبيد بمالكِ الرِّقاب، وكيف يُسَوَّى الفقير بالذَّات،

(١) رواه البخاري (١٤٠٣).

الضَّعيف بالذّات، العاجز بالذّات، المحتاج بالذّات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم ؛ بالغنى بالذَّات، القادر بالذَّات، الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته، فأيُّ ظُلْمٍ أقبح من هذا، وأي حُكْمٍ أشد جورًا منه، حيث عدل من لا عدل له، يخلقه ويرزقه، ويحييه ويميته، ويملك السَّماوات والأرض وما بينهما وما فيهن، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرةٍ في السَّماوات ولا في الأرض، فيا له من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذين زَعَمْتُمْ من دُونِ الله لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا من شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ من ظَهِيرٍ﴾ [سورة سبأ ٣٤/ ٢٢].

يقول ابن القيم رحمه الله(١): وكُلُّ شيءٍ تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يَسُومه سوء العذاب، فكل من أحبَّ شيئًا غير الله عُذِّب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يُعذب به قبل حُصوله حتى يحصل ؛ فإذا حصل عُذِّب به حال حصوله، بالخوف من سَلْبِه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سُلِبه اشتد عذابه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدّار، وأمّا في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الَّذِي لا يُرجى عوده، وألم فوات ما فاته من النَّعيم العظيم باشتغاله بضِدِّه، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد، فالهمُّ والغَمُّ والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والدِّيدان في أبدانهم، بل عملها في النُّفوسِ دائم مستمر حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأنسًا بربه، واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبه، وطمأنينةً بذكره، حتى يقول بعضهم في حَالِ نَزْعِهِ: واطرباه، ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عَيْشٍ طَيِّبٍ، ويقول الآخر: مساكين أهل الدُّنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها،

---

(١) الداء والدواء (٩٦).

ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف، ويقول الآخر: إن في الدُّنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، فيا من باع حظَّه الغالي بأبخس الأثمان، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غبن إذا لم يكن لك خِبْرة بقيمة السِّلعة فاسأل المقومين ؛ فيا عجبًا من بضاعة معك! الله مشتريها، وثمنها جنة المأوى، والسَّفير الذي جرى على يده عقد التبايع، وضمن الثمن عن المشتري ؛ هو الرَّسُول ﷺ، وقد بعتها بغاية الهوان.

إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلُ عَبْدٍ بِنَفْسِهِ فَمَنْ ذَا لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يُكْرِمُ

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ من مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الحج: ١٨] اهـ.

فتعلق القلب بغير الله من أعظم المفاسد، فهو يسد باب كُلِّ خيرٍ ويحيل بين العبد وبين الانتفاع بقلبه، بل يشتد به العطب كُلَّما زاد التعلق بغيره حتى يخونه أحوج ما يكون إليه عند الموت.

قَالَ ابن القيم رحمه الله(١): وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة ؛ عقوبة لهم على أعمالهم السَّيئة.

قَالَ الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي رحمه الله: واعلم أن لسوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - أسبابًا، ولها طرق وأبواب، أعظمها الانكباب على الدُّنيا وطلبها، والحرص عليها، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجرأة على معاصي الله عز وجل، وربما غلب على الإنسان ضَرْبٌ من الخطيئة، ونوع من المعصية، وجانب من الإعراض، ونصيبٌ من الجرْأةِ والإقدام، فملك قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حُجَبَهُ فلم تنفع فيه تذكرة ولا نجحت فيه موعظة، فربما جاءه الموت على ذلك فسَمِعَ النِّداء من مكانٍ بعيد، فلم يتبين له المراد، ولا علم ما أراد، وإن كَرَّر عليه الدَّاعي وأعاد.

---

(١) الداء والدواء (١٩٥).

قَالَ: ويُرْوى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت، فجعل ابنه يقول له: قُل لا إله إلا الله، فقال: النّاصر مَوْلاي، فأعاد عليه القول، فقال مثل ذلك، ثم أصابته غشية، فلما أفاق قَالَ: النّاصر مولاي، وكان هذا دأبه كلما قيل له: لا إله إلا الله، قَالَ: النّاصر مولاي، ثم قَالَ لابنه: يا فلان! الناصر إنما يعرفك بسيفك، والقتل القتل، ثم مات على ذلك.

قَالَ عَبْد الحق رحمه الله: وقيل لآخر ممن أعرفه، قُلْ لا إله إلا الله فجعل يقول: الدّار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبُسْتَان الفلاني افعلوا فيه كذا.

وقال: وفيما أذن أبو طاهر السِّلفي أن أُحَدِّث به عنه، أن رجلًا نزل به الموت، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول بالفارسية: ده يازده ده وازده - تفسيره: عشر بإحدى عشر.

وقيل لآخر: قُلْ لا إله إلا الله، فجعل يقول: أين الطريق إلى حمّام منجاب؟. قَالَ: وهذا الكلام له قِصّة، وذلك أن رجلًا كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابها يُشبه باب هذا الحمام، فمرت به جارية لها مَنْظَر، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدّار ودخل وراءها، فلمّا رأت نفسها في داره، وعلمت أنه قد خدعها، أظهرت له البِشر والفرح باجتماعها معه، وقالت - خدعة منها له وتحيلًا لتتخلص مما أوقعها فيه وخوفًا من فعل الفاحشة: يَصْلُحُ أَنْ يكون معنا ما يَطِيبُ بِهِ عَيْشُنا، وتَقَرُّ بِهِ عُيُونُنَا.

فقال لها: السّاعة آتيك بكلِّ ما تُرِيدين وتَشْتَهِين، وخرج وتركها في الدّار ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع فوجدها قد خرجت وذهبت ولم تخنه في شيء، فهام الرجل وأكثر الذِّكر لها، وجعل يمشي في الطُّرُقِ والأزقة ويقول:

يَارَبِّ قَائِلَةٌ يَوْمًا وَقَدْ تَعِبَتْ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى حَمَّامِ مَنْجَابِ؟

فبينا يقول ذلك وإذا بجاريته أجابته من طاقٍ:

هَلَا جَعَلْتَ سَرِيعًا إِذْ ظَفَرْتَ بِهَا حِرْزًا عَلَى الدَّارِ أَوْ قُفْلًا عَلَى البَابِ

فازداد هيمانه واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدُّنيا.

قَالَ: ويُرْوَى أَنَّ رجلًا عشق شخصًا فاشتد كلفه به وتمكن حبه من قلبه حتى وقع أَلَمًا به ولزم الفراش بسببه، وتمنَّع ذلك الشَّخص عليه واشتد نفاره عنه، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده أن يعوده، فأُخْبِر بذلك البائس، ففرح واشتد سروره، وانجلى غمُّه، وجعل ينتظر للميعاد الذي ضربه له، فبينا هو كذلك إذ جاءه السّاعي بينهما، فقال: أنه وصل معي إلى بعض الطَّريق ورجع، فرغبت إليه وكلمته، فقال: إنه ذكرني وبرح بي، ولا أدخل مداخل الريب، ولا أعرض نفسي لمواقع التّهم، فعاودته فأبى وانصرف، فلما سمع البائس ذلك أسقط في يده، وعاد أشد مما كان به، وبدت عليه علائم الموت، فجعل يقول في تلك الحال:

يَا سَلْمُ يَا رَاحَةَ العَلِيلِ وَيَا شِفَاءُ المدَنَّفِ النَّحِيلِ
رِضَاكَ أَشْهَى إِلَى فُؤَادِي من رَحْمَةِ الخَالِقِ الجَلِيلِ

فقلت له: يافلان! اتق الله! قَالَ: قد كان، فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت، فعياذًا بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة.اهـ..

*** ثانيًا: محبة ما يبغضه الله:**

ويجب على العبد بغض ما يبغضه الله فذلك عبادة، فيكون أبعد ما يكون منها مبغضًا إياها لا يرضاها لنفسه ولا لأحدٍ من الخلق، مخالفًا في ذلك شهوته وهواه، ولا بد أن يجعل له في كُلِّ أمر حاكمين ؛ حاكم العقل وحاكم الدِّين، وأن ينضبط بميزان من الشَّرع والدِّين، فيبغض ما بغضه الله، ويكره ما حرَّمه الله، ويعادي من عاداه الله.

فمحبة أعداء الله لا تتساوى مع محبة الله، ومحبة معصيته سبحانه وتعالى لا تتساوى مع محبة طاعته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا - رَضِيَ الله

عَنْهُم ـ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله أَلا إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢].

قَالَ أهل العلم في سبب نزولها: إنها نزلت في أبي عبيدة عامر بن الجراح حين قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد ، وفي أبي بكر حين دعا ابنه للمبارزة يوم بدر ، وفي عمر حيث قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر ، وفي علي وحمزة حين قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبه يوم بدر(١). وقيل غير ذلك من الأسباب(٢). والآية أعم وأشمل من ذلك والله أعلم.

وهذه الآية الكريمة تشير إلى المفاصلة الكاملة بين حزب الله، وحزب الشَّيطان ، وأن المؤمن يجب عليه أن ينحاز إلى الصَّف المسلم متجردًا من كُلِّ عائقٍ أو جاذبٍ، ومرتبطًا في العروة الواحدة بالحبل الواحد. ومن ثَمَّ فلا نسب ولا صهر ، ولا أهل ولا قرابة ، ولا جنس ولا عصبية، حين تقف هذه الوشائج دون ما أراد الله، فأمر الله السّابق وأمر الله النافذ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء: ٦٥] .

قَالَ رجل لابن واسع: إني أحبك في الله، فقال ابن واسع: اللهم إني أعوذ بك أن أُحَبَّ لك، وأنت لي ماقت.(٣)

وعن أبي وائل قَالَ: من تحاب في الله لم يتفرق حبه، ومن تحاب للدنيا فيوشك أن يغرق حبه ؛ فإنما هو متعة.(٤)

قَالَ محمد بن أبي حاتم المظفري: اتق شَرَّ من يصحبك لنائلة(٥)، فإنها إذا انقطعت

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص ٢٣٦) وتفسير ابن كثير (٨/ ٧٩).
(٢) أنظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٧/ ٣٠٧).
(٣) البيهقي "شعب الإيمان"(٦/ ٤٩٠).
(٤) البيهقي "شعب الإيمان"(٦/ ٤٩٨).
(٥) لعطية أو منفعة.

عنه لم يَعْذُر، ولم يُبال ما قَالَ وما قُيل فيه.(١)

عن سعيد بن جبير قَالَ: إن الخشية أن تخشى الله حتى تحول خشيتك بينك وبين معصيتك، فتلك الخشية، والذِّكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر وإن أكثر التسبيح وتلاوة القرآن.(٢)

* ثالثًا: محبة ما يقطع عن الله:

وكُلُّ ما يقطع عن الله يجب على العبد أن يكون أشد اجتنابًا له، وأشد حرصا على إبعاده عنه، حتى لا يتعثر في سيره، ولا يقطع سفره إلى الدّار الآخرة، فالطريق إلى الله عز وجل يُقَصِّرُه الشَّوقُ للقائه، ويقربه ذكر الجنة وما أعد الله فيها لأوليائه، ويباعده الغفلة وطول الأمل وقُطَّاع الطُّرق، فما من مرحلة يقطعها العبد إلا وقطاع الطرق يحولون بين فعل العبد للطاعات، ويسهلون له إتيان المنهيات، وما خلص منهم إلا من أنجاه الله.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: لما أَعْطَى رَسُولُ الله ﷺ مَا أَعْطَى من تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ من الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ ؛ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ الله ﷺ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ من الْأَنْصَارِ شَيْءٌ! قَالَ: «فَأَيْنَ أَنْتَ من ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟!» قَالَ: يَا رَسُولَ الله مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ من قَوْمِي، وَمَا أَنَا!! قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاس فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ من الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: قَدْ

(١) البيهقي"شعب الإيمان"(٦/ ٤٩٨).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٦).

اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الحَيُّ من الأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ! أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ الله! وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ الله! وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ الله بَيْنَ قُلُوبِكُمْ! قَالُوا: بَلْ الله وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟! قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ الله؟! وَلله وَلِرَسُولِهِ المَنُّ وَالفَضْلُ، قَالَ: أَمَا وَالله لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ من الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا ؛ وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاس بِالشَّاةِ وَالبَعِيرِ ؛ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ الله ﷺ فِي رِحَالِكُمْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا من الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاس شِعْبًا وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا ؛ لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمُ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ»، قَالَ: فَبَكَى القَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ الله قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ، وَتَفَرَّقْنَا. (١)

ولعل من أعظم الفتن ؛ ما وقع لكعب بن مالك حينما تخلف عن غزوة تبوك وهجره النَّبيُّ ﷺ وأصحابه، حتى كان لا يُلقى عليه السَّلام ولا يُرد عليه، حتى جاءه كتابٌ من ملك غسان يقطع عليه الطَّريق إلى الله تَعَالَى، ولكن ثبته الله وأنجاه.

قَالَ كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ المَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ من أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّام مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاس يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا من مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ الله بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ،

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٣/٧٦) ، وأصله في الصحيحين ، البخاري (٣١٤٧-٤٣٣١) ومسلم (١٠٦١) من طريق أنس.

فَقُلْتُ - لَمَّا قَرَأْتُهَا - وَهَذَا أَيْضًا من الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا.(١)

فرغم ما هو فيه من جفاء خِلّانه، وهجر أصحابه وإخوانه ؛ لما جاءته رسالة ملك غسان ليصرفه عن دينه، ويزين له طريقه ؛ لم يفكر في شيء سوى الخلاص من هذا البلاء الذي وقع فيه، فأحرق الرِّسالة بالنار حتى لا يكون أمامه سبيل حتى في التفكير إلى الرُّجوع إليها.

*** فيجب على العبد أن يحذر ربه، وأن يجنب نفسه مواضع الفتن والصوارف عن الطَّريق، وأن يعلم أن الله لا يرضى أن يطاع غيره، ويغار أن تنتهك حرماته:**

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفحٍ.

فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: **«أَتَعْجَبُونَ من غَيْرَةِ سَعْدٍ، لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي»**.(٢)

قَالَ ابن القيم رحمه الله(٣):

أقام الله سبحانه هذا الخلق بين الأمر والنَّهي، والعطاء والمنع، فافترقوا فرقتين: فرقة قابلت أمره بالترك، ونهيه بالارتكاب، وعطاءه بالغفلة عن الشكر، ومنعه بالسُّخط وهؤلاء أعداؤه ؛ وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك.

وقسم قالوا: إنما نحن عبيدك، فإن أمرتنا سارعنا إلى الإجابة، وإن نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عمّا نهيتنا عنه، وإن أعطيتنا حمدناك وشكرناك، وإن منعتنا تضرعنا إليك وذكرناك، فليس بين هؤلاء وبين الجنة إلا ستر الحياة الدنيا، فإذا مزقه عليهم الموت ؛ صاروا إلى النَّعيم المقيم وقرة الأعين، كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار إلا

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩).
(٢) رواه البخاري (٦٨٤٦) ومسلم (١٤٩٩).
(٣) الفوائد (٢١٧).

ستر الحياة، فإذا مزقه الموت صاروا إلى الحسرة والألم.

فإذا تصادمت جيوش الدنيا والآخرة في قلبك، وأردت أن تعلم من أي الفريقين أنت فانظر مع من تميل منهما ومع من تقاتل؟ إذًا لا يمكنك الوقوف بين الجيشين فأنت مع أحدهما لا محالة، فالفريق الأول استغشوا الهوى فخالفوه، واستنصحوا العقل فشاوروه، وفرَّغوا قلوبهم للفكر فيما خلقوا له، وجوارحهم للعمل بما أمروا به، وأوقاتهم لعمارتها بما يعمر منازلهم في الآخرة، واستظهروا على سرعة الأجل بالمبادرة إلى الأعمال، وسكنوا الدنيا وقلوبهم مسافرة عنها، واستوطنوا الآخرة قبل انتقالهم إليها، واهتموا بالله وطاعته على قدر حاجتهم إليها، وتزودوا للآخرة على قدر مقامهم فيها، فعجل لهم سبحانه من نعيم الجنة وروحها أن آنسهم بنفسه، وأقبل بقلوبهم إليه، وجمعها على محبته وشوَّقهم إلى لقائه، ونعَّمهم بقربه وفرَّغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا والهم والحزن على فوتها، والغم من خوف ذهابها، فاستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدانهم والملأ الأعلى بأرواحهم.اهـ..

قَالَ هرم بن حيان: اللَّهم إني أعوذ بك من شر زمان تمرد فيه صغيرهم، وتآمر فيه كبيرهم، وتقرب فيه آجالهم.(١)

وعن عبد الله بن بُسْر قَالَ: كان يُقال: إذا جلست في قوم فيهم عشرون رجلا أقل أو أكثر ؛ فتصفحت وجوههم فلم تر فيهم أحدًا يهاب في الله عز وجل فاعلم أن الأمر قد رق.(٢)

قَالَ الشَّافِعي رحمه الله: ضياعُ العالم أن يكون بلا إخوان، وضياع الجاهل قِلَّة عقله، وأضيع منهما من آخى من لا عقل له.(٣)

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٢٠).

(٢) البيهقي "شعب الإيمان" (٦/ ٥٠٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٢).

وقال أيضًا: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته(١)

دخل جعونة بن الحارث على عُمر بن عبد العزيز فقال له: يا جعونة! إني قد وَمَقْتُك(٢) فإياك أن أمقتك، تدري ما يحب أهلك مِنك؟ قَالَ: نعم يحبون صَلاحي، قَالَ: لا ولكنهم يحبون ما أقام لهم سَوادك، وأكلوا في غمارك، وبردوا على ظهرك، فاتق الله، ولا تطعمهم إلا طيبًا(٣)

فعن النضر بن أبى زرعة قَالَ: قَالَ لي المبارك بن سعيد - أخو سفيان الثوري - بالموصل: ائت سفيان فأخبره أن نفقتي قد نفدت، وثيابي قد تخرقت، فقل له يكتب إلى والي الموصل لعلَّه يصلني بمال أكتسي، قَالَ: فقدمت الكوفة فأتيت سفيان فأخبرته بما قَالَ مُبارك. فدخل الدّار فأخرج دورقا فيه كِسَرٌ يابسة، فنثرها على الأرض، ثم قَالَ: لو رضا مبارك بمثل هذا لم يكن له بالموصل عمل، ما له عندنا كتاب(٤)

وأرسل بعض الخلفاء إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها ؛ وردَّها الفضيل، فقالت له امرأته: ترد عشرة آلاف، وما عندنا قوت يومنا؟! فقال: مَثلي ومثلكم كقومٍ لهم بقرة يحرثون عليها، فلما هَرِمت ذبحوها، وكذا أنتم أردتم ذبحي على كبر سني، موتوا جوعًا قبل أن تذبحوا فضيلا(٥)

قَالَ صَالح بن أحمد بن حنبل: دخلت على أبي في أيام الواثق - والله يعلم في أي حالةٍ نحن - وقد خرج لصلاة العصر، وقد كان له لبد يجلس عليها ؛ قد أتت عليه سنون كثيرة حتى قد بلي، فإذا تحته كتاب كاغد، وإذا فيه بلغني يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضِّيق وما عليك من الدَّيْنِ ؛ وقد وجهت إليك بأربعة آلاف درهم على يدي فلان

---

(١) تهذيب الأسماء للنووي (١/ ٧٦).
(٢) أي أحببتك.
(٣) حلية الأولياء (٥/ ٢٧١).
(٤) ابن أبي حاتم " مقدمة الجرح والتعديل" (١/ ٩٢).
(٥) المناوي "فيض القدير"(٥/ ٤٣٦).

لتقضي بها دينك وتوسع بها على عِيالك ؛ وما هي من صدقة ولا زكاة وإنما هو شيء ورثته من أبي، فقرأت الكتاب ووضعته فلما دخل قلت: يا أبت ما هذا الكتاب؟ فاحمر وجهه، وقال: رفعته منك، ثم قَالَ: تذهب بجوابه، فكتب إليَّ الرجل وصل كتابك إلي ؛ ونحن في عافية فأمّا الدَّين فإنه لرجلٍ لا يرهقنا، وأما عيالنا فهم في نعمةٍ والحمد لله، فذهبت بالكتاب إلى الرَّجل الذي كان أوصل كتاب الرجل، فقال: ويحك لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به مثلا في الدجلة كان مأجورا، لأن هذا رجل لا يعرف له معروف، فلما كان بعد حين ورد كتاب الرجل بمثل ذلك فرد عليه الجواب بمثل ما رد، فلما مضت سنة أو أقل أو أكثر ذكرناها، فقال: لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت.(١)

*****

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ١٧٨).

* ومن آفات عبودية القلب:

٢- آفات الرياء

والرِّياء من أعظم آفات العبودية إذ هو محبط للأعمال، هادم للأركان لو دخلت منه ذَرَّةٌ في العمل أفسدته، فهو من صفات المكذِّبين بالدين.

كما وصف الله حالهم منها: ﴿الَّذين هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [سورة الماعون: ٦].

وهو أصل عند المنافقين فلا يعمل عملًا إلا والأصل فيه الرياء، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ المنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاة قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاس وَلا يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلًا﴾ [سورة النساء: ١٤٢].

وفي حديث الشفاعة الطويل «**فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا**»[(١)]

فآفة الرياء محبطة للأعمال، فربما يأتي العبد بطاعات، ويتعنى في عبادات من خير العبادت، فلما دخلها الرياء جعلها الله هباءً منثورًا.

انظر إلى هؤلاء الأصناف الثلاثة الَّذين أتوا بأفضل الأعمال، ورغم ذلك دخلوا النار!! بل أول من يُقضى عليهم يوم القيامة ؛ فلمّا لم تكن لله عُذِّبوا بها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاس يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ،**

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٩).

وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِم، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ من أَصْنَافِ المالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ من سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ؛ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».(١)

إن في مصير هؤلاء الثلاثة الأشقياء، لعبرة وذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمع وهو شهيد، ما بالهم وما الذي أصابهم؟! أليس الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال؟! أليس هو ذروة سنام الإسلام؟! أليس الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون؟! ويسرحون في الجنة حيث يشاءون؟!.

أليس العلماء ورثة الأنبياء؟ ألم يقل الله: ﴿ يَرْفَعِ الله الَّذين آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [سورة المجادلة: ١١].

وهذا المتصدق المحسن الذي لا يترك سبيلًا يحبها الله إلا أنفق فيها، أليس الله يثيب على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؟.

فما الذي أصابهم وجعلهم أول من يقضى عليه ويقذف بهم في نار جهنم — أعاذنا الله من هذا المصير —.

لقد بين رسول الله ﷺ سبب مصيرهم هذا، وهو أنهم لم يخلصوا لله في هذه الأعمال التي تبدو للناس أنها عظيمة ، ولم يريدوا بها وجه الله. بل كانت مقاصدهم سيئة وأغراضهم فاسدة، هو حُبُّ الثناء من النَّاس والمدح والإطراء.

فلم يرد ذلك المجاهد وجه الله، ولا إعلاء كلمة الله، إنما أراد بذلك نفسه، وأحب أن يعلو صيته، ويشتهر بين النَّاس بالشَّجاعة والإقدام، وقد حصل ذلك فكان

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

جزاؤه في الدُّنيا ، أما في الآخرة فكان جزاؤه أن يفضح، وتكشف سريرته ثم يقذف في النار.

وأما العالم فلم يطلب العلم لله ليتفقه في دينه، ويعلم ما يجب لله ولكتابه ولرسوله وللناس فيؤديه ، ولم يُعَلِّم النَّاس لوجه الله يرجو ثواب نشر العلم والدعوة إلى الله، إنما ليقال: فلانٌ عالم أوقارئٌ، فكان جزاؤه أن تفضح نواياه، ويهتك ستره يوم القيامة جزاء سوء قصده ؛ ثم يلقى في النار.

وأما صاحب المال فلم يشكر الله الذي أسبغ عليه تلك النعم، ولم يكن من الَّذين قَالَ فيه: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالمحْرُومِ ﴾ [سورة المعارج: ٢٤-٢٥]. ولم يدرك أن المال مال الله استخلفه فيه لينظر كيف يعمل ، لذلك فهو لا يريد بها ينفقه وجه الله، ولا يعرف طريقًا إلى الإخلاص لوجه الله، إنها يريد أن يتغنى النَّاس بمجده، ويلهج الشعراء بمدحه، وأن يطير في النَّاس أخبار جوده وسخائه فكان له ذلك، ونال ما قصده في الحياة الدنيا ، وأما الآخرة التي لم يردها فإن جزاءه فيها أن الحساب الدقيق، والجزاء العادل، والملائكة الغلاظ الشِّداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون ؛ تنتظره ليُسْحب على وجهه ثم يقذف في النار.

وإن في هذا لعبرة عظيمة، وعظة بالغة للمجاهدين والعلماء، والأثرياء المنفقين، علَّهم يتعظون فيخلِّصون أعمالهم لله، فيظفرون بوعد الله، وينجون من عقاب الله النازل بالمرائين والمنافقين.

*** ولذلك سَدَّ النَّبِيُّ ﷺ الأبواب على جميع الأعمال ؛ ما لم تدخل من باب الإخلاص:**

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله، قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا**

فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله».(١)

* **ألا فلا يتعنى المراءون فقد هتك الله أستارهم، وأبان عوارهم، وأحبط أعمالهم:**

عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا من أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا الله عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا!** قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ الله صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: **أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ من اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ الله انْتَهَكُوهَا**».(٢)

* **وربما يحاول العبد إخفاء العمل فيظهره الله عز وجل، ويحمد على ذلك وهذا من فضل الله على عباده:**

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ من الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاس عَلَيْهِ، قَالَ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**».(٣)

تنقية الأعمال من الرِّياء

ولذلك وجب على العبد التَّحري في الأقوال والأفعال، والحركات والسَّكنات، وأن ينزع منها ذرّات الرِّياء، وأن ينظر في كل عمله فما خلص يتقرب به، وما اختلط بغيره ينقيه أو يتركه.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَوْنٍ الْكِنَانِيِّ - وَكَانَ عَامِلًا لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى الرَّمْلَةِ - أَنَّهُ شَهِدَ عَبْدَ الملِكِ بْنَ مَرْوَانَ قَالَ لِبَشِيرِ بْنِ عَقْرَبَةَ الْجُهَنِيِّ يَوْمَ قُتِلَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدِ بْنِ

(١) رواه البخاري (٧٤٥٨) ومسلم (١٩٠٤).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجة (٤٢٣٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٢).

الْعَاصِ: يَا أَبَا الْيَمَانِ إِنِّي قَدْ احْتَجْتُ الْيَوْمَ إِلَى كَلَامِكَ، فَقُمْ فَتَكَلَّمْ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ قَامَ يَخْطُبُ لَا يَلْتَمِسُ بِهَا إِلَّا رِيَاءً وَسُمْعَةً، أَوْقَفَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَوْقِفَ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ**»(١).

وقَالَ أَبُو هِنْدٍ الدَّارِيُّ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ قَامَ مَقَامَ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ رَاءَى الله بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَسَمَّعَ**»(٢).

*** ولقد كان النَّبيّ ﷺ يحرص على تنقية أعماله من الرِّياء لما فيه من خطورة الخفاء وعدم الظهور، ويسأل ربه المعونة على ذلك:**

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: حَجَّ النَّبِيّ ﷺ عَلَى رَحْلٍ رَثٍّ وَقَطِيفَةٍ تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ أَوْ لَا تُسَاوِي، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ حَجَّةٌ لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةَ**»(٣).

خَطَبَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاس اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى من دَبِيبِ النَّمْلِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ الله بْنُ حَزْنٍ وَقَيْسُ بْنُ الْمَضَارِبِ، فَقَالَا: وَالله لَتَخْرُجَنَّ مِمَّا قُلْتَ أَوْ لَنَأْتِيَنَّ عُمَرَ، مَأْذُونٌ لَنَا أَوْ غَيْرُ مَأْذُونٍ، قَالَ: بَلْ أَخْرُجُ مِمَّا قُلْتُ، خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاس اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى من دَبِيبِ النَّمْلِ. فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ الله أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى من دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ الله؟! قَالَ: قُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ من أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ**»(٤).

*** وقد يهتك الله أستار المرائين، ويفضح أمرهم، ويبين عوارهم في الدنيا قبل الآخرة:**

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: شَكَا أَهْلُ الْكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ ـ رضي الله عنه ـ فَعَزَلَهُ

---

(١) حسن: رواه أحمد (٣/ ٥٠٠) الطبراني "الكبير" (٢/ ١٢٢٧) وفي مجمع الزوائد (٢/ ١٩٤) رجاله موثقون.

(٢) صحيح الإسناد: الدارمي (٢٧٤٨) أحمد (٥/ ٢٧٠).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجة (٢٨٩٠).

(٤) حسن: رواه أحمد (٤/ ٤٠٣).

وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ! إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تُحْسِنُ تُصَلِّي! قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا وَاللهِ فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أُصَلِّي صَلَاةَ الْعِشَاءِ فَأَرْكُدُ فِي الْأُولَيَيْنِ، وَأُخِفُّ فِي الْأُخْرَيَيْنِ. قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا أَوْ رِجَالًا إِلَى الْكُوفَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ ؛ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ - يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ - قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ. قَالَ سَعْدٌ: أَمَا وَاللهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلَاثٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالْفِتَنِ، وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ. قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ من الْكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ.(١)

ويجب على العبد أن يحقر عمله ويراعيه ويحفظه أن يُسْرق منه، فلا هو استراح ولا استمتع به، ولقد كان للسَّلف حظ عظيم من خوف الرِّياء أشد من خوفهم من الذنوب خشية محو الطاعات.

عن ابن مهدي قَالَ: بات سفيان عندي ؛ فجعل يبكي، فقيل له: بكاؤك هذا خوفًا من الذنوب؟ فقال: لذنوبي عندي أهون من ذا - ورفع شيئًا من الأرض - إني أخاف أن أُسلب الإيمان قبل أن أموت.(٢)

قَالَ شُعيب بن حرب: بينا أنا أطوف إذ لكزني رجل بمرفقه فالتفت فإذا أنا بالفضيل بن عياض فقال: يا أبا صالح! فقلت: لبيك يا أبا علي، قَالَ: إِنْ كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ شَهِدَ الموسم شَرٌّ مِنِّي ومِنْك ؛ فَبِئس ما ظَنَنْت.(٣)

---

(١) رواه البخاري (٧٥٥) ومسلم (٤٥٣).
(٢) الذَّهبي "سير أعلام النبلاء" (٧/ ٢٥٩).
(٣) البيهقي "شعب الإيمان" (٦/ ٣٠٣).

وعن بشر بن الحارث قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لمالك بن دينار: يا مُرائي، فقال: متى عرفت اسمي؟! ما عرف اسمي غيرُك. (١)

قَالَ ابن القيم رحمه الله (٢): يا طالبي العلم قد كتبتم ودرستم ؛ فلو طلبكم العلم في بيت العمل فلستم، وإن ناقشكم على الإخلاص أفلستم، شجرة الإخلاص أصلها ثابت لا يضرها زعازع ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [سورة القصص: ٦٢] وأما شجرة الدُّباء فإنها تجتث عند نسمة «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ» (٣) رياء المرائين صير مسجد الضرار مزبلةً وخربةً ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [سورة التوبة: ١٠٨].

وإخلاصُ المخلصين رفع قدر الأشعث الذي لا يعبأ به النَّاس «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّهُ» (٤) قلب من ترائيه بيد من أعرضت عنه، يصرفه عنك إلى غيرك ؛ فلا على ثواب المخلصين حصلت، ولا إلى ما قصدته بالرياء وصلت، وفات الأجرُ والمدحُ فلا هذا ولا ذاك، لا تنقش على الدرهم الزائف اسم الملك، فإنه لا يدخل الخزانة إلا بعد النقد، المخْلِصُ يتبهرج (٥) على الخلق بستر حاله، وببهرجته يصح له النقد، والمرائي يتبرطل على باب الملك يوهم أنه من الخواص وهو غريب، فسله عن أسرار الملك يفتضح، فإن خفي عليك فانظر حاله مع خاصة الملك، يا من لم يصبر عن الهوى صبر يوسف ؛ يتعين عليه بكاء يعقوب، فإن لم يطق فذل إخوته يوم قالوا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ الله يَجْزِي المتَصَدِّقِينَ﴾ [سورة يوسف: ٨٨]. اهـ.

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٣٣٩).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٧٥٨).

(٣) رواه البخاري (٧٤٣٧).

(٤) رواه مسلم (٢٨٥٤).

(٥) بهرج: رديء ، أي إن المخلص الصالح يظهر على غير حاله للناس ليستر حاله.

قصةُ عابدٍ كُفي بغيره

عن محمد بن المنكدر قَالَ: كانت لي سارية في مسجد رسول الله ﷺ أجلس أصلي إليها بالليل، فقحط أهل المدينة سنة فخرجوا يستسقون فلم يسقوا..فلما كان من الليل صليت عشاء الآخرة في مسجد رسول الله ﷺ ؛ ثم جئت فتساندت إلى سَاريتي فجاء رجلٌ أسود تعلوه صُفرة متزر بكساءٍ وعلى رقبته كساء أصغر منه، فتقدم إلى السّارية التي بين يدي، وكنت خلفه فقام فصلَّى ركعتين ثم جلس، فقال: أي رب!! خرج أهل حرم نبيك يستسقون فلم تسقهم، فأنا أقسم عليك لما سقيتهم، قَالَ ابْنُ المنكَدِر: فقلت: مجنون! قَالَ: فما وضع يده حتى سمعت الرعد، ثم جاءت السماء بشيء من المطر فأهمني الرجوع إلى أهلي، فلما سمع المطر حمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها قط، ثُمَّ قَالَ: ومن أنا! وما أنا حيث استجبتَ لي! ولكن عُذت بحمدك، وعذت بطولك، ثم قام فتوشح بكسائه الذي كان متزرًا به، وألقى الكساء الآخر الذي كان على ظهره في رجليه، ثم قام فلم يزل قائمًا يصلي حتى إذا أحس الصبح سجد وأوتر وصلى ركعتي الصبح، ثم أقيمت صلاة الصبح فدخل في الصَّلاة مع النَّاس، ودخلت معه ؛ فلما سلم الإمام قام فخرج وخرجت خلفه، حتى انتهى إلى باب المسجد، فخرج يرفع ثوبه ويخوض الماء، فخرجت خلفه رافعا ثوبي أخوض الماء، فلم أدر أين ذهب فلما كانت الليلة الثانية صليت العشاء في مسجد رسول الله ﷺ ؛ ثم جئت إلى ساريتي فتوسدت إليها، وجاء فقام فتوشح بكسائه، وألقى الكساء الآخر الذي كان على ظهره في رجليه، وقام يصلي فلم يزل قائما حتى إذا خشي الصبح سجد، ثم أوتر ثم صلى ركعتي الفجر، وأقيمت الصَّلاة فدخل مع النَّاس في الصَّلاة، ودخلت معه فلما سلم الإمام خرج من المسجد، وخرجت خلفه فجعل يمشي وأتبعه، حتى دخل دارا قد عرفتها من دور المدينة، ورجعت إلى المسجد، فلما طلعت الشمس وصليت خرجت حتى أتيت الدار، فإذا أنا به قاعد يخرز وإذا هو إسكاف!! فلما رآني عرفني، وقال: أبا عبد الله مرحبا، ألك حاجة؟! تريد أن أعمل لك

خفا، فجلست، فقلت: ألست صاحبي بارحة الأولى، فاسود وجهه وصاح بي، وقال: ابن المنكدر! ما أنت وذاك؟! وغضب، قَالَ: ففرقت والله منه رجاء أخرج من عنده الآن، فلما كان في الليلة الثالثة، صليت العشاء الآخرة في مسجد رسول الله ﷺ ثم أتيت ساريتي ؛ فتساندت إليها فلم يجيء قَالَ قلت: إنا لله! ما صنعت؟! فلما أصبحت ؛ جلست في المسجد حتى طلعت الشمس، ثم خرجت حتى أتيت الدار التي كان فيها، فإذا باب البيت مفتوح، وإذا ليس في البيت شيء، فقال لي أهل الدار: يا أبا عبد الله ما كان بينك وبين هذا أمس، قلت: ماله؟! قالوا: لما خرجت من عنده أمس، بسط كساءه في وسط البيت، ثم لم يدع في بيته جلدا، ولا قالبا، إلا وضعه في كسائه ؛ ثم حمله ثم خرج فلم ندر أين ذهب؟! قَالَ محمد بن المنكدر: فما تركت بالمدينة دارا أعلمها إلا طلبته فيها فلم أجده رحمه الله.[1]

*****

---

(١) ابن الجوزي (صفة الصفوة ٢/ ١٩١).

* ومن آفات عبودية القلب:

٣- آفات العوائد

أي ما تعود عليه النَّاس، وهي من أعظم الآفات وأخطرها على سير العبد، فما حال بين الكفّار وبين الهداية إلا أُلف التعود على ماكان عليه من سبق.

قَالَ تَعَالَى:﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢].

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ من نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٣].

فالعادات حالت بين هؤلاء وبين الانتقال إلى الحق، ولما رأى هؤلاء كُبراءَهم يصدون عن السبيل، ويُلبسون عليهم الحق، حال ذلك بينهم وبين اتباع الحق.

﴿وَانطَلَقَ الملأ مِنْهُمْ أَن امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الملَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾ [سورة ص: ٦-٧].

فلذلك كانت دعوة أصحاب العادات من أعسر ما يكون، فما تصادم القوم مع الرسل إلا بما تعودوا عليه من دين الآباء، وإلف العادات.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٠].

ولقد ظل النَّبِيّ ﷺ يهدم في عادات الجاهلية حجرًا حجرًا ؛ حتى أنشأ أعظم جيل عرفته البشرية ؛ معظمًا لله عز وجل، ومتبعًا لمنهجه سبحانه وتعالى.

فإلف العادات قد يبعد العبد عن طريق العبادة، فلا يتبع إلا ما عليه النَّاس، ولا يعظم إلا ما يعظمه النَّاس، فإن جاء أمر من أمر الله لا يعظمه النَّاس ؛ أو وقعت فيه مخالفة وهجر ؛ لم يستطع أن يقيمه.

قَالَ الشاطبي رحمه الله [(١)]: وكُلُّ صاحب مخالفة فمن شأنه أن يدعو غيره إليها ، ويحض سؤاله بل سواه عليها ، إذ التأسي في الأفعال والمذاهب موضوع طلبه في الجبلة ، وبسببه تقع من المخالف المخالفة ، وتحصل من الموافق المؤالفة ، ومنه تنشأ العداوة والبغضاء للمختلفين.

كان الإسلام في أوله وجِدَّتِه مقاومًا بل ظاهرًا ، وأهله غالبون وسوادهم أعظم الأسودة ، فخلا مِنْ وصف الغربة بكثرة الأهل والأولياءِ الناصرين ، فلم يكن لغيرهم ممن لم يسلك سبيلهم أو سلكه ولكنه ابتدع فيه صولةٌ يعظم موقعها ، ولا قوة يضعف دونها حزب اللهّ المفلحون ، فصار على استقامة ، وجرى على اجتماع واتساق ، فالشّاذ مقهور مضطهد ، إلى أن أخذ اجتماعه في الافتراق الموعود ؛ وقوته إلى الضعف المنتظر ، والشّاذ عنه تقوى صولته ويكثر سواده ، واقتضى سرَّ التأسي المطالبة بالموافقة، ولا شك أن الغالب أغلب ، فتكالبت على سواد السُّنة البدع والأهواء ، فتفرق أكثرهم شيعًا.
وهذه سنة اللهّ في الخلق: إن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل لقوله تَعَالَى: ﴿وما أكْثَر النَّاس ولوْ حَرصتْ بمُؤمِنِين﴾[يوسف: ١٠٣] ، وقوله تَعَالَى: ﴿وقلِيلٌ من عِبَادي الشَّكُورُ﴾[سبأ: ١٣] ولينجز الله ما وعد به نبيه ﷺ من عود وصف الغربة إليه ، فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم ، وذلك حين يصير المعروف منكرًا ؛ والمنكر معروفًا ، وتصير السُّنة بدعة ، والبدعة سنة ، فيقام على أهل السُّنة بالتثريب والتعنيف ؛ كما كان أولًا يقام على أهل البدعة ، طمعًا من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال ، ويأبى الله أن تجتمع حتى تقوم الساعة ، فلا تجتمع الفرق كلها ـ على كثرتها ـ على مخالفة السُّنة عادة وسمعًا ، بل لا بد أن تثبت جماعة أهل السُّنة حتى يأتي أمر الله ، غير أنهم لكثرة ما تناوشهم الفرق الضالة وتناصبهم العداوة والبغضاء استدعاء إلى موافقتهم ، لا يزالون

(١)الاعتصام (١/ ٢٦).

في جهاد ونزاع ، ومدافعة وقراع ؛ آناءَ الليل والنَّهار، وبذلك يضاعف الله لهم الأجر الجزيل، ويثيبهم الثَّواب العظيم.

فقد تلخص مما تقدم أن مطالبة المخالف بالموافقة جَارٍ مع الأزمان لا يختص بزمان دون زمان ، فمن وافق فهو عند المطالب المصيب على أي حال كان ، ومن خالف فهو المخطيء المصيب ، ومن وافق فهو المحمود السعيد ، ومن خالف فهو المذموم المطرود ، ومن وافق فقد سلك سبيل الهداية ، ومن خالف فقد تاه في طرق الضلالة والغواية.اهـ.

ولذلك كلما كان الأمر مهجورًا، والناس بمنأى عنه ؛ كُلَّما علا وعظم الأجر لمن قام به، لأن ذلك من تعظيم الله سبحانه وتعالى، ومعرف العبد بسر خلقه، ولذلك يجب على العبد أن يعلم أن الله سبحانه خلقه لبقاءٍ لا فناء له، ولعزٍّ لا ذل معه، وأمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر معه، ولذة لا ألم معها، وكمال لا نقص فيه، وامتحنه في هذه الدّار بالبقاء الذي يسرع إليه الفناء، والعز الذي يقارنه الذل، ويعقبه الذل والأمن الذي معه الخوف وبعده الخوف، وكذلك الغناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذي هنا مشوب بضده لأنه يتعقبه ضده وهو سريع الزوال، فغلط أكثر الخلق في هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه في غير محله ففاتهم في محله وأكثرهم لم يظفر بما طلبه من ذلك والذي ظفر به إنما هو متاع قليل، والزّوال قريب فإنه سريع الزَّوال عنه، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم إنما جاءوا بالدعوة إلى النعيم المقيم، والملك الكبير، فمن أجابهم حصل له ألذ ما في الدنيا وأطيبه، فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمن دونهم، فإن الزهد في الدنيا ملك حاضر، والشيطان يحسد المؤمن عليه أعظم حسد، فيحرص كل الحرص على أن لا يصل إليه، فإن العبد إذا ملك شهوته وغضبه ؛ فانقادا معه لداعي الدين، فهو الملك حقًا لأن صاحب هذا الملك حر، والملك المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه، فهو مسخر مملوك في زي مالك يقوده زمام الشّهوة والغضب كما يقاد البعير، فالمغرور المخدوع يقطع نظره على الملك الظاهر ؛ الذي صورته ملك وباطنه رق، وعلى الشهوة التي أولها لذة وآخرها حسرة، والبصير الموفق

يعبر نظره من الأوائل إلى الأواخر، ومن المبادئ إلى العواقب، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

فنجاة العبد وفلاحه في الخروج عن الاعتياد ؛ فإنها أعداء الكمال والفلاح، فلا أفلح من استمر مع عوائده أبدًا، ويستعين على الخروج عن العوايد بالهرب عن مظان الفتنة، فإن العادة دين يطاع فلا يعصى، فإذا انضافت إليه الشَّهوة تظاهر جندان من جند الشيطان، فلا يقوى باعث الدين على قهرهما إلا من رحمه الله.

والمطلب الأعلى من الانقياد والاتباع موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة، فمن فقدهما تعذر عليه الوصول إليهما، فإن الهمة إذا كانت عالية والنية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إلي ربه دون قواطع العادات، فالنية تفرد له الطريق والهمة تفرد له المطلوب فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول إلى ربه ومولاه هو غايته ومقصده.

*****

*** ومن آفات عبودية القلب:**

٤- آفات البدع

والبدعة: من بدَعَ الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعًا، وابْتَدَعَه: أَنشأه وبدأه، وأَبْدَعَ الشيء اخترعه لا على مثال، وأصل هذه الكلمة من الاختراع، وهو الشيء الذي يحدث من غير أصل سابق ولا مثال احتذي ولا ألف مثله ومنه قولهم: أبدع الله الخلق، أي خلقهم ابتداء ومنه قوله تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: ١١٧].

وقوله تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا من الرُّسُلِ﴾ [سورة الأحقاف: ٩].

أي لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض. وهذا الاسم يحل فيما تخترعه القلوب، وفيما تنطق به الألسنة وفيما تفعله الجوارح[١].

و البِدْعةُ في الشرع: الحدث في الدين بعد الإكمال.

قَالَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تَعَالَى: البدعة في الدِّين هي ما لم يشرعه الله ورسوله ﷺ: وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب[٢].

وقال أيضًا: والبدعة ما خالف الكتاب والسُّنة ، أو إجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات: كأقوال الخوارج ، والروافض ، والقدرية ، والجهمية ، وكالذين يتعبدون بالرقص والغناء في المساجد ، والذين يتعبدون بحلق اللحى ، وأكل الحشيشة ، وأنواع ذلك من البدع التي يتعبد بها طوائف من المخالفين للكتاب والسنة ، والله أعلم[٣].

فمن أخلص أعماله لله ، متبعًا في ذلك رسول الله ﷺ ، فهذا الذي عمله مقبول ، ومن فقد الإخلاص ، والمتابعة لرسول الله ﷺ، أو أحدهما فعمله مردود

---

(١) "الحوادث والبدع" للطرطوشي.

(٢) فتاوى ابن تيمية ٤/ ١٠٧ – ١٠٨.

(٣) فتاوى ابن تيمية ١٨/ ٣٤٦، وانظر: فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ٤١٤.

داخل في قوله تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا من عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ومن جمع الأمرين فهو داخل في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، وفي قوله تَعَالَى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، فحديث عمر رضي الله عنه: «**إنما الأعمال بالنيات**» ميزان للأعمال الباطنة، وحديث عائشة رضي الله عنها: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**» ميزان للأعمال الظاهرة ، فهما حديثان عظيمان يدخل فيهما الدِّين كله: أصوله ، وفروعه ، ظاهره وباطنه ، أقواله ، وأفعاله(١).

والبدعة آفة في طريق الاتباع، فمهما ادعى العبد المحبة والإخلاص، فالطرق أمامه مسدودة، حتى يدخل من باب الاتباع، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٣١]

*** فجعل الله سبحانه وتعالى شرط المحبة الاتباع:**

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «**إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**».(٢)

*** فالسّائر إلى الله سبحانه وتعالى لا بد له من مراحل يقطعها، فإن قطعها لاح له الطّريق وبان، وهذه المراحل عليها أبواب:**

أولها: باب ألاخلاص قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْ الله مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لله الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: ٢-٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ**

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار، للسعدي ، ص ١٠.
(٢) رواه مسلم (٨٦٧).

عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١)

والباب الثاني: المتابعة لقوله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢١]

وَعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ من حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ من حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ ؛ أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ من السَّبُعِ، وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ، فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ»(٢)

والباب الثالث: متابعة الصحابة في فهم الكتاب والسُّنة لقوله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ من بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ١١٥].

*** فهنا جعل سبحانه وتعالى متابعة الصحابة من علامات صحة الطريق:**

عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ؛ ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ الله قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ؛ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»(٣)

ونرى في هذا الحديث أمر النَّبِيُّ ﷺ بمتابعته ومتابعة الخلفاء الراشدين، إذ الأمر الذي هم عليه من المتابعة كما كان في عهد النَّبِيّ ﷺ لم يتغير، ولذلك جمع النَّبِيّ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٦٠٤) أحمد (٤/ ١٣٠).

(٣) حسن: رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال حديث حسن صحيح ، أحمد (٤/ ١٢٦).

ﷺ بينهما بقوله: عَضُّوا عَلَيْهَا.

* وقد جاء في ذَمِّ البِدْعَةِ نصوص كثيرة من الكتاب والسُّنة ، وحذر منها الصحابة والتابعون لهم بإحسان:

أولًا: من القرآن:

قَالَ الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِين فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾ [آل عمران: ٧] .

وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه ، وهو السنة ، والسبل هي سبل أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط وهم أهل البدع(١)، فهذه الآية تشمل النهي عن جميع طرق البدع(٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى الله قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩] فالسبيل القصد هو طريق الحق ، وما سواه جائر عن الحق: أي عادل عنه ، وهي طرق البدع والضلالات(٣).

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى الله ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وهؤلاء هم أصحاب الأهواء، والضلالات، والبدع من هذه الأمة(٤).

وقال عز وجل: ﴿وَلا تَكُونُوا من المشْرِكِينَ، من الَّذِين فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا

---

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي، ١/ ٧٦.
(٢) انظر: الاعتصام للشاطبي، ١/ ٧٨.
(٣) انظر: الاعتصام للشاطبي، ١/ ٧٨.
(٤) انظر: الاعتصام للشاطبي، ١/ ١٧٩.

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا من فَوْقِكُمْ أَوْ من تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقال الله تَعَالَى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، والله عز وجل أعلم[١].

ثانيًا: من السُّنَّـة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ من الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ من أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ من الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ ؛ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ من آثَامِهِمْ شَيْئًا**».[٢]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ، وَيَقُولُ: بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله. وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ[٣].

وقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: "أيها النَّاس إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوِّموني"[٤].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السُّنن

---

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي، ١/ ٧٠-٩١.

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٤).

(٣) رواه مسلم (٨٦٧).

(٤) الطبقات الكبرى، ٣/ ١٣٦.

أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا"(١).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم، كل بدعة ضلالة"(٢).

كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى رجلٍ فقال: "أما بعد: أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته"(٣).

وقال الحسن البصري رحمه الله: "لا يصح القول إلا بعمل، ولا يصح قول وعمل إلا بنية، ولا يصح قول وعمل ونية إلا بالسُّنة"(٤).

وقال الإمام الشّافِعي رحمه الله: "حُكْمِي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنة وأخذ في الكلام"(٥).

وقال الإمام مالك رحمه الله: "من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ دينًا، فلا يكون اليوم دينًا"(٦).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: "أصول السُّنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء وترك البدع، وكل بدعة ضلالة، وترك الخصومات،

---

(١) أخرجه اللالكائي "شرح "اعتقاد أهل السنة والجماعة" ١/ ١٣٩، برقم (٢٠١).

(٢) الطبراني في المعجم الكبير، ٩/ ١٥٤، برقم (٨٧٧٠) وقال الهيثمي "مجمع الزوائد": ١/ ١٨١: "ورجاله رجال الصحيح".

(٣) سنن أبي داود (٤٦١٢).

(٤) اللالكائي "شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة" ١/ ٦٣، برقم (١٨).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية، ٩/ ١١٦.

(٦) الاعتصام، للإمام الشاطبي، ١/ ٦٥.

والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدِّين"(١).

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ أَوَّلَ الدِّينِ تَرْكًا السُّنَّةُ يَذْهَبُ الدِّينُ سُنَّةً سُنَّةً، كَمَا يَذْهَبُ الْحَبْلُ قُوَّةً قُوَّةً.

عَنْ حَسَّان قَالَ: مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بِدْعَةً فِي دِينِهِمْ إِلَّا نَزَعَ الله من سُنَّتِهِمْ مِثْلَهَا ثُمَّ لَا يُعِيدُهَا إِلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.(٢)

أنواع البدع

والبدع منها ما يتعلق بالعقائد، ومنها ما يتعلق بباقي العبادات وهي البدع العملية، والبدع أقسام:

* القسم الأول: البدعة الأصلية والفرعية:

البدعة الأصلية: وهي التي لم يدل عليها دليل شرعي لا من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع، ولا استدلال معتبر عند أهل العلم، لا في الجملة ولا في التفصيل؛ ولذلك سميت بدعة؛ لأنها شيء مخترع في الدين على غير مثال سابق(٣)، ومن أمثلة ذلك: التقرب إلى الله عز وجل بأي صورة من الصور التي لم يأذن بها الله وليس لها دليل من كتاب أو سنة.

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ الله عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**».(٤)

---

(١) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، ١/ ١٧٦.
(٢) رواهما الدارمي (٩٨-٩٩).
(٣) انظر: الاعتصام للشاطبي، (١/ ٣٦٧).
(٤) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨).

قَالَ الحافظ ابن رجب[١]: فهذا الحديث بمنطوقه يدل على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود، ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره فهو غير مردود، والمراد بأمره هاهنا دينه وشرعه، كالمراد بقوله في الرواية الأخرى من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد، فالمعنى إذًا أن من كان عمله خارجا عن الشرع ليس متقيدًا بالشرع فهو مردود، وقوله ليس عليه أمرنا إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة فتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها فمن كان عمله جاريًا تحت أحكام الشريعة موافقًا لها فهو مقبول ومن كان خارجًا عن ذلك فهو مردود، فأما العبادات فما كان منها خارجًا عن حكم الله ورسوله بالكلية فهو مردود على عامله، وعامله يدخل تحت قوله تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ من الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ [سورة الشورى: ٢١].

فمن تقرب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله، فعمله باطل مردود عليه، وهو شبيه بحال الَّذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية، وهذا كمن تقرب إلى الله تَعَالَى بسماع الملاهي، أو بالرقص، أو بكشف الرأس في غير الإحرام، وما أشبه ذلك من المحدثات التي لم يشرع الله ورسوله التقرب بها بالكلية، وليس ما كان قربة في عبادة يكون قربة في غيرها مطلقا، فقد رأى النَّبِيّ ﷺ رجلا قائما في الشمس فسأل عنه فقيل إنه نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل وأن يصوم، فأمره النَّبِيّ ﷺ أن يقعد ويستظل، وأن يتم صومه. فلم يجعل قيامه وبروزه في الشمس قربة يوفي بنذرهما، وقد روي أن ذلك كان في يوم جمعة عند سماع خطبة النَّبِيّ ﷺ وهو على المنبر، فنذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ما دام النَّبِيّ ﷺ يخطب ؛ إعظاما لسماع خطبة النَّبِيّ ﷺ، ولم يجعل النَّبِيّ ﷺ ذلك قربة يوفي بنذره، مع أن القيام عبادة في مواضع أخر: كالصلاة، والأذان، والدعاء بعرفة، والبروز للشمس قربة للمحرم، فدل على أنه ليس كل ما كان قربة في موطن يكون قربة في كل المواطن، وإنما يتبع في ذلك كله ما وردت به الشريعة في

(١) جامع العلوم والحكم (٧٧).

مواضعها، وكذلك من تقرب بعبادة نهي عنها بخصوصها كمن صام يوم العيد أو صلى وقت النهي.اهـ..

٢- البدعة الفرعية: وهي التي لها جهتان:

إحداهما: لها من الأدلة متعلق فلا تكون من تلك الجهة بدعة.

والأخرى: ليس لها متعلق إلا مثل ما للبدعة الأصلية: أي إنها بالنسبة لإحدى الجهتين سنة لاستنادها إلى دليل ، وبالنسبة إلى الجهة الأخرى بدعة لأنها مستندة إلى شبهة لا إلى دليل ، ولأنها مستندة إلى شيء ، والفرق بينهما من جهة المعنى أن الدليل عليها من جهة الأصل قائم ، ومن جهة الكيفيات ، أو الأحوال ، أو التفاصيل لم يقم عليها مع أنها محتاجة إليه ؛ لأن الغالب وقوعها في التعبديات لا في العادات المحضة[١]،

ففي رواية لمسلم من حديث عائشة رضي الله عنها[٢]: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**».

قَالَ الحافظ ابن رجب[٣]: وأما من عمل عملًا أصله مشروع وقربة ثم أدخل فيه ما ليس بمشروع، أو أخل فيه بمشروع فهذا أيضا مخالف للشريعة بقدر إخلاله بما أخل به، أو إدخاله ما أدخل فيه، وهل يكون عمله من أصله مردودا عليه أو لا ؛ فهذا لا يطلق القول فيه برد ولا قبول، بل ينظر فيه فإن كان ما أخل به من أجزاء العمل أو شروطه موجبًا لبطلانه في الشريعة ؛ كمن أخل بالطهارة مع القدرة عليها، أو كمن أخل بالركوع أو بالسجود مع الطمأنينة فيهما، فهذا عمل مردود عليه، وعليه إعادته إن كان فرضا، وإن كان ما أخل به لا يوجب بطلان العمل كمن أخل بالجماعة للصلاة المكتوبة عند من يوجبها ولا يجعلها شرطا، فهذا لا يقال إن عمله مردود من أصله بل هو ناقص، وإن كان قد زاد في العمل المشروع ما ليس بمشروع فزيادته مردودة عليه ؛

---

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي، ١/ ٣٦٧، ٤٤٥.

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

(٣) جامع العلوم والحكم (٧٩).

بمعنى أنها لا تكون قربة ولا يثاب عليها، ولكن تارة يبطل بها العمل من أصله فيكون مردودا، كمن زاد ركعة عمدا في صلاته مثلا، وتارة لا يبطله ولا يرده من أصله ؛ كمن توضأ أربعًا أربعًا، أو صام الليل مع النهار وواصل في صيامه، وقد يبدّل ما يؤمر به في العبادة بما هو منهي عنه، كمن ستر عورته في الصَّلاة بثوب محرم، أو تؤضأ للصلاة بماء مغصوب، أو صلى في بقعة غصب، فهذا قد اختلف العلماء فيه: هل عمله مردود من أصله، أو أنه غير مردود وتبرأ به الذمة من عهدة الواجب، وأكثر الفقهاء على أنه ليس بمردود من أصله.اهـ.

ومن أمثلة ذلك: الذِّكر أدبار الصلوات ، أو في أي وقت على هيئة الاجتماع بصوت واحد ، أو يدعو الإمام والناس يؤمنون أدبار الصلوات ، فالذكر مشروع ، ولكن أداؤه على هذه الكيفية غير مشروع وبدعة مخالفة للسنة[١] ومن ذلك تخصيص يوم النصف من شعبان بصيام وليلته بقيام ، وصلاة الرغائب في أول ليلة جمعة من رجب، وهذه بدع منكرة ، وهي بدعة إضافية ؛ لأن عبادات الصَّلاة والصيام الأصل فيها المشروعية ، لكن يأتي الابتداع في تخصيص الزمان ، أو المكان ، أو الكيفية ؛ فإن ذلك لم يأت في كتاب ولا سنة ، فهي مشروعة باعتبار ذاتها بدعة باعتبار ما عرض لها[٢].

* القسم الثاني: البدعة التَّركية:

وهي ترك شيء لم يأذن الشارع في تركه على سبيل التعبد بالترك تدخل في عموم تعريف البدعة ، من حيث إنها "طريقة في الدِّين مخترعة"[٣]، فقد يقع الابتداع بنفس الترك تحريمًا للمتروك ، أو غير تحريم ؛ فإن الفعل – مثلًا – قد يكون حلالًا بالشرع فيحرمه الإنسان على نفسه أو يقصد تركه قصدًا، فهذا الترك إما أن يكون لأمر يُعتبر شرعًا أو لا: فإن كان لأمر يعتبر فلا حرج فيه ؛ لأنه ترك ما يجوز تركه أو ما يُطلب بتركه، كالذي يمنع نفسه من الطعام الفلاني

(١) انظر الاعتصام للشاطبي ١/ ٤٥٢.
(٢) انظر: أصول في البدع والسنن، للشيخ العدوي، ص٣٠
(٣) انظر: الاعتصام للشاطبي ، ١/ ٥٧.

من أجل أنه يضره في جسمه ، أو عقله ، أو دينه، وما أشبه ذلك، فلا مانع هنا من الترك ، وهذا راجع إلى الحمية من المضرات ، وأصله:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ».(1)

وكذلك لو ترك ما لا بأس به حذرًا مما به بأس ، وهذا كترك المشتبه حذرًا من الوقوع في الحرام ، واستبراءً للدين والعرض.

وإن كان الترك لغير ذلك ، فإما أن يكون تديُّنًا أو لا ؛ فإن لم يكن تدينًا فالتارك عابث بتحريمه الفعل ، أو بعزيمته على الترك ، ولا يسمى هذا الترك بدعة ؛ لأنه لا يدخل تحت لفظ الحد ، إلا على الطريقة الثانية القائلة: إن البدعة تدخل في العادات ، وأما على الطريقة الأولى ، فلا يدخل ، لكن هذا التارك يكون مخالفًا بتركه ، أو باعتقاده التحريم فيما أحل الله ، وإثم المخالفة يختلف باختلاف درجات المتروك: من حيث: الوجوب ، والندب.

أما إن كان التَّرك تديُّنًا فهو الابتداع في الدين ، سواء كان المتروك مباحًا أو مأمورًا به، وسواء كان في العبادات، أو المعاملات، أو العادات: بالقول، أو الفعل، أو الاعتقاد، إذا قصد بتركه التعبد لله كان مبتدعًا بتركه(2)، ومن الأدلة على أن الترك في مثل ذلك يكون بدعة: قصة الثلاثة الَّذين جاءوا إلى بيوت أزواج النَّبيّ ﷺ يسألون عن عبادته.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه - قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِن النَّبِيّ ﷺ! قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ

---

(1) رواه البخاري (١٩٠٥) ومسلم (١٤٠٠).
(2) انظر: الاعتصام، للشاطبي، (١/ ٥٨).

أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِين قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا! أَمَا وَالله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».(١)

والبدع كثيرة، فعلى مر العصور والدهور لا يزال النَّاس يتركون من السنة ويحدثون في الدِّين مالم يأذن به الله، فتعددت المنابع، واختلفت الوجهات، ولا عاصم للعبد إلا أن يتمسك بالكتاب والسنة، ويوحد المنبع ويستقي من الأصل العذب الصّافي الذي لم يكدره كثرة الدلاء.

قَالَ ابن القيم رحمه الله(٢): وبالجملة فتجعل الرسول ﷺ شيخك، وأستاذك ومعلمك، ومربيك ومؤدبك، وتسقط الوسائط بينك وبينه ؛ إلا في التبليغ، كما تسقط الوسائل بينك وبين المرسل في العبودية، ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك، وهذان الأمران هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله والله، وحده هو المعبود المألوه الذي لا يستحق العبادة سواه، ورسوله المطاع المتبع المهتدى به الذي لا يستحق الطاعة سواه، ومن سواه فإنما يطاع إذا أمر الرسول ﷺ بطاعته، فيطاع تبعًا للأصل، وبالجملة فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ، واقتدى به في ظاهره وباطنه، فلا يتعنى السالك على غير هذا الطريق، فليس حظه من سلوكه إلا التعب، وأعماله ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ الله عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَالله سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [سورة النـور: ٣٩].

ولا يتعنى السالك على هذا الطريق ؛ فإنه واصل ولو زحف زحفًا، فأتباع الرسول ﷺ إذا قعدت بهم أعمالهم ؛ قامت بهم عزائمهم وهممهم ومتابعتهم لنبيهم كما قيل:

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ المدَلَّلِ ... تَمْشِي رُوَيْدًا وَتَجِي فِي الأَولِ

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٥٠).

والمنحرفون عن طريقه إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم ؛ قعد بهم عدوهم عن طريقه.

فَهُمْ فِي السُّرَى لَمْ يَبْرَحُوا من مَكَانِهِم وَمَا ظَعَنُوا فِي السَّيرِ عَنْهُ وَقَدْ كَلُّوا.اهـ.

قيل لسفيان الثوري: ذهب النَّاس يا أبا عبد الله، وبقينا على حمر دبرة[١]، فقال الثوري: ما أحسن حالها لو كانت على الطريق.[٢]

ذُكِر عند عبد الرحمن بن مهدي قوم من أهل البدع واجتهادهم في العبادة، فقال: لا يقبل الله إلا ما كان على الأمر والسنة ثم قرأ:

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الحديد: ٢٧].

فلم يقبل ذلك منهم ووبخهم عليه.

ثم قَالَ: الزم الطَّريق والسنة.

وكان عبد الرحمن يكره الجلوس الى أصحاب الرأي وأصحاب الأهواء، ويكره أن يجالسهم أو يماريهم، فقلت له: أترى للرجل إذا كانت له خصومة وأراد أن يكتب عهده أن يأتيهم؟ قَالَ: لَا!مَشيُك إليهم توقيرٌ ؛ وقد جاء فيمن وقَّرَ صاحب بدعة ما جاء [٣].

فالاتباع إن لم يكن واضحًا عند العبد، سقط بين آفات الابتداع، وخرج عن الطَّريق.

*****

(١) أي في المؤخرة.
(٢) أبو نعيم "الحلية" (٦/ ٣٧٩).
(٣) أبو نعيم "الحلية" (٩/ ٨).

*** ومن آفات عبودية القلب:**

٥- آفاتُ العُجْبِ

والعُجب آفة عظيمة في طريق العبودية، إذ قد يأتي العبد بطاعات، ويجتهد في باب من العبادات، فيأخذه العُجْب بعمله ؛ فيخدش ما عنده من ذُلّ وفقر ومسكنة لله سبحانه وتعالى، ويشعر أنه له عند الله يد ومِنَّة، فيتحول إلى كبر وغرور، ولا يزال كذلك حتى يحبط عمله، وربما يتكبر على عباد الله لما يشعر ما له عند الله فيسقط في المعاصي والذُّنوب، وهو مغتر بطاعاته معجب بها متكبر على من يظن أنه دُونه، وقد يكون عند الله أعظم منه، غافل عن جُرْمِهِ وذنوبه مغتر بإمهال الله له.

وقد ذكر لنا المولى سبحانه وتعالى من قصة قارون، وكيف تعدَّى بنعم الله على من خوله إياها وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [سورة القصص: ٧٨]

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ من قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ من الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ الله لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [سورة القصص: ٧٦].

فانظر لحال هذا العبد وما أنعم الله عليه من النِّعم الظّاهرة ؛ من الأموال والكنوز ما تحار فيه العقول ؛ مما زاده عُجبا بنفسه وماله، وكِبرا على خلق الله وعباده.

فكانت العاقبة أن أوقع الله به العقاب، وجعل في سيرته العِبرة لأولي الألباب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ من فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ من دُونِ الله وَمَا كَانَ من الْمُنتَصِرِينَ﴾ [سورة القصص: ٨١].

*** وعلى هذا المنوال وهذا الطريق يمضي كُلُّ معجب بنفسه، فيلحقه الله بعقابه العاجل أو يؤخره إلى يوم القيامة:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ قَدْ

أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ الله بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».(١)

عَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا لله وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، دَعَاهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ من أَيِّ حُلَلِ الْإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا. قَالَ أَبُو عِيسَى: وَمَعْنَى قَوْلِهِ حُلَلِ الْإِيمَانِ: يَعْنِي مَا يُعْطَى أَهْلُ الْإِيمَانِ من حُلَلِ الْجَنَّةِ».(٢)

وعن خالد بن مَعْدان قَالَ: لا يَفْقَه الرَّجل كُلَّ الفقه حتى يرى النَّاس في جنب الله أمثال الأباعر، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أحقرَ حاقر.(٣)

قَالَ أبو وهب المروزي: سألت ابن المبارك ما الكِبر؟ قَالَ: أن تزدري النَّاس، فسألته عن العُجب؟ قَالَ: أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شَيئًا شرًا من العُجب.(٤)

وقد يؤدي العُجْبُ إلى الكفر بالله عزَّ وجل كما وقع لصاحب الجنتين، أنعم الله عليه بنعمه، وزاده من عطاياه ؛ فأعرض ونأى بجانبه، واغتر بحلم الله، فدفعته نفسه إلى الظُّلم والأشر والبطر.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [سورة الكهف: ٣٤-٣٦].

فالعُجب إن لم يكسره العبد بعلمه بحقيقة نفسه، وذُلِّه ومهانته، وأنه عاجز أن يقيم نفسه، وإن باب العمل مهما عظم فلن يدخل على ربه به ؛ إلا من باب رحمته، وإن لم يرحمه الله هلك.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٨٨).

(٢) حسن: رواه الترمذي (٢٤٨١) والحاكم "المستدرك" (١/ ٦١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٧).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَلَا أَنْتَ! قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**».(١)

فَتَفَقُّد القلب حال العمل من شِيَمِ الأتقياء، فإن العبد لا يزال يعمل العمل فينظر إلى أثره في قلبه فلا يزال يُصلحه حتى يكون من المقربين، ومن العباد من يعمل العمل دون النظر إلى أثره وثمرته في قلبه فهو قانع أنه على الطَّريق فيظهر مكنون قلبه من طباعٍ سيئة، وصفات ذميمة ؛ تؤدي به إلى الانقطاع.

ومن هذا الصنف أقوامٌ أحكموا بعض العلم والعمل، فواظبوا على الطّاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قُلوبهم ليمحوا منها الصفات المذمومة عند الله: كالعُجب، والكِبر، وطَلَبِ الرِّئاسة، والعلو، وإرادة السوء للأقران والنظراء، وطلب الشهرة بين العباد، ونظرًا لغلبة الهوى ربما يكب أحدهم عليه ويجعله عبادة، من غير تَحَرُّزٍ من ضابط من شرع، أو مخالفةِ لهوى، فهم تعاهدوا الأعمال وما تعاهدوا القلوب -والقلب هو الأصل - إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلبٍ سَليم، وأمثال هؤلاء كقبور الموتى ؛ التي زُخرف ظاهرها وباطنها مظلم، فما من معصية إلا وأصولها ومغارسها في القلب، فمن لا يطهر قلبه منها لا تتم له الطّاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة، فهو إن صام بالنهار أفطر على أعراض المسلمين، وإن قام الليل نام على جيفة أخيه، وإن قصد طاعة دمَّر من قلبه ألف عبادة، وذلك لسوء قصده، وعدم تعهده لعلل وأمراض قلبه.

قَالَ الشّافِعي رحمه الله: إذا أنت خِفْت على عملك العُجب، فانظر: رضا من تطلب، وفي أي ثواب ترغب، ومن أي عِقاب ترهب، وأي عافية تشكر، وأي بلاءٍ تذكر. فإنك إذا تفكرت في واحدةٍ من هذه الخصال، صَغُر في عينك عملك.

وقال أيضًا: ما رفعت من أحدٍ فوق منزلته ؛ إلا وُضع مني بمقدار ما رفعت منه.

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٦).

وقال أيضًا: آلات الرياسة خمس: صِدْق اللَّهجة، وكتمان السِّر، والوفاء بالعهد، وإبداء النَّصيحة، وأداء الأمانة.(١)

قَالَ ابن القيم رحمه الله (٢): بل ربما تكون المعصية أنفع للعبد من طاعته ؛ إن أحدثت له إفاقة وكسرت سُويداء قلبه، وأوقعت له من الذُّل والخضوع والإنابة والحذر؛ والخوف من الله والبكاء من خشية الله عز وجل، وقد تُقَوِّي على هذه الأمور حتى يعود التائب إلى درجةٍ أرفع من درجته، ويصير بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة، فإنها نفت عنه داء العُجب، وخلَّصته من ثقته بنفسه وأعماله، ووضعت خَدَّ ضراعته وذله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه، وعرَّفته قدره، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده له ومولاه، وإلى عفوه عنه ومغفرته له، وأخرجت من قلبه صولة الطَّاعة، وكسرت أنفه من أن يشمخ بها، أو يتكبر بها أو يرى نفسه بها خيرًا من غيره، وأوقفته بين يدي ربه مَوْقِف الخطّائين المذنبين، ناكس الرأس بين يدي ربه، مستحيًا خائفًا منه، وجلًا محتقرًا لطاعته، مستعظمًا لمعصيته، عرف نفسه بالنَّقص والذَّم، وربه متفرد بالكمال والحمد الوافي. اهـ.

والعُجب يُورَث من الكبر والرِّياء، وضعف الصِّدق، وقلة اليقين، وتشتت النية، وعدم تجرد الباعث من الهوى، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي ترضاه لربك ؛ لإعجابك به، وغير ذلك من عيوب النفس ومفسدات الأعمال، وقد ترى من شِدَّة العُجب أن لك عند النَّاس حقوقًا مُلْزَمِين بأدائها لك، فتطالبهم بها في نفسك، فإن قصَّروا وقع اللَّوم ؛ إما تلميحًا أو تصريحًا، ويحجب قلبك عن رؤية فضل كل ذي فضل عليك ؛ فلا تراعي حقوق النَّاس فتؤديها، وترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم، لا يلزمك أن تعاوضهم عليها، فإن هذا من هوى النفس وغلبة الحمق.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٢).
(٢) الجواب الكافي (٥٩).

قَالَ رَجُلٌ للفضيل بن عياض: أَوْصِني، قَالَ: أَخْفِ مَكَانَك ؛ لا تُعْرَفْ فَتُكْرَمْ بِعَمَلِك، واخزن لِسانك إلا من خيرٍ، وتعاهد قلبك أن لا يقسو، وهل تدري ما قساوة من أذنب(١).

عن أيوب قَالَ: قِيلَ لِعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين لو أتيت المدينة، فإن قضى الله موتًا دُفنت في موضع القبر الرّابع مع رسول الله ﷺ، قَالَ: «**والله لأن يُعذّبني الله بغير النار أحب إلي من أن يعلم من قلبي أني أراني لذلك أهلًا**».(٢)

*****

(١)أبو نعيم "الحلية" (٨/ ٩٧).

(٢)سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤١).

* ومن آفات عبودية القلب:

٦- آفات التعلق بالدنيا

أخي الحبيب: أتعلم أن الدنيا دارُ رَحيل، وأن البقاءَ فيها مستحيل، جعلها الله سبحانه وتعالى دار اختبار وبلاء، قَالَ سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [سورة الكهف: ٧].

وقال عز وجل: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ من الله وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [سورة الحديد: ٢٠]

فالدُّنيا كما وصفها من خلقها بأنها زينة، وأن زوالها محتوم وأنها كزرعٍ لا بد له من مَنْجَلِ الحصّاد، أو تذروه الرياح في أي وادٍ سحيق.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلًا من بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ، قَالَ: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**» قَالُوا: وَالله لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ، فَقَالَ: «**فَوَالله لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى الله من هَذَا عَلَيْكُمْ**». (١)

* **فالدُّنيا لا خير فيها إلا ما كان من طاعة الله والأمر بعبادته:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ**

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٧).

مَا فِيهَا ؛ إِلَّا ذِكْرُ الله وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٍ أَوْ مُتَعَلِّمٍ».(١)

وللدنيا مع القلب عِلاقة وهي حُبُّه لها وحظُّه منها، فإن وجه العبد هذه العلاقة لإصلاح آخرته ؛ انصلحت له الدُّنيا والآخرة، وإن أَكَبَّ عليها وانشغل بها أفسدته وضيعته، وفسدت له الدُّنيا والآخرة.

قَالَ أبو حازم: إن بِضَاعة الآخرة كاسدة، فاستكثروا منها في أوان كَسَادِها، فإنه لو قد جاء يوم نفاقها لم تصل منها لا إلى قليلٍ ولا إلى كثير.(٢)

وعن أبي بكر بن عياش، قَالَ: إنَّ أحدهم لو سقط منه دِرْهم ؛ لظلَّ يومه يقول: إنا لله! ذهب دِرْهمي، ولا يقول: ذهب يومي ما عملت فيه.(٣)

قَالَ مسلمة بن عبد الملك(٤): دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيتٍ كان يخلو فيه بعد الفجر ؛ فلا يدخل عليه أَحَدٌ، فجاءت جاريةٌ بطبقٍ عليه تمر صبحاني - وكان يعجبه التَّمر - فرفع بكفه منه فقال: يا مسلمة أترى لو أن رجلًا أكل هذا، ثم شَرِب عليه الماء ؛ فإن الماء على التَّمر طيب، أكان يجزيه إلى الليل؟ قلت: لا أدري! فرفع أكثر منه، قَالَ: فهذا؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين كان كافيه دون هذا، حتى ما يبالي أن لا يذوق طعاما غيره، قَالَ: فَعَلام نَدْخل النّار؟ قَالَ مسلمة: فما وقعت مني موعظة ما وقعت هذه.(٥)

قَالَ إبراهيم التيمي: أيُّ حَسْرَةٍ أكبر على امرئ من أن يَرَى عَبْدًا كان له خوله الله إياه في الدنيا ؛ هو أفضل منزلة منه عند الله يوم القيامة؟ وأيُّ حَسْرَةٍ على امرئ أكبر من أن يصيب مالا فيرثه غيره ؛ فيعمل فيه بطاعةِ الله تَعَالَى فيصير وزره عليه وأجره لغيره؟ وأيُّ

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٣٢٢) وابن ماجة (٤١١٢).
(٢) حلية الأولياء (٢/ ٢٤٢).
(٣) حلية الأولياء (٨/ ٣٠٣).
(٤) هو ابن عبد الملك بن مروان أخو زوجة عمر.
(٥) حلية الأولياء (٥/ ٢٧٧).

حَسْرَةٍ على امرئ أكبر من أن يرى من كان مكفوف البصر ؛ ففتح له عن بصره يوم القيامة، وعَمِيَ هو؟ إنَّ مَنْ كان قبلكم يفرُّون من الدنيا وهي مقبلة عليهم، ولهم من القدم ما لهم، وأنتم تتبعونها وهي مدبرة عنكم ولكم من الأحداث ما لكم، فقيسوا أمركم وأمر القوم، ثم قَالَ: أيُّ حَسْرَةٍ عَلَى امرئ أكبر من أن يُؤتيه الله عِلْمًا فلم يعمل به فسمعه منه غيره فعَمِل به ؛ فيرى منفعته يوم القيامة لغيره؟[١]

يقول ابن القيم رحمه الله[٢]: والعَجَبُ كُلُّ العجب من غفلةِ مَنْ لحظاته معدودة عليه، وكلُّ نَفَسٍ من أنفاسه لا قيمة له ؛ إذا ذهب لم يرجع إليه، ولا يدري إلى أي الدّارين يُنقل، فإذا نزل به الموت اشتد قلقه لخراب ذاته وذهاب لذّاته، بخلاف مَن وفقه الله لطاعته ومرضاته ؛ فقد رأوا مِن أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ في أبدٍ لا يزول ولا ينفد؛ بِصَبَابَة عيشٍ كأضغاث أحلام، أو كطيفٍ زار في المنام، مشوب بالنغص ممزوج بالغصص، إن أضحك قليلًا أبكى كثيرًا، وإن سرَّ يومًا أحزن شهورًا، فيا عجبًا ممن آثر الحظَّ الفاني الخسيس على الحظِّ الباقي النَّفيس، وباعَ جنةً عرضها السَّماواتُ والأرضُ بسجنٍ ضَيِّقٍ بين أربابِ العاهاتِ والبليات! ومساكنَ طيبةً في جناتِ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار، بأعطانٍ ضيقةٍ آخرها الخراب والبوار! وأبكارًا عُربًا أترابًا كأنهن الياقوت والمرجان، بقذراتٍ دنساتٍ سيئاتِ الأخلاق مسافحاتٍ أو متخذاتِ أخدان! وحورًا مقصوراتٍ في الخيامِ بخبيثاتٍ مسبياتٍ بين الأنام! وأنهارًا من خمرٍ لذَّةٍ للشّاربين، بشرابٍ نجسٍ مُذهب للعقل مُفْسِدٍ للدُّنيا والدِّين! ولَذَّةَ النظر إلى وجه العزيز الرحيم، بالتمتعِ برؤية الوجه القبيح الذَّمِيم! وسماعَ الخطاب من الرحمن، بسماعِ المعازفِ والغناءِ والألحان، والجلوسَ على منابرِ اللؤلؤ والياقوتِ والزبرجدِ يوم المزيد، بالجلوسِ في مجالسِ الفسوقِ مع كُلِّ شيطانٍ مريد.اهـ.

---

(١) حلية الأولياء (٤/ ٢١٤).

(٢) حادي الأرواح (٤).

* فالسباق السباق والبدار البدار:

حُكْمُ المنِيَّةِ فِي البَرِيَّةِ جَارِي مَا هَذِهِ الدُّنْيا بِدَارِ قَرَارِ
اقْضُوا مَآرِبَكُم سِرَاعًا إنَّمَا أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ من الأَسْفَارِ
وَتَرَاكَضُوا خَيْلَ السِّبَاقِ وَبَادِرُوا أَنْ تُسْتَرَدَّ فَإِنَّهُنْ عَوَارِي
وَدَعُوا الإِقَامَةَ تَحْتَ ظِلٍ زَائِلٍ أَنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ بِهَذِي الدَّارِ
مَنْ يَرْجُو طِيبَ العَيْشِ فِيهَا إِنَّمَا يَبْنِي الرَّجاء عَلَى شَفِيرٍ هَارِ
والعَيْشُ كُلُّ العَيْشِ بَعْدَ فِرَاقِهَا فِي دَارِ أَهْلِ السَّبْقِ أَكْرَم دَارِ

*****

ثانيًا: آفات اللِّسان

وعبادة اللِّسان كما ذكرنا من أجلِّ العبادات وأعظمها، لِيُسْرِها وسهولتها على العباد ؛ ولكن قد يعرض لها من الآفات ما يهدم العبادة كلها، ويهوي العبد على أُمِّ رأسه في النار. ولذلك أُمر العبد أولا بالإمساك عن الكلام إذ لا خطر من سَطْوَةِ اللِّسان وشَرِّهِ إلا بالصَّمت، وإلجامه عن الخوض في الكلام دُربة له، وتخلية عما تعوَّد عليه.

فنتيجة إطلاق اللِّسان: هي بَثُّ الوهن والفرقة والخصام والتنازع بين المسلمين، وقطع الطريق على العاملين، وإخماد العزائم بالقيل والقال، إنك ما إن ترى الرَّجل حسن المظهر ؛ عليه علامات الخير، قد تمسك بالسُّنةِ في ظاهره إلا وتقع الهيبة في قلبك، والاحترام والتقدير في نفسك له، وما إن يتكلم فيُجَرِّح فلانًا، ويُعرِّض بعلان، و ينتقص هذا ويغمز ذا، إلا وَتُنْـزَعُ مهابته من قلبك، ويسقط من عينك ؛ وإن كان حقًا ما يقول، وإن كان صادقًا فيه، فلا حاجة شرعية دعت لذلك، وإن دعت الحاجة فبالضوابط الشَّرعية، والقواعد الحديثية التي وضعها العلماء.

*** فإن لم تعلمها أخي المسلم!! فلا أستطيع أن أقول إلا «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ»:**

وذلك لأن علم ما يُحْمَد في اللِّسان أو يُذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على مَن عرفه ثقيل عسير، إذ أعصى الأعضاءِ على الإنسان اللِّسان، فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مؤنة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصايده وحبائله، وإنه أعظم آلة للشيطان في استغواء الإنسان.

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**

فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ».(١)

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: لَقِيتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ لِي: «يَا عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ: أَمْلِكْ لِسَانَكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ».

وَكَانَ فَرْوَةُ بْنُ مُجَاهِدٍ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ يَقُولُ: أَلَا فَرُبَّ مَنْ لَا يَمْلِكُ لِسَانَهُ، أَوْ لَا يَبْكِي عَلَى خَطِيئَتِهِ، وَلَا يَسَعُهُ بَيْتُهُ.(٢)

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ».(٣)

بل كان للسَّلف في شأن اللِّسان أمر عجيب: دَخَلَ عُمَرُ بْن الْخَطَّابِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَهُوَ يَجْبِذُ لِسَانَهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَهْ! غَفَرَ الله لَكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ.(٤)

وآفات اللِّسان كثيرة: إذ هو أسهل الأعضاء حركة، وأيسرها مؤنة فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مؤنة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته، والحذر من مصايده وحبائله.

فمنها: فضول الكلام، والخوض في الباطل، والمراء، والخصومة، والتقعر في الكلام بالتشدق، والفحش، والسَّب، واللعن، والسُّخرية، والكذب، والبهتان، وغيرها من الآفات، وأشدها خطرًا وأعظمها جرمًا؛ آفة الغِيبة!! ومن ثم أفردتها ببعض بيان.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٦) ومسلم (٤٨)
(٢) حسن: أحمد (٤/ ١٥٨)
(٣) رواه البخاري (٦٤٧٤)
(٤) رواه مالك (١٨٥٠)

* ومن آفات عبودية اللسان:

١- القول على الله بغير علم

فمن أعظم الآفات وأخطرها على الإطلاق القول على الله بغير علم، وهي جُرْأة عجيبة وبغي بغير حق، وقد عَدَّه سبحانه وتعالى من عظائم الأمور، فقال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٣٣].

وغالبًا يحدث هذا من الأحداث الذين لم يخوضوا غِمار طلب العلم، أو ممن تصدَّر قبل أوانه فيحتاج إلى الفُتيا لتكثير أتباعه، وإبقاء مكانته بينهم فَيَنْسِبُ إلى الشَّرع ما لا يعلم.

*** ويكثر هذا عند غَيْبة العُلماء، وتطاول السُّفهاء، وإسداء الأمر لغير أهله:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ الله ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «**أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟!**» قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ الله! قَالَ: «**فَإِذَا ضُيِّعَتْ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ**». قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «**إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ**».(١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ،**

(١) رواه البخاري (٥٩).

وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ»، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ».(١).

*** ولقد كان السَّلف ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ يفزعون لعلمهم أن شخصًا أفتى أو يفتي بغير علم:**

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ يُحَدِّثُ فِي كِنْدَةَ، فَقَالَ: يَجِيءُ دُخَانٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ المنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ، يَأْخُذُ المؤْمِنَ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ! فَفَزِعْنَا، فَأَتَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ - وَكَانَ مُتَّكِئًا - فَغَضِبَ فَجَلَسَ، فَقَالَ: مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ الله أَعْلَمُ، فَإِنَّ من الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ لَا أَعْلَمُ، فَإِنَّ الله قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ من أَجْرٍ وَمَا أَنَا من المتَكَلِّفِينَ﴾. (٢)

قَالَ مَالِكٌ: وَجَدْتُ رَبِيعَةَ يَوْمًا يَبْكِي! فَقِيلَ لَهُ: مَا الَّذِي أَبْكَاكَ؟ أَمُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِكَ؟! فَقَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَبْكَانِي أَنَّهُ اسْتُفْتِيَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ، وَقَالَ: لَبَعْضُ مَنْ يُفْتِي هَا هُنَا أَحَقُّ بِالسِّجْنِ من السَّارِقِ.(٣)

فالحذر الحذر من شهوة التَّصدُّر بغير علم ومن التَّقول على الله مالم يقل ؛ أو أن تنسب لدين الله ما ليس منه.

قَالَ ابْنِ المنْكَدِرِ: إِنَّ الْعَالِمَ يَدْخُلُ فِيمَا بَيْنَ الله وَبَيْنَ عِبَادِهِ، فَلْيَطْلُبْ لِنَفْسِهِ المخْرَجَ(٤).

*** ولذلك ليس بعجيب أن تَسْمَع عَنْ إمام من الأئمة الكبار إن سُئل عمَّا لا يعلم يقول: لا أعلم:**

قَالَ أَبُو عَقِيلٍ صَاحِبُ بُهَيَّةَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ الْقَاسِمِ بْنِ عُبَيْدِ الله وَيَحْيَى بْنِ

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٩١).
(٢) رواه البخاري (٤٧٧٤) ومسلم (٢٧٩٨).
(٣) التمهيد (٣/ ٥).
(٤) رواه الدرمي (١٣٧).

سَعِيدٍ، فَقَالَ: يَحْيَى لِلْقَاسِمِ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّهُ قَبِيحٌ عَلَى مِثْلِكَ عَظِيمٌ أَنْ تُسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ من أَمْرِ هَذَا الدِّينِ، فَلَا يُوجَدَ عِنْدَكَ مِنْهُ عِلْمٌ وَلَا فَرَجٌ أَوْ عِلْمٌ وَلَا مَخْرَجٌ، فَقَالَ لَهُ الْقَاسِمُ: وَعَمَّ ذَاكَ؟! قَالَ: لِأَنَّكَ ابْنُ إِمَامَيْ هُدًى!! ابْنُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ! قَالَ يَقُولُ لَهُ الْقَاسِمُ: أَقْبَحُ من ذَاكَ عِنْدَ مَنْ عَقَلَ عَن الله ؛ أَنْ أَقُولَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، أَوْ آخُذَ عَنْ غَيْرِ ثِقَةٍ. قَالَ: فَسَكَتَ فَمَا أَجَابَهُ.(١)

عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي زَائِدَةَ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ أَنْ يَقُولَ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ: لَا عِلْمَ لِي بِهِ، من الشَّعْبِيِّ.(٢)

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى يَقُولُ: لَقَدْ أَدْرَكْتُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ عِشْرِينَ وَمِائَةً من الْأَنْصَارِ، وَمَا مِنْهُمْ من أَحَدٍ يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْحَدِيثَ، وَلَا يُسْأَلُ عَنْ فُتْيَا إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْفُتْيَا. (٣)

*** فاحذر أخي الحبيب أن تُعَرِّض نفسك للهلكة فتكون جسرا إلى نار جهنم:**

فَعَن الرَّبِيعِ قَالَ: قَالَ الشَّافِعِي: مَنْ طَلَبَ الرِّيَاسَةَ فَرَّتْ مِنْهُ، وَإِذَا تَصَدَّرَ الْحَدَثُ فَاتَهُ عِلْمٌ كَثِير. (٤)

قَالَ ابن القيم رحمه الله (٥): وأمّا القَوْلُ عَلَى الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات تحريمًا، وأعظمها إثمًا، ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان، ولا تباح بحالٍ بل لا تكون إلا محرمة وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير الذي يباح في حالٍ دون حال، فإن المحرمات نوعان:

---

(١) مقدمة مسلم.
(٢) رواه الدارمي (١٣٧).
(٣) رواه الدارمي (١٣٢).
(٤) صفة الصفوة (٢/ ٢٥٢).
(٥) مدارج السالكين (١/ ٤٠٥).

ـ محرم لذاته لا يباح بحال.

ـ ومحرم تحريمًا عارضًا في وقت دون وقت.

قَالَ الله تَعَالَى في المحرَّم لذاته: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال ﴿ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[سورة الأعراف: ٣٣].

فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثمًا، فإنه يتضمن الكذب على الله ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله ، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثمًا. وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم، ولهذا اشتد نكير السَّلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذروا فتنتهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان، إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد، وقد أنكر تَعَالَى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله فقال: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى الله الْكَذِبَ﴾ [سورة النحل: ١١٦].

فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه وتعالى ما لم يصف به نفسه، أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه، قَالَ بعض السَّلف: ليحذر أحدكم أن يقول أحل الله كذا وحرم الله كذا، فيقول الله: كذبت، لم أحل هذا ولم أحرم هذا، يعني التحليل والتحريم بالرأي المجرد بلا برهان من الله ورسوله.

وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم، فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودًا من دون الله يقر به إلى الله، ويشفع له عنده ويقضى حاجته بواسطته كما

تكون الوسائط عند الملوك، فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس، إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله. فهو أعم من الشرك، والشرك فرد من أفراده، ولهذا كان الكذب على رسول الله موجبا لدخول النار، واتخاذ منزلة منها مبوءا، وهو المنزل اللازم لا يفارقه صاحبه، لأنه متضمن للقول على الله بلا علم، كصريح الكذب عليه لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المرسل، والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا.

*****

*** ومن آفات عبودية اللسان:**

٢ـ الغِيبة

وهي مرضٌ خطير وداءٌ دفين يفسد القلب، ويمحو الحب، ويقطع روابط الأخوة، ويجتث العبادة من أُصولها ؛ يَهدم الحسنات، ويُعَظِّم السيئات، ويُعمي البصر والبصيرة، والصبر على هجرانه صعب، والتَّخلص منه أصعب.

وقد قُرن بين الدَّم والعرض في أكثر من موضع، لما لحرمة المسلم عند الله سبحانه وتعالى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُلُّ المسْلِمِ عَلَى المسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**».(١)

*** فكلُّ ما يؤذي المسلم حرام، ومن أعظم الإيذاء ذكره بما يكره:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الغِيبة؟**» قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**»، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ! قَالَ: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**».(٢)

وهذه عائشة رضي الله عنها تذكر أمام النَّبِيِّ ﷺ صفةً لإحدى أمهات المؤمنين ؛ فيغضب عليها.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ من صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا - تَعْنِي قَصِيرَةً - فَقَالَ: «**لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**».(٣)

وكتب رجل إلى ابن عمر أن اكتب إلي بالعلم كُلِّه، فكتب إليه إن العلم كثير،

---

(١) ومسلم (٢٥٦٤).

(٢) ومسلم (٢٥٨٩).

(٣) صحيح: أبو داود (٤٨٧٥) والترمذي (٢٥٠٢) وأحمد (٦/ ١٨٩).

ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء النَّاس، خميص البطن من أموالهم، كاف اللِّسان عن أعراضهم، لازمًا لأمر جماعتهم فافعل.(١)

وقال سفيان الثوري: لأن أرمي إنسانًا بسهم ؛ أحب إلي من أن أرميه بلساني.(٢)

وقال مالك بن دينار: كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينًا للخونة، وكفى بالمرء شرًا أن لا يكون صالحًا ويقع في الصالحين.(٣)

قَالَ الأصمعي: وقال الشاعر(٤):

كُلُّ العَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا ... إِلَا عَدَاوَة مَنْ عَادَاكَ بِالْحَسَدِ

وقال أبو العباس بن محمد بن يزيد المعروف بالمبرد(٥):

عَيْنُ الحَسُودِ عَلَيْكَ الدَّهْرَ حَارِسَةٌ ... تُبْدِي المَسَاوِئَ وَالإِحْسَانُ تُخْفِيهِ

يَلْقَاكَ بِالْشَّرِّ تُبْدِيهِ مَكَاشِرُهُ ... وَالقَلْبُ مُنْكَتِمٌ فِيهِ الَّذِي فِيهِ

إِنَّ الحَسُودَ بِلَا جُرْمٍ عَدَاوَتُهُ ... وَلَيْسَ يَقْبَلُ عُذْرًا فِي تَجَنِّيهِ

وقال علي بن محمد العلوي الجمّال الشّافِعي رحمه الله(٦):

وَذِي حَسَدٍ يَغْتَابُنِي حَيْثُ لَا يَرَى ... مَكَانِي وَيُثْنِي صَالِحًا حَيْثُ أَسْمَعُ

تَوَرَّعْتُ أَنْ أَغْتَابَهُ من وَرَائِهِ ... وَهَا هُو ذَا يَغْتَابُنِي مُتَوَرِّعُ

وما أحسن ما قيل:

وَتَرَى الكَرِيمَ إِذَا تَصَرَّمَ وَصْلُهُ ... يُخْفِي القَبِيحَ وَيُظْهِرُ الإِحْسَانَا

وَتَرَى اللَّئِيمَ إِذَا تَقَضَّى وَصْلُهُ ... يُخْفِي الجَمِيلَ وَيُظْهِرُ البُهْتَانَا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٢٢).
(٢) البيهقي "شعب الإيمان" (٥/ ٣١٦).
(٣) صفة الصفوة (٣/ ٢٨٢).
(٤) البيهقي "شعب الإيمان" (٥/ ٢٧٤).
(٥) البيهقي "شعب الإيمان" (٥/ ٢٧٤).
(٦) البيهقي "شعب الإيمان" (٥/ ٢٧٤).

أنواع الغِيبة

وأنواع الغِيبة كثيرة..وإليك هذا الكلام النفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذكر أنواع الغِيبة.

قَالَ شيخ الإسلام رحمه الله[1]: فمن النَّاس من يغتاب موافقةً لجلسائه وأصحابه وعشائره، مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون، أو فيه بعض ما يقولون، لكن يرى أنه لو أنكر عليهم قطع المجلس، واستثقله أهل المجلس ونفروا عنه، فيرى موافقتهم من حسن المعاشرة، وطيب المصاحبة، وقد يغضبون فيغضب لغضبهم فيخوض معهم.

ومنهم من يُخرج الغِيبة في قوالب شتى تارة في قالب ديانة وصلاح، فيقول: ليس لي عادة أن أذكر أحدًا إلا بخير، ولا أحب الغِيبة ولا الكذب، وإنما أخبركم بأحواله. يقول: والله إنه مسكين، أو رجل جيد ؛ ولكن فيه كيت وكيت. وربما يقول: دعونا منه الله يغفر لنا وله، وإنما قصده استنقاصه وهضمًا لجنابه، ويخرجون الغِيبة في قوالب صلاحٍ وديانة، يخادعون الله بذلك كما يخادعون مخلوقًا، وقد رأينا منهم ألوانًا كثيرة من هذا وأشباهه.

ومنهم من يرفع غيره رياء، فيرفع نفسه فيقول: لو دعوت البارحة في صلاتي لفلان ؛ لما بلغني عنه كيت وكيت، ليرفع نفسه ويضعه عند من يعتقده، أو يقول: فلان بليد الذِّهن، قليل الفهم، وقصده مدح نفسه وإثبات معرفته، وأنه أفضل منه.

ومنهم من يحمله الحسد على الغِيبة، فيجمع بين أمرين قبيحين الغِيبة والحسد، وإذا أثنى على شخص أزال ذلك عنه بما استطاع من تَنقُّصِهِ في قالب دين وصلاح، أو في قالب حسد وفجور وقدح، ليسقط ذلك عنه.

ومنهم من يخرج الغِيبة في قالب تمسخرٍ ولعبٍ، ليضحك غيره باستهزائه

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٣٧).

ومحاكاته واستصغار المستهزأ به.

ومنهم من يخرج الغِيبة في قالبِ التَّعجب فيقول: تعجبت من فلان! كيف لا يفعل كيت وكيت، ومن فلان! وقع منه كيت وكيت، وكيف فعل كيت وكيت! فيخرج اسمه في معرض تعجبه.

ومنهم من يخرجها بالاغتمام فيقول: مسكين فلان غمَّني ما جرى له، وما تَمَّ له، فيظن من يسمعه أنه يغتم له ويتأسف، وقلبه منطوٍ على التشفي به، ولو قدر لزاد على ما به، وربما يذكره عند أعدائه ليشتفوا به، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه.

ومنهم من يُظهر الغِيبة في قالبِ غضب وإنكار منكر، فيظهر في هذا الباب أشياء من زخارف القول، وقصده غير ما أظهر والله المستعان. اهـ.

قَالَ الفُضَيْل: حسناتك من عدوك أكثر منها من صديقك. قيل: وكيف ذاك يا أبا علي! قَالَ: إنَّ صديقك إذا ذُكِرت بين يديه قَالَ: عافاه الله، وعدوك إذا ذُكِرت بين يديه، يغتابك الليل والنهار، وإنما يدفع المسكين حسناته إليك، فلا ترض إذا ذُكر بين يديك أن تقول: اللهم أهلكه، لا بل ادع الله، اللهم أصلحه، اللهم راجع به، ويكون الله يُعطيك أجر ما دعوت به، فإنَّه من قَالَ لرجلٍ: اللهم أهلكه فقد أعطى الشَّيطان سؤاله، لأن الشَّيطان إنما يدور على هلاك الخلق.[1]

*** صيانة عهد الإخوة:**

ولذلك فإنه يجب لصيانة عهد الأخوة أن لا تدع أحدًا يغتاب أمامك مسلمًا، فإن له عليك حقوقًا سيطالبك بها يوم القيامة.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا -، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**المسْلِمُ أَخُو المسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ الله فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ**

---

(١) أبو نعيم "الحلية" (٨/ ٩٧)

مُسْلِمٍ كُرْبَةً ؛ فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً من كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (١)

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، وَأَبِي طَلْحَةَ بْنَ سَهْلٍ الْأَنْصَارِيّ قَالَا: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا من امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ من عِرْضِهِ، إِلَّا خَذَلَهُ الله فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا من امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ من عِرْضِهِ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ من حُرْمَتِهِ، إِلَّا نَصَرَهُ الله فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ». (٢)

فإذا أسلمه لخصم أو غريم فهذا من الخذلان، فإن إهماله لتمزيق عرضه كإهماله لتمزيق لحمه، فأخسس بأخٍ يراك والكلابُ تفترسك، وتمزق لحومك، وهو ساكتٌ لا تحركه المحبة، والحمية للدفاع عنك! وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم، وقد شبهه سبحانه وتعالى بآكل لحوم الميتة قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [سورة الحجرات: ١٢].

فحماية الأخوة وتوثيق رباط المحبة بدفع ذم الأعداء، وتعنت المتعنتين ؛ واجب في عقد المحبة.

وفي قصة كعب بن مالك، حينما تخلَّف عن غزوة تبوك ؛ فذكره رجل في غيبته، فقام إليه معاذ بن جبل منافحًا، ورد غيبة كعب ؛ حتى أن كعبًا ظلَّ يذكرها لمعاذ ـ رضي الله عنه ـ.

قَالَ كَعْبٌ: وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ: وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟» فَقَالَ رَجُلٌ من بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ الله! حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ: مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَالله يَا رَسُولَ الله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا. (٣)

وكان بين خالد وسعد كلامًا، فذهب رجل يقع في خالد عند سعد، فقال: مه!! إن

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠).
(٢) حسن: أبو داود (٤٨٨٤) وأحمد (٤/ ٣٠).
(٣) رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩).

ما بيننا لم يبلغ ديننا.(١)

وعن عامرٍ الشعبي عن ابن عباس قَالَ: قَالَ لي أبي: يا بني أرى أمير المؤمنين يُقربك ويخلو بك، ويستشيرك مع ناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، فاحفظ عني ثلاثًا: **«اتق الله لا تَفْشِيَنَّ له سرًا، ولا يجربنَّ عليك كذبة، ولا تغتابن عنده أحدًا»**.

قَالَ عامر: فقلت لابن عباس يا ابن عباس: كُلُّ واحدةٍ خير من ألف، قَالَ: نَعَمْ وَمِنْ عَشْرَةِ آلاف.(٢)

فأعظمُ المحبة إظهارها في غيبته ؛ فهي الدَّليل على صدق دعواك، فمهما قُصِدَ بسوء، أو تُعُرِّض لعرضه بكلامٍ صريحٍ أو تعريض، فحق الأخوة التشميرُ في الحماية والنُّصرة، وتبكيت المتعنت، وتغليظ القول عليه. والسُّكوت عن ذلك مُوغر للصَّدر، ومنفر للقلب، وتقصير في حق الأخوة، فواجب عليك إذا ذُكِر في غيبته بالسُّوء أن تنصره، وترد عنه، وإذا رأيت من يريد أذاه في غيبته فَرُدَّهُ عن ذلك، فَإِنَّ النُّصح في الغيب يدل على صدق الناصح، فإن المرء قد يظهر النصح في حضوره تملقًا، ويغُشُّه في غِيبَتِهِ.

عُيوب النَّفس أولاً

فهذا المتهتك الذي لا يدع لأحدٍ حُرْمة، بل نصَّب نفسه جاسوسًا لأعراض المسلمين، يعرف أخبارهم ويهتك أستارهم، فعنده في كُلِّ يوم جديد، وفي كل مجلس خبر، فلو أنه انشغل بنفسه، وفتش عن عُيوبه وداواها ؛ لكان خيرًا له في الدنيا والآخرة، فإنه لا يجتمع مغتاب وسامع ؛ إلا وهما على شاكلةٍ واحدة.

قيل للربيع: ما نراك تعيب أحدًا ولا تذمه؟! فقال: ما أنا عن نفسي براضٍ فأتفرغ من

(١) أبو نعيم "حلية الأولياء" (١/ ٩٥).
(٢) فضائل الصحابة (١٨٦٢).

ذنبي إلى حديث غيري، إن النَّاس خافوا الله تَعَالَى على ذنوب النَّاس ؛ وأمنوه على نفوسهم.[١]

قَالَ بَكّار بن محمد: ما سمعت ابن عون ذاكرًا بلال بن أبي بردة[٢] بشيء قط، ولقد بلغني أن قومًا قالوا: يا ابن عون بلال فعل بك كذا وكذا، فقال: إن الرجل يكون مظلومًا ؛ فلا يزال يقول: حتى يكون ظالما، ما أظن أحدًا منكم أشد على بلال مني. قَالَ: وكان بلال قد ضربه بالسِّياط، لأنه كان تزوج امرأة عربية.[٣]

وعن الحسن قَالَ: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه.[٤]

وعن عُروة أن المسور بن مخرمة أخبره: أنه وفد على معاوية فقضى حاجته، ثم خلا به، فقال: يا مسور! ما فعل طعنُك على الأئمة؟ قَالَ: دَعْنا من هذا وأَحْسِن، قَالَ: لا والله لتكلِّمني بذات نفسك بالذي تعيب عَلَيّ، قَالَ مِسْور: فلم أترك شيئًا أعيبه عليه إلا بيَّنت له، فقال: لا أبرأ من الذنب، فهل تَعُدُّ لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة ؛ فإن الحسنةَ بِعَشْرِ أمثالها، أم تعد الذنوب وتترك المحاسن؟ قَالَ: ما تُذْكَرُ إلا الذُّنوب، قَالَ معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشى أن تُهْلِكك إن لم تُغفر؟ قَالَ: نعم، قَالَ: فما يجعلك الله برجاء المغفرة أحقَّ مني!! فوالله ما ألي من الإصلاح أكثرُ مما تلي، ولكن والله لا أُخَيَّر بين أمرين ؛ بين الله وبين غيره إلا اخترت الله على ما سواه، وإني لعلى دِينٍ يُقبل فيه العمل، ويُجزى فيه بالحسنات، ويُجزى فيه بالذّنوب، إلا أن يعفو الله عنها، قَالَ: فخصمني. قَالَ عروة: فلم أسمع المسور ذكر معاوية إلا صَلّى عليه.[٥]

وقال ابن مهدي: لولا أني أكره أن يعصى الله، لتمنيت أن لا يبقى أحد في المصر إلا اغتابني، أيُّ شيءٍ أهنأ من حسنةٍ يجدها الرَّجل في صحيفته لم يعملها.[٦]

---

(١) حلية (٢/ ١١٠).
(٢) كان أميرا على البصرة.
(٣) الطبقات الكبرى (٧/ ٢٦٣).
(٤) البيهقي "شعب الإيمان" (٤/ ١٦٦).
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٠).
(٦) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٩٥).

سمع ابن سيرين رجلًا يسب الحجّاج، فأقبل عليه فقال: مه أيها الرجل! فإنك لو قد وافيت الآخرة كان أصغر ذنب عملته قط ؛ أعظم عليك من أعظم ذنب عَمِله الحجّاج، واعلم أن الله تَعَالَى حَكَمٌ عَدْلٌ، إن أخذ من الحجاج لمن ظلمه، فسوف يأخذ للحجاج ممن ظلمه، فلا تشغلن نفسك بسبِّ أحد.(١)

وقيل لمحمد بن سيرين: يا أبا بكر إن رجلًا قد اغتابك فَتُحِلَّه، قَالَ: مَا كُنْتُ لِأُحِلَّ شيئًا حرَّمه الله.(٢)

قَالَ رجل للإمام أحمد: قد اغتبتك فاجعلني في حِلٍّ، قَالَ: أنت في حِلٍّ إن لم تعد، فقيل له: أتجعله في حِلٍّ يا أبا عبد الله وقد اغتابك؟! قَالَ الم ترني اشترطت عليه؟.(٣)

قَالَ ابن عون: أحب لكم يا معشر إخواني ثلاثا: هذا القرآن تتلونه آناء الليل والنهار، ولزوم الجماعة، والكف عن أعراض المسلمين.(٤)

عن جعفر بن برقان قَالَ: بلغني عن يونس بن عبيد فضل وصلاح، فأحببت أن أكتب إليه أسأله، فكتب إليه: أتاني كتابك تسألني أن أكتب إليك بما أنا عليه؟! فأخبرك: أني عرضت علي نفسي أن تحب للناس ما تحب لها، وتكره لهم ما تكره لها، فإذا هي من ذاك بعيدة، ثم عرضت عليها مرة أخرى ترك ذكرهم إلا من خير، فوجدت الصوم في اليوم الحار أيسر عليها من ذلك، هذا أمري يا أخي والسلام.(٥)

وقال مورق العجلي: أَمرٌ أنا في طلبه منذ كذا وكذا سنة، لم أقدر عليه ؛ ولست بتارك طلبه أبدا، قالوا: وما هو؟! قَالَ: الكف عما لا يعنيني.(٦)

---

(١) أبو نعيم الحلية (٢/ ٢٧١).
(٢) أبو نعيم الحلية (٢/ ٢٦٣).
(٣) أبو نعيم الحلية (٩/ ١٧٤).
(٤) أبو نعيم الحلية (٣/ ٤١).
(٥) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٩٠).
(٦) ابن أبي الدنيا "الصمت" (٥٧٥).

وإذا عُلم من المغتاب نية في التوبة فالعفو أقرب وأفضل، وخاصة إن كان له سابقة فضل، فعن حفص بن حميد قَالَ: إذا عرفت الرجل بالمودة ؛ فسيئاته كلها مغفورة، وإذا عرفته بالعداوة ؛ فحسناته كلها مردودة عليه.(١)

عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ أَنَّهَا قَالَتْ: مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله فَيَنْتَقِمَ لله بِهَا. (٢)

عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ -زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ- حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا الله مِنْهُ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ـ رضي الله عنه ـ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَالله لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَالله إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ الله لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ.(٣)

ومن كلام أمير المؤمنين المنتصر – وقد عفا عن بعض خصومه – لذة العفو أعذب من لذة التشفي وأقبح فعال المقتدر الانتقام.(٤)

موضع اللِّسان عند تغير الزمان

أتدري أين موضع لسانك عند تغير زمانك؟!

إن استطعت أن تضع عليه قفلا، فلا تفتحه إلا من خير ؛ فافعل، فعند تغير الزمان، وفساد الخلان، وقلة الأعوان، فالحبس أولى للسان.

مَرَّ رَجُلٌ على رجل فسلَّم عليه، فقال له الرَّجل الذي سَلَّم عليه: يا أخي لو

(١) البيهقي "شعب الإيمان"(٦/ ٣٢٥).
(٢) رواه البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧).
(٣) رواه البخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤)

كَشَفْتُ لك عن حالي ما سَلَّمْت علي! فقال له الرجل الذي سَلَّم عليه: يا أخي لو كشفت لي عُيوبك ؛ لكان في عُيوبي ما يشغلني عن جميع عُيوبك.(١)

فهذه الخلال يندر وجودها لتغير الزَّمان، وندرة الإخوان، وضعف الدِّين - فإلى الله المشتكى.

وهذا لا يعني التشاؤم من جميع النَّاس ؛ فهذا ينافي الإيمان، فإن الحب جوهرة نفيسة، والطَّريق إليها سهلٌ ميسرة، ولكن الكل في هذا الزَّمان إلا من مَنَّ عليه الرحمن ؛ قد وضع على عينيه عصابةً سوداء ؛ فلا يرى إلا ما تحسه اليدان، بينما لو رفع العصابة لرأى الجوهرة أمامه ؛ لأنها الفطرة الكامنة في نفس كل إنسان، ولكن لتغير الزمان وقلة الخلان وضعف الدِّين، قد تطفو بعض الخصال على ما كان عليه الأُول، فيغتر بها ضعيف الإيمان، فيجاري أهل زمانه سلامة من أذى كل لسان.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاس سِنُونَ خَدَّاعَةٌ: يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**».(٢)

قَالَ سهل بن عبد الله: تظهر في النَّاس أشياء: يُنْزَع منهم الخشوع بتركهم الورع، ويذهب منهم العلم بإظهار الكلام، ويضيعون الفرائض باجتهادهم في النَّوافل، ويصير نقض العهود وتضييع الأمانة وارتفاعها من بينهم عَلَمًا، ويرفع من بين المنسوبين إلى الصلاح في آخر الزمان عِلْمُ الخشية وعِلْمُ الورع وعِلْمُ المراقبة ؛ فيكون بدل عِلْمِ الخشية وساوس الدنيا، وبدل عِلْمِ الورع وساوس العدو، وبدل عِلْمِ المراقبة حديث النفس ووساوسها، قيل: ولم ذلك يا أبا محمد؟! قَالَ: تظهر في القرّاء دعوى التوكل والحب

---

(١) ابن الجوزي "بستان الواعظين" (٦١)

(٢) صحيح: أحمد (٢/ ٢٩١) ابن ماجة (٤٠٣٦) والحاكم "المستدرك" (٤/ ٥١٢) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذَّهبي.

والمقامات، ترى أحدهم يصوم ويصلي عشرين سنة، وهو يأكل الربا ولا يحفظ لسانه من الغِيبة، ولا عينه وجوارحه مما نهى الله عنه.(١)

ولذلك كان الفضل العظيم، والثَّواب الجزيل لمن حفظ لسانه، فإن سأل سائل ما سبب هذا الفضل الكبير في الصَّمت؟

فالجواب: أن سببه كثرة آفات اللِّسان من الخطأ، والكذب، والغيبة والنميمة، والرياء، والنفاق، والفحش، والمراء، وتزكية النفس، والخوض في الباطل، والخصومة، والفضول، والتحريف والزيادة والنقصان، وإيذاء الخلق، وهتك العورات.

قَالَ أحمد بن الحواري: قَالَ أبو سليمان الداراني: لا تعاتب أحدا من الخلق في زماننا، فإنك إن عاتبته أعقبك بأشد مما عاتبته، دعه بالأمر الأول فهو خير له - أي السكوت. قَالَ أحمد: فجربت فوجدته على ما قَالَ.(٢)

فهذه الآفات لا تثقل على اللِّسان، وربما لها حلاوة في القلب وهوى في الطَّبع، والخائض فيها قل أن ينضبط، فالصَّمت أولى وحبس اللِّسان أسلم، فإن عقل وتكلم ؛ فيوجه اللِّسان إلى العبادة التي خُلق لها.

*****

(١) أبو نعيم الحلية (١٠/ ٢٠٦)

(٢) أبو نعيم الحلية(٩/ ٢٥٨).

* ومن آفات العبودية:

٣ـ آفات التَّحزب

والتَّحزب آفة عظيمة إذ هو شرخ في جِدَار الأمة، وتمزيق لما تبقى من أشلائها، وتفريق لأبناء الدِّين الواحد، والمنهج الواحد، وطعنة في قلب كل موحد ؛ إذا انعقد عليه الولاء والبراء.

لقد كثرت الجماعات، واتسعت دائرة الخلاف بين المسلمين ؛ بسبب قلة العلم وشهوة التصدر، وغلبة الهوى، والتحزب على أفراد أو جماعات ؛ فتَّت كيان الأمة ؛ حتى عظمت الفُرقة بين المسلمين، وأصبح الغالب لا يدعو إلى الدِّين الخالص، وعظمت المنافسة في تكثير الأتباع ؛ حتى أصبح بعضهم يرمي بعضا ربما بالمروق من الإسلام – وإلى الله المشتكى ، وتمثّل ذلك في استنادهم واستدلالهم لصحّةِ مذهبهم ـ زعموا ـ على الكتاب والسنّة، والاستدلال بالطرق الكلاميّةِ والحجج العقليّة ، والقصص غير الواقعية، حتى أن السّامع ليغترّ بحلاوة كلامهم، وقوّةِ حُججهم ، ويظنُّ أنَّ الحقّ معهم.

لذا فلا يتعجّب إنسانٌ من كثرةِ سوادهم، وتهافت أتباعهم ، فإنّ العبرة ليست بالكثرة وتكثير السواد ، بل ولا يصح لنا أن نجعلها ميزانًا للحق ؛ كيف وقد قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١١٦] ، وقال أيضًا: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٣] وقال أيضًا: ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا الله يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة المائدة: ١٠٠].

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك.(١)

(١) اللالكائي "شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعه" (١٦٠).

وقال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: عليك بطريق الهدى وإن قلَّ السّالكون واجتنب طريق الرَّدى وإن كثر الهالكون.(١)

ولهذا نجد أنّ الحقّ ـ عند الكثير من النَّاس ـ غير مألوف ، وقَدْ فَهِم هذا الأمر الإمامُ الأوزاعي ـ رحمه الله ـ حين قَالَ: عَلَيْك بآثار من سلف، وإن رفضك النَّاس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه بالقول ، فإن الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم(٢). وذلك لَمّا علم بأن الحقّ في غُربة ، وهو مستنكرٌ لدى الكثير من النَّاس.

كلام أبي شامة في لزوم الجماعة:

وما أحسن ما قَالَ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة (٣): وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيرا، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النَّبِيِّ ﷺ وأصحابه ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم. قَالَ عَمْرو بن ميمون الأودي: صحبت معاذًا باليمن فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه النَّاس عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، فسمعته يقول: عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة، ثم سمعته يومًا من الأيام وهو يقول: سيلي عليكم ولاة يؤخِّرون الصَّلاة عن مواقيتها، فصلوا الصَّلاة لميقاتها فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة. قَالَ: قلت: يا أصحاب محمد ما أدري ما تحدثونا؟ قَالَ: وما ذاك؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها ثم تقول: صل الصَّلاة وحدك وهي الفريضة، وصل مع الجماعة وهي نافلة؟! قَالَ: يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية، تدري ما الجماعة؟ قلت: لا، قَالَ: إنَّ جمهور الجماعة الَّذين فارقوا الجماعة.

الجماعة ما وافق الحقَّ وإن كنت وحدك. وفي طريق أخرى: فضرب على فخذي

---

(١) ذكره الشاطبي في الإعتصام (١/ ٨٣).

(٢) الخطيب البغدادي "شرف أصحاب الحديث" (٢٦).

(٣) كتاب «الحوادث والبدع» (٢٦).

وقال: ويحك إن جمهور النَّاس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله عز وجل.

قَالَ نعيم بن حماد: يعني إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك ؛ فإنك أنت الجماعة حينئذ. ذكره البيهقي وغيره.

وقال ابن شامة: عن مبارك عن الحسن البصري قَالَ: السُّنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي ؛ فاصبروا عليها رحمكم الله، فَإِنَّ أهل السنة كانوا أَقَلَّ النَّاس فيما مضى، وهم أقل النَّاس فيما بقي: الَّذِين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في أترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا.

وكان محمد بن أسلم الطُّوسي، الإمام المتفق على إمامته مع رتبته ؛ أتبع النَّاس للسُّنة في زمانه، حتى قَالَ: مَا بَلَغَنِي سنة عن رسول الله ﷺ إلا عَمِلت بها، ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكبًا فما مكنت من ذلك، فسئل بعض أهل العلم في زمانه عن السَّواد الأعظم الَّذين جاء فيهم الحديث إذا اختلف النَّاس "فعليكم بالسَّواد الأعظم" فقال: محمد بن أسلم الطُّوسي هو السَّواد الأعظم، وصدق والله ؛ فإن العصر إذا كان فيه عارف بالسنة داع إليها فهو الحجة، وهو الإجماع، وهو السواد الأعظم، وهو سبيل المؤمنين التي من فارقها واتبع سواها ؛ ولّاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا.اهـ.

قَالَ إسحاق بن راهويه: -وذكر في أثر قَالَ فيه: [إِنَّ الله لم يَكُنْ لِيَجْمَعَ أُمَّتِي أَوْ قَالَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى ضَلَالَةٍ فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلَافًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ]. فقال رجل يا أبا يعقوب من السَّواد الأعظم، فقال: محمد بن أسلم وأصحابه ومن تبعه، ثم قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ ابن المبارك فقال: يا أبا عبد الرحمن من السَّواد الأعظم؟ قَالَ: أبو حمزة السُّكري! ثُمَّ قَالَ إسحاق: في ذلك الزَّمان - يعني أبا حمزة، وفي زماننا ؛ محمد بن أسلم ومن تبعه، ثم قَالَ إِسْحَاق: لو سألت الجهال من السَّواد الأعظم قالوا جماعة النَّاس، ولا يعلمون أن الجماعة عالم مُتَمَسِّكٌ بِأَثَرِ النَّبِيِّ ﷺ وطريقه، فمن كان معه وتبعه فهو الجماعة، ومن خالفه فيه ترك الجماعة.[1]

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ٢٣٨)

* ومن آفات العبودية:

٤ـ ونسوا حظًا مما ذكروا به

فلو تأمل المتأمل، ونظر الناظر إلى أصل كُلِّ عداوة بين أهل مِلَّةٍ واحدة ؛ لوجد أنَّ القاسم المشترك في أصل العداوات هو ؛ نسيان حظٍّ مما ذُكِّروا به ؛ كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [سورة المائدة: ١٤].

أي بسبب الأهواء، وقع الخلل بنسيان حظٍّ مما ذكروا به، فتركوا حظًا وافرًا فوقع الخلاف بينهم، فضرب الله بين قلوبهم، وإن كانت الآية في أهل الكتاب فهي عامة لكلِّ صاحب هوى.

فالهوى يعمي ويصم، ويحجب عن العبد رؤية الحق، ويورث في القلب الزيغ واتباع الباطل، والوقوع في الفتنة كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِين فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ من عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [سورة آل عمران: ٧]

فتجريد القلب من الهوى، والإيمان بالكتاب كُلِّه، والسير على المحجة البيضاء، والتأسي بمن أمرنا أن نتأسى بهم من الصحابة ومن نحا نحوهم ؛ هو سبيل الفلاح وطريق النجاة.

وكان عمر بن عبد العزيز يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله، يسمع منه العلم، فبلغ عبيد الله أن عمر ينتقص عليا، فأقبل عليه فقال: متى بلغك أن الله تَعَالَىٰ سَخِطَ على أهل بدر بعد أن رَضِي عنهم، فعرف ما أراد، فقال: معذرة إلى الله وإليك، لا أعود، فما سمع

عمر بعدها ذاكرا عليًا ـ رضي الله عنه ـ إلا بخير.[١]

وعن الربيع: أن الشّافِعي لما دخل مصر أتاه جِلَّةُ أصحاب مالك، وأقبلوا عليه، فلمّا أن رأوه يخالف مالكًا، وينقُدُ عليه ؛ جَفَوه وتنكّروا له، فأنشأ يقول:

أأنثر دُرًا بين سَارِحَةِ النَّعَمْ ... وأنظِم مَنْثُورًا لِراعيةِ الغَنَم

لَعَمْرِي لَئِنْ ضُيِّعْتُ في شَرِّ بَلْدَةٍ ... فَلَسْتُ مُضِيعًا بَيْنَهُم غُرَرَ الكَلِم

فَإِنْ فَرَّجَ الله الكَرِيمُ بِلُطْفِهِ ... وصَادَفْتُ أَهلًا للعُلوم وللحِكَم

بثثتُ مُفِيدًا واستفدتُ وِدَادَهم ... وإلَّا فَمَخْزونٌ لَدَيَّ ومُكْتَتَم

ومن مَنح الجهالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ ... ومَنْ مَنَعَ المستوجِبِينَ فقد ظَلَم

وكَاتمُ عِلْمِ الدِّينِ عمنْ يُرِيدُهُ ... يَبُوءُ بإثمِ ذاكَ وآثمٌ إذا كَتَم[٢]

عن خويل قَالَ: كنت عند يونس بن عبيد، فجاء رجل فقال: أتنهانا عن مجالسة عمرو بن عبيد وقد دخل عليه ابنك قبل؟! فقال له يونس: اتق الله، فتغيَّظ فلم يبرح أن جاء ابنه، فقال: يا بني قد عرفت رأيي في عمرو فتدخل عليه! فقال: يا أبت كان معي فلان، فجعل يعتذر إليه، فقال: أنهاك عن الزِّنا والسَّرقة وشرب الخمر، ولأن تلقى الله عز وجل بهن أحب إلي من أن تلقاه برأي عمرو وأصحاب عمرو.[٣]

قَالَ المعتمر بن سليمان التيمي: مات صاحبٌ لي كان يطلب معي الحديث، فجزعت عليه، فرأى أبي جزعي عليه، فقال: يا معتمر! كان صاحبك هذا على السُّنة؟ قلت: نعم. قَالَ: فلا تَجْزَع عليه أو لاتحزن عليه.[٤]

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٧)

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٧١)

(٣) أبو نعيم "الحلية" (٣/ ٢١)

(٤) أبو نعيم "الحلية" (٣/ ٣١)

ليس للمسلم اسم سوى الإسلام:

فالأصل في المسلم أنه لا يُعرفُ بلقبٍ أو رمزٍ يميّزه عن غيره سوى الإسلام، قَالَ تَعَالَى ﴿.. هُوَ سَمَّاكُمُ المسْلِمِين..﴾[الحج: ٧٨].

وقال ﷺ: وَلَكِنْ تَسَمَّوْا بِاسْمِ الله الَّذِي سَمَّاكُمْ عِبَادَ الله المسْلِمِينَ المؤْمِنِينَ(١).

قَالَ ابن عباس - رَضِيَ الله عَنْهُمَا -: من أقرّ باسم من هذه الأسماء المحدثة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه(٢).

وجاء رجلٌ إلى مالك، فقال: يا أبا عبد الله، أسألك عن مسألةٍ أجعلك حجّة فيما بيني وبين الله عزّ وجل، قَالَ مَالِك: ما شاء الله لاقوّة إلاّ بالله، سل، قَالَ: مَنْ أَهْل السُّنة؟ قَالَ: أهل السُّنة الَّذين ليس لهم لقبٌ يُعرفون به، لا جَهْمِيّ، ولا قَدَرِيّ ولا رَافِضِيّ(٣).

وقال ميمون بن مِهْران: إيّاكم وكل اسم يسمّى بغير الإسلام(٤).

وقال مالك بن مِغْول: إذا تسمّى الرجل بغير الإسلام والسُّنة فألحقه بأيّ دين شئت(٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:..والواجب على المسلم إذا سُئل عن ذلك أن يقول: لا أنا شكيلي ولا قرفندي؛ بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة رسوله..-إلى أن قَالَ -:.. فلا نعدل عن الأسماء التي سمّانا الله بها إلى أسماء أحدثها قوم - وسموها هم وآباؤهم - ما أنزل الله بها من سلطان.(٦)

---

(١) وهو جزء من حديث سيأتي رواه أحمد في المسند (٥/ ٣٤٤)
(٢) الإبانة الصغرى لابن بطة ص١٣٧.
(٣) الانتقاء لابن عبد البرّ ص٧٢.
(٤) الإبانة الصغرى لابن بطة (١/ ٣٤٥،٣٤٢).
(٥) المصدر السابق.
(٦) مجموع الفتاوى (٣/ ٤١٥).

ولكن ما إن ظهرت البدع في الأمة الإسلاميّة ، وتكاثرت الفرق المنتسبة إلى الإسلام بشكلٍ عظيم ؛ حيث الشِّعارات الزّائفة والدعوات المشبوهة ، واجتهد في الدِّين من ليس من أهله ، وأُدخل فيه ما ليس منه ، وظهرت نبوءة النَّبيِّ ﷺ بافتراق الأمة ؛ كان لزامًا على أهل الحقّ ، وأصحاب العقيدة الصَّحيحة ، والدعوة الخالدة ؛ أن تكون لهم سمةٌ يُعرفون بها، في إطار عام لا في قوالب ضيقة كالحزبيات والجماعات التي حَكرت الحق عليهم.

*** كلام نفيس جدا!!**

قَاَلَ الشيخ بكر أبو زيد حفظه الله [١]:

لا طائفية ولا حزبية يعقد الولاء والبراء عليها:

*** أهل الإسلام ليس لهم سمة سوى الإسلام والسَّلام.**

فيا طالب العلم! بارك الله فيك وفي علمك ؛ اطلب العلم ، واطلب العمل ، وادع إلى الله تَعَالَى على طَرِيقَةِ السَّلف.

ولا تكن خَرّاجًا ولاجًا في الجماعات ، فتخرج من السعة إلى القوالب الضيقة ، فالإسلام كله لك جادةٌ ومنهجٌ ، والمسلمون جميعهم هم الجماعة ، وإن يد الله مع الجماعة، فلا طائفية ولا حزبية في الإسلام.

وأعيذك بالله أن تتصدع ، فتكون نهابًا بين الفرق والطَّوائف والمذاهب الباطلة والأحزاب الغالية، تعقد سلطان الولاء والبراء عليها.

فكن طالب علم على الجادة ؛ تقفو الأثر ، وتتبع السُّنن ، تدعو إلى الله على بصيرة ، عارفًا لأهل الفضل فضلهم وسابقتهم.

وإن الحزبية ذات المسارات والقوالب المستحدثة التي لم يعهدها السَّلف من أعظم

(١) حلية طالب العلم (٦١).

العوائق عن العلم ، والتفريق عن الجماعة ، فكم أوهنت حبل الاتحاد الإسلامي ، وغشيت المسلمين بسببها الغواشي.

فاحذر رحمك الله أحزابًا وطوائف طاف طائفها ، ونجم بالشَّر ناجمها ، فما هي إلا كالميازيب ؛ تجمع الماءَ كدرًا ، وتفرقه هدرًا ؛ إلا من رحمه ربك فصار على مثل ما كان عليه النَّبيِّ ﷺ وأصحابه ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ.

قَالَ ابن القيم: العلامة الثانية -عند علامة أهل العبودية -قوله: ولم يُنْسَبُوا إلى اسم أي لم يشتهروا باسم يعرفون به عند النَّاس من الأسماء التي صارت أعلامًا لأهل الطريق، وأيضًا فإنهم لم يتقيدوا بعملٍ واحدٍ يجري عليهم اسمه فيعرفون به دون غيره من الأعمال، فإن هذا آفة في العبودية وهي عبودية مقيدة، وأما العبودية المطلقة فلا يعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها، فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها ؛ فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم، فلا يتقيد برسم ولا إشارة ولا اسم، ولا بزي، ولا طريق وضعي اصطلاحي، بل إن سُئل عن شيخه، قَالَ: الرَّسول، وعن طريقه، قَالَ: الاتباع، وعن خرقته قَالَ: لباس التقوى، وعن مذهبه قَالَ: تحكيم السنة، وعن مقصوده ومطلبه، قَالَ: يريدون وجهه، وعن رباطه وعن خانكاه، قَالَ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلاة وَإِيتَاءِ الزَّكَاة﴾ [سورة النـــور: ٣٦-٣٧]، وعن نسبه قَالَ:

أَبِي الإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ ... إِذَا افْتَخَروا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمِ

وعن مأكله ومشربه؟! قَالَ: ما لك ولها! معها حِذاؤها وسِقاؤها، ترد الماء وترعى الشَّجر حتى تلقى ربها.

وَاحَسْرَتَاهُ تَقَضَّي العُمْرُ وَانْصَرَمَتْ ... سَاعَاتُهُ بَيْنَ ذُلِّ العَجْزِ وَالْكَسَلِ
وَالقَوْمُ قَدْ أَخَذُوا دَرْبَ النَّجَاةِ وَقَدْ ... سَارُوا إِلَى المطْلَبِ الأَعْلَى عَلَى مَهَلِ

ثم قَالَ ابن القيم رحمه الله: قوله أولئك ذخائر الله حيث كانوا ذخائر المِلك ما يُخبأ عنده ويَدَّخِره لمهماته، ولا يبذله لكل أحد، وكذلك ذخيرة الرَّجل ما يـذخره لحوائجه ومهماته، وهؤلاء لما كانوا مستورين عن النَّاس بأسبابهم، غير مشار إليهم ولا متميزين برسم دون النَّاس، ولا منتسبين إلى اسم طريق أو مذهب أو شيخ أو زي، كانوا بمنزلة الذَّخائر المخبوءة، وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفات، فإن الآفات كلها تحت الرسوم والتقيد بها، ولزوم الطُّرق الاصطلاحية والأوضاع المتداولة الحادثة، هذه هي التي قطعت أكثر الخلق عن الله وهم لا يشعرون، والعجب أن أهلها هم المعروفون بالطَّلب والإرادة والسير إلى الله، وهم - إلا الواحد بعد الواحد - المقطوعون عن الله بتلك الرُّسوم والقيود، وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ فقال: مالا اسم له سوى "السُّنة" _يعني _ أن أهل السُّنة ليس لهم اسم ينسبون إليه سواها، فمن النَّاس من يتقيد بلباس لا يلبس غيره، أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره، أو مشية لا يمشي غيرها، أو بزي وهيئة لا يخرج عنهما، أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها، وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره، وإن كان أقرب إلى الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - منه، فهؤلاء كُلُّهم محجوبون عن الظَّفر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه قد قيدهم الاعتياد والرُّسوم والأوضاع والاصطلاحات، عن تجريد المتابعة ؛ فأضحوا عنها بمعزل، ومنزلتهم منها أبعد منزل، فترى أحدهم يتعبد بالرِّياضة والخلوة وتفريغ القلب، ويعد العلم قاطعًا له عن الطريق.

فإذا ذكر له الموالاة في الله والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عدَّ ذلك فضولًا وشرًا، وإذا رأوا بينهم من يقوم بذلك أخرجوه من بينهم ؛ وعدُّوه غَيْرًا عليهم، فهؤلاء أبعد النَّاس عن الله وإن كانوا أكثر إشارة - والله أعلم.اهـ.[1]

(١) كل ذلك نقلا عن حلية طالب العلم (٦١).

* رياح التحزب:

أخي الحبيب: إن سُعار الحزبية محرق، وسمها قاتل ؛ كم مكر أخٌ بأخيه حتى أرداه في لجج الفتن، وكم عُطل من أمر بمعروف أو نهي عن المنكر ؛ فما شتت القلوب وفرَّق بين الجموع إلا الحزبية، ولذا يجب لأهل السنة أن يعلنوا عن هُويتهم، ويبينوا منهجهم، ويحذروا من الحزبية والعصبية، لهذا نجد أن العلماء رحمهم الله كانوا يهتّمون بتمحيص رجال الحديث فنراهم يميّزون السُّني من المبتدع ، قَالَ محمد بن سيرين رحمه الله(١):لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلمّا وقعت الفتنة ، قالوا: سمّوا لنا رجالكم ، فيُنظر إلى أهل السُّنة فيُؤخذ حديثهم ، ويُنظر إلى أهل البدع فلا يُؤخذ حديثهم.

وكان حال السَّلف في وضع العلم لا يضعونه إلا عند من يحسن استعماله.

عن أبي داود الطَّيالسي قَالَ: جَهِدَ وكيع أن يسمع من زائدة بن قدامة(٢)حديثًا واحدًا ؛ فلم يسمع حتى خرج من الدنيا ، فقيل لأبي داود: وكيف سمعت أنت؟ قَالَ: كان يَسْتَشْهِدُ رجلين عدلين على أن هذا صاحب جماعة ؛ وليس بصاحب بدعة ، فإذا شهد عدلان حدّثه ، قَالَ أَبُو داود: وكنت بمنى وحضر سفيان الثوري ، فكان يُكرمني ويقول: ذاكرني بحديث أبى بِسطام(٣) فقلت لسفيان: أُحب أن تُكلِّم زائدة في أمري حتى يحدثني ، فجاء إلى زائدة فقال: يا أبا الصَّلت! حَدِّث صاحبي هذا ؛ فإنه صَاحِبُ سُنَّةٍ وجماعة ، فقال: نعم يا أبا عبد الله.(٤)

وبعد هذه النقول ؛ فإنه لحريٌّ بمن كانت هذه همّته وهي: حفظ بيضة الإسلام من الدخلاءِ ؛ وإبقاء الدين نقيّا ناصعًا، أن يكون له منهجٌ مباينٌ لكلّ المناهج المخترعة المخالفة لمنهج الرسول ﷺ، وصحابته رضوان الله عليهم في العقيدة والشريعة.

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٤٤ نووي) ، والدارمي في سننه (١/ ١١٢).
(٢) قَالَ الحافظ في التقريب(١٩٨٢): زائدة بن قدامة: ثقة ، صاحب سُنَّة.
(٣) شعبة ابن الحجاج ، أمير المؤمنين في الحديث.
(٤) الخطيب "الجامع لأخلاق الراوي" (١/ ١٣٣)

وحريٌ أيضًا أن يكون أصحابها هم المعنيّون بالفرقة الناجية، والطّائفة المنصورة كما جاء في بعض الأحاديث، وكما فسّرها غير واحدٍ من الأئمة المعتبرين.

كما جاء في الحديث عن أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«فَمَنْ خَرَجَ من الجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ؛ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ من رَأْسِهِ، وَمَنْ دَعَا دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ جُثَاءُ جَهَنَّمَ، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله! وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: نَعَمْ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، وَلَكِنْ تَسَمَّوْا بِاسْمِ الله الَّذِي سَمَّاكُمْ عِبَادَ الله المُسْلِمِينَ المُؤْمِنِينَ»**. (١)

كذلك ما جاء في الحديث المعروف عن جَابِرٍ ـ رضي الله عنه ـ، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ من المُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ من المُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ، فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: **«مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ قَالَ: مَا شَأْنُهُمْ؟»** فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ المُهَاجِرِيِّ الأَنْصَارِيَّ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ»**. (٢)

ومع أنهما اسمان شرعيان - المهاجري والأنصاري - لكن لما كان هناك موالاة ومعاداة عليهما، ونصرة في هذين الاسمين، وخرجت النُّصرة عن اسم الإسلام بعامة، صارت دعوى الجاهلية، ففيهم من خلال الجاهلية شيء كثير، ولهذا نبغي للشباب أن ينبهوا لهذا الأمر بالطَّريقة الحسنى المثلى؛ حتى يكون هناك اهتداء إلى طريق أهل السنة والجماعة وإلى منهج السَّلف الصالح.

* إذا عرفت الحق فاثبت:

أخي الحبيب: إذا عرفت الحق فاثبت عليه وادع الله بالهداية، واجعل هواك وأُنْسَك طوع شرع الله ومنهجه، فإذا وضح لك الطَّريق؛ فجد وسابق وإياك وقطاع الطرق ممن يعطلون سيرك، ويأسرون قلبك، ويغلقوا عقلك [وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٤٤) وهو حديث صحيح.

(٢) رواه البخاري (٣٥١٨).

وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ] [سورة الأنبياء:١١١].

[مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] [سورة يونس:٢٣].

وإذا رزقت يقظة فصنها في بيت عزلة، فإن أيدي المعاشرة نهابة واحذر معاشرة البطّالين فإن الطبع لص، لا تصادقن فاسقًا ولا تثق فيه، فإن من خان أول منعم عليه لا يفي لك.

وَلَا خَيْرَ فِي وُدِّ امْرِئٍ مُتَلَوِّنٍ ... إِذَا الرِّيحُ مَالَتْ مَالَ حَيْثُ تَمِيلُ
جَوَادٌ إِذَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ مَالِهِ ... وَعِنْدَ احْتِيَالِ الفَقْرِ عَنْكَ بَخِيلُ
فَمَا أَكْثَرَ الإِخْوَانَ حِينَ تَعُدُّهُم ... لَكِنَّهُم فِي النَّائِبَـاتِ قَلِيـلُ

*** واحذر أن تبتذل للناس، فخذ منهم ما تعرف ودع ما تنكر، وخالطهم على قدر الفائدة، فإن المخالطة توجب التَّخليط، وأيسرها تشتيت الهمة وضعف العزيمة:**

لقد تعلم سفيان رحمه الله من مشايخه أن الإنصات لصاحب بدعة مهلكة، وأن الاقتراب منهم مفسدة للقلب والدين ؛ حتى وإن أظهر بعض أهل البدع زهدًا وصلاحًا، فهذا عمرو بن عبيد(١) الذي كان يُضرب به المثل في الزُّهد والورع والعبادة ؛ كان رأسًا من رؤس المبتدعة فكان قدريًا -أي يقول بالقدر- ومن دعاة المعتزلة، حتى غرَّر بزهده وشدة عبادته أكثر عامة المسلمين في زمانه، حتى كاد سفيان نفسه أن يهلك على يديه لولا عناية الله له، وصرفه عنه من أول الطريق على يد شيخه أيوب السَّخْتِياني.

فعن عبدالواحد بن زيد قَالَ: قَالَ لِي أيوب قُل للثوري: لا تصحب عمرو بن عبيد قَالَ: فَقُلْتُ ذلك له، فقال: إني أجد عنده أشياء لا أجدها عند غيره، فقلت ذلك

(١) انظر "الميزان" للذهبي (٣/ ٦٤٠٤)

لأيوب: فقال لي أيوب: من تلك الأشياء أخاف عليه.(١)

فاستفاد سفيان من ذلك أي استفادة، حتى صقل قلبه وانضبط ميزانه، فكان لا يترك بدعة ظهرت أم خفيت إلا ويُعَرِّضُ بصاحبها ويحذر منه.

وكان رحمه الله يتغير إذا وجد صاحبا له يجالس من تلبس ببدعة أو هوى ويهجره ويبتعد عنه، فهو قد هجر صاحبًا له لما رآه جالسًا إلى إبراهيم بن طهمان(٢).

فعن عبد العزيز بن أبي عثمان قَالَ: كان رجل من المغاربة يجالس سفيان وكان سفيان يستخفه(٣) ثم جفاه فشكا ذلك إلينا، قَالَ: فقلت له تكلم فلانًا ؛ فإنه أجرأ على سفيان، قَالَ: فكلَّمه، قَالَ: يا أبا عبد الله! هذا الشيخ المغربي قد كنت تستخفه فما حاله اليوم؟ فلم يزل به حتى قَالَ سُفيان: إنه يجالس...؟ ولم يسم أحدًا! قَالَ: فقال له: من جالست؟ قَالَ: جلست يومًا إلى إبراهيم بن طهمان في المسجد الحرام، ودخل سفيان من باب المسجد فنظر إليَّ فأنكرت نظرته.(٤)

وكان عمرو بن عبيد يأتي كهمسًا يسلم عليه، ويجلس عنده هو وأصحابه، وكانت أمه سمعت أن أيوب السَّخْتِياني يتكلم فيه، فقالت له أُمُّه: إني أرى هذا وأصحابه وأكرههم، وما يعجبوني فلا تجالسهم، فجاء إليه عمرو وأصحابه، فأشرف عليهم وقال: إنَّ أُمِّي قد كرهتك وأصحابك فلا تأتوني.(٥)

وعن زائدة قَالَ: قلت لمنصور بن المعتمر: إذا كنت صائمًا أنال من السلطان شيئا؟ فقال: لا، فقلت: إذا كنت صائمًا أنال من أصحاب الأهواء شيئًا؟ قَالَ: نعم.(٦)

---

(١) أبو نعيم "الحلية" (٧/ ٣٣).
(٢) ثقة رمي بالإرجاء، انظر "الميزان" للذهبي (١/ ١١٦).
(٣) أي يستريح إليه.
(٤) العقيلي " الضعفاء" (١/ ٥٦).
(٥) حلية الأولياء (٦/ ٢١٢).
(٦) حلية الأولياء (٥/ ٤٢).

أخي الحبيب: اثبت على الطريق ولا تغتر بكثرة الأغمار، ومن يدعوك ليصرفك عن الطريق ويقول لك: هيا معنا ففي يوم أو يومين تصبح من أكبر الدُّعاة! فالأمر أعظم من ذلك، فابدأ بالعلم النافع مع تهذيب النفس، وأطرها على العبادة مع إصلاح ما فات من تلف.

قَالَ القاضي عبد الوهَّاب المالكي[١]:

مَتَى تَصِلُ العِطَاشُ إِلى ارْتِوَاءِ ... إِذَا اسْتَقَتِ البِحَارُ من الرَّكَايَا[٢]؟!
وَمَنْ يُثْنِي الأَصَاغِرَ عَنْ مُرَادٍ ... وَقَدْ جَلَسَ الأَكَابِرُ فِي الزَّوَايَا؟!
وإِنَّ تَرَفُّعَ الوُضَعَاءِ يَوْمًا ... عَلَى الرُّفَعَاءِ من إِحْدَى البَلَايَا
إِذَا اسْتَوَتْ الأَسَافِلُ والأَعَالِي ... فَقَدْ طَابَتْ مُنَادَمَةُ المنَايَا

قيل: إن شجرة الصُّنوبر تثمر في ثلاثين سنة، وشجرة الدُّباء تصعد في أسبوعين، فتقول للصنوبرة إن الطَّريق التي قطعتها في ثلاثين سنة قطعتها في أسبوعين، ويقال لي: شجرة ولك شجرة، فقالت لها الصُّنوبرة: مهلًا حتى تهب رياح الخريف فَإِنْ ثَبَتِّ لها تم فخرك.[٣]

* حال الإنسان عند تغير الزمان!

يقول الشيخ عائض القرني[٤]: إنْ من العباد من سبُّوا الخالق الرَّزاق جل في علاه، وشتموا الواحد الأحد لا إله إلا هو ، فماذا أتوقع أنا وأنت ونحن أهل الحيف والخطأ ، إنك سوف تواجه في حياتك حربًا ضروسًا لا هوادة فيها من النقد الآثم المر ، ومن التحطيم المدروس المقصود ، ومن الإهانة المتعمدة ما دام أنك تعطي وتبني، وتؤثر

---

(١) الديباج المذهب (٢/ ٢٨)
(٢) جمع ركية وهي البئر قليلة الماء.
(٣) ابن القيم "بدائع الفوائد"(٣/ ٧٥٦)
(٤)كتابه "لا تحزن".

وتسطع وتلمع ، ولن يسكن هؤلاء عنك حتى تتخذ نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء فتفر منهم ، أما وأنت بين أظهرهم، فانتظر منهم ما يسوؤك ويبكي عينك ، ويدمي مقلتك ، ويقض مضجعك.

إن الجالس على الأرض لا يسقط ، والناس لا يرفسون كلبًا ميتًا ، لكنهم يغضبون عليك لأنك فقـتهم صلاحًا ، أو علمًا ، أو أدبًا ، أو مالًا ، فأنت عندهم مذنب لا توبة لك حتى تترك مواهبك ونعم الله عليك ، وتنخلع من كُلِّ صفات الحمد ، وتنسلخ من كل معاني النبل ، وتبقى بليدًا غبيًا ، صفرًا محطمًا ، مكدودًا، هذا ما يريدون بالضَّبط.

إذًا فاصمد لكلام هؤلاء ونقدهم وتشويههم وتحقيرهم «**أُثْبُت أُحد**» وكن كالصَّخرة الصّامتة المهيبة تتكسر عليها حبات البر لتثبت وجودها وقدرتها على البقاء.

إنك إن أصغيت لكلام هؤلاء وتفاعلت معه حققت أمنيتهم الغالية في تعكير حياتك وتكدير عمرك ، ألا فاصفح الصَّفح الجميل ، ألا فأعرض عنهم ولا تك في ضيق مما يمكرون. إن نقدهم السَّخيف ترجمة محترمة لك ، وبقدر وزنك يكون النقد الآثم المفتعل.

إنك لن تستطيع أن تغلق أفواه هؤلاء، ولن تستطيع أن تعتقل ألسنتهم، لكنك تستطيع أن تدفن نقدهم وتجنيهم بتجافيك لهم ، وإهمالك لشأنهم ، وأطراحك لأقوالهم ﴿**قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١١٩].اهـ.

عن مُطَرِّف قَالَ: قَالَ لي مالك: ما يقول النَّاس فيَّ؟ قلت: أمّا الصَّديق فَيُثْنِي، وأمّا العدو فَيَقَعُ، قَالَ: ما زال النَّاس كذا لهم صديق وعدو، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها.(١)

قَالَ الشّافِعي رحمه الله: رضا النَّاس غاية لا تدرك، وليس إلى السَّلامة من ألسنة النَّاس سبيل، فعليك بما ينفعك فالزمه.

وقال أيضًا: ما أحد إلا وله مُحِبٌّ ومبغض، فإن كان لا بدّ من ذلك، فليكن المرء مع

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٢١).

أهل طاعة الله عز وجل.(١)

فإن كانت محاسنك عيوبًا، وفضائلك شينًا عند هؤلاء ؛ فزد منها، واجعل من نقدهم سببًا لتقويم اعوجاجك.

إِذَا مَحَاسِني اللَّاتِي أَدُلُّ بِهَا كَانَت عُيُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ

إن كنت تريد أن تكون مقبولًا عند الجميع ؛ محبوبًا لدى الكل سليمًا من العُيوب عند العالم ؛ فقد طلبت مستحيلًا وأملت أملًا بعيدًا.

قَالَ حاتم:

وَكَلِمَةُ حَاسِدٍ من غَيْرِ جُرْمٍ سَمِعْتُ فَقُلْتُ مُرِّي فَانْفُذِينِي
وَعَابُوهَا عَلَيَّ وَلَمْ تُعِبْنِي وَلَمْ يَنَد لَهَا أَبَدًا جَبِينِي

* **الجحود وعدم الإنصاف:**

أخي الحبيب: خلق الله العباد ليذكروه، ورزق الله الخليقة ليشكروه ، فعبد الكثير غيره ، وشكر الغالب سواه ؛ لأن طبيعة الجحود والنكران والجفاء وكفران النعم غالبة على النفوس ، فلا تُصْدَم إذا وجدت هؤلاء قد كفروا جميلك ، وأحرقوا إحسانك ، ونسوا معروفك ، بل ربما ناصبوك العداء ، ورموك بمنجنيق الحقد الدَّفين ، لا لشيء إلا لأنك أحسنت إليهم ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ من فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤].

فأخي الحبيب: احتسب أجرك كله على الله، لا تنتظر من أحدٍ كلمة شكر على معروف، أو مكافأة على إحسان، فإن هذا يعطل سيرك، ويشغل ذهنك، ويجعل بينك وبين المداومة انقطاع، فإن أكثر الطباع نكارة للجميل.

قَالَ ابن عباس: ذهب النَّاس وبقي النِّسناس، قيل: ما النسناس؟ قَالَ الَّذين يشبهون النَّاس وليسوا بالنَّاسِ.(٢)

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ١١٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٢).

وعن عبد الرحمن بن مهدي قَالَ: سمعت سفيان الثوري يقول: وجدنا أصل كل عداوة ؛ اصطناع المعروف إلى اللئام.(١)

طالع سجل العالم المشهود ، فإذا في فصوله من العظات والعبر وصور الجحود والنكران ؛ ما لا تسعه الأيام والسُّنون.

وليس معنى هذا أن تترك الجميل ، وعدم الإحسان للغير ، وإنما يوطنك على انتظار الجحود والتنكر لهذا الجميل والإحسان ، فلا تبتئس بما كانوا يصنعون.

اعمل الخير لوجه الله ، لأنك الفائز على كُلِّ حال ، ثم لا يضرك غمط من غمطه ، ولا جحود من جحده ، واحمد الله لأنك المحسن ، وهو المسيء ، واليد العليا خير من اليد السفلى (**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا**)[الإنسان: ٩].

وقد ذهل كثير من العقلاء عن جبلة الجحود عند الغوغاء ، وكأنهم ما سمعوا الوحي الجليل وهو ينعي على هذا الصنف عتوه وتمرده ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة يونس: ١٢] لا تفاجأ إذا أهديت بليدًا قلمًا فكتب به هجاءك ، أو منحت جافيًا عصًا يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه ، فشج بها رأسك ، هذا هو الأصل عند هذه الأنفس المحنطة في كفن الجحود مع باريها جل في علاه ، فكيف بها معي ومعك.

* جحود أهل العلم:

لقد تغير الزمان، وعظم فيه الجفاء والهجران، وأصبح الإنصاف عزيزًا ؛ حتى وصل التغير عند الخلاصة من الدعاة وطلبة العلم، وما سلم إلا من عصمه الله، فأصبح الحكم على الآخرين يدور مع الهوى، والهوى يدور مع المحبة، والمحبة تدور على غير

(١)أبو نعيم "الحلية" (٦/ ٣٩٠).

ضابط من شرع، فجفا الكبير الصغير، وتنكر الصغير للكبير، وأصبحت المصلحة هي التي يدور عليها الود، ويسلم بها الصاحب، ويُعَظَّم بها الكبير، ويُوَقَّر بها الصغير، فأصبح الإنصاف عزيزا، فإذا عظم هذا الأمر عند حاملي الدعوة ومنتسبي العلم فإن الخطر عظيم والبلاء فوق التحمل.

وإليك هذه الواقعةَ مع الإمام النَّسائي صاحب السنن ؛ وقد جفاه شيخه وطرده من درسه لوقوع شك عنده، ورغم ذلك ما جفاه وماهجره، بل واظب على درسه ؛ وكان يجلس ويستمع إليه خلف الباب كي لا يراه، وحصَّل منه علما وأثنى عليه خيرا

قال ابن الأثير -عن النسائي-: وكان ورعًا متحريًا قيل إنه أتى الحارث بن مسكين في زي أنكره عليه قلنسوة وقباء وكان الحارث خائفًا من أمور تتعلق بالسلطان فخاف أن يكون عينًا عليه فمنعه، فكان يجيء فيقعد خلف الباب ويسمع، ولذلك ما قال حدثنا الحارث وإنما يقول قال الحارث بن مسكين قراءة عليه وأنا أسمع. (١)

يقول الشيخ محمد بن إسماعيل (٢): ومن آفات الجحود عند بعض المنتسبين للعلم ؛ تنكر الطّالب لشيخه الذي طالما أفاده وعلمه وأحسن إليه لأجل زلة زلها، أو غضبة غضبها، فيجحد كل ما مضى من إحسانه إليه، ويقول كما تقول الكافرات العشير: ما رأيت منك خيرًا قط، ويُطْلِقُ لِسَانه في ذم شيخه، والتشنيع عليه، ويقول الشاعر في مثل هذا:

فَيَا عَجَبًا لِمَنْ رَبَّيْتُ طِفْلًا ... أُلَقِّمهُ بِأَطْرَافِ البَنَانِ
أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
أُعَلِّمُهُ الْفُتُوَّةَ كُلَّ وَقْتٍ ... فَلَمَّا طَرَّ شَارِبُهُ جَفَانِي
وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ القَوَافِي ... فَلَمَّا قَالَ قَافِيةً هَجَانِي

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٣٠).
(٢)حرمة أهل العلم (٣٦١).

قَالَ الشّافِعِي رحمه الله: الحر من راعى وداد لحظةٍ، وانتمى لمن أفاده لفظةً.

صُحْبَةُ يَوْمٍ نَسَبٌ قَرِيبٌ وَذِمَّةٌ يَعْرِفُهَا اللَّبِيبُ

وكان محمد بن واسع يقول: لايبلغ العبد مقام الإحسان حتى يُحسن إلى كُلِّ من صحبه ولو ساعة، وكان إذا باع شاةً يوصي بها المشتري ويقول: قد كان لها معنا صحبة.

وكان الأولى بالجاحد الكفور ؛ أن يتمثل ما قاله الضيف الكريم لمضيفه الذي أحسن إليه. فقد كان لرجلٍ شجرة عنب كثيرة الثَّمر، فكان غارسها إذا مر به صديق له اقتطف عنقودًا ؛ ودعاه فيأكله، وينصرف شاكرًا.

فلما كان اليوم العاشر، قالت امرأة صاحب الشَّجرة لزوجها: ما هذا من أدب الضيافة، ولكن أرى إن دعوت أخاك، فأكل النِّصف، فمددت يدك معه مشاركًا، إيناسًا له، وتبسطًا، وإكرامًا، فقال: لأفعلن ذلك غدًا.

فلما كان الغد ؛ وانتصف الضَّيف في أكله ؛ مَدَّ الرَّجُل يده وتناول حبة، فوجدها حامضة لا تساغ، وتفلها، وقطب حاجبيه، وأبدى عجبه من صبر ضيفه على أكل أمثالها، فقال الضيف: قد أكلت من يدك من قبل على مر الأيام حلوًا كثيرًا، ولم أحب أن أريك من نفسي كراهة لهذا، تشوب في نفسك عطاءك السالف.

ومن مظاهر الجحود: الرجوع عن التعديل والتزكية إلى التجريح والذَّم لمحض الهوى وشهوات الأنفس، قَالَ الزعفراني: حَجَّ بشر المريسي، فلما قدم قَالَ: رَأَيتُ بالحجاز رجلًا ما رأيت مثله سائلًا ولا مجيبًا - يقصد الإمام الشّافِعِي رحمه الله - قَالَ: فَقَدِمَ علينا، فاجتمع إليه النَّاس، وخفُّوا عن بشر، فجئت إلى بشر، فقلت: هذا الشّافِعِي الذي كنت تزعم قد قدم، قَالَ: إنَّه قد تغير عما كان عليه، قَالَ: فما كان مثل بشر إلا مثل اليهود في شأن عبد الله بن سلام.

رُصَاصُ مَنْ أَحْبَبْتَهُ ذَهَبٌ وَذَهَبُ مَنْ لَمْ تَرْضَ عَنْهُ رَصَاصُ.

و من مظاهر الجحود: الانكباب على مصنفات العالم والنهل من فيض عِلْمِه سرًا،

مع إظهار الاستغناء عنه، وذم كتبه في الملأ.

و من مظاهره: تنكر منتسبي الدعوة للجيل السابق ؛ الذي عاصر مراحل التأسيس، وعانى ما اكتنفها من جهد وآلام، وليتهم إذ جحدوا كفوا ألسنتهم عن الأذى، إذًا لحمدوا أبلغ الحمد في زمن يصدق عليه قول القائل:

إِنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرْكُ الْقَبِيـحِ بِهِ ... من أَكْثَرِ النَّاس: إِحْسَانٌ وَإِجْمَالُ

وقول الآخر:

عَدِّنـا فِـي زَمَـــانِنَا ... عَـنْ حَــــدِيثِ المكَـارِمِ
مَنْ كَــفَى النَّاس شَــرَّهُ ... فَـهُـو فِي جُودِ حَـاتِمِ

* وحشة التفرد:

فإن من سمات العابد الذي حقق عبودية الله ألا يستوحش الطَّريق ولا يستصعبه، فإن رفقاءه هم الأنبياء وأتباعهم، وأما مشقة الطريق فإن الأجر على قدر النصب. قَالَ تَعَالَى:﴿وَمَنْ يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [سورة النساء: ٦٩] .

ولذلك كان العلم بالطَّريق والاقتداء بمن سبق من أعظم سبل النجاة، ومخالفة الهوى والصبر على الشهوة تعطي العبد البصيرة ووضوح الهدف، ومشهد أهل الجنة وهم ينعمون، وأهل النار وهم يعذبون، يهون على العبد ما يلاقيه في الطريق.

وقال أبو داود: قلت لابن المبارك من تجالس بخراسان؟ قَالَ: أجالس شعبة وسفيان. قَالَ أبو داود: يعني أنظر في كتبهما.

وقيل لابن المبارك: إذا صليت معنا لم لا تجلس معنا؟ قَالَ: أَذْهَبُ مع الصَّحابة والتابعين، قلنا له ومن أين الصَّحابة والتابعون؟ قَالَ: أذهب أنظر في عِلْمِي فأدرك آثارهم وأعمالهم، فما أصنع معكم؟! أنتم تغتابون النَّاس، فالبعد من كثيرٍ من النَّاس

أقرب إلى الله، وفر من النَّاس كفرارك من الأسد، وتمسك بدينك يسلم لك مجهودك.(١)

ساق ابن عبد البر بسنده (٢) أن أحمد بن محمد بن شجاع بعثَ غلامًا من غِلْمانه إلى أبي عبدالله بن الأعرابي -صاحب الغريب- يسأله المجيءَ إليه ، فعاد إليه الغلام ، فقال: قد سألته ذلك ، فقال لي: عندي قوم من الأعراب ، فإذا قضَيتُ أَرَبي منهم أتيتُ ، قَالَ الغلام: وما رأيتُ عنده أحدًا! إلا أن بين يديه كتبًا ينظر فيها! فينظر في هذا مرَّة وفي هذا مرة ، ثم ما شعرنا حتى جاء ، فقال له أبو أيوب: يا أبا عبدالله! سبحان الله العظيم! تخلَّفت عنَّا وحَرَمْتنا الأُنسَ بك ، ولقد قَالَ لي الغلامُ: إنه ما رأى عندك أحدًا! وقلتَ: أنا مع قومٍ من الأعراب ، فإذا قضيتُ أَرَبي معهم أتيتُ ، فقال ابنُ الأعرابي:

لنا جُلَساءٌ ما نَمَلُّ حديثَهم ... أَلِبَّاءُ مَأمُونُون غَيْبًا ومَشْهدا
يُفِيدُونَنَا من عِلْمِهم عِلمَ مَا مَضَى ... وَعَقْلًا وَتَأْدِيبًا وَرَأْيًا مُسَدَّدا
بِلا فِتنةٍ تُخْشَى ولا سُوء عِشْرةٍ ... ولا نُتَّقَى مِنْهُم لِسانًا وَلا يَدَا
فَإِنْ قُلْتَ: أمواتٌ فلا أَنْتَ كَاذِبٌ ... وإن قُلْتَ: أحياءٌ فَلَسْتَ مُفَنَّدا

قَالَ وهيب بن الورد: خالطت النَّاس خمسين سنة، فما وجدت رجلًا غفر لي ذنبًا، ولا وصلني إذا قطعته، ولا ستر على عورة، ولا ائتمنته إذا غضب، فالاشتغال بهؤلاء حمق كبير.(٣)

وكان عثمان بن عبد الله بن شبرمة يقول لأبيه: يا أبة لا تمكن النَّاس من نفسك، فإن أجرأ النَّاس على السِّباع أكثرهم لها معاينة.(٤)

فمن تحقق له ذلك وعاين الحقيقة، فالصّابر على أمر الله في الفتن كالقابض على الجمر.

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ١٦٤).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٢٢٧).
(٣) أبو نعيم "الحلية" (٨/ ١٤٦).
(٤) الثقات (٢٥٩).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ ؛ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ**». (١)

ولذلك ربما يعرف العبد الطَّريق، ولكن يعرض لقلبه من الآفات ما يحيد به عنه، والمعصوم من عصمه الله، وجد وثابر ولم يلتفت إلى المعوقات.

عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ، كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ**». (٢)

ولذلك إذا تخطى العبد هذه الصِّعاب، وعبر هذه الحدود، ولم يشعر بوحشةٍ من قِلَّة الرَّفيق، وأُنس العبد بربه، فسيلحق بالرَّكب إن شاء الله، وأما إذا هاله وعورة الطَّريق، ومال إلى هواه، واستأنس بالبطَّالين ممن يلعبون بعرض الطريق، وحادوا به إلى شعاب وطرق ؛ وأوهموه أنها مختصره ؛ فقد وقع في أودية الهلاك، وتجرع السُّم الذي لا يرجى له دواء.

يقول ابن القيم رحمه الله (٣): وقد يشعر العبد بمرضه ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدَّواء والصبر عليه، فهو يؤثر بقاء اله على مشقة الدَّواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى ؛ وذلك أصعب شيء على النفس ؛ وليس لها أنفع منه، وتارة يوطن نفسه على الصبر ثم

---

(١) حسن لغيره: رواه الترمذي (٢٢٦٠) وانظر الصحيحة (٩٥٧).

(٢) صحيح: النسائي (٦/ ٢١) أحمد (٣/ ٤٨٣).

(٣) إغاثة اللهفان (٦٩).

ينفسخ عزمه، ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره ؛ كمن دخل في طريق مخوف ؛ مفض إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر، وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق، ولم يتحمل مشقتها ولا سيما إن عُدم الرفيق، واستوحش من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب النَّاس؟ فلي بهم أسوة. وهذه حال أكثر الخلق، وهي التي أهلكتهم، فالبصير الصّادق لا يستوحش من قلة الرَّفيق ولا من فقده ؛ إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول ﴿الَّذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ فتفرد العبد في طريق طلبه ؛ دليل على صدق الطلب ؛ بشرط أن يكون على علم بمن سبقه في هذا الطريق.اهـ.

وتأمل حال إبراهيم عليه السلام لما خالف قومه جميعًا في عبادة النجوم والشمس والقمر، وترك ما هم عليه من شرك وضلال ؛ لم يشعر بتفرد أو وحشة عليه السلام، بل قَالَ لهم كما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا من المشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ٧٨-٧٩].

قَالَ ابن جرير رحمه الله(١): وهذا خبر من الله تَعَالَى ذِكْرَهُ عن خليله إبراهيم عليه السلام، أنه لما تبين له الحق وعرفه، شهد شهادة الحق، وأظهر خلاف قومه أهل الباطل وأهل الشرك بالله، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قول الحق والثبات عليه مع خلاف جميع قومه لقوله، وإنكارهم إياه عليه، وقال لهم: يا قوم إني بريء مما تشركون مع الله الذي خلقني وخلقكم في عبادته من آلهتكم وأصنامكم، إني وجهت وجهي في عبادتي إلى الذي خلق السماوات والأرض، الدائم الذي يبقى ولا يفنى، ويحيي ويميت لا إلى الذي يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر ولا ينفع.اهـ.

أخي الحبيب: لقد غاب الرَّفيق، واستُوحش الأنيس، وليس إلا ضياع الوقت

(١) التفسير (٧/ ٢٥١).

وذهاب العمر، استمع لهذه النصيحة النادرة من منصور بن عمار في صفة زمانه، ثم قُلْ كيف بزماننا!! قَالَ رحمه الله: تغير الزَّمان حتى كَلَّ عن وصفه اللِّسان، فأمسى خَرِقًا بعد حداثته، شرسًا بعد لينه، يابس الضَّرع بعد غزارته، ذابل الفرع بعد نضارته، قاحل العُود بعد رطوبته، بشع المذاق بعد عذوبته، فلا تكاد ترى لبيبًا إلا ذا كمد، ولا ظريفًا واثقًا بأحد، وما أصبح له حليفًا إلا جاهل، ولا أمسى به قرير عين إلا غافل، فما بقي من الخير إلا الاسم، ولا من الدين إلا الرَّسم، ولا من التَّواضع إلا المخادعة، ولا من الزَّهادة إلا الانتحال، ولا من المروءة إلا غرور اللِّسان، ولا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا حمية النَّفس والغضب لها، فالحذر الحذر من النَّاس، فقد أَقَلَّ النَّاس وبقي النسناس، إن استقرضتهم حرموك، وإن استنصرتهم خذلوك، وإن استنصحتهم غشُّوك، وإن كنت شريفًا حسدوك، وإن كنت وضيعًا حقَّروك، وإن كنت عالما ضَلَّلوك وبدَّعوك، وإن كنت جاهلًا عيروك ولم يرشدوك، إن نطقت، قالوا: مِكْثَار مهزار صفيق، وإن سَكَتَّ، قالوا: غبي بليد بطيء، وإن تعمقت، قالوا: متكلف متعمق، وإن تغافلت، قالوا: جاهل أحمق، فمعاشرتهم داء وشقاء، ومزايلتهم دواء وشفاء، ولا بد من الدواء على حرارته والله المستعان. (١)

*****

(١) الخطابي "العزلة" (٨٣).

أنا وأنت في الأمنية

وبعد أن أوجزنا المقال فيما يتعلق بالعبادة والمنهج، ووقفنا على بعضٍ مما أمرنا الله به، فمن يتقدم ليبيع في سُوق العرض ؛ ليستلم الثمن بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من ذا الذي يجعل اللَّحظات، والخطرات، والحركات، والسَّكنات لله؟ بخلاف من أقعدته الشَّهوات، وحالت بينه وبين الحق الشُّبهات، فنال الحظَّ الخسيس وحُرم الأجر النفيس، وتلك لعمر الله الفتنة الكبرى والبلية العظمى التي استعبدت النُّفوس لغير خالقها، وملكت القلوب لمن يسومها الهوان مِنْ عُشَّاقِها، وألقت الحرب بين العبد وبين أعدائه، ودعت إلى موالاة كُلِّ شيطان مريد، فصيرت القلب للهوى أسيرًا، وجعلته عليه حاكمًا وأميرًا، فأوسعت القلوب محنة، وملأتها فتنة، وحالت بينها وبين رُشدها، وصرفتها عن طريق قصدها، ونادت عليها في سُوق الرَّقيق، فباعتها بأبخس الأثمان، وأعاضتها بأخس الحظوظ وأدنى المطالب ؛ عن العالي من غرف الجنان فضلًا عمّا هو فوق ذلك من القُرْبِ من الرحمن، فسكنت إلى ذلك المحبوب الخسيس الذي ألمها به أضعاف لذتها، ونيله والوصول إليه أكبر أسباب مضرتها، فما أوشكه حبيبًا يستحيل عدوًا عن قريب، ويتبرأ منه محبه لو أمكنه حتى كأن لم يكن له بحبيب، وإن تمتع به في هذه الدّار فسوف يجد به أعظم الألم بعد حين ؛ لا سيما إذا صار الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوًا إلا المتقين، فيا حسرة المحب الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بخس وشهوة عاجلة ؛ ذهبت لذتها وبقيت تبعتها، وانقضت منفعتها، وبقيت مضرتها، فذهبت الشهوة وبقيت الشِّقوة، وزالت النَّشوة وبقيت الحسرة، فهناك يعلم المخدوع أي بضاعة قد اشترى أو باع! وأي عُمر قد أضاع! عندها لا ينفع النَّدم ولا يخفف الألم.

فالله عز وجل يحب أن يُطاعَ فلا يكفر، وأن يحمد ويشكر، ويجازي عبده على ذلك

بأعلى الدَّرجات في الدنيا والآخرة، ومن هتك الستر، وأظهر العيب ؛ عاقبه الله بالخذلان في الدنيا والآخره، ومن تقلب وراوغ كروغان الثعالب، فإن الله يمنحه من العطايا، ويعطيه من الدَّلائل ما تكفيه للرد، فإذا استمر على جهله، واغتر بحلم الله له، أخرجه الله من تحت كنفه وأظهر عيبه، وأبان عواره.

قَالَ سعيد بن المسيب: يد الله فوق عباده، فمن رفع نفسه وضعه الله، ومن وضعها رفعه الله، النَّاس تحت كنفه يعملون أعمالهم، فإذا أراد الله فَضِيحة عبد أخرجه من تحت كنفه فبدت للناس عورته.(١)

قَالَ سعيد بن المسيب: ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله عز وجل، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله، وكفى بالمؤمن نصرةً من الله أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله، وكان سعيد بن المسيب يكثر أن يقول في مجلسه: اللهم سَلِّم سَلِّم.(٢)

قَالَ ابن عباس: إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وقوة في البدن، وسعةً في الرِّزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظُلمة في القلب، ووهنا في البدن، ونقصًا في الرِّزق، وبغضة في قلوب الخلق، وقال عثمان بن عفان: ما عمل رجل عملًا إلا ألبسه الله رداءه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. وهذا أمر معلوم يشترك فيه وفي العلم به أصحاب البصائر وغيرهم ؛ حتى إن الرجل الطَّيب البر لتشم منه رائحةً طيبة، وإن لم يمس طيبًا فيظهر طيب رائحة روحه على بدنه وثيابه، والفاجر بالعكس، والمزكوم الذي أصابه الهوى ؛ لا يَشُمُّ لا هذا ولا هذا بل زكامه يحمله على الإنكار.(٣)

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لله تَمْلَأُ الميزَانَ، وَسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله تَمْلَآنِ ؛ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،**

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٦٦).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٦٤).

(٣) الوابل الصيب (٤٨).

وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاس يَغْدُو فَبَايعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا».(١)

والصبر - أي حبس النفس على مشاق الطّاعة والنوائب والمكاره - "ضياء" أي لا يزال صاحبه مستضيئًا بنور الحق على سلوك سبيل الهداية والتوفيق، ليتحلى بضياء المعارف والتحقيق، فيظفر بمطلوبه ويفوز بمرغوبه.

قَالَ النووي: معناه الصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى النائبات وأنواع المكاره في الدُّنيا، والمراد أن الصَّبر محمود لا يزال صاحبه مستضيئا مهتديا مستمرا على الصواب.

قَالَ جعفر بن سليمان: كنت إذا رأيت من قلبي قَسْوَةً نظرت إلى وجه محمد بن واسع، وكان وجهه كَأَنَّه وجه ثكلى.(٢)

لذة التعبد عند السَّلف

فلله در أقوام ؛ شغلهم تحصيل زادهم عن أهليهم وأولادهم، ومال بهم ذكر المآل عن المال في معادهم ، وصاحت بهم الدنيا فما أجابوا شغلًا بمرادهم، وتوسدوا أحزانهم بدلًا عن وسادهم، واتخذوا الليل مسلكًا لجهادهم واجتهادهم، وحرسوا جوارحهم من النار عن غيهم وفسادهم، فيا طالب الهوى جز بناديهم ونادهم: أحيَوا فُؤَادِي! ولَكِنَّهم علَى صَيحَة من البين ماتُوا جميعًا، حرمُوا رَاحة النَّوم أجفَانهم، وَلَفُّوا علَى الزفرات الضُّلوعَا، طُول السَّواعد شُمُّ الأنوف ؛ فطابُوا أُصُولًا، وطَابُوا فُرُوعا، أَقبلت قلوبهم تراعي حق الحق، فذهلت بذلك عن مناجاة الخلق • فالأبدان بين أهل الدنيا تسعى، والقُلوب في رياض الملكوت ترعى، نازلهم الخوف فصاروا والهين، وناجاهم الفكر

(١) رواه مسلم (٢٢٣).
(٢) حلية الأولياء (٦/ ٢٨٧).

فعادوا خائفين، وجَنَّ عليهم الليل فباتوا ساهرين، وناداهم منادى الصَّلاح حيّ على الفلاح فقاموا متهجدين، وهبت عليهم ريح الأسحار فتيقظوا مستغفرين، وقطعوا بند المجاهدة فأصبحوا واصلين، فلمَّا رجعوا وقت الفجر بالأجر نادى الهجر: يا خيبة النائمين.

لله قَوْمٌ شَرُوا مِن الله أَنْفُسَهُم فَأَتْعَبُوهَا بِذِكْرِ الله أَزْمَانَا
أَمَّا النَّهَارُ فَقَدْ وَافَوا صِيامَهُمُ وَفِي الظَّلَامِ تَرَاهُمْ فِيهِ رُهْبَانَا
أَبْدَانُهُم أَتْعَبَتْ فِي الله أَنْفُسَهَم وَأَنْفُسٌ أَتْعَبَتْ فِي الله أَبْدَانَا
ذَابَتْ لُحُومُهُمُ خَوْفَ العَذَابِ غَدًا وَقَطَّعُوا اللَّيلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنَا

فلله در أقوام هجروا لذيذ المنام، وتنصلوا لما نصبوا له الأقدام، وانتصبوا للنصب في الظلام يطلبون نصيبًا من الإنعام، إذا جنّ الليل سهروا، وإذا جاء النَّهار اعتبروا، وإذا نظروا في عيوبهم استغفروا، وإذا تفكروا في ذنوبهم بكوا وانكسروا.

وإليك بعضًا من صورهم، ونماذج من هديهم، عسى أن نحذو حذوهم، ونتأسى بهديهم.

* لذةُ التعبد عند رسول الله ﷺ:

ونبدأ بسيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين نبينا محمد ﷺ، الذي ما اكتحلت العيون بمثل رؤيته، ولا شرفت النفوس بمثل صحبته، إنْ كَانَ ﷺ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ فَيُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا.(١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قَصَصِهِ يَذْكُرُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَخًا لَكُمْ لَا يَقُولُ الرَّفَثَ**» - يَعْنِي بِذَاكَ ابْنَ رَوَاحَةَ - قَالَ:

وَفِينَا رَسُولُ الله يَتْلُو كِتَابَهُ إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ من الْفَجْرِ سَاطِعُ

---

(١) رواه البخاري (١١٣٠) ومسلم(٢٨١٩).

أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْكَافِرِينَ المضَاجِعُ

بل إن شئت أن تراه قائمًا، أو راكعًا، أو ساجدًا، أو ذاكرًا، في أي ساعة من ليل أو نهار وجدته ﷺ بأمر الله قائمًا، ولعبادة الله ملازمًا، فقد كان عمله ﷺ ديمة.

عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ: هَلْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَخْتَصُّ من الْأَيَّام شَيْئًا؟ قَالَتْ: لَا، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً، وَأَيُّكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُطِيقُ؟!.(١)

ولذلك نرى الصَّحابة ـ رَضِيَ الله عَنْهُم ـ ما رأت عيونهم ولا سمعت آذانهم النَّبِيّ ﷺ إلا وهو على طاعة.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى، من الْبُكَاءِ ﷺ.(٢)

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ الله ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَتَحَسَّسْتُهُ فَإِذَا هُوَ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ، يَقُولُ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، فَقَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنِّي لَفِي شَأْنٍ وَإِنَّكَ لَفِي آخَرَ.(٣)

وعَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلاة مِن اللَّيْلِ ؛ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ، صَلَّى مِن النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً.(٤)

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ

---

(١) البخاري (١٩٨٧) ومسلم (٧٨٣).
(٢) رواه أبو داود (٧٦٩).
(٣)رواه مسلم (٤٨٥).
(٤) رواه مسلم (٧٤٦).

بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ.(١)

بل نرى عند الشدائد والصعاب وتغير الزمان، يكون هو أقرب الخلق من الرحمن.

فَعَنْ عَلِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَومَ بَدرٍ غَيْرَ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا قَائِمٌ إِلَّا رَسُولُ الله ﷺ؛ تَحْتَ شَجَرَةٍ يُصَلِّي وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ.(٢)

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ، حَتَّى يَضَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ من شِدَّةِ الحَرِّ، وَمَا فِينَا صَائِمٌ إِلَّا مَا كَانَ مِن النَّبِيِّ ﷺ، وَابْنِ رَوَاحَةَ.(٣)

سماعه القرآن

*** وكان ﷺ يحب سماع القرآن من غيره.**

فَعَنْ عَبْدِ الله بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيّ ﷺ اقْرَأْ عَلَيَّ، قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ من غَيْرِي، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ؛ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا من كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾قَالَ: أَمْسِكْ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ.(٤)

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَبِي مُوسَى: **«لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ؛ لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا من مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»**.(٥)

---

(١) رواه مسلم(٧٧٢).
(٢) ابن حبان (٦/ ٢٢٥٧).
(٣) رواه البخاري(١٩٤٥) ومسلم(١١٢٢).
(٤) رواه البخاري(٤٥٨٢) ومسلم (٨٠٠).
(٥) رواه مسلم (٧٩٣).

لذة التعبد عند الصحابة رضي الله عنهم

فمهما سطَّر البنان، وتكلم العلماء بكلِّ لسان ؛ فإن سير هؤلاء يعجز عن وصفها إنسان.

فهم أولى بالحديث من قول العباس بن الأحنف عن محبوبته:

وَحَدَّثْتَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَزِدْتَنِي ... جُنُونًا فَزِدْنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ

فهم مصابيح الدُّجى، وينابيع الرشد والحجى، خصوا بخفي الاختصاص، ونقوا من التصنع بالإخلاص، وهم الواصلون بالحبل، والباذلون للفضل، والحاكمون بالعدل، هم المبادرون إلى الحقوق من غير تسويف، والموفون للطَّاعات من غير تطفيف.

هُم الرِّجَالُ وَعَيْبٌ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ ... لَمْ يَتَّصِفْ بِمَعَانِيَ وَصْفِهِم رَجُلُ

* أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

السّابق إلى التَّصديق، الملقب بالعتيق المؤيد من الله بالتوفيق، ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [سورة التوبة: ٤٠] .

كان رقيق القلب غزير الدَّمع، عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ قَالَتْ: لَمَّا مَرِضَ النَّبِيُّ ﷺ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، أَتَاهُ بِلَالٌ يُوذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ**»، قُلْتُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ(١) إِنْ يَقُمْ مَقَامَكَ يَبْكِي، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِرَاءَةِ.(٢)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ الله نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ الله هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاة دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاة، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ**

---

(١) رقيق القلب سريع البكاء.

(٢) رواه البخاري (٧١٢) ومسلم (٤١٨).

أَبُو بَكْرٍ ـ رضي الله عنه ـ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ من تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ».(١)

كان صِدِّيقًا ما اهتز إيمانه ولا تزعزع وجدانه، عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ - يَعْنِي بِالْعَالِيَةِ - فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَالله، مَا مَاتَ رَسُولُ الله ﷺ، قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَالله مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ الله فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ الله الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا. ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ! فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ الله أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله فَإِنَّ الله حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ [إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ] وَقَالَ [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ الله شَيْئًا وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ] قَالَ فَنَشَجَ النَّاس يَبْكُونَ.(٢)

* عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

الفاروق، ذو المقام الثابت المأنوق، أعلن الله به دعوة الصّادق المصدوق، فجمع الله له بما منحه من الصَّولة ؛ ما نشأت لهم به الدَّولة، كان معارضًا للمبطلين، موافقًا في الأحكام لرب العالمين، كان فارقًا بين الحق والباطل.

فَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ لَمَّا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟- ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟-ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟-ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -ثُمَّ رَجَعَ إِلَى

---

(١) رواه البخاري (١٨٩٧) ومسلم (١٠٢٧).

(٢) البخاري (٣٦٦٨).

أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللهِ يَا عَدُوَّ اللهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ.(١)

*** ورغم شدته على الكفّار كان على إخوانه رقيق القلب سريع الدّمع:**

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رضي الله عنه - قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ ؛ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ، فَسَلَّمَ**»، وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ فَقَالَ: يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ - ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ: أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَاللهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ - مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي مَرَّتَيْنِ فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا**».(٢)

وَعَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رضي الله عنه - يَقْرَأُ فِي الْعَتَمَةِ بِسُورَةِ يُوسُفَ، وأنا فِي مُؤَخِّرِ الصُّفُوفِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ ذِكْرُ يُوسُفَ ؛ سَمِعْتُ نَشِيجَهُ فِي مُؤَخِّرِ الصَّفِّ.(٣)

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَنْطَبٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ: «**هَذَانِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ**».(٤)

*** عثمان رضي الله عنه :**

القانت الحيي ذو الهجرتين، الكريم الجواد ذو النورين، كان حظُّه من النَّهار الجود

---

(١) البخاري (٣٠٣٩)

(٢) رواه البخاري (٣٦٦١)

(٣) ابن أبي شيبة "المصنف" (٧/ ٢٢٥)

(٤) حسن: الترمذي (٨١٤) والحاكم (٣/ ٦٩)، انظر الصحيحة (٨١٤)

والصيام، ومن الليل السجود والقيام، مبشر بالجنة على بلوى تصيبه.

كان ـ رضي الله عنه ـ يحيي الليل بالقرآن، وثبت أنه قرأ القرآن في ركعة.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ قَالَ: قُمْتُ خَلْفَ المَقَامِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ لَا يَغْلِبَنِي عَلَيهِ أَحَدٌ تِلْكَ اللَّيلة، فَإِذَا رَجُلٌ يَغْمِزُنِي فَلَمْ أَلْتَفِتْ، ثُمَّ غَمَزَنِي فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّان ـ رضي الله عنه ـ فَتَنَحَّيْتُ فَتَقَدَّمَ فَقَرَأَ القُرْآنَ فِي رَكْعَةٍ.(١)

وكان ـ رضي الله عنه ـ رقيق القلب، غزير الدمع، كان أذا رأى قبرًا بكى حتى يرحم.

عَنْ هَانِئٍ مَوْلَى عُثْمَانَ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: كَانَ عُثْمَانُ ـ رضي الله عنه ـ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ تَذْكُرُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ فَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي من هَذَا، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **«القَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: وَالله مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»**.(٢)

بشّره النبي ﷺ بالجنة على بلوى تصيبه ؛ فكان صابرًا محتسبًا حتى لقي ربه.

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيُّ أَنَّهُ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: لَأَلْزَمَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، وَلَأَكُونَنَّ مَعَهُ يَوْمِي هَذَا. فَجَاءَ المَسْجِدَ فَسَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: خَرَجَ وَوَجَّهَ هَا هُنَا، قَالَ: فَخَرَجْتُ عَلَى إِثْرِهِ أَسْأَلُ عَنْهُ حَتَّى دَخَلَ بِئْرَ أَرِيسٍ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ البَابِ – وَبَابُهَا من جَرِيدٍ –حَتَّى قَضَى رَسُولُ الله ﷺ حَاجَتَهُ فَتَوَضَّأَ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى بِئْرِ أَرِيسٍ، وَتَوَسَّطَ قُفَّهَا وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ ؛ وَدَلَّاهُمَا فِي البِئْرِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ فَجَلَسْتُ عِنْدَ البَابِ، فَقُلْتُ: لَأَكُونَنَّ بَوَّابَ رَسُولِ الله ﷺ اليَوْمَ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَدَفَعَ البَابَ، فَقُلْتُ مَنْ هَذَا؟! فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، ثُمَّ ذَهَبْتُ

---

(١) البيهقي "السنن الكبرى" (٣/ ٢٤).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٠٨) ابن ماجة (٤٢٦٧) أحمد (١/ ٦٣).

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ، فَقَالَ: «ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»، فَأَقْبَلْتُ حَتَّى قُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: ادْخُلْ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُبَشِّرُكَ بِالْجَنَّةِ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَهُ فِي الْقُفِّ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبِئْرِ كَمَا صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ وَقَدْ تَرَكْتُ أَخِي يَتَوَضَّأُ وَيَلْحَقُنِي، فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدْ اللهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا - يُرِيدُ أَخَاهُ - يَأْتِ بِهِ، فَإِذَا إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسْتَأْذِنُ، فَقَالَ: «ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»، فَجِئْتُ فَقُلْتُ: ادْخُلْ، وَبَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ، فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْقُفِّ عَنْ يَسَارِهِ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبِئْرِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدْ اللهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا يَأْتِ بِهِ، فَجَاءَ إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ»، فَجِئْتُهُ، فَقُلْتُ لَهُ: ادْخُلْ وَبَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُكَ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ الْقُفَّ قَدْ مُلِئَ، فَجَلَسَ وِجَاهَهُ من الشِّقِّ الْآخَرِ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: فَأَوَّلْتُهَا قُبُورَهُمْ.[(١)]

* علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

نُور المطيعين، وولي المتقين، وإمام العابدين، من أسرع الصحابة إجابة، وأعظمهم حلما، وأوفرهم علما، وأقومهم قضية، حُرمنا علمه بسبب غلو الشِّيعة فيه وكذبهم عليه -وإلى الله المشتكى، وأما فضائله فقد لاحت في الأفق، وإليك ما قيل بحضرة خصمه ومن لاحت بينهما السيوف - معاوية ـ رضي الله عنه ـ.

دخل ضرار بن ضمرة الكِناني على معاوية، فقال له: صِفْ لي عليًا، فقال أو تعفيني يا أمير المؤمنين، قَالَ: لا أعفيك، قَالَ: أما إذ لا بد ؛ فإنه كان والله بعيد المدى، شديد

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٤) ومسلم (٢٤٠٣)

القوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما جشب(١)، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا ؛ لا نكلمه هيبة له، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ؛ وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه يميل في محرابه قابضًا على لحيته يتململ تململ السَّليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا يتضرع إليه ثم يقول للدنيا: إليَّ تغررَّتِ، إليَّ تشوفت، هيهات هيهات، غُرِّي غَيْرِي، قد بتتك ثلاثًا، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير، آه آه من قلة الزاد، وبعد السَّفر، ووحشة الطريق.

فوكفت دموع معاوية على لحيته ؛ ما يملكها، وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء، فقال: كذا كان أبو الحسن رحمه الله، ثم قَالَ: كَيْفَ وَجْدُكَ عليه يا ضرار؟ قَالَ: وَجْدُ مَنْ ذُبِحَ وَاحِدُهَا فِي حَجْرِهَا ؛ لَا تَرْقَأُ دَمْعَتُهَا، وَلَا يَسْكُنُ حُزْنُهَا - ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ.(٢)

* أبو عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه:

أبو عبيدة الأمين الرَّشيد، والقائد السَّديد اختاره عمر ؛ وهو يتمنى ملأ مكانه رجالًا كأبي عبيدة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا**

(١) غليظ خشن.
(٢) حلية الأولياء "أبو نعيم" (١/ ٨٤).

الْأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ».(١)

دخل عمر بن الخطاب على أبي عبيدة بن الجراح، فإذا هو مضطجع على طنفسة رحله متوسدًا الحقيبة، فقال له عمر: ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك؟! فقال: يا أمير المؤمنين هذا يبلغني المقيل.(٢)

وعن عمر بن الخطاب أنه قَالَ لأَصْحَابِهِ: تَمَنَّوا، فقال رجل: أتمنى لو أن لي هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل الله، ثم قَالَ: تَمَنَّوا، فقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤا وزبرجدًا وجوهرًا ؛ أنفقه في سبيل الله وأتصدق، ثم قَالَ: تَمَنَّوا، فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين، فقال عمر: أتمنى لو أن هذه الدّار مملوءة رجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح.(٣)

* معاذ بن جبل رضي الله عنه:

مقدام العلماء، وإمام الحكماء!!!

قَالَ ابن مسعود رضي الله تَعَالَى عنه: إن معاذ بن جبل رضي الله تَعَالَى عنه كان أمة قانتًا لله حنيفًا، فقيل له: إن إبراهيم كان أمة قانتًا لله حنيفًا! فقال: ما نسيت، هل تدرون ما الأمة وما القانت؟! الأمة الذي يُعَلِّم الخير، والقانت المطيع لله وللرسول، وكان معاذ يُعَلِّم النَّاس الخير، ومطيعًا لله ولرسوله.(٤)

وكان معاذ بن جبل شابًا جميلًا سمحًا من خير شباب قومه، لا يُسأل شيئا إلا أعطاه، حتى أدان دينا أغلق ماله، فكلم رسول الله ﷺ أن يكلم غرماءه ففعل، فلم يضعوا له شيئًا، فلو ترك لأحد لكلام أحد لترك لمعاذ لكلام رسول الله ﷺ، فدعاه النَّبِيُّ ﷺ فلم يبرح حتى باع ماله وقسمه بين غرمائه، فقام معاذ لا مال له، فلما حجَّ بعثه النَّبِيُّ ﷺ إلى اليمن ليجبره، وكان أول من حجز عليه في هذا المال معاذ، فقدم على أبي

---

(١) رواه البخاري (٣٧٤٤) ومسلم (٢٤١٩).

(٢) حلية الأولياء "أبو نعيم" (١/ ١٠٢).

(٣) حلية الأولياء "أبو نعيم" (١/ ١٠٢).

(٤) حلية الأولياء "أبو نعيم" (١/ ٢٣١).

بكر رضي الله تَعَالَى عَنْهُ من اليمن وقد تُوفي رسول الله ﷺ

قَالَ أبو نعيم: وغُرماء معاذ كانوا يهودًا فلهذا لم يضعوا عنه شيئًا.

فلما قبض النَّبِيُّ ﷺ واستخلفوا أبا بكر، فاستعمل أبو بكر عمر على الموسم فلقي معاذًا بمكة ومعه رقيق، فقال: هؤلاء أهدوا لي وهؤلاء لأبي بكر، فقال عمر: إني أرى لك أن تأتي أبا بكر، قَالَ فَلَقِيه من الغد، فقال: يا ابن الخطاب! لقد رأيتني البارحة وأنا أنزوي إلى النار وأنت آخذ بحجزتي، وما أراني إلا مطيعك، فأتى بهم أبا بكر، فقال: هؤلاء أهدوا لي وهؤلاء لك، قَالَ: فإنا قد سلمنا لك هديتك، فخرج معاذ إلى الصَّلاة ؛ فإذا هم يُصلون خلفه، فقال: لمن تصلون هذه الصَّلاة؟ قالوا لله عز وجل، قَالَ: فأنتم لله فأعتقهم.(١)

وعن معاذ رحمه الله تَعَالَى لَمَّا أن حضره الموت، قَالَ: انظروا أصبحنا؟ فأتى، فقيل: لم تصبح، قَالَ: انظروا أصبحنا؟ فأتي فقيل:لم تصبح حتى أتى في بعض ذلك، فقيل له: قد أصبحت، قَالَ: أَعُوذُ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحبًا بالموت، مرحبًا زائر مغيب، حبيب جاء على فاقة، اللهم إني قد كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك، اللهم أن كنت تعلم أني لم أكن أحب الدُّنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار، ولا لغرس الشَّجر، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة السّاعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.(٢)

* بين أبي عبيدة ومعاذ:

وقد أراد عمر ـ رضي الله عنه ـ أن يوقع اختبارًا – بعد أن فتحت الدنيا، على أبي عبيدة ومعاذ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ، ليختبر حال الأمراء والعلماء.

وروي أن عمر ـ رضي الله عنه ـ أخذ أربعمائة دينار، فقال لغلام له: أذهب بها إلى أبي عبيدة، ثم تله ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع، قَالَ: فذهب بها الغلام، فقال:

---

(١) حلية الأولياء "أبو نعيم" (١/ ٢٣٠).
(٢) الإمام أحمد "الزهد" (١/ ١٨٠).

يقول لك أمير المؤمنين: خذ هذه، فقال: وصله الله ورحمه، ثم قَالَ: تعالي يا جارية! اذهبي بهذه السَّبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفذها، فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ؛ فأرسله بها إليه، فقال معاذ: وصله الله، يا جارية! اذهبي إلى بيت فلان بكذا، ولبيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ، فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا، ولم يبق في الخرقة إلا ديناران، فدحا بهما إليها، ورجع الغلام فأخبر عمر فسر بذلك، وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض.(١)

وهذه القصة تبين فطنة عمر في اختباره لحال الأمراء والعلماء، فبهم صلاح الأمة إن صلحوا، وفسادها إن فسدوا.

* أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

كان رحمه الله بالقرآن مترنما وقائما، وفي طول الأيام طاويًا وصائمًا، صاحب القراءة والمزمار.

عن أبي سلمة: كان عمر إذا جلس عنده أبو موسى، ربما قَالَ لَهُ ذَكِّرنا يا أبا موسى، فيقرأ.(٢)

عن أبي إدريس عائذ الله قَالَ: صَامَ أبو موسى الأشعري حتى عاد كأنه خلال، فقيل له: يا أبا موسى لو أجمت نفسك، قَالَ: إجمامها أريد، أني رأيت السّابق من الخيل المضمر، وربما خرج من منزله فيقول لامرأته شُدِّي رحلك، ليس على جهنم معبر.(٣)

وكان رحمه الله شجاعًا بطلًا مغوارًا لا يخشى بأسًا ولا يعبأ بعدو.

عَنْ أَبِي مُوسَى - رضي الله عنه - قَالَ: لَمَّا فَرَغَ النَّبِيّ ﷺ مِنْ حُنَيْنٍ، بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ، فَقُتِلَ دُرَيْدٌ وَهَزَمَ الله أَصْحَابَهُ، قَالَ أَبُو

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٥٦).
(٢) ابن سعد (٤/ ١٠٩).
(٣) ابن عساكر (٣٢/ ٨٩).

مُوسَى: وَبَعَثَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ فَرُمِيَ أَبُو عَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ، رَمَاهُ جُشَمِيٌّ بِسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَتِهِ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا عَمِّ مَنْ رَمَاكَ؟ فَأَشَارَ إِلَيَّ، فَقَالَ: ذَاكَ قَاتِلِي الَّذِي رَمَانِي فَقَصَدْتُ لَهُ فَلَحِقْتُهُ، فَلَمَّا رَآنِي وَلَّى فَاتَّبَعْتُهُ، وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ: أَلَا تَسْتَحْيِي؟ أَلَا تَثْبُتُ؟ فَكَفَّ، فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ، ثُمَّ قُلْتُ لِأَبِي عَامِرٍ: قَتَلَ الله صَاحِبَكَ قَالَ: فَانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا مِنْهُ الماءُ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! أَقْرِئْ النَّبِيَّ ﷺ السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: اسْتَغْفِرْ لِي. وَاسْتَخْلَفَنِي أَبُو عَامِرٍ عَلَى النَّاسِ، فَمَكُثَ يَسِيرًا ثُمَّ مَاتَ، فَرَجَعْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ ؛ قَدْ أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِهِ وَجَنْبَيْهِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا وَخَبَرِ أَبِي عَامِرٍ، وَقَالَ: قُلْ لَهُ اسْتَغْفِرْ لِي، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ، وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ من خَلْقِكَ من النَّاس، فَقُلْتُ: وَلِي فَاسْتَغْفِرْ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ الله بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ، وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا.(١)

واجتهد الأشعري قبل موته اجتهادًا شديدًا، فقيل له لو أمسكت! ورفقت بنفسك بعض الرفق، قَالَ: إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها، أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك، فلم يزل على ذلك حتى مات.(٢)

قَالَ الذَّهبي: وكان أبو موسى صوَّامًا قوَّامًا، ربانيًا زاهدًا عابدًا، ممن جمع العِلْمَ والعمل والجهاد، وسلامة الصَّدر، لم تُغيره الإمارة ولا اغتر بالدُّنيا.(٣)

* بين معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري:

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ أَبَا مُوسَى وَمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ: وَبَعَثَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى مِخْلَافٍ -قَالَ وَالْيَمَنُ مِخْلَافَانِ - ثُمَّ قَالَ: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا،

---

(١) رواه البخاري (٤٣٢٣) ومسلم (٢٤٩٨).

(٢) البيهقي "شعب الإيمان" (٧/ ٣٨٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٩٦).

وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا»، فَانْطَلَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى عَمَلِهِ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِذَا سَارَ فِي أَرْضِهِ كَانَ قَرِيبًا من صَاحِبِهِ أَحْدَثَ بِهِ عَهْدًا فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَسَارَ مُعَاذٌ فِي أَرْضِهِ قَرِيبًا من صَاحِبِهِ أَبِي مُوسَى، فَجَاءَ فَقَالَ: «يَا عَبْدَ الله! كَيْفَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟» قَالَ: أَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا، قَالَ: «فَكَيْفَ تَقْرَأُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟» قَالَ: أَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ فَأَقُومُ وَقَدْ قَضَيْتُ جُزْئِي من النَّوْمِ، فَأَقْرَأُ مَا كَتَبَ الله لِي فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي. (١)

*** عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:**

المتعبد المتهجد المتتبع للأثر المتشدِّد، كادت أن تكون له الخلافة فصانه الله وحفظه من الفتن، قَالَ نَافِعٌ: دخل ابن عمر الكعبة فسمعته يقول وهو ساجد: قد تعلم ما يمنعني من مزاحمةِ قريش على هذه الدنيا إلا خوفك. (٢)

وعن سعيد بن جبير قَالَ: رَأَيْتُ ابن عمر وأبا هريرة وأبا سعيد وغيرهم كانوا يرون أنه ليس أحد منهم على الحال التي فارق عليها محمد ﷺ؛ غير ابن عمر. (٣)

وكان لعبد الله بن عمر مِهْرَاسٌ فيه ماء، فيصلي ما قُدِّر له، ثم يصير إلى فراشه فيغفى إغفاء الطَّائر، ثم يقوم فيتوضأ، ثم يصلي، ثم يرجع إلى فراشه، فيغفى إغفاء الطَّائر، ثم يثب فيتوضأ، ثم يصلي، فيفعل ذلك في الليلة أربع مرات، أو خمسًا. (٤)

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه أنه تلا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا من كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [سورة النساء: ٤١] فجعل ابن عمر يبكي حتى لصقت لحيته وجيبه من دموعه، فأراد رجل أن يقول لأبي: أقصر فقد آذيت الشيخ. (٥)

وعن نافع، كان ابن عمر إذا قرأ: ﴿الم يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله﴾

---

(١) رواه البخاري (٤٣٤٢).
(٢) رواه الحاكم "المستدرك" (٣/ ٥٦٠).
(٣) رواه الحاكم "المستدرك" (٣/ ٥٦٠).
(٤) ابن المبارك "الزهد" (٤٣٨).
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١٤).

[سورة الحديد: ١٦] بكى حتى يغلبه البكاء.(١)

وقيل لنافع: ما كان يصنع ابن عمر في منزله، قَالَ: لا تُطِيقونه، الوضوء لكلِّ صلاة، والمصحف فيما بينهما.(٢)

عن حمزة بن عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ قَالَ: تَلَوْتُ هذه الآية: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران ٣/ ٩٢] فذكرت ما أعطاني الله تَعَالَى، فما وجدت شيئًا أحبَّ إلي من جاريتي رضية، فقلت: هي حرة لوجه الله عزَّ وجل ؛ فلولا أني لا أعود في شيء جعلته لله عز وجل لنكحتها ؛ فأنكحها نافع فهي أم ولده.(٣)

عن نافع قَالَ: كَانَ ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قرَّبه لربه عزَّ وجل. قَالَ نافع: وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه، فربما شمر أحدهم فيلزم المسجد ؛ فإذا رآه ابن عمر رضي الله تَعَالَى عنه على تلك الحالةِ الحسنة أعتقه فيقول: له أصحابه يا أبا عبد الرحمن! والله ما بهم إلا أن يخدعوك، فيقول ابن عمر: فمن خدعنا بالله عز وجل تخدَّعنا له، قَالَ نافع: فلقد رأيتنا ذات عشية وراح ابن عمر على نجيب له قد أخذه بمالٍ عظيم ؛ فلما أعجبه سيره أناخه مكانه، ثم نزل عنه، فقال: يا نافع انزعوا زِمامه ورحله، وجللوه وأشعروه، وأدخلوه في البدن.(٤)

وعن ابن سيرين أن رجلًا قَالَ: لابن عمر أعمل لك جَوَارِش(٥)، قَالَ: وما هو؟ قَالَ: شيء إذا كَظَّك الطَّعام فأصبت منه سهل، فقال: ما شبعت منذ أربعة أشهر، وما ذاك أن لا أكون له واجدا، ولكن عهدت قومًا يشبعون مرة، ويجوعون مرة.(٦)

---

(١) حلية الأولياء "أبو نعيم" (١/ ٣٠٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١٥).
(٣) رواه الحاكم (٣/ ٥٦١).
(٤) حلية الأولياء "أبو نعيم" (١/ ٢٩٤).
(٥) مهضمات للطعام.
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٢٢).

قَالَ الذَّهبي: وأين مثل ابن عمر في دينه، وورعه، وعلمه، وتألهه، وخوفه، من رجل تعرض عليه الخلافة فيأباها، والقضاء من مثل عثمان فيرده، ونيابة الشّام لعلي فيهرب منه، فالله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب.(١)

*** عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:**

بدر الأحبار، والبحر الزَّخار، دعوة النَّبِيِّ ﷺ بالفقه والتفسير.

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ضَمَّنِي رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ**».(٢)

وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ الْخَلَاءَ فَوَضَعْتُ لَهُ وَضُوءًا، قَالَ: «مَنْ وَضَعَ هَذَا؟ **فَأُخْبِرَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**».(٣)

وعن أبي وائلٍ قَالَ: خطبنا ابن عباس وهو أمير على الموسم، فافتتح سورة النُّور، فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثل هذا، لو سمعته فارس والرُّوم والترك ؛ لأسلمت.(٤)

عن ابن أبي مُليكة قَالَ: صَحِبت ابن عباس من مكة إلى المدينة، فكان إذا نزل قام شطر الليل، فسأله أيوب السَّخْتِياني كيف كانت قراءته؟ قَالَ قَرَأ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق: ١٩] فجعل يرتل، ويكثر في ذلك النَّشيج.(٥)

عن ابن أبي مليكة قَالَ: صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة، فكان يصلي ركعتين؛ فإذا نزل قام شطر الليل ويرتل القُران حرفًا حرفًا، ويكثر في ذلك من النَّشيج والنَّحيب.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٤).
(٢) رواه البخاري (٧٥).
(٣) رواه البخاري (١٤٣) ومسلم (٢٤٧٧).
(٤) رواه الحاكم (٣/ ٥٣٧).
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٢).

عن أبي رجاء قَالَ: رأيت ابن عباس وأسفل من عينيه مثل الشِّراك البالي من البكاء.(١)

*** أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه:**

ابن عَمِّ النَّبِيّ ﷺ وأخوه من الرَّضاعة، ولقد أحبه النَّبِيّ ﷺ بعد طول عداء ؛ وشهد له بالجنة، وقال: أرجو أن يكون خلفًا من حمزة، وقيل: إنه لم يرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ حياءً منه منذ أسلم.(٢)

ولما احتضر أبو سفيان قَالَ: لا تبكوا علي فإني لم أتنطف بخطيئة منذ أسلمت.(٣)

وعن سعيد بن المسيب: أن أبا سفيان بن الحارث كان يصلي في الصَّيف نصف النهار حتى تكره الصَّلاة، ثم يصلي من الظهر إلى العصر.(٤)

عن سعيد بن عبيد الثقفي قَالَ: رَمَيْتُ أبا سفيان يوم الطّائف فأصبت عينه فأتى النبي فقال: هذه عيني أصيبت في سبيل الله، قَالَ: إن شئت دعوت فَرُدَّت عليك، وإن شئت فالجنة، قَالَ: الجنة.(٥)

*** عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:**

المتفكر عند نزول الآيات المتصبر عند تناول الرّايات، نعاه النَّبِيُّ ﷺ يوم قتل ؛ وهو على منبره ﷺ بالمدينة.

لما أراد ابن رواحة الخروج إلى أرض مؤتة من الشّام ؛ أتاه المسلمون يودعونه فبكى، فقالوا له: ما يبكيك؟! قَالَ: أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة لكم، ولكني

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٥٢)
(٢) الإصابة (٧/ ٨٧)
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٤)
(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٥)
(٥) الإصابة (٣/ ٤١٤)

سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٧١] فقد علمت أني وارد النار، ولا أدري كيف الصُّدور بعد الورود.(١)

وقيل تزوج رجل امرأة ابن رواحة، فقال لها: تدرين لم تزوجتك؟! لتخبريني عن صنيع عبد الله في بيته، فذكرت له شيئًا لا أحفظه غير أنها قالت: كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلى ركعتين، وإذا دخل صلى ركعتين ؛ لا يدع ذلك أبدًا.(٢)

وعن سليمان بن يسار أن النَّبِيّ ﷺ كَانَ يَبْعَثُ ابن رواحة إلى خَيْبَر، فَيُخَرِّص بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَهُود، فَجَمَعُوا حُلِيًّا مِنْ نِسَائِهِم، فقالوا: هَذَا لك وخَفِّفْ عَنّا، فقال: يا معشر يهود! والله إنكم لمن أبغض خَلْقِ الله إلي، وما ذاك بِحَامِلي على أن أَحِيف عليكم، والرِّشوة سُحت، فقالوا: بهذا قامت السَّماء والأرض.(٣)

وعن بكر بن عبد الله المزني قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية: "وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا" ذهب عبد الله بن رواحة إلى بيته فبكى، فجاءت امرأته فبكت، وجاءت الخادم فبكت، وجاء أهل البيت فجعلوا يبكون، فلما انقطعت عبرته قَالَ: يا أهلاه ما الذي أَبْكَاكُم؟! قالوا: لا ندري! ولكن رأيناك بكيت فبكينا، قَالَ: إنَّه أنزلت على رسول الله آية، يُنبئني فيها ربي عز وجل أني وارد النّار، ولم ينبئني أني صادر عنها، فذلك الذي أبكاني.(٤)

وإن عبد الله بن رواحة أتى النَّبِيَّ ﷺ وهو يخطب، فسَمِعه وهو يقول: اجلسوا فجلس مكانه خارج المسجد ؛ حتى فرغ من خطبته، فبلغ ذلك النَّبِيّ ﷺ، فَقَالَ: زَادَكَ الله حِرْصًا عَلَى طَواعِية الله ورسوله.(٥)

---

(١) حلية الأولياء (١/ ١١٨)
(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٣٣)
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٣٥)
(٤) تاريخ دمشق (٢٨/ ١٠٦)
(٥) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٣٢).

وإن عبد الله بن رواحة قَالَ حِينَ أَخَذَ الرّاية يومئذ:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّه طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرِهَنَّه
إِنْ أَجْلَبَ النَّاس وَشَدُّوا الرَّنَّه مَا لِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّه
قَدْ طَالما قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّه هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّه

قَالَ ابن إسحاق وقال أيضًا:

يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الموْتِ قَدْ لَقِيتِ
وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ
* وَإِنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شَقِيتِ:

يُريد جعفرًا وزيدًا - رَضِيَ الله عَنْهُمَا -، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قُتل.(١)

وقبل أن ينزل أتاه ابن عمه بعظم من لحم، فقال: شُدَّ بهذا صلبك فإنك قد لاقيت من أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذه من يده ثم انتهش منه نهشة، ثم سمع الحطمة في ناحية النَّاس، فقال: وأنت في الدنيا، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه ؛ فتقدم فقاتل حتى قتل رضي الله تَعَالَى عنه.(٢)

* تميم بن أوس الداري رضي الله عنه:

صلى ليلةً حتى أصبح أو كاد يقرأ آية يرددها ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِين اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة الجاثية: ٢١](٣)

---

(١) البيهقي "السنن الكبرى" (٩/ ١٥٤).
(٢) حلية الأولياء (١/ ١٢٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٥).

*** عائشة ـ رَضِيَ الله عَنْهَا :**

الصِّديقة بنت الصديق، أفقه نساء الأمة على الإطلاق، المبرأة من كل عيب ونقص ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ.

عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: سَمِعْتُ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ تَقُولُ: كَانَ يَكُونُ عَلَيَّ الصَّوْمُ من رَمَضَانَ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَ إِلَّا فِي شَعْبَانَ، الشُّغْلُ من النَّبِيِّ أَوْ بِالنَّبِيِّ ﷺ.(١)
وقال أحد الرواة: فَظَنَنْتُ أَنَّ ذَلِكَ لِمَكَانِهَا من النَّبِيِّ ﷺ.(٢)

فلما تُوفي النَّبِيّ ﷺ كانت تصوم الدَّهر.(٣)

عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ ابْنَ أُخْتِهَا: إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ الله ﷺ نَارٌ، فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ! مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالماءُ ؛ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ جِيرَانٌ من الْأَنْصَارِ، كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ الله ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَا.(٤)

عن عروة بن الزبير قَالَ: كانت عائشة تقسم سبعين ألفًا، وهي ترقع درعها.(٥)

عن أم ذَرَّة قالت: بعث ابن الزبير إلى عائشة بمالٍ في غرارتين، يكون مائة ألف، فدعت بطبق ؛ فجعلت تقسم في النَّاس، فلما أمست قالت: هاتي يا جارية فَطُوري، فقالت أم ذرة: يا أم المؤمنين! أما استطعت أن تشتري لنا لحمًا بدرهم، قالت: لا تعنفيني لو ذكرتيني لفعلت.(٦)

(١)البخاري (١٩٥٠) ومسلم (١١٤٦).
(٢)رواه مسلم (١١٤٦).
(٣)سير أعلام النبلاء (٢/ ١٨٧).
(٤)رواه البخاري (٢٥٦٧) ومسلم (٢٩٧٢).
(٥)ابن أبي شيبة "المصنف" (٣٤٧٤٠).
(٦)سير أعلام النبلاء (٣/ ١٨٧).

ومرت عائشة ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ بهذه الآية: ﴿فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [سورة الطور: ٢٧] فقالت: اللهم من علينا وقنا عذاب السَّموم، إنك أنت البر الرحيم، فقيل للأعمش: في الصَّلاة، فقال: في الصَّلاة. (١)

*** أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما:**

ذات النِّطاقين العابدة الصابرة المحتسبة، جعلت من نطاقها سفرة للنبي ﷺ.

عَنْ أَسْمَاءَ ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ قَالَتْ: صَنَعْتُ سُفْرَةَ رَسُولِ الله ﷺ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ حِينَ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى المدِينَةِ، قَالَتْ: فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَتِهِ وَلَا لِسِقَائِهِ مَا نَرْبِطُهُمَا بِهِ، فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: وَالله مَا أَجِدُ شَيْئًا أَرْبِطُ بِهِ إِلَّا نِطَاقِي، قَالَ: فَشُقِّيهِ بِاثْنَيْنِ فَارْبِطِيهِ بِوَاحِدٍ السِّقَاءَ، وَبِالْآخَرِ السُّفْرَةَ، فَفَعَلْتُ. فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ. (٢)

وكانت عظيمة الولاء شديدة الاتباع، منعت نفسها عن أُمِّها حتى تعلم أيرضى رسول الله أم لا!!

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا ـ قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ. (٣)

وكانت شجاعة مهيبة، لا تخشى بأسًا، قَالَ هشام بن عروة: كثر اللُّصوص بالمدينة، فاتخذت أسماء خِنْجَرًا زمن سعيد بن العاص: كانت تجعله تحت رأسها، فقيل لها ما تصنعين بهذا؟ قالت: إن دخل علي لصٌّ بعجت بطنه - وكانت عَمْياء. (٤)

وكانت عظيمة القدر شديدة المراس، احتسبت ولدها قبل قتله عند الله سبحانه وتعالى.

---

(١) ابن أبي شيبة (٢/ ٦٠٣٦).
(٢)رواه البخاري (٢٩٧٩).
(٣)رواه البخاري (٢٦٢٠) ومسلم (١٠٠٣).
(٤)رواه الحاكم (٢٩٣).

عن عُروة بن الزبير قَالَ: دخلت أنا وعبد الله بن الزبير على أسماء قبل قتل ابن الزبير بعشرِ ليال، وإنها وَجِعَةٌ، فقال عبد الله: كيف تجدينك قالت: وجعة، قَالَ: إنَّ في الموت لعافية. قالت: لعلك تَشْتَهِي موتي فلذلك تتمناه؟! فلا تفعل! فالتفتت إلى عبد الله فضحكت، وقالت: والله ما أشتهي أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك: إما أن تُقْتَل فأحتسبك، وإما أن تظفر فتقر عيني عليك، وإياك أن تعرض خطة فلا توافق، فتقبلها كراهية الموت، وإنها عني ابن الزبير أن يُقْتَل فيحزنها ذلك - وكانت ابنة مائة سنة.(١)

ولما قُتل وصلب كانت صابرةً محتسبة، ولم تخش من صولة الحجاج وبطشه، بل واجهته بما لا يحب.

عَنْ أَبِي نَوْفَلٍ قَالَ: رَأَيْتُ عَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْرِ عَلَى عَقَبَةِ المدِينَةِ، فَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تمُرُّ عَلَيْهِ وَالنَّاسُ..ثُمَّ أَرْسَلَ الحَجَّاجُ إِلَى أُمِّهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، فَأَبَتْ أَنْ تَأْتِيَهُ، فَأَعَادَ عَلَيْهَا الرَّسُولَ لَتَأْتِيَنِّي أَوْ لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكِ مَنْ يَسْحَبُكِ بِقُرُونِكِ، فَأَبَتْ، وَقَالَتْ: وَالله لَا آتِيكَ حَتَّى تَبْعَثَ إِلَيَّ مَنْ يَسْحَبُنِي بِقُرُونِي: فَقَالَ: أَرُونِي سِبْتَيَّ فَأَخَذَ نَعْلَيْهِ ثُمَّ انْطَلَقَ يَتَوَذَّفُ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتِنِي صَنَعْتُ بِعَدُوِّ الله؟ قَالَتْ: رَأَيْتُكَ أَفْسَدْتَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ تَقُولُ لَهُ يَا ابْنَ ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ! أَنَا وَالله ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ، أَمَّا أَحَدُهُمَا: فَكُنْتُ أَرْفَعُ بِهِ طَعَامَ رَسُولِ الله ﷺ وَطَعَامَ أَبِي بَكْرٍ من الدَّوَابِّ، وَأَمَّا الْآخَرُ: فَنِطَاقُ المرْأَةِ الَّتِي لَا تَسْتَغْنِي عَنْهُ، أَمَا إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ حَدَّثَنَا: أَنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابًا وَمُبِيرًا. فَأَمَّا الْكَذَّابُ فَرَأَيْنَاهُ، وَأَمَّا المبِيرُ فَلَا إِخَالُكَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَقَامَ عَنْهَا وَلَمْ يُرَاجِعْهَا.(٢)

وَقِيلَ لِابْنِ عُمر: إِنَّ أَسْمَاءَ فِي نَاحِيةِ المسْجِدِ - وَذَلِكَ حِينَ صُلِبَ ابْنُ الزُّبير - فَمَالَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذِه الجُثَثُ لَيْسَتْ بِشَيءٍ، وَإِنَّمَا الأَرْوَاحُ عِنْدَ الله، فَاتَّقِي الله وَاصْبِرِي،

(١) حلية الأولياء (٥/ ٣٣١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٤٥).

فَقَالَتْ: ومَا يَمْنَعُنِي وَقَدْ أُهْدِي رَأْسُ يَحْيى بْنِ زَكَرِيَّا إِلَى بَغِي مِنْ بَغَايا بَنِي إِسْرَائِيل.(١)

وقد جاءت أسماء حتى وقفت عليه ؛ فدعت له طويلا، ولا يقطر من عينها دمعة، ثم انصرفت ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ، وماتت بعده بليال.(٢)

وكانت ـ رَضِيَ الله عَنْهَا ـ صَوّامة قوامة، لا تفتر من العبادة حتى ماتت.

عن عبّاد بن حمزة قَالَ: دخلت على أسماء وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ [سورة الطور: ٢٧] قَالَ: فوقفت عليها ؛ فجعلت تستعيذ وتدعو، قَالَ عَبّاد: فذهبت إلى السُّوق فقضيت حاجتي ؛ ثم رجعت وهي فيها بعد تستعيذ وتدعو.(٣)

* عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

أمير المؤمنين كان أوحد أمّته في الفضل، ونجيب عشيرته في العدل، جمع زهدًا وعفافًا وورعًا وكفافًا، شغله آجل العيش عن عاجله، كان رحمه الله للرعية أمنًا وأمانًا، كان عالما عابدًا مفهمًا حكيمًا.

عن جويرية بن أسماء قَالَ: قَالَ عُمَرُ: إِنَّ نَفْسِي هَذَه تَوّاقة، لم تعط من الدنيا شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، فلمّا أُعطيت الخلافة التي لا شيء أفضل منها، تاقت إلى ما هو أفضل منها!! أي – الجنة أفضل من الخلافة.(٤)

وكان رحمه الله قد اجتهد بالعبادة حتى أصبح لا يُغالَب عليها.

قَالَ مَنْصُور أبو أمية خادم عمر بن عبد العزيز: رأيت عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ وله سَفَط(٥) في كوة، مفتاحه في إزاره، فكان يتغفلني، فإذا نظر إلي قد

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٤).
(٢) البداية والنهاية (٨/ ٣٤٠).
(٣) ابن أبي شيبة (٢/ ٦٠٣٧).
(٤) حلية الأولياء(٥/ ٣٣١).
(٥) ما يوضع فيه الأشياء الخاصة.

نمت ؛ فتح السَّفط فأخرج منه جبة شعر ورداء شعر ؛ فصلى فيهما الليل كُلَّه، فإذا نودي بالصبح نزعهما.(١)

وقالت فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز: أنها دخلت عليه فإذا هو في مُصَلّاه يده على خده سائلة دموعه: فقالت: يا أمير المؤمنين أشيء حدث؟! قَالَ: يا فاطمة إني تقلَّدت أمر أمة محمد ﷺ، فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضَّائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمهم دونهم محمد ﷺ، فخشيت ألا تثبت لي حجة عند خصومته! فرحمت نفسي ؛ فبكيت.(٢)

وكان رحمه الله عفيف النَّفس، أجهد نفسه وضيَّق عليها ؛ حتى كان حاله كحال أي رجلٍ من عامة المسلمين.

عن أبي عثمان الثقفي قَالَ: كان لعمر بن عبد العزيز غلام يعمل على بغل له يأتيه بدرهم كُلَّ يومٍ، فجاءه يومًا بدرهم ونصف، فقال: ما بدالك؟ فقال: نفقت السُّوق، قَالَ: لا ولكنك أتعبت البغل، أرحه ثلاثة أيام.(٣)

صلَّى عمر بن عبد العزيز بالنَّاسِ الجمعة ؛ ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إنَّ الله قد أعطاك ؛ فلو لبست، فقال: أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة.(٤)

وعن عمرو بن مهاجر قَالَ: اشْتَهَى عمر تفاحًا، فقال: لو أن عندنا شيئا من تفاح، فإنه طيب، فقام رجل من أهله فأهدى إليه تفاحًا، فلمّا جاء به الرَّسول، قَالَ: ما أطيبه وأطيب ريحه وأحسنه، ارفع يا غلام واقرأ على فلان السَّلام، وقل له: إن هديتك قد

---

(١) البيهقي "شعب الإيمان"(٣/ ١٦٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٠).
(٣) حلية الأولياء (٥/ ٢٦٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٤).

وقعت عندنا بحيث تحب، قَالَ عمرو بن مهاجر: فقلت له يا أمير المؤمنين: ابن عمك رجل من أهل بيتك، وقد بلغك أن النَّبِيّ ﷺ كان يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، قَالَ: إنَّ الهدية كانت للنبي ﷺ هدية، وهي لنا رِشْوَة.(١)

وكان رحمه الله متواضعًا لم تغيره الخلافة، بل زادته حسنًا، ودينًا، وتواضعًا.

فعن رجاء بن حيوة قَالَ: سمرت ليلة عند عمر بن عبد العزيز فاعتل السِّراج، فذهبت أقوم أصلحه ؛ فأمرني عمر بالجلوس ثم قام فأصلحه ثم عاد فجلس، فقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز، ولؤمٌ بالرجل إن استخدم ضَيْفَه.(٢)

ومن حلمه وسعة صدرة ملاطفته لشاعر يقول الرفث.

فقد أتى فتيان إلى عمر بن عبد العزيز وقالوا: إن أبانا توفي وترك مالا عند عمنا حميد الأمجي، فأحضره عمر فلمّا دخل قَالَ أنت القائل:

شَرِبْتُ المدَامَ فَلَمْ أُقْلِعْ ... وَعُوتِبْتُ فِيهَا فَلَمْ أَسْمَعْ
حُمَيْدُ الَّذِي أَمَجٌ دَارُهُ ... أَخُو الخَمْرِ ذُو الشَّيْبَةِ الأَصْلَع
أَتَاهُ المشِيبُ عَلَى شُرْبِهَا ... وَكَانَ كَرِيمًا فَلَمْ يَنْزَع

قَالَ: نعم، قَالَ: ما أراني إلا سوف أحدُّك، إنك أقررت بشرب الخمر، وأنك لم تنزع عنها، قَالَ: إيهات! أين يُذهب بك؟ الم تسمع الله يقول: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) الم تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦] فقال: أولى لك يا حميد! ما أراك إلا قد أفلت، ويحك يا حميد كان أبوك رجلًا صالحا، وأنت رجل سوء، قَالَ: أصلحك الله وأينا يشبه أباه، كان أبوك رجل سوء، وأنت رجل صالح، قَالَ: إن هؤلاء زعموا أن أباهم توفي وترك مالا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٠).

(٢) حلية الأولياء (٥/ ٣٣٢).

عندك، قَالَ: صدقوا وأحضره بختم أبيهم، وقال: أنفقت عليهم من مالي، وهذا مالهم، قَالَ: ما أحد أحق أن يكون هذا عنده منك، فقال: أيعود إلي وقد خرج مني؟!.(١)

وبكى عمر بن عبد العزيز يومًا، فبكت فاطمة، فبكى أهل الدّار ولا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم العبر، قالت له فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين! مم بكيت؟! قَالَ: ذكرت يا فاطمة مُنصرف القوم من بين يدي الله عز وجل، فريق في الجنة وفريق في السعير، قَالَ: ثم صرخ وغشي عليه.(٢)

قالت فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز: إنه قد يكون في النَّاس من هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر بن عبد العزيز، وما رأيت أحدا أشد فرقا من ربه منه، كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده ؛ ثم يرفع يديه فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه، ثم يتنبه فلا يزال يدعو رافعًا يديه يبكي حتى تغلبه عينه، يفعل ذلك ليله أجمع.(٣)

قَالَ الذَّهبي: قد كان هذا الرجل حسن الخلق والخلق، كامل العقل حسن السَّمت جيد السِّياسة، حريصًا على العدل بكل ممكن، وافر العلم فقيه النفس ظاهر الذكاء والفهم، أواهًا منيبًا قانتًا لله حنيفًا زاهدًا مع الخلافة، ناطقًا بالحق مع قِلَّة المعين وكثرة الأمراء الظَّلمة الَّذين ملُّوه، وكرهوا محاققته لهم، ونقصه أعطياتهم، وأخذه كثيرًا مما في أيديهم مما أخذوه بغير حق، فما زالوا به حتى سَقوه السُّم، فحصلت له الشَّهادة والسَّعادة، وعد عند أهل العلم من الخلفاء الرّاشدين، والعلماء العاملين.(٤)

*** أبو مسلم الخولاني رحمه الله تعالى:**

سيد التابعين، وزاهد العصر، أسلم في أيامِ النَّبيِّ ﷺ ودخل المدينة في خلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، كان عابدًا مجاهدًا، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر.

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٨).
(٢) حلية الأولياء (٥/ ٢٦٩).
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٧).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٠).

عن عطية بن قيس: أن أناسًا من أهل دمشق أتوا أبا مُسلم الخولاني في منزله ؛ وكان غازيًا بأرض الرُّوم فوجدوه قد احتفر في فسطاطه حفرة، ووضع في الحفرة نطعًا وأفرغ ماءً فهو يتصلق فيه وهو صائم، فقال له النفر ما يحملك على الصِّيام وأنت مسافر، وقد رَخَّص الله تَعَالَى لك الفطر في السَّفر والغزو، فقال: لو حضر قتال أفطرت ؛ وتقويت للقتال، إن الخيل لا تجري الغايات وهي بُدْنى، إنما تجري وهي ضمرات، إن بين أيدينا أيامًا لها نعمل.(١)

وكان رحمه الله يجتهد في العبادة، حتى كان يُكلف نفسه فوق ما تريد.

عن عثمان بن أبي العاتكة قَالَ: كان من أمر أبي مُسْلِم الخولاني أن عَلَّق سوطًا في مسجده، ويقول: أنا أولى بالسَّوط من الدواب، فإذا دخلته فترة مشق ساقه سوطًا أو سوطين، وكان يقول: لو رأيت الجنة عيانًا ما كان عندي مستزاد، ولو رأيت النار عيانًا ما كان عندي مستزاد.(٢)

وقد جاء رجلان إلى أبي مسلم فلم يجداه في منزله، فأتيا المسجد فوجداه يركع فانتظراه، فأحصى أحدهما أنه ركع ثلاث مائة ركعة.(٣)

وعن سليمان بن يزيد العدوى قَالَ: قَالَ أبو مسلم: يا أم مسلم سوي رحلك ؛ فإنه ليس على جهنم معبرة.(٤)

وقيل: ألقاه الأسود العنسي الكذاب في النار، فخرج منها ناجيا سالما رحمه الله.

عن شرحبيل الخولاني قَالَ: بينا الأسود العنسي باليمن فأرسل إلى أبي مسلم، فقال له: أتشهد أن محمدًا ﷺ رسول الله؟ قَالَ: نعم

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٢٧).
(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٢٧).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٠).
(٤) حلية الأولياء (٢/ ١٢٧).

قَالَ: فتشهد أني رسول الله؟ قَالَ: ما أسمع!

قَالَ: فأمر بنار عظيمة فأُجِّجَت، وطرح فيها أبو مسلم، فلم تضره.

فقال له أهل مملكته: إن تركت هذا في بلدك أفسدها عليك ؛ فأمره بالرَّحيل فقدم المدينة، وقد قبض رسول الله ﷺ، واستخلف أبو بكر، فعقل راحلته على باب المسجد، وقام إلى سارية من سواري المسجد يصلي إليها، فبصره به عمر ابن الخطاب رضي الله تَعَالَى عنه، فأتاه فقال: من أين الرجل؟ قَالَ: من اليمن، قَالَ: فما فعل عدو الله بصاحبنا الذي حرَّقه بالنّار فلم تضره؟ قَالَ: ذاك عبد الله بن ثوب، قَالَ: نَشدتك بالله أنت هو؟ قَالَ: اللَّهم نعم، قَالَ: فقبل ما بين عينيه، ثم جاء به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني من الدنيا حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام.

قَالَ الحوطي: قَالَ إِسْمَاعيل: فأنا أدركت قومًا من المدّادين الَّذين مدوا من اليمن، يقولون لقوم من عنس: صاحبكم الذي حرَّق صاحبنا بالنّار فلم تضره.[1]

وربما وصل به الأمر إلى معارضة الخليفة نفسه، فيحلم عليه، ويصبر ؛ لعلمه أنه يفعل ذلك حسبةً لله.

عن أبي مسلم الخولاني، أن معاوية بن أبي سفيان خطب النَّاس، وقد حبس العطاء شهرين أو ثلاثة، فقال له أبو مسلم: يا معاوية إن هذا المال ليس بمالك ولا مال أبيك ولا مال أمك، فأشار معاوية إلى النَّاس أن امكثوا، ونزل فاغتسل ثم رجع، فقال: أيها النَّاس إن أبا مسلم ذكر أن هذا المال ليس بمالي ولا بمال أبي ولا أمي وصدق أبو مسلم، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: الغضب من الشَّيطان، والشَّيطان من النار، والماء يطفىء النار، فإذا غضب أحدكم فليغتسل، أغدوا على عطاياكم على بركة الله عز وجل.[2]

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٢٩).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٣٠).

*** صلة ابن أشيم رحمه الله تعالى:**

كان من العبّاد، والمجاهدين المحتسبين، زوج العالمة العابدة، معاذة العدوية.

قالت معاذة العدوية: ما كان صلة يجيء من مسجد بيته إلى فراشه إلا حبوًا، يقوم حتى يَفْتر في الصَّلاة.(١)

وعن حماد بن زيد العبدي، أن أباه أخبره، قَالَ: خَرَجْنا في غزوةِ إلى كابل، وفي الجيش صلة بن الأشيم، قَالَ: فترك النَّاس عند العتمة ثم اضطجع، فالتمس غفلة النَّاس، حتى إذا قلت هدأت العيون، وثب فدخل غِيضة قريبًا منه، ودخلت في إثره، فتوضأ ثم قام يصلي فافتتح، قَالَ: وجاء أسدٌ حتى دنا منه، فصعدت في شجرة، قَالَ: أفتراه التفت إليه أو عذبه(٢) حتى سجد، فقلت: الآن يفترسه، فلا شيء! فجلس ثم سَلَّم، فقال: أيها السَّبع، اطلب الرزق من مكان آخر ؛ فَوَلَّى وإن له زئير، أقول: تصدع الجبال منه، فما زال كذلك يصلي حتى إذا كان عند الصبح، جلس فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها إلا ما شاء الله، ثم قَالَ: اللهم إني أسألك أن تجرني من النار، أو مثلي يجترئ أن يسألك الجنة، ثم رجع فأصبح، كأنه بات على الحشايا، وأصبحت وبي من الفترة شيء الله به عليم.(٣)

وقد ضرب أعظم المثل في الصبر، والاحتساب رحمه الله.

عن ثابت البناني قَالَ: إنَّ صِلَة بن أشيم كان في مغزى له ومعه ابن له، فقال: أي بني تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، فاجتمعت النِّساء عند امرأته معاذة العدوية، فقالت: مرحبًا إن كنتن جئتن لتهنئنني! فمرحبًا بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن.(٤)

---

(١) البيهقي "شعب الإيمان"(٣/ ١٦٠).

(٢) منعه وطرده.

(٣) البيهقي " شعب الإيمان " (٣/ ١٦٠).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٢٣٩).

*** الربيع بن خُثَيْم رحمه الله تعالى:**

المخبت الورع، المعترف بذنبه، المفتقر لربه، أحد العبّاد الزهاد.

وكان الربيع بن خُثَيْم: إذا دخل على عبد الله بن مسعود، لم يكن عليه إذن لأحد حتى يفرغ كل واحد من صاحبه، فقال له عبد الله: يا أبا يزيد لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين.(١)

وكان رحمه الله عظيم الصبر، سريع الاحتساب.

خرج الربيع بن خُثَيْم يوما فلما انتهى إلى مسجد قومه، قالوا له: يا ربيع لو قعدت فحدثتنا اليوم، قَالَ: فَقَعَد، فجاء حجر فشجه، فقال: فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف.(٢)

وكان الرَّبيع إذا قيل له: كيف أصبحت يا أبا يزيد؟ يقول: أصبحنا ضُعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا.(٣)

وكان رحمه الله عظيم التأثر، سريع الاعتبار.

قَالَ إبراهيم التيمي: حدثني من صحب ربيع بن خُثَيْم عشرين سنة، أنه ما تكلم بكلام منذ عشرين سنة، إلا بكلمة تصعد، وما سمع منه كلمة عتاب.(٤)

وكان الرَّبيع بعدما سَقَطَ شِقه ؛ يهادي بين رجلين إلى مسجد قومه، وكان أصحاب عبد الله يقولون: يا أبا يزيد، لقد رخص الله لك، لو صليت في بيتك؟! فيقول: إنه كما تقولون، ولكني سمعته ينادي حي على الفلاح، فمن سمع منكم ينادي حي على الفلاح؛ فليجبه، ولو زحفًا، ولو حبوا.(٥)

---

(١) ابن أبي شيبة "المصنف" (٧/ ٣٥٥١٠).

(٢) ابن أبي شيبة "المصنف" (٧/ ٣٥٥٣٥).

(٣) ابن أبي شيبة "المصنف" (٧/ ٣٥٥٥٥).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٩).

(٥) حلية (٢/ ١١٢).

وكانت أم الربيع بن خُثَيْم تنادي ابنها الربيع، فتقول: يا بني! يا ربيع! ألا تنام؟! فيقول: يا أمّاه من جن عليه الليل وهو يخاف البيات ؛ حق له أن لا ينام، فلمّا بلغ ورأت ما يلقى من البكاء، والسَّهر نادته، فقالت: يا بني لعلك قتلت قتيلًا؟ فقال: نعم يا والدة، قد قتلت قتيلًا، قالت: ومن هذا القتيل يا بني حتى يُتحمل على أهله فيعفون؟ والله لو يعلمون ما تلقى من البكاء، والسَّهر بعد ؛ لقد رحموك، فيقول: يا والده! هي نفسي. (١)

وقالت ابنة الربيع للربيع: يا أبت لم لا تنام والناس ينامون؟ فقال: إن البيات في النار ؛ لا يدع أباك أن ينام. (٢)

قيل للربيع ابن خُثَيْم: ألا ندعوا لك طبيبًا؟! قَالَ: أَنْظِروني فتفكر ثم قَالَ: " وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا " قَالَ: فذكر حرصهم على الدُّنيا ورغبتهم، وما كانوا فيها، وقال: قد كانت فيهم أطباء، وكان فيهم مرضى، فلا أرى المداوي بقى، ولا أرى المداوى، وأهلك النّاعت والمنعوت، لا حاجة لي فيه. (٣)

عن أبي وائل قَالَ: خرجنا مع عبد الله بن مسعود، ومعنا الرَّبيع بن خُثَيْم، فمررنا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النَّار، فنظر ربيع إليها فتمايل ليسقط، فمضى عبد الله حتى أتينا على أتون على شاطئ الفُرَات ؛ فلمّا رأى عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية ﴿إِذَا رَأَتْهُم من مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [سورة الفرقان: ١٢-١٣] قَالَ: فصعق الرَّبيع ؛ فاحتملناه فجئنا به إلى أهله، قَالَ: ثم رَابطه إلى المغرب فلم يفق، ثم إنه أفاق ؛ فرجع عبد الله إلى أهله. (٤)

---

(١)حلية (٢/ ١١٤).
(٢)حلية (٢/ ١١٤).
(٣)حلية (٢/ ١٠٦).
(٤)حلية الأولياء (٢/ ١١٠).

وعن عبد الرحمن بن عجلان قَالَ: بِتُّ عند الرَّبيع بن خُثَيْم ذات ليلة، فقام يُصَلِّي فمر بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذين اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[سورة الجاثية: ٢١].

فمكث ليلته حتى أصبح، ما جاوز هذه الآية إلى غيرها ببكاءٍ شديد.[١]

وكان الرَّبيع يقول: أكثروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثله، ولما احتضر الربيع ؛ بكت ابنته، فقال: يا بنية، لم تبكين؟ قولي: يا بشراي أتى الخير.[٢]

* عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى:

الإمام العلم، فقيه الحرم، مفترش الجنبين لا يعبأ بالالم، الذي دَلَّ عليه ابن عمر لما نزل البيت مستلم.

عن سعيد بن أبي الحسن البصري قَالَ: قَدِمَ ابن عمر مكة، فسألوه. فقال: تجمعون لي المسائل ؛ وفيكم عطاء بن أبي رباح.[٣]

قَالَ ابن جريج: كان المسجد فِراش عطاء عشرين سنة، وكان من أحسن النَّاس صَلاة.[٤]

قَالَ الأصمعي: دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك، وهو جالس على السَّرير، وحوله الأشراف، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به عبد الملك، قام إليه وسلم عليه، وأجلسه معه على السَّرير، وقعد بين يديه، وقال: يا أبا محمد ما حاجتك؟ قَالَ: يا أمير المؤمنين، اتق الله في حرم الله، وحرم رسوله، فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل

(١) حلية (٢/ ١١٢).
(٢) حلية (٢/ ١١٤).
(٣) حلية الأولياء (٣/ ٣١١).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٤).

الثغور، فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسئول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك، فقال له: أفعل، ثم نهض وقام، فقبض عليه عبد الملك، وقال: يا أبا محمد، إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟ قَالَ: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشَّرَف، هذا وأبيك السُّؤدد.(١)

وعن عَطاءٍ قَالَ: لو ائتمنت عَلَى بَيْتِ مَالٍ لكنت أمينًا، ولا آمن نَفْسِي على أَمَةٍ شَوْهاء.

قُلت -أي الذَّهبي: صدق رحمه الله ففي الحديث ؛ "أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ.(٢)

وعن ابن جريج قَالَ: لَزِمت عطاء ثماني عشرة سنة، وكان بعد ما كبر وضعف، يقوم إلى الصَّلاة فيقرأ مئتي آية من البقرة، وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك.

قَالَ عمر بن ذر: ما رأيت مثل عطاء بن أبي رباح، وما رأيت عليه قَمِيصًا قط، ولا رأيت عليه ثوبًا يساوي خمسة دراهم.(٣)

*** الأسود بن يزيد رحمه الله تعالى:**

كان مجتهدًا في العبادة، يصوم حتى يخضر جسده ويصفر، وكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذِّب هذا الجسد؟! فيقول: راحة هذا الجسد أريد، فلمّا احتضر بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قَالَ: مَالِي لا أجزع؟! ومن أحق بذلك مني؟! والله لو أتيت بالمغفرة من الله عز وجل ؛ لهمني الحياء منه مما قد صنعته، إن الرجل ليكون بينه وبين الرَّجل الذنب الصغير، فيعفو عنه ؛ فلا يزال مستحيًا منه. ولقد حجَّ الأسود ثمانين حجة.(٤)

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٧)
(٤) حلية الأولياء (٢/ ١٠٣)

*** طاوس بن كيسان رحمه الله تعالى:**

الفقيه إمام أهل اليمن النُّجباء، طاوس الزُّهاد والعلماء.

عن داود بن إبراهيم، أن الأسد حبس النَّاس ليلة في طريق الحج، فدق النَّاس بعضهم بعضًا، فلمّا كان في السّحر ذهب عنهم ؛ فنزل النَّاس يمينًا وشمالا، وألقى النَّاسُ أنفسهم فناموا، وقام طاووس يُصلِّي، فقال رجل لطاووس: ألا تنام فإنك نصبت الليلة؟ قَالَ طَاووس: وهَلْ يَنَامُ السَّحر.[1]

وكان لطاووس طريقان إلى المسجد، طريق في السُّوق، وطريق آخر، فكان يأخذ في هذا يومًا وفي هذا يومًا، فإذا مرَّ في طريق السُّوق فرأى تلك الرؤس المشوية ؛ لم ينعس تلك الليلة.[2]

وكان طاوس يجلس في بيته، فقيل له في ذلك فقال: حيف الأئمة وفساد النَّاس.[3]

قَالَ مجاهد لطاوس: يا أبا عبد الرحمن! رأيتك تصلِّي في الكعبة، والنبي عليه السلام على بابها، يقول لك: اكشف قناعك، وبين قراءتك، قَالَ: اسكت لا يسمعن هذا منك أحد، حتى تخيل اليه أنه انبسط من الحديث.[4]

أتى طاوس رجلا في السحر، فقالوا: هو نائم، قَالَ: ما كنت أرى أن أحدا ينام في السحر.[5]

قَالَ رجل لطاوس: ادع الله لنا، قَالَ: ما أجد في قلبي خشية فأدعو لك.[6]

---

(١) البيهقي" شعب الإيمان " (٣/ ١٦٦)
(٢) حلية الأولياء (٤/ ٤).
(٣) حلية الأولياء (٤/ ٤).
(٤) حلية الأولياء (٤/ ٥).
(٥) حلية الأولياء (٤/ ٦).
(٦) حلية الأولياء (٤/ ٤).

توفي طاوس بالمزدلفة أو بمنى، فلما حمل أخذ عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب بقائمة السَّرير، فما زايله حتى بلغ القبر. (١)

* محمد بن واسع رحمه الله تعالى :

الإمام العامل، والخاضع الخامل، أدمى الحزن قلبه، ما قعد ولا قام مقام سوء حتى لقي ربه.

قَالَ سُليمان التيمي: ما أحد أحب أن ألقى الله بمثل صحيفته، مثل محمد بن واسع. (٢)

وعن ابن واسع: إن الرَّجل ليبكي عشرين سنة، وامرأته معه لا تعلم. (٣)

وقال جعفر بن سليمان: كنت إذا وجدت من قلبي قسوة ؛ غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع، كان كأنه ثكلى. (٤)

قَالَ حماد بن زيد: قَالَ رجل لمحمد بن واسع: أوصني، قَالَ: أُوصِيك أن تكون ملكًا في الدنيا والآخرة، قَالَ: كيف؟ قَالَ: ازهد في الدُّنيا.

وعنه قَالَ: طُوبى لمن وجد عشاء ولم يجد غداء، ووجد غداء ولم يجد عشاء، والله عنه راضٍ. (٥)

قَالَ ابن شوذب: قَسَم أمير البصرة على قرائها، فبعث إلى مالك بن دينار ؛ فأخذ، فقال له ابن واسع: قبلت جوائزهم؟ قَالَ: سَلْ جُلَسَائي، قالوا: يا أبا بكر اشتر بها رقيقًا فأعتقهم، قَالَ: أنشدك الله أقلبك السّاعة على ما كان عليه قبل أن يجيزك؟! قَالَ: اللهم

---

(١) حلية الأولياء (٤/ ٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢٠)
(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢٢)
(٤) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٧)
(٥) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٢٤١)

لا، قَالَ: أيُّ شيء دخل عليك؟ فقال مالك لجلسائه: إنما مالك حمار، إنما يعبد الله محمد ابن واسع.(١)

قَالَ ابن عيينة: قَالَ ابن واسع: لو كان للذنوب ريح ما جلس إليَّ أحد. (٢)

قَالَ الاصمعي: لما صاف قتيبة بن مسلم للترك، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة، جامح على قوسه، يُبصبص(٣) بأصبعه نحو السَّماء، قَالَ: تلك الإصبع أحب إلي من مائة ألف سيفٍ شهير، وشابٍ طرير.(٤)

قَالَ ابن واسع وهو في الموت: يا إخوتاه تدرون أين يُذهب بي؟ والله إلى النّار، أو يعفو الله عني.(٥)

وقال: يكفي من الدُّعاء مع الورع، يسير العمل.(٦)

وعن محمد بن واسع، وقيل له: كيف أصبحت؟ قَالَ: قَرِيبًا أجلي، بعيدًا أملي، سيئًا عملي.(٧)

وقيل اشتكى رجل من ولد محمد بن واسع إليه، فقال لولده: تستطيل على النَّاس، وأمك اشتريتها بأربع مائة درهم، وأبوك فلا كثر الله في المسلمين مثله، وقيل: إنه قَالَ لِرَجُلٍ: هَلْ أَبْكَاكَ قَط سَابِق عِلْم الله فِيك؟!

وعن أبي الطيب موسى بن يسار، قَالَ: صحبت محمد بن واسع إلى مكة، فكان يصلي الليل أجمعه، يصلي في المحمل جالسا، ويومئ (٨)

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٥٤)
(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢٠)
(٣) أي يحركه.
(٤) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢١)
(٥) البيهقي "الزهد الكبير" (٥١٠)
(٦) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢١)
(٧) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٦)
(٨) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢١)

* هَرِم بن حيان رحمه الله تعالى:

كان دائم الحزن، سريع الدَّمع، عظيم الخوف من الله سبحانه وتعالى.

بات هرم بن حيان العبدى عند حممة صاحب رسول الله ﷺ، قَالَ: فبات حممة ليلته يبكي كلها حتى أصبح، فلما أصبح، قَالَ لَهُ هرم: يا حممة! ما أبكاك؟ قَالَ: ذكرت ليلة صبيحتها تبعثر القبور، فتخرج من فيها، وتناثر نجوم السَّماء ؛ فأبكاني ذلك، وكانا يصطحبان أحيانًا بالنَّهار، فيأتيان سوق الريحان، فيسألان الله تَعَالَى الجنة، ويَدْعُوان، ثم يأتيان الحدّادين، فيتعوذان من النار، ثم يفترقان إلى منازلهما.(١)

كان هرم بن حيان يخرج في بعض الليل، وينادي بأعلى صوته عجبت من الجنة، كيف ينام طالبها؟ وعجبت من النار، كيف ينام هاربها؟ ثم قرأ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٩٧](٢)

عن مالك بن دينار، قَالَ: اسْتُعْمِل هرم بن حيان، فظن أن قومه سيأتونه، فأمر بنار فأوقدت بينه وبين من يأتيه من القوم، فجاءه قومه يُسَلِّمون عليه من بعيد، فقال: مرحبًا بقومي، ادنوا، قالوا: والله ما نستطيع أن ندنو منك، لقد حالت النار بيننا وبينك، قَالَ: وأنتم تريدون أن تَلْقَوْني في نار أعظم منها ؛ في نار جهنم، قَالَ: فَرَجَعُوا.(٣)

* ثابت البناني رحمه الله تعالى:

المتعبد النّاحل، المتهجد الذّابل، قد أحب الصَّلاة حتى تمنى الصَّلاة بعد انقطاع العمل.

كان ثابت البناني يقول: اللهم إن كنت أعطيت أحدًا من خلقك أن يُصَلِّي لك في قبره فأعطنيه.(٤)

قَالَ الذَّهبي: فيقال: إن هذه الدعوة استجيبت له، وإنه رُئِي بعد موته يصلي في قبره

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١١٩)
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٨)
(٣) حلية الأولياء(٢/ ١٢٠)
(٤) البيهقي "شعب الإيمان" (٣/ ١٥٦).

- فيما قيل.[١]

وكان يقول ثابت رحمه الله: ما أكثر أحد ذكر الموت، إلا رُئي ذلك في عمله.[٢]

وقال ثابت رحمه الله: كابدت الصَّلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة.[٣]

قَالَ شعبة: كان ثابت البناني يقرأ القرآن في كُلِّ يوم وليلة، ويصوم الدَّهر.[٤]

وقال حماد بن زيد: رأيت ثابتًا يبكي حتى تختلف أضلاعه.

وقال جعفر بن سُليمان: بكى ثابت حتى كادت عينه تذهب، فنهاه الكحّال عن البكاء، فقال: فما خيرهما إذا لم يبكيا؟! وأبى أن يعالج.[٥]

وقال حماد بن سلمة: قرأ ثابت: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [سورة الكهف: ٣٧] وهو يصلي صلاة الليل ينتحب ويُرَدِّدها.[٦]

*** عبد الله بن عون رحمه الله تعالى:**

الإمام العلم، الحافظ لِلِسَانه، الضابط لأركانه، كان للقرآن تاليًا، ولأعراض المسلمين عافيا.

عن خارجة، قَالَ: صَحِبْتُ ابن عون أربعًا وعشرين سنة، ما سمعت منه كلمة أظن عليه فيها جُنَاح.[٧]

وعن سلام بن أبي مطيع، قَالَ: كَانَ ابْنُ عَوْن أَمْلَكُهُم لِلِسَانِه.[٨]

عن معاذ بن معاذ -واحد من أصحاب يونس بن عبيد -أنه قَالَ: إِنِّي لأعرف

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٢٢).
(٢) ابن أبي شيبة "المصنف" (٣٥٦٧٦).
(٣) حلية الأولياء(٢/ ٣٢١).
(٤) تذكرة الحفاظ (١/ ١٢٥).
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٢٤).
(٦) البيهقي"شعب الإيمان" (٢/ ٣٦٦).
(٧) البيهقي"شعب الإيمان" (٤/ ٢٦٧).
(٨) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٦٦).

رجلًا منذ عشرين سنة، يتمنى أن يَسْلَمَ له يوم من أيام ابن عون، فما يقدر عليه.(١)

وقال ابن المبارك: ما رأيت مُصَلِّيا مثل ابن عون.(٢)

وعن ابن عون، أن أمه نادته فأجابها، فعلا صوته صوتها ؛ فأعتق رقبتين.(٣)

قَالَ بكار السيريني: صحبت ابن عون دهرًا، فما سمعته حالفًا على يمين، برةً ولا فاجرة.

وكان ابن عون إذا صلى الغداة، يمكث مستقبل القبلة في مجلسه، يذكر الله، فإذا طلعت الشمس صلَّى، ثم أقبل على أصحابه.(٤)

قَالَ قُرَّة بن خالد: كنا نعجب من ورع محمد بن سيرين، فأنساناه ابن عون.(٥)

قَالَ بكار بن محمد: كان ابن عون يصوم يومًا، ويفطر يومًا.(٦)

قَالَ معاذ بن معاذ: ما رأيت رجلًا أعظم رجاء لأهل الإسلام من ابن عون، لقد ذُكِرَ عنده الحجّاج وأنا شاهد، فقيل: يزعمون أنك تستغفر له؟ فقال: مالي لا أستغفر للحجّاج من بين النَّاس؟ وما بيني وبينه؟ وما كنت أبالي أن استغفر له السّاعة.(٧)

قَالَ بكار بن محمد: كان ابن عون إن وصل إنسانًا بشيء ؛ وصله سرًا، وإن صنع شيئًا صنعه سرًّا، يكره أن يطَّلع عليه أحد.(٨)

*** عامر بن عبد قيس رحمه الله تعالى:**

العابد العالم، الخائف الوجل، أَضَرَّ ببدنه ليتنعم به في الآخرة.

---

(١) تهذيب الكمال (١٥/ ٣٩٩).
(٢) حلية الأولياء (٣/ ٣٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٦٦).
(٤) الطبقات الكبرى (٧/ ٢٦٣).
(٥) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٦٦).
(٦) حلية الأولياء (٣/ ٤٠).
(٧) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٦٧).
(٨) الطبقات الكبرى (٧/ ٢٦٥)

قَالَ عَامِرُ بن عبد قيس: لأجتهدن فإن نجوت فبرحمة الله، وإن دخلت النّار فلبعد جَهْدِي.

وكان يقول: ما أبكي على دنياكم رغبة فيها، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشِّتاء، وقيل له: إن الجنة تدرك بدون ما تصنع! وإن النار تتقى بدون ما تصنع! فيقول: لا حتى لا ألوم نفسي، ومرض فبكى، فقيل له: ما يبكيك وقد كنت وقد كنت.. فيقول: مالي لا أبكي! ومن أحق بالبكاء مني! والله ما أبكي حرصًا على الدنيا، ولا جزعًا من الموت، ولكن لبعد سفري، وقلة زادي، وإني أمسيت في صعودٍ وهبوطٍ، جنةٍ أو نار، فلا أدري إلى أيهما أصير.(١)

وعن الحسن أن عامرًا كان يقول: من أُقرئ؟ فيأتيه ناس فيقرئهم القرآن، ثم يقوم فيصلِّي إلى الظُّهر، ثم يُصَلِّي إلى العصر، ثم يُقرئ النَّاس إلى المغرب، ثم يصلي ما بين العشاءين، ثم ينصرف إلى منزله، فيأكل رغيفًا وينام نومةً خفيفة، ثم يقوم لصلاته، ثم يتسحر رغيفًا ويخرج.(٢)

وكان عامر بن عبد قيس لا يزال يُصَلِّي من طلوع الشمس إلى العصر، فينصرف وقد انفتحت ساقاه، فيقول: يا أمارة بالسُّوء إنما خلقت للعبادة، وهبط واديًا به عابد حبشي فانفرد يصلي في ناحية ؛ والحبشي في ناحية أربعين يومًا لا يجتمعان إلا في فريضة.(٣)

ومَرَّ عامر بن عبد قيس في الرَّحبة، وإذا برجل يُظْلَم، فألقى رداءه، وقال: لا أرى ذمة الله تخفر وأنا حي ؛ فاستنقذه، ويُرْوى أن سبب إبعاده إلى الشّام كونه أنكر وخلَّص هذا الذِّمي، ولما سُير عامر بن عبد الله ؛ شيعه إخوانه، وكان بظهر المربد، فقال: إني داعٍ

(١) حلية الأولياء (٢/ ٨٨)
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥)
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨).

فأمنوا: اللهم من وشي بي، وكَذَبَ عَلَي وأخرجني من مصري، وفرق بيني وبين إخواني، فأكثر ماله، وأَصِحَّ جسمه، وأطل عمره.(١)

قَالَ قتادة: لما احتضر عامر بكى، فقيل: ما يُبكيك، قَالَ: ما أَبْكِي جزعًا من الموت، ولا حرصًا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الليل.(٢)

*** منصور بن المعتمر رحمه الله تعالى:**

حليف الصيام والقيام، من أحسن النَّاس صلاة، و أسردهم صياما.

عن الثوري قَالَ: لو رأيت منصورًا يصلي لقلت يموت الساعة.

وكان منصور من العُبّاد صام ستين سنة وقامها، وكان جيرانه يحسبونه بالليل في الصيف خشبةً قائمة، فلما مات كانوا يقولون الخشبة ما فعلت!(٣)

قالت ابنة لجار منصور بن المعتمر لأبيها: يا أبت! أين الخشبة التي كانت في سطح منصور قائمة؟! قَالَ: يا بنية! ذاك منصور كان يقوم بالليل.(٤)

وكان منصور يصلي في سطحه فلمّا مات ، قَالَ غلامٌ لأمه: يا أمه الجذع الذي كان في سطح آل فلان ليس أراه ، قالت: يا بني ليس ذاك جذعًا ؛ ذاك منصور قد مات.

وصام منصور وقام، وكان يأكل الطَّعام ؛ ويُرى الطَّعام في مجراه.(٥)

وعن زائدة أن منصور بن المعتمر: صام ستين سنة، يقوم ليلها، ويصوم نهارها، وكان يبكي ، فتقول له أمه: يا بني قتلت قتيلا! فيقول: أنا أعلم بما صنعت بنفسي، فإذا كان الصُّبح كحل عينيه، ودهن رأسه، وفرق شفتيه، وخرج إلى النَّاس.(٦)

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٩).
(٢) تاريخ الإسلام (٢/ ٤٦٢).
(٣) ابن حبان "الثقات" (٧/ ٤٧٤).
(٤) ابن الجعد "المسند" (٨٣٠).
(٥) حلية الأولياء (٥/ ٤٠).
(٦) حلية الأولياء (٥/ ٤١).

وعن سفيان وذكر منصورًا بن المعتمر، فقال: قد كان عمش من البكاء.(١)

عن أبي بكر بن عياش قَالَ: ربما كنت مع منصور في منزله جالسًا فتصيح به أمه وكانت فظة غليظة ، فتقول: يا منصور! يريدك ابن هبيرة على القضاء فتأبى عليه! وهو واضع لحيته على صدره ؛ ما يرفع طرفه إليها، وكان يقول للأم ثلاثة أرباع البر.

وكانت أم منصور تقول له: يا بني إن لعينك عليك حقًا، ولجسمك عليك حقًا ، فكان يقول لها منصور: دعي عنك منصورًا، فإن بين النفختين نومًا طويلا.(٢)

*** سفيان الثوري رحمه الله تعالى:**

لقد ضرب سفيان المثل في العبادة، حتى ترأس على أهل زمانه - رحمه الله. فلقد كان عابدًا متنسكًا ، قائمًا بأمر الله ، لا يعيقه عائق، ولا يخشى في الله لومة لائم.

قَالَ سُفْيَان بن عيينة: ما رأيت رجلًا أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري.(٣)

وعن أبي عاصم النبيل قَالَ: سمعت سفيان يقول: كان الرَّجل إذا أراد أن يطلب العلم ؛ تعبد قبل ذلك عشرين سنة.(٤)

قَالَ مؤمل بن إسماعيل: قَدِمَ سفيان مكة فكان يُصلِّي الغداة ويجلس يذكر الله حتى ترتفع الشمس، ثم يطوف سبعة أسابع - أشواط - يُصلي بعد سبوع ركعتين يطولها، ثم يصلي إلى نصف النَّهار، ثم ينصرف إلى البيت، فيأخذ المصحف فيقرأ، فربما نام كذلك، ثم يخرج لنداء الظهر، ثم يتطوع إلى العصر، فإذا صلى العصر أتاه أصحاب الحديث فاشتغل معهم إلى المغرب، فيصلي ثم ينتقل إلى العشاء ؛ فإذا صلَّى فربما يقرأ ثم ينام.(٥)

وعن يوسف بن أسباط، قَالَ: قَالَ لي سُفيان بعد العشاء: ناولني المطهرة أتوضأ،

---

(١) تذكرة الحفاظ (١/ ١٤٢).
(٢) حلية الأولياء (٥/ ٤٢).
(٣) الذَّهبي "سير أعلام النبلاء" (٧/ ٢٣٨).
(٤) ابن أبي حاتم " مقدمة الجرح والتعديل" (٩٥).
(٥) الذَّهبي "تاريخ الإسلام" (٤/ ٥٥٧).

فناولته فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خدِّه، فبقي مفكرًا ونمت، ثم قمت وقت الفجر، فإذا المطهرة في يده كما هي، فقلت: هذا الفجر قد طلع، فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الآخرة حتى السّاعة.(١)

وقال عبدالرزاق: دعا الثوري بطعامٍ ولحم، فأكله ثم دعا بتمر وزبد فأكله، ثم قام يصلي، وقال: أحسن إلى الزِّنجي وَكُدَّه.(٢)

وقال عبد الرَّزاق أيضًا: لما قدم سفيان علينا، طبخت له قدر سَكْبَاج(٣) فأكل، ثم أتيته بزبيب الطائف فأكل، ثم قَالَ: يا عبد الرَّزاق أَعْلِف الحمار وَكُدَّه، ثم قام يصلي.(٤)

وكان قد تغدَّى، وأتى برطب فأكل، ثم قام إلى الصَّلاة فصلَّى ما بين الظهر والعصر، ثم قَالَ: يقال: إذا زِدت في قَضِيم الحمار(٥)، فزِد في عَمَلِه.(٦)

وعن أبي خالد الأحمر قَالَ: أكل سفيان ليلةً فشبع فقال: إن الحمار إذا زيد في عَلَفِه زيد في عمله، فقام حتى أصبح.(٧)

* عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى:

الإمام السَّخي الجواد، أليف القرآن والحج والجهاد.

قَالَ إسماعيل بن عياش: ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك، ولا أعلم أن الله خلق خَصْلَةً من خصال الخير إلا وقد جعلها في عبد الله بن المبارك، ولقد حدثني أصحابي أنهم صحبوه من مصر إلى مكة فكان يُطعمهم الخبيص، وهو الدهر صائم.(٨)

---

(١) ابن أبي حاتم " مقدمة الجرح والتعديل" (٩٠).
(٢) الذَّهبي "سير أعلام النبلاء"(٧/ ٢٤٣).
(٣) لحم يطبخ بخل.
(٤) الخطيب "تارخ بغداد" (٩/ ١٥٨).
(٥) أي علف الحمار.
(٦) ابن أبي حاتم " مقدمة الجرح والتعديل" (٨٥).
(٧) ابن أبي حاتم " مقدمة الجرح والتعديل" (٨٦).
(٨) تاريخ بغداد (١٠/ ١٥٧).

وكان عابدًا زاهدًا ورعًا، يُخْفِي ذلك ما استطاع.

قَالَ محمد بن الوزير -وصي ابن المبارك -: كنت مع عبد الله في المحمل فانتهينا إلى موضعٍ بالليل وكان ثم خوف ، قَالَ: فنزل ابن المبارك، وركب دابته حتى جاوزنا الموضع فانتهينا إلى نهر، فنزل عن دابته وأخذت أنا مقودته واضطجعت، فجعل يتوضأ ويصلي، حتى طلع الفجر ؛ وأنا أنظر إليه، فلما طلع الفجر ناداني ، قَالَ: قُمْ فتوضأ ، قَالَ: قلت: أنا على وضوء، فركبه الحزن حيث علمت أنا بقيامه، فلم يُكلمني حتى انتصف النهار، وبلغت المنزل معه.(١)

وقال الحسن بن عرفة: قَالَ لِي ابن المبارك: استعرت قلمًا بأرض الشّام فذهبت على أن أرده إلى صاحبه، فلمّا قدمت مرو نظرت فإذا هو معي، فرجعت إلى الشّام حتى رددته على صاحبه.(٢)

لقد ملك ابن المبارك القلوب بدينه وسخائه حتى فاقت شهرته الرَّشيد.

قدم أمير المؤمنين الرَّشيد الرقة، فانجفل النَّاس خلف ابن المبارك، وتقطعت النِّعال، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولدٍ لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب ، فقالت: من هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قَدِم ، قالت: هذا والله الملك ؛ لا ملك هارون الذي لا يجمع النَّاس إلا بشرطٍ وأعوان.(٣)

*** حسان بن أبي سنان رحمه الله تعالى:**

حافظ الطرف واللسان، ثابت القلب و الجنان، من رآه خاله أبدًا مريضًا، خفي العبادة دائم الطّاعة.

---

(١) البيهقي "شعب الإيمان" (٣/ ١٦٧).
(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ١٦٧).
(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٨٣).

قالت امرأة حسّان بن أبي سنان: كان يجيئني فيدخل معي في فراشي ثم يخادعني كما تخادع المرأة صبيها، فإذا عَلِم أني قد نمت سَلَّ نفسه فخرج، ثم يقوم فيصلي ، قالت: فقلت له: يا أبا عبد الله! كم تُعذب نفسك! ارفق بنفسك ، قَالَ: اسكتي ويحك، يُوشِكُ أن أرقد رقدة لا أقوم منها زمانًا.(١)

وخرج حسّان يوم العيد، فلمّا رجع قالت له امرأته: كم من امرأة حسنة نظرت إليها اليوم ورأيتها، فلمّا أكثرت، قَالَ: ويحك! ما نظرت إلا في إبهامي منذ خرجت من عندك حتى رجعت إليك.(٢)

قيل له في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك؟! قَالَ: بخيرٍ إن نجوت من النار ، فقيل: له فما تشتهي؟ قَالَ: ليلة بعيدة ما بين الطرفين ؛ أُحيى ما بين طرفيها.(٣)

* الحسن بن صالح بن حي رحمه الله تعالى:

الفقيه العابد، والعالم الزاهد، محيي الليل بالقرآن طارت بسيرته الرُّكبان.

فعن أبي سليمان الدّاراني قَالَ: ما رأيت أحدًا الخوف والخشوع أظهر على وجهه من الحسن بن حي، قام ليلة حتى أصبح ب ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [سورة النبأ: ١] يُردد آية فغشي عليه ؛ ثم عاد إليها فغشي عليه، فلم يختمها حتى طلع الفجر.(٤)

وكان لهم - يعني لآل الحسن بن صالح بن حي -خادم يخدمهم، فاحتاجوا إلى بيعها فباعوها، فلما كان في أول الليل ذهبت وألحت على مولاها تقيمه، وتقول: ذهب الليل! مرة بعد مرة، حتى أضجرته فصاح بها، قالت: فلمّا أصبحت ذهبت إلى عند الحسن، فقالت: يا سبحان الله! ما كان يجب عليكم فيما خدمتكم أن تبيعوني من مسلم! فقال الحسن: سبحان الله! وما له؟ قَالَت: انتظرت ليقوم ليتهجد فلم يفعل، فألححت

(١) البيهقي "شعب الإيمان" (٣/ ١٥٨).
(٢) حلية الأولياء (٣/ ١١٥).
(٣) حلية الأولياء (٣/ ١١٧).
(٤) ابن الجعد (١/ ٣٠٥).

عليه فزبرني وشتمني، قَالَ: فَصَاحَ يا علي! وقال: ما تعجب من هذه! اذهب فتسلف ثمنها من بعض إخواننا وأعتقها.(١)

قَالَ وكيع بن الجراح: كان علي والحسن ابنا صالح بن حي وأمهم قد جزَّؤوا الليل ثلاثة أجزاء، فكان عليٌّ يقوم الثلث، ثم ينام، ويقوم الحسن الثلث، ثم ينام، وتقوم أمهما الثلث، فماتت أمهما، فجزءا الليل بينهما، فكانا يقومان به حتى الصّباح، ثم مات علي، فقام الحسن به كله.(٢)

* أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى:

كان مداومًا على العبادة، ملازمًا للطاعة، شغله هم الآخرة عن كُلِّ هم.

عن أبي سليمان الدَّراني قَالَ: إنما هانوا عليه فعصوه، ولو كرموا عليه لمنعهم منها.

وقال: إذا وصلوا إليه لم يرجعوا عنه أبدًا، إنما رجع من رجع من الطَّريق.(٣)

وعن أبي سليمان الدَّراني يقول: بينا أنا ساجد إذ ذهب بي النَّوم، فإذا أنا بها يعني الحوراء قد ركضتني برجلها ، فقالت: حبيبي ترقد عيناك والملك يقظان ينظر إلى المتهجدين وتهجدهم، بؤسى لعينٍ آثرت لذَّة نومة على لذة مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغ، ولقي المحبون بعضهم ببعض فما هذا الرُّقاد، حبيبي وقرة عيني أترقد عيناك وأنا أُرَبّى لك في الخدور منذ كذا وكذا، فوثبت فزعًا، وقد عرقت استحياءً من توبيخها إياي، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي.(٤)

* عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى:

الحافظ العلم ملازم العلم والعمل، عظيم الغارة دقيق العبارة، الغيور على السُّنة،

---

(١) البيهقي "شعب الإيمان" (٣/ ١٦٦).
(٢) صفة الصفوة (٣/ ١٥٣).
(٣) حلية الأولياء (٩/ ٢٦١).
(٤) البيهقي "شعب الإيمان" (٣/ ١٥٩).

المحافظ على الملة.

قَالَ أبو داود السِّجستاني: التقى وكيع وعبد الرحمن في الحرم بعد العشاء ؛ فتواقفا حتى سمعا أذان الصُّبح.(١)

وقال عبد الرحمن بن مهدي: كنت أجلس يوم الجمعة، فإذا كثر النَّاس فرحت، وإذا قلُّوا حزنت ، فسألت: بشر بن منصور ، فقال: هذا مجلس سوء فلا تعد إليه فما عدت إليه.(٢)

قَالَ يحيى بن عبد الرحمن بن مهدي: إن أباه قام ليلة وكان يحيى الليل كله، قَالَ: فلما طلع الفجر رمى بنفسه على الفراش حتى طلعت الشمس، ولم يصل الصُّبح فجعل على نفسه أن لا يجعل بينه وبين الأرض شيئًا شهرين فقرح فخذاه جميعًا.(٣)

قَالَ عبد الرحمن رُسْته: سألت ابن مهدي عن الرَّجل يبني بأهله أيترك الجماعة أيامًا؟ قَالَ: لا ولا صلاةً واحدةً، وحضرته صبيحة بُني على ابنته، فخرج فأذن ثم مشى إلى بابهما ، فقال: للجارية قولي لهما يخرجان إلى الصَّلاة، فخرج النِّساء والجواري ، فقلن: سبحان الله! أي شيءٍ هذا؟ فقال: لا أبرح حتى يخرجا إلى الصَّلاة، فخرجا بعدما صلى فبعث بهما إلى مسجد خارج من الدَّرب.

قلت -الذَّهبي -: هكذا كان السَّلف في الحرص على الخير.(٤)

قَالَ عَبْدُ الله أخو رسته: سمعت ابن مهدي يقول: مُحَرَّم على الرجل أن يفتي إلا في شيء سمعه من ثقة. وكان ابن مهدي يكره الجلوس إلى ذي هوى أو ذي رأي.(٥)

وهذا عبد الرحمن بن مهدي رؤي في مصلاه سوادًا في القبلة، فَسُئلت زوجته

---

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٩٥).
(٢) البيهقي"شعب الإيمان"(٢/ ٣١٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٩٥).
(٤) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٠٤).
(٥) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٠٦).

فقالت: هذا موضع استراحة عبد الرحمن ؛ كان يصلِّي بالليل، فإذا غلبه النوم وضع جبهته على هذا الموضع.[١]

*** يحيى بن سعيد القطان رحمه الله تعالى:**

قرين ابن مهدي، كان للسنن قائمًا، ولأهل الزَّيغ متباغضا.

قَالَ بندار: اختلفت إلى يحيى بن سعيد أكثر من عشرين سنة، ما أظنه عصى الله قط، لم يكن في الدنيا في شيء.[٢]

قَالَ أحمد بن محمد بن يحيى القطان: لم يكن جَدِّي يمزح، و لا يضحك إلا تبسمًا، ولا دخل حمامًا، وكان يخضب.[٣]

وقال علي بن المديني: كنا عند يحيى بن سعيد، فقرأ رجل سورة الدخان، فصعق يحيى وغشي عليه، قَالَ أَحْمَدُ بن حَنْبل: لو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى - يعني الصعق.[٤]

وكان يحيى بن سعيد إذا قُرِىء عنده القرآن سقط ؛ حتى يصيب وجهه الأرض، وقال: ما دخلت كنيفًا قط إلا ومعي امرأة - يعني من ضعف قلبه.[٥]

قَالَ يحيى بن معين: جعل جار له يشتمه ويقع فيه، ويقول: هذا الخوزي، ونحن في المسجد، فجعل يبكي ويقول: صَدَقَ، ومن أنا! وما أنا![٦]

قَالَ عبد الرحمن بن مهدي: اختلفوا يومًا عند شعبة، فقالوا له: اجعل بيننا وبينك حكمًا، قَالَ: قَدْ رضيت بالأحول -يعني القطان -فجاء فقضى على شعبة، فقال شعبة:

(١) البيهقي "شعب الإيمان" (٣/ ١٦٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٧٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٧٩).
(٤) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٨٠).
(٥) تذكرة الحفاظ (١/ ٢٩٩).
(٦) تاريخ يحي بن معين (٤/ ٢٤٥ الدوري).

ومن يطيق نقدك يا أحول! قَالَ ابن سعد: كان يحيى ثقة مأمونًا، رفيعًا حجة.(١)

وعن علي بن عبد الله قَالَ: كُنّا عند يحيى بن سعيد، فلما خرج من المسجد خرجنا معه، فلما صار بباب داره وقف ووقفنا معه، فانتهى إليه الرُّوبي، فقال يحيى لما رآه: ادخلوا فدخلنا ، فقال للرُّوبي: اقرأ، فلما أخذ في القراءة ؛ نظرت إلى يحيى يتغير حتى بلغ ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة الدخان: ٤٠] صعق يحيى وغشي عليه، وارتفع صوته، وكان باب قريب منه فانقلب، فأصاب البابُ فَقَارَ ظهره، وسال الدَّم، فصرخ النِّساء، وخرجنا فوقفنا بالباب حتى أفاق بعد كذا وكذا، ثم دخلنا عليه فإذا هو نائم على فراشه ، وهو يقول: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فما زالت فيه تلك القرحة حتى مات رحمه الله.(٢)

* عطاء الخراساني رحمه الله تعالى:

أحد الغزاة القائمين على الثغور، يرقب العدو، وهو قائم يصلي يطلب من ربه الدنو.

عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قَالَ: كُنّا نغازي عطاء الخراساني، وكان يحيى الليل صلاة، فإذا مضى من الليل نصفه أو ثلثه، أقبل علينا ونحن في فساطيطنا، فينادي: يا يزيد! يا عبد الرحمن بن يزيد! ويا هشام بن الغاز! قوموا فتوضؤوا وصلوا صلاة هذا الليل، وصيام هذا النهار ؛ أهون من مقطعات الحديد، ومن شرب الصديد، الوحا الوحا، النجا النجا، ثم يقبل على صلاته.(٣)

* شيخ في الرباط رحمه الله تعالى:

وربما تجد العجب حينما ترى حال السَّلف وهم في الرّباط على ثغور المسلمين يحرسون بيضة الإسلام، وتراهم يبيتون لربهم سجدًا وقياما.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٨٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٨٠).
(٣) البيهقي "شعب الإيمان" (٣/ ١٦٢).

فعن أبي عبد الله المقري يقول: كان معنا شيخ في الرباط، يوقظ الأصحاب إذا مضى ثلث الليل، ويرغبهم في القيام للتهجد، فإذا رأى منهم ناشطًا حمد الله عز وجل وتلى آيات من القرآن، كقوله عز وجل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٩] ثم يرفع صوته،

ويقول:

سَلِ اللَّيلَ أَهْلَ اللَّيلِ بِالسَّحَرِ   وَالنَّاعِمِينَ بلا لَهْوٍ وَلَا سَمَر
وَالقَابِضِينَ عَلَى الأَكْبَادِ أَيْدِيَهُم   شَدُّوا الرَّحِيلَ وَهَيَّأُوا لَهُ السَّفَر

فإن رأى منهم تثاقلا أو تكاسلا يقول:

من نام الليل الكثير لقي الله يوم القيامة فقيرا ثم يرفع صوته ويقول:

تَنَبَّه من مَنَامِكَ يَا جَهُولُ   فَنَوْمُكَ تَحْتَ رمْثكَ قَدْ يَطُولُ
تَأَهبْ لِلْمَنِيَّةِ حِينَ تَغْدُو   عَسَى تُمْسِي وَقَدْ نَزَلَ الرَّسُولُ.

* زوجة أبي عمران الجوني رحمه الله تعالى:

عن عون بن أبي عمران الجوني يقول: كانت أُمِّي تقوم الليل فتصلي حتى تعصب رجليها وساقيها بالخرق، فيقول لها أبو عمران: دون هذا يا هذه! فتقول: له هذا عند طول القيام في الموقف قليل، فيسكت عنها.

* محمد بن أسلم الطوسي رحمه الله تعالى:

الذي قيل عنه هو الجماعة وهو السَّواد الأعظم.

قَالَ فِيه محمد بن رافع: دخلت على محمد بن أسلم فما شبهته إلا بأصحاب رسول الله ﷺ.

كان ابن خزيمة يقول: حدثنا من لم تر عيناي مثله، أبو عبد الله محمد بن أسلم.[٢]

---

(١) البيهقي "شعب الإيمان" (٣/ ١٦٤)
(٢) سير أعلام النبلاء (٩/ ١٩٠٦).

وقال محمد بن القاسم: دخلت على ابن أسلم قبل موته بأربعة أيام بنيسابور، فقال: يا أبا عبد الله! تعال أبشرك بما صنع الله بأخيك من الخير، قد نزل بي الموت، وقد مَنَّ الله علي أنه مالي درهم يحاسبني الله عليه، ثم قَالَ: أغلق الباب، ولا تأذن لأحد، حتى أموت، وتدفنوا كتبي، واعلم أني أخرج من الدنيا وليس أدع ميراثًا غير كِسَائي ولبدي وإنائي الذي أتوضا فيه وكتبي هذه، فلا تكلفوا النَّاس مؤنة - وكان معه صرة فيها نحو ثلاثين درهما، فقال: هذا لابني أهداه قريب لي، ولا أعلم شيئًا أحل منه، لأن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: أنت ومالك لأبيك، وقال: أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه، فكفنوني منها، فإن أصبتم لي بعشرة ما يستر عورتي ؛ فلا تشتروا بخمسة عشر، وابسطوا على جنازتي لبدي، وغطوا عليها كسائي، وأعطوا إنائي مسكينًا، يا أبا عبد الله! إن هؤلاء قد كتبوا رأي فلان، وكتبت أنا الأثر، فأنا عندهم على غير الطريق!! وهم عندي على غير الطريق! أَصْلُ الفَرَائضِ في حرفين: ما قَالَ الله ورسُوله افعل، فهو فريضة ينبغي أن يفعل، وما قَالَ الله ورسولُهُ لا تفعل فينبغي أن ينتهي عنه ؛ وتركه فريضة، وهذا في القرآن وفي فريضة النَّبِيّ ﷺ وهم يقرءونه! ولكن لا يتفكرون فيه قد غلب عليهم حب الدنيا.(١)

قلت: رحم الله محمد بن أسلم يشكو غربته مع الحديث والأثر، وقد خالفه أهل زمانه يكتبون رأي فلان، وقد يكون فلان عنده من العلم ما عنده، فكيف لو رأى غربة أهل الحديث والأثر في زماننا!! بين جُهّال متعالمين، وأقزام ضالين، ويَدَّعون أنهم على الحق المبين -فإلى الله المشتكى.

وقال محمد بن القاسم: صحبت محمد بن أسلم أكثر من عِشرين سنة، لم أره يصلي حيث أراه ركعتين من التطوع ؛ إلا يوم الجمعة، وسمعته كذا وكذا مرة يحلف لو قدرت أن أتطوع حيث لا يراني ملكاي لفعلت ؛ خوفًا من الرياء، وكان يدخل بيتًا له ويغلق

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ٢٤١).

بابه، ولم أدر ما يصنع حتى سمعت ابنًا له صغيرا يحكي بكاءَهُ فنهته أمّه ، فقلت: لها ما هذا؟ قالت: إن أبا الحسن يدخل هذا البيت فيقرأ ويبكي ؛ فيسمعه الصبي فيحكيه! وكان إذا أراد أن يخرج غسل وجهه واكتحل، فلا يُرى عليه أثر البكاء، وكان يَصِلُ قومًا ويكسوهم، ويقول للرسول: انظر أن لا يعلموا من بعثه، و لا أعلم منذ صحبته وصل أحدًا بأقل من مائة درهم ؛ إلا أن لا يمكنه ذلك، وكان يقول لي: اشتر لي شعيرًا أسود، فإنه يصير إلى الكنيف، ولا تشتر لي إلا ما يكفيني يومًا بيوم، واشتريت له مرة شعيرًا أبيض، ونقيته وطحنته، فرآه فتغير لونه ، وقال: إن كنت تَنَوَّقْتَ فيه فأطعمه نفسك، لعلَّ لك عند الله أعمالًا تحتمل أن تطعم نفسك النَّقي، وأما أنا فقد سرت في الأرض ودرت فيها، فبالله ما رأيت نفسًا تُصَلِّي أشر عندي من نفسي، فبما أحتج عند الله إن أطعمتها النَّقي، خذ هذا الطعام واشتر لي كل يوم بقطعة شعيرًا رديئًا، واشتر لي رحى فجئني به حتى أطحن بيدي وآكله، لعلي أبلغ ما كان فيه علي وفاطمة ـ رَضِيَ الله عَنْهُمَا[١].

*****

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٠٠)

خـاتمة

أخي الحبيب: أعد وكَرِّر النَّظرة، فما قطفت لك من كُلِّ بستان إلا زهرة ؛ حتى تشتاق وتذرف من الدمع عَبرة ؛ وإلا ففي كُلِّ لحظة من حياتهم عِبرة.

فهم أقوام نحلت منهم الأبدان، وتغيرت منهم محاسن الألوان، وخوف العذاب والنيران، وشوقًا إلى نعيم الجنان، صحبوا القرآن بحسن العمل، ولم يفتروا بطول الأمل، ونصبوا لأعينهم تقريب الأجل، فلو رأيتهم!! لرأيت قومًا يتلون كتاب الله بشفاهٍ ذابلة، و دموع وابلة، وأجسامٍ ناحلة.

فلله درّ أقوام أطار ذِكْر النّار عنهم النَّوم، وطال اشتياقهم إلى الجنان بالصلاة والصَّوم، فنحلت أجسادهم وتغيرت ألوانهم، ولم يُقْبِلوا على سماع العذل في حالهم واللوم، دافعوا أنفسهم عن شهوات الدُّنيا بغدٍ واليوم، دخلوا أسواق الدنيا فما تعرضوا لشراءٍ ولاسوم، تركوا الخوض في بحارها والعوم، ما وقفوا بالإشمام والرَّوم، جدَّوا في الطّاعة بالصلاة والصوم، هل عندكم من صفاتهم شيء يا قوم؟!!

فطوبى لمن بادر عُمره القصير فعمَّر به دار المصير وتهيأ لحساب النّاقد البصير قبل فوات القدرة وإعراض النّصير.

واعلم أن الراحة لا تنال بالراحة، ومعالي الأُمور لا تنال بالفتور، ومن زرع حصد ومن جد وجد.

أخي الحبيب: هيا بنا نبكي على انقطاعِ الوَصْلِ ؛ بعد أن خلت الدِّيار من النَّسل، وننادي على منازل الأحباب: أين ساكنوك يا بقاع الإخلاص؟ أين قاطنوك يا مواطن الأَبرار؟ أَين عامروك يا مواضع التَّهجد ؟ أين زائروك!؟ خلت والله الديار؟!! وباد

القوم، وارتحل أرباب السَّهر وبقي أهل النوم!! واستُبْدِل بزَمان العبادة أكلِ الشَّهواتِ يا أهل الصَّوم!! كَفَى حَزَنًا بِالوَالِهِ الصَّبِّ أن يَرى منازِلَ مَن يَهوى مُعَطَّلةً قفرًا!! لله درّ أقوامٍ اجتهدوا في الطّاعة وتاجروا ربهم فربحت البضاعة، وبقي الثناء عليهم إلى قيام السّاعة، لو رأيتهم في الظّلام وقد لاح نورهم، وفي مناجاة الملك العلّام وقد تم سُرورهم، فإذا تذكَّروا ذنبًا قد مضى ضاقت صُدُورهم، وتقطَّعت قلوبهم أسفًا على ما حملت ظهورهم، وبعثوا رسالةَ الندم والدمع مع سطورهم •

أخي الحبيب: جِدَّ واجتهد في العبادة حتى تنال حظًا من الرِّفادة، تفكر في الحشر والمعاد، وتذكر حين تقوم الأشهاد : إن في القيامة لحسرات، وإن في الحشر لزفرات، وإن عند الصِّراط لعثرات، وإن عند الميزان لعبرات، وإن الظُّلم يومئذ ظلمات، والكتب تحوي حتى النَّظرات، وإن الحسرة العظمى عند السِّيئات، فريق في الجنة يرتقون في الدَّرجات، وفريق في السَّعير يهبطون الدَّركات، وما بينك وبين هذا إلاَّ أن يقال: فلان مات، وتقول: رَبِّ ارْجِعُون، فيقال : فَات. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: يَعْرَقُ النَّاس يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ.(١)

عَنْ أَبِي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ -مَرْفُوعًا «فِي وَصْفِ يَوْمِ القِيامَةِ» -ثُمَّ يُؤْتَى بِالجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله! وَمَا الجَسْرُ؟ قَالَ: «مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ ؛ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، المؤمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا».(٢)

يا من معاصيه أكثر من أن تُحْصَى! يا من رضي أن يطرد ويقصى! يا دائم الزَّلل وكم

(١) رواه البخاري (٦٥٣٢) ومسلم (٢٨٦٣).
(٢) رواه البخاري (٧٤٣٩) .

ينهى ويوصى! يا جهولًا بقدر ربه فهو الإله الذي لا يُعْصَى، إن كان قد أصابك الدَّاء ؛ فابحث عن الدَّواء.

أخي الحبيب: لقد ملأ الواعظ في الصَّباح المسامع، تالله لقد طال المدى فأَين المدامع؟! أَين الَّذِين بلغوا المنى فما لهم في المنى منازع؟! رمتهم المنايا بسهامها في القوى والقواطع ؛ فعلموا أن أيام النِّعم في زمان الخوادع، ما زال الموت يدور على الدَّوام حتى طوي الطَّوالع، صار الجندل فراشهم بعد أن كان الحرير فيها مضى المضاجع، ولقوا والله غايةَ البلاء في تلك البلاقع، جمعوا فما أكلوا الذي جمعوا، وبنوا مساكنهم فما سكنوا فكأَنهم بها ظعنًا، لمّا استراحوا ساعةً ظعنوا.

تم بحمد الله...!!!

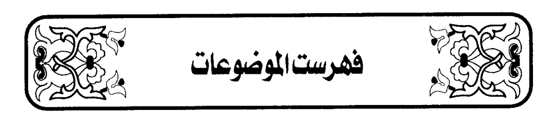
كتبه الفقير إلى عفو ربه وإحسانه

صلاح الدين علي عبد الموجود

مطوبس -كفر الشيخ

في/ ٢٦ ربيع الأول ١٤٢٥هـ

Salahmera @ salahmera.com



فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة